

محمّد المجذوب

مَشْكَلَةُ الْجَنَّةِ
فِي ضَوْءِ الْإِسْلَامِ



دار الاعتصام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محمّد المجذوب

مُشْكَلُ الْجُبَيْلِ
فِي ضَوْءِ الْإِسْلَامِ

الطبعة الثانية

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

دار الاعتصام

الإهداء

إلى الرجل الذى أحب الحق بكل قوته ، فوقف نفسه على نشره
وزعمته ، فكان بذلك بقية السلف وقدوة الخلف ، يتعلم منه جلساؤه ومقتفوه
فضله ، العلم الصحيح ، والعمل الخالص ، والخلق الكريم ، وإيثار رضوان
الله على كل ما عداه ، الذى عشقت فضائله حتى قلت له :

روى عنك أهل الفضل كل فضيلة	فقلنا حديث الحب ضرب من الوهم
ولما تلاقينا وجدناك فوق ما	سمعناه فى الأخلاق والفضل والعلم
ولا غرو أن تهفو إليك قلوبنا	فتأسرها بالمكرمات وبالجلم
فلم نر بازا قط من قبل شيخنا	يصيد فلا يؤذى المصيد ولا يدمى

إلى أستاذنا الأجل العلامة :

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الذى كان لصحبته فى عقل ونفسى خلال عشر من السنين أثرها العميق
المبين ..

أقدم هذا الكتاب . . . هدية متواضعة .

مقدمة الطبعة الثانية

شملت كوارث لبنان حتى مجال الكلمة . . فقد أتى حين من الدهر كان الملاذ الذي تأوى إليه الأقلام الهاربة من الإرهاب . . فلما انطلقت شياطين الحجرة التاريخية تقلص ذلك المجال ، ثم توارى وراء ضباب القذائف . . وكان حظ هذا الكتاب غير قليل من شرها إذ شحن منه ، ومن أخوات له سبعة عشر صندوقاً إلى الرياض فنعت الأحداث وصولها ، ثم حالت الفوضى دون التعرف إلى مصيرها منذ عامين حتى اليوم وكان الأمل كبيراً في أن تتعدد طبعاته مرة بعد أخرى ، وبخاصة بعد الذي لقيه من الإقبال ، وبعد أن أصدر سماحة العلامة الجليل الشيخ عبد العزيز ابن باز تذكيره للجهات المهتمة بالشئون الإسلامية بضرورة العناية به وبأخوات له ثلاث، هن : «دروس من الوحي» و «أفكار إسلامية» و « نظرات تحليلية في القصة القرآنية » عناية تشمل الإسهام في توزيعها وترجمتها إلى مختلف اللغات الحية تحقيقاً لتوصيات اللجنة التي كلفت دراسة هذه الكتب أيامئذ .

ولا حاجة إلى التذكير بأن هذا الأمل كان أحد ضحايا الحرب الأهلية في لبنان ، إذ حيل بيننا وبين المطبوع ، فضلاً عن فقدان المشحونات التي أشرنا إليها .

والآن يهاجر هذا الكتاب ، مع غيره من لبنان إلى القاهرة ،
ليبدأ منطلقاً جديداً برعاية أسرة دار الاعتصام ، وهي تجربة كنا
نتطلع إليها من قبل وصدنا عنها ما كانت تعانیه الكلمة المؤمنة
هناك من محن ، زالت مع خط بارليف إلى غير رجعة إن شاء الله .
وبهذا يتجدد الأمل في مستقبل لهذا الكتاب أفضل
برعاية الله .

محمد المحذوب

١ - في أكثر من مؤلف نشر لي مؤخراً أعلن عن هذا الكتاب باسم (أشعة في الظلام) وقبل تسليمه للطبع نشرت منه طائفة من الأبحاث في بعض المجالات الإسلامية تحت عنوان عام هو : (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام) وعلى هذا استقر الرأي أخيراً ، وقد رأيت ذكر ذلك ليكون النارئ على علم بأن العنوانين لكتاب واحد . وإنما آثرت له الثاني لأنني وجدته ألصق بمضمونه ، إذ هو يعالج عدداً من كبريات المشكلات التي تعترض الجيل الإسلامي بعامة والعربي بخاصة ، فإذا نجحت هذه المعالجة في تقديم بعض الحلول الصالحة لتلك المشكلات ، كانت في الوقت نفسه أشعة يرجى أن تسهم في تبديد بعض الظلمات . .

٢ - ثم إن هذه الفصول كانت تؤلف - في أصل فكرتها - جزءاً من كتاب جامع ، جرى في إنشائه على أساس أن ينشر مجموعة موحدة ، ولكن شاء الله غير ما قدرت له ، فإذا الفصول تسع وتتعدد حتى ليستحيل ضمها في مجلد مفرد ، فعمدت إلى تصنيفها كل فصل وما يناسبه ، وبذلك صار الكتاب كتاباً ، وما هو ذا أحدها يحمل إلى القارئ زبدة تفكير عشر سنوات ، وخبرات عشرات السنين . . ولست بهذا أدعى له ما لا يستحق ، ولكني واثق من أن القارئ المتبصر واجد فيه ما يعينه - إن شاء الله - على كثير من الخير الذي يفتقده هذا الجيل دون أن يعرف السبيل إليه .

٣ - على أن مشكلات الجيل من الكثرة والتجدد بحيث يتعذر إحصاؤها وملاحقتها . . وهي إلى ذلك تتطلب من الاختصاصات ما يتجاوز جهد القلم الواحد كائناً ما كان . . وفي الإمكان القول بأنها - المشكلات - جميعاً

تنصب من مصدر واحد هو هذه المفاهيم الغريبة التي تريد فرض نفسها على حياة الناس في كل مكان ، وعلى كل مكان ، وعلى كل جانب من تفكيرهم وتصوراتهم ، وقد ساعدها على ذلك إقبال هؤلاء على مواطنيها ومواطنيها للاستفادة من تجاربهم العملية في تصنيع المسادة وتنمية الموارد ، ولكنها تأتي أن تعطيهم ما يعوزهم من تلك التجارب إلا بأن يتخلوا عن مقوماتهم الذاتية في الأخلاق والسلوك والاعتقاد ، ثم تردهم إلى شعوبهم مجردين من كل آثار الحصانة في كل ما هو ضروري لسلامة الفطرة ، مزودين بكل ما يجعلهم صالحين لتدمير الطمأنينة الروحية ، والانسجام مع قيم أمنهم وتصورها السليم لحقيقة الإنسان والحياة .

٤ - ولعل أخطر حصائد هذه المعركة أنها أفسدت على المسلمين نظام حياتهم دون أن تعرضهم شيئاً سوى الشكوك والريب والغرور والادعاء الفارغ ، وإعداد جيل من « المثقفين » لم يتعلم من كهنة تلك الحضارة إلا الوسائل التي تهدم الثقة بمقوماتنا الأساسية ، وتشجع الهجوم على معتقداتنا المقدسة التي بها كنا خير أمة أخرجت للناس ، حتى لتجروا على الزعم بأننا لم نخسر معاركنا مع الصليبية واليهودية العالمية إلا بسبب ارتباطنا بموحيات هذا « الفكر الديني » . . فهم لذلك يحاربونه بكل ما أعطوا من سلاح ، ولقنوا من نباح ! . .

٥ - ومن هنا كان غرض الكتاب الرئيسي هو الإسهام ببعض الجهد في إيضاح هذه المؤامرة المبيتة على الضمير الإسلامي لتجريده من كل طاقاته التي تمكنه من الصمود في تلك المعركة . .

وقد تخيرت من أبعاد الواقع هذه الجوانب الخمسة « دفاع عن الإيمان - حرية الإنسان - رسالة المسجد - مناهجنا بين التقليد والإبداع - إلى كلمة سواء » . . وفي اعتقادي أنها تعالج أسس الحياة الإسلامية بل الإنسانية كلها ، فعلى صلاحها يتوقف صلاح الحياة ، وبفسادها تفسد الحياة .

ولا غرو فالإيمان الصحيح هو مركز الانطلاق الذي منه يتعين مصير الفرد والمجتمع ، وبتقرير حرية الإنسان تقرر مكانته وتحدد مسؤوليته نحو خالقه ومجتمعه ، وبمقدار قربه أو بعده من خالقه يتبين اتجاهه ، ويتضح نوع صلاته بالحياة والأحياء ، وعلى مدى استقامته في تصور الكون والحياة ينتظم كيانه الفكري . ثم إن في دراسة أسس الوحي ومقارنتها وتعرف واقعها في تجرد واع تصحيحاً لأوضاع من شأنه أن يكشف جوانب الحق ، ويحرر الفكر من أغلال التقليد الضرب ، فتفسح السبيل للتلاقى على الأخوة الإنسانية الصحيحة . . . وأخيراً وبانتظام هذه الأسس يتحقق للإنسان المسلم والعربي انسجامه مع نفسه ثم مع مجتمعه ، ثم مع الحقائق الكونية التي تحيط به . . . وبذلك كله تتضح سبيله إلى النصر ، ومن ثم إلى استعادة مكانته في قيادة الحياة ، وفي هداية القطعان الضالة .

٦- ولا عجب في ذلك ولا شذوذ فلقد (وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولجعلن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . . . ٢٤- ٥٥) ، (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . . . ٦٥- ٢) ، (والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ١٢- ٢١) .

وأخيراً هذا هو (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام) فإن تحقق به الخلق الذي نرجو من توفيق الله ، ووجهه هو المبتغى ، ورضوانه هو المنشود ، وهو المسئول أن يجعله عملاً مقبولاً .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الهادي بإذنه إلى سبيل الرشاد ، وعلى آله وصحبه محمري العباد والبلاد ، ومن تولاهم واقتنى أثرهم إلى يوم الدين :

محمد المحذوب

المدرس في الجامعة الإسلامية

المدينة المنورة - رجب ١٣٩٠ هـ

كفر وإيمان :

لكي نعرف مواقع الأمم والجماعات لابد من الاستعانة بالحدود الإقليمية والسياسية ، وهكذا نطل من كوة الجغرافية على أجناس وألوان لا نهاية لها ، ثم نطالعنا من هنا وهناك حدود المصالح وما تستتبعه من أشكال الحقوق . التي لا ضابط لها سوى وحى الأثانية فردية أو جماعية . . . تصادم وتلاطم وتتحاك ثم تنفجر فتكون الفواجع والحروب التي لا تنهى حتى تبدأ من جديد .

على أن هذه التعريفات المتباينة لا تلبث أن تقلص حين نطل من زاوية الحق المطلق ، فلا نرى سوى صفيين أو مجموعتين : فئة الإيمان وفئة الكفران .

لا شك أن هذا تعريف رجعي لا يليق بعصر الذرة والصواريخ والمراكب الصناعية . . ولكنه تعريف لابد منه عندما نريد تركيز المفاهيم على أساس الحقيقة الخالدة ، التي عينت مهمة النوع الإنساني في هذا العالم منذ أن وجد هذا النوع . .

ولكي ندرك حدود هذين الاصطلاحين « الكفر والإيمان » لابد لنا من العودة بهما إلى الجوهر الأصيل الذي حجبه الأباطيل . . وهناك سري عظم الجريمة التي ارتكبتها انحرافات الإنسان عندما شوهت مفاهيم الدين ، فجعلت منه فكرة حزبية لا عمل لها سوى بذر روح الحقد والشحناء في صدور الغوغاء . .

الكفر والإيمان سيلا متباينان ، بل نظامان متدايران ، لكل منهما غاية ووسائله . . ولكي نبسط كلا الموضوعين إلى أصغر تحديد ، ممكن أن نكتفي بالقول : إن مهمة الإيمان هي تعيين هدف للحياة يرفعها عن الضرورات الحيوانية . إذ يجعل غاية الوجود الإنساني مرضاة الله ، الذي سيحاسب

كلا بمفرده على ما أسلف من عمل كبيراً أو صغيراً ، ظاهراً أو خفياً ..
وبذلك يكون الإيمان أشبه بالإبرة المغناطيسية ، يعين للفرد المؤمن ، كما يعين
للجماعة ، طريقهم السليم ، مهما تعصف الأحداث وتضطرب النذر ،
فيهب لهم بذلك المقياس الثابت الذي لا يتقلب مع المكاسب العابرة .

أما الكفر فهو إنكار غائية الحياة ، ثم إخضاع كل شيء إلى معيار
المنفعة ، فردية أو قومية أو أسرية .. دون أى اعتبار للقيم الأخلاقية ،
وهو بذلك يجعل الفرد أو الجماعة نهياً لتقلبات عارضة ، تستحيل معها
الحياة ميدان صراع لا غاية له سوى إرواء الشهوات ..

هكذا يتبين بوضوح أثر كل من الطرفين في سلوك البشرية ، ففيما
يحاسب المؤمن نفسه على كل حركة وسكنة يعرض كل ذلك على قوانين
مقدسة ثابتة ، يخضعها نفسه ومصالحه لموازين العدل الذي لا يعرف محاباة
لصديق أو قريب ، نرى الكافر مقابل ذلك سادراً في عبادة نفسه لا يبالى
شيئاً ، ولا يرى بأساً ، في سبيل تحقيق هذه الشهوة ، أن يحطم كل القيم ،
لأنه لا يؤمن بأخلاقية العمل .. فالسرقة .. سرقة الفرد أو الشعوب ، عمل
مشروع ما دام اللص بمنزلة عن مسؤولية القانون ، والقتل .. قتل الفرد
أو الجماعات ، تدبير حكيم ، إذا كان في ذلك تأمين للمنفعة . وتغيير
الحقائق لون من الدعاية الحاذقة إذا كان في هذا تثبيت لسلطان ، أو تنفيذ
لخطة مقرررة . . . !

هذه الأزمات التي تأخذ بنخاق البشر في الشرق والغرب .. وهذه
الحمى ، حمى الخوف من الغد ، والإعداد المجنون للقتال في كل مكان ..
إن هي في الواقع إلا حاصل لا مندوحة عنه لهذا الانحراف الخطير عن
بجادة الإيمان . . ولم ينس الجليل الحاضر بعد حركة القنبلتين الذريتين في
(هيروشىما وناجاساكي) حيث ذهب مئات من ألوف البشر غير المحاربين
ضحية هذه « العقيدة » التي تسوغ كل الوسائل في سبيل تدمير نشاط العدو
ولو كان ذلك بهدم المشافي ، ومحو المدن ، واستئصال الشعوب !
وطبيعى أن السباق الهائل في البحوث والتجارب التي أعقبت الحرب الثانية

قد هيأت للبشرية « ألغاما علمية » يكاد يجمع مخترعوها على أنها كافية
لنسف الكوكب الأرضي كله ! . هذه الكارثة التي نسير إليها بخطى واسعة ،
وتندلع نذرهما في عدد من الأقطار . .

• • •

حاميا حراميهما :

ومما يمزق أحشاء العدالة أن كلا من هؤلاء المتسابقين إلى تدمير العالم
يزعم في وقاحة أنه ساع لإنقاذ العالم ! . بيد أن أسوأ هذه الأكاذيب
ما يزعمه الغرب من أنه يمثل دور الحامي لفكرة الإيمان ، ضد هجوم الإلحاد
المندفع من حصون المادية ! . إى والله إنه يزعم دوى استحياء أنه ممثل
المسيحية أمام زحوف الكفر . . ولو صدق الناس هذا الزعم لكان عليهم
أن يؤمنوا أن المسيحية هي التي دمرت ناجاساكي وهيروشيما ، وهي التي
تحصد مسلمي الحبشة والأريتيرية ، وهي التي شردت مليون عربي من فلسطين ،
لتعشُد في بيوتهم شذاذ الآفاق من لصوص الدنيا وتجار الحروب ! . .
ويا لها من تهمة يلصقها بالمسيحية هؤلاء المسيحيون !

الحق أن المسيحية هي أولى ضحايا هذه المعركة ، التي تتصارع فيها
طاقات البشر جميعاً . . وقد استطاعت قوى الكفر في الغرب نفسه أن
تشل حتى اليوم كل تعاليم المسيحية ، وتزيل كل أثر لها من البيت والمدرسة
والشارع ، وبالتالي من المجتمع كله ، ثم تحول ما بقي من تعاليم الإنجيل
إلى طقوس رمزية جامدة لا تتجاوز أبواب الكنيسة نفسها . . كما حدث
في إنجلترا حيث اضطرت أن تجارى الحياة العامة ، فتنشئ حولها شباكا
تصطاد بها الشبان والفتيات ، فهي توفر لهم كل المغريات المادية ، حتى
أندية الرقص ، لتظفر بالتفاتهم ، لئلا تنقطع الخيوط الباقية بينهم وبين
المسيحية ! . ولا شك أن تعاليم المسيح لا يمكن بحال أن تسمح بهذا التطور ،
أو تقبل تلك الفحشاء التي تظغى على المجتمع الغربي كله . . حتى لتعترف
التقارير الرسمية والعلمية ، في السويد والولايات المتحدة ، بتحول مدارس
البنات فيها إلى بيوت كبيرة للبغاء ، لا تكاد يجد فيها عدواء فوق الثانية عشرة ! .

وهذا كله إنما يجري في أم تدعى المسيحية ، وفي حماية حكومات وبرلمانات
تزعم أنها حامية الإيمان والحرية (١) .

في هذه الظلمات الطاغية يتساءل المخلصون : هل فقد الإيمان قدرته
على إضاءة الحياة ! . . ومن ثم هل انتهت رسالة السماء في هذه الأرض !!

أما الجواب عند هؤلاء القافهين لحقيقة الوضع البشري ، فهو أن
حاجة الإنسانية إلى هذه الرسالة لم تكن قط أشد منها في هذه الأيام . .
وإنما يفتقد البدر في الليلة الظلماء . . وذلك أنهم يحللون أسباب هذا الشقاء
الناظر فيجدونها مقصورة على فقدان الإنسان لضياء الإيمان . . ومتى كان
ممكناً أن تستقيم حال الفرد أو الجماعة إذا هم حبسوا بصائرهم وأبصارهم
في نطاق المنفعة المحدودة أو اللذة العابرة !!

لقد تقدم عقل الإنسان في مضمار الكشف العلمي لقوانين الطبيعة
بالقدر نفسه الذي تأخرت فيه رَوْحُه في مضمار القيم ، وبذلك وضعت
كل معارف الإنسان في خدمة الشر ، وانجذبت كل طاقاته لتدمير نفسه ! .

كل الناس متفقون على القول بأن المستقبل مخيف ومظلم . . وأن الدمار
هو المصير المحتوم لكل شيء ، حتى الدين نفسه . . فالطائرة ، التي يفقد
السائق قيادها ، على ركبائها جميعاً أن يعدوا أنفسهم للكارثة ، دونما حاجة
إلى كبير ذكاء أو طويل تفكير . .

ولكن . . أليس ثمة من أمل بإصلاح هذا التحلل !! . هل هلك خبراء
الطائرة . . أم فاتهم الوقت !! هؤلاء المؤمنون بتعاليم السماء ، المدركون

(١) جاء في أحد التقارير المقدمة إلى حكومة الولايات المتحدة في هذا الشأن : (أن
مدرسة « هونسون الثانوية » اجتاحتها موجة عارمة من الانحلال الخلقي نتيجة الاختلاط المطلق . .
وانتهى الأمر بتشكوين عصابات إجرامية من الطلبة والطلالبات . .) وفي عدد ٦-٥-١٩٥٩ من
جريدة الأيام المشقية أن « جون جورتنج كبير قضاة نيويورك صرح أن ما يقرب من ٥٠٠٠
أميركي يقتلون سنوياً بجرائم الشذوذ الجنسي ، غالبيتهم من البالغين وبعضهم أطفال » . .

لحقاقتها الكلية - على قلوبهم وغربتهم - لا يزالون هم المسئولين عن إنارة الطريق للقوافل الضالة . . ولا بأس . . فقد يكون الضوء ضعيفاً أول الأمر ، غير أن من أسرار النور أنه أقوى من الظلام دائماً . فتشعة صغيرة منه كفيلة بهداية المدلجين ، وبتبديد الكثير من جيوش الظلمة ! .

. . .

انطباعات :

كنا عدداً ضخماً من المدرسين الثانويين ، حشدوا لتدقيق أوراق الفحوص الرسمية في إحدى المدارس ، وعن الأيام العشرة التي قضيناها هناك حملت بعض الانطباعات عن الحوادث التي لم تثر فضول سوى . . وربما لم تلفت نظر أى من الزملاء . . .

أما أحد هذه الانطباعات فقد تكون على أثر كلمة سمعتها من زميل مسيحي دمث ، وجهها إلى آخر يجانبه . . فقد سأل المسيحي هذا ألقى عما إذا كان قد رزق مولوداً ما ليكنيه باسمه ، فأجاب بأنه ينتظر ولود أول بنيه خلال أسبوع ، فإن جاء ذكره فسيدعوه عليا . ولم يستحسن الزميل هذا الاسم فقال : مالك ولهذا الرموز . . علينا أن نزيل هذه الشعائر الطائفية في الأسماء ، لنحل مكانها أسماء لا تميز صاحبها إلا بعروبته . . .

وأما ثاني هذه المؤثرات فقد ولد عصر أحد الأيام ، إذ انطلق من مكبر قريب صوت حنون يحمل إلى آذاننا آيات من كتاب الله كان منها : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . . ٣٣-٤٥ و ٤٦ » .

ولقد استمر الأثر يمجج بهذا الصوت ساعة ، لم ألمح خلالها قط واحداً من هذا الحشد الضخم أصغى يسمع إلى تلك الآيات ، وبينهم جماعة من المؤمنين الذين قروا قول الله : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ٧-٢٠٤ » .

هاتان حادثتان كثيراً ما أستقبل مثلهما في مشاهداتي اليومية ، فلا أتمالك أن أسأل نفسي : هل تعطلت أجهزة القلوب إلى هذا الحد ، ففقدت القدرة على الاتصال بإشارات الوحي ، حتى لدى « الطبقة المثقفة » !!!

إن زميلي المسيحي الدمث المثقف لا يفهم من العروبة إلا أنها تعفية على آثار الدين الذي يسميه طائفية . . دون أن يكلف نفسه السؤال عن صلة الدين بهذه العروبة . . ودون أن يعرف أية كارثة ستزل بهذه العروبة حين تتجرد من رسالة السماء ، فتكون كنبته اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

وكذلك القول في زملائي الآخرين حين أغلقوا سمعهم دون آيات الله . . فلم يأبهوا بمعاني هذا النبأ العظيم الذي يحمله إليهم الأثير ! . فليت شعري . . ألم يكن جديراً بمثلهم أن يفكروا بهذه القضية التي يثيرها هذا النبأ ! . إن هناك متكلماً يقول : إنه هو خالق هذا الكون كله . . وقد تخير محمداً ليحمل إلى عباده رسالته التي تجعل منه شاهداً ومبشراً ونذيراً . . ثم داعياً لأهل الأرض جميعاً إلى الله ، فيكون بذلك كله سراج السماء ينير لهم طريق الحياة .

إنها لدعوى زهية لا يجوز في حكم المنطق السليم أن يتجاهلها المثقفون . . بل إن المنطق ليفرض عليهم أن يفكروا طويلاً بها ، ثم يتقدموا لفحص أدلتها ، كما يفعل الحر الواعي الذي يؤمن أن الحق هو هدف الإنسان الأسمى . .

: . وشاء الله أن يمر على مقربة من المدرسة صف من السيارات ، يرسل زعيقه بشكل متواصل ، فإذا الجميع جميع المدرسين يتحركون لاستطلاع النبأ ، الذي لم يكن قط يستحق الاهتمام ! . وهنا تساءلت في غصة محرقة : زعيق عشر سيارات أثار نفوس القوم فهبوا يسألون عن انبأ . . . وهذا صوت السماء ينطلق بكل هذه البشريات والنذر . . ثم لا يستدعي أي استطلاع أو مبالاة !!! . . « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ١٨-٥٧ » .

تعصب :

لا أعلم شيئاً أضر على الحضارة والأخلاق والحقيقة من التعصب . . .
فتعصب الفرد لأفكاره . دون نظر إلى ما عند غيره ، مدعاة للحرمان من
سعادة المعرفة . . . وتعصب المرء لأسرته أو قبيلته ، دون إنصاف لحقوق
الآخرين مزلفة إلى فقدان روح العدالة التي هي قوام المجتمع . . . وتعصب
الإنسان لتقاليد موروثه ، دون فحصها بين الحين والحين ، على ضوء العلم
الصحيح والحقائق الأزلية الخالدة ، ذريعة إلى التخبط في ظلمات الجهل
الذي لا يقيم وزناً للحق ، الذي لا يكون الإنسان إنساناً إلا إذا كان أحب
إليه من نفسه وأهله وكل شيء . . . !

ونحن لو خبرنا ما حولنا من أسباب الشقاء لما شككنا لحظة في أنها
عائدة إلى التعصب في مختلف أشكاله . . . ولعل ذروة هذا التعصب أن
تري إنساناً يحمل إلى غيره خبراً عز الله ثم لا يعبأ هذا به . . بل ربما يندفع
بحماسة إلى تكذيبه . . . دون أي تفكير !

وهذا الإنسان نفسه قد يبلغه وصف لشريط سيئ ، فيقطع إليه
المساوف ، وقد يقرأ إعلاناً كاذباً عن كتاب تافه فيعجل لشرائه والانكباب
على مطالعته . . ثم هو لا يطبق الاستماع إلى آية من كتاب يشهد بمئات
الملايين ومعهم الملائكة وأولو العلم أنه تنزيل من حكيم حميد . . !

رآني أحد المسلمين أقرأ كتاب أشعيا - من العهد القديم - فقال :
وماذا أنت واجد في هذا الكتاب لتبذل له من وقتك !!! قلت : اسمع ماذا
أجد . . . وقرأت له بعض الفقرات فكاد يحزن لما سمع من الحق . . . ولكنه
ما لبث أن عاد إلى ومعه قس من أصحابي ثم قال : أرجو أن تطلعه على
ما قرأت لي . . وألح القس فقرأت له نبوءة أشعيا التي تقول : (١) « تفرح
البرية والأرض اليابسة ويتهيج القفر ويزهو كالزرجس . . حينئذ تفتتح

(١) أشعيا ص ٣٥ و ٤٢ و ٥٤ .

عيون العمى وآذان الصم لأنه قد انفجرت في البرية مياه
وأنهار في القفر . . في مسكن الذئب في مريضها دار للقصب والبردى . .
وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة ، لا يعبر فيها نجس
بل هي لهم ، ومن سلك في الطريق حتى الجهال لا يضل . . . يسلك المفديون (١)
فيها . . ومفديو الرب يرجعون . . إلى صهيون بترنم ، وفرح أبدي على
رؤوسهم . . ابتهاج وفرح يلركانهم ويهرب الحزن والتهد . . .

وأطرق قليلا ثم قال : هذه أخبار عن السيد المسيح ، وهذه السكة
إنما هي الطريق التي سلكها بين مصر وبيت لحم . . قلت : ولكن هذه
الطريق عامة مفتوحة لكل سالك كافرين ومؤثنا ، والطريق التي يصفها
أشعياء مقفلة خاصة لقوم بعينهم لا يسلكها سواهم لأنها مقدسة ، ثم يفسر
هذه القداسة بأن المؤمنين يقدون إليها من أورشليم وما حولها ليتطهروا
من آثامهم ، ثم يعودوا فرحين سعداء بما حققوا من هذه الوفاة . . .
فمن هؤلاء ؟ . . وأي بلد هذا ؟

وهنا لم يسع القس إلا أن يذعن للواقع فيقول : بلى . . إنها لمكة . .
ولأنه لمحمد . . وإنهم لأتباعه . . ولكن . . لماذا يخالفنا محمد في ألوهية
المسيح ؟ . . .

أى والله . . هذا الذى قاله صديقي القس على مسمع من شهود . . .
إنه لا يستجيب للحق إلا أن يأتي الحق وفق هواه : « ولو اتبع الحق أهواءهم
لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ! - ٢٣ - ٧١ » .
وما أحسب أحدا يرتاب في أن مثل هذا التعصب للعقد الموروثة هو
الذى يضع الحواجز دون انتشار الحق . . ومن ثم دون وحدة الإنسانية ! .

* * *

الكتب المقدسة :

في دور المراهقة تنشط الطاقات الحية في النفس ، ويكون الاندفاع
الجرىء ضد كل شيء هو الطابع المميز ، وسرعان ما تفقد المعارف البدئية

(١) المفديون اسم مفعول من الفداء ولعل الحجاج سموا كذلك بسبب ما يقدمونه من
الهدى وسائر الكفارات .

حرمتها . فإذا الشك يتسرب إلى نفس المراهق . . الشك في كل موروث
وفي كل ما يعتبر حقيقة مسلمة . . وقد يتحول هذا الشك إلى مروق تام
جارف . إذا فقدت نفس المراهق الظروف الصالحة التي تساعد على التوجيه
إلى الحق . . .

وهكذا يكون ذلك الدور خيراً كبيراً . إذا لقيت النفس المدد النظيف
من وسائل المعرفة الصحيحة . . . ويكون شراً كبيراً إذا سيطر عليها الوسط
الفاسد . . ثقافياً أو اجتماعياً أو دينياً . .

وقد شاء الله أن أخوض هذه الغمرة محروماً من كل الظروف الصالحة ،
فإذا أنا سادر في غمرات الظلمات . وأقبلت على الكتب ألهمها التهاما . .
بيد أني كنت كثيراً ما أشعر بفراغ في القلب لا يعوضه شيء مما أنا فيه . .
وكان الفراغ حافزاً قوياً دفعني لإعادة النظر في معاني الدين . . فقرأت الكثير
من الكتب المقدسة قراءة تدبر ما وسعتني الطاقة ، مستعينا بكل ما وصلت
إليه يدي من شروح لها ، وقرأت كذلك كتب النحل والفرق المختلفة ،
ثم رجعت إلى القرآن أنظر فيه ، ومن ثم وعلى ضوء ذلك كله عرفت
طريقي . .

أولى الحقائق التي آمنت بها منذ ذلك اليوم أن في هذه الكتب ثروة
كبيرة إليها يرجع كل ما عرفه الإنسان خلال التاريخ من نفحات الاستقرار
ومفاهيم الحق والخير . . ثم ثانية هذه الحقائق هي أن هناك قدراً مشتركاً
بين هذه الكتب المقدسة ، هو الأصل الذي يقوم عليه بناء المجتمع البشري . .
فإذا ما استوعب الدارس أسرار هذا كله ، تيسر له أن يلمح وحدة
الأصل والهدف بارزة جليلة ، وسيرى حينئذ أن القرآن من بين هذه الكتب
الساوية هو النسخة الأخيرة أو الطبعة الأخيرة من رسالة السماء . . فيها
خلاصة الحقائق السالفة ، مضافاً إليها ما شاء الله أن يزود به الإنسانية من
نظم جديدة في الأخلاق والاجتماع والسياسة ، علاوة عما حملة إليها من
تصحيح لما اعتور تلك الكتب السابقة من اضطراب وتشويش . .

وعلى ضوء هذا المفهوم تدرك مدلول هذا الخبر الإلهي الذي يحدد به القرآن رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنها صفوة رسالات النبيين جميعاً ، ثم يحدد هدفها بأنه وحدة الإنسانية كلها ، في نظام من التشريع المحكم لا مكان فيه لجور ولا شقاق « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ٤٢-١٣ » « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ٢١ - ٩٢ » وبهذا الروح الأسمى من الوحدة الشاملة في الإله وفي الدين وفي التشريع ، تعلم لمساذاً سمى الله دين الأنبياء جميعاً بالإسلام ، ولم يطلق عليه في القرآن اسم « الإبراهيمية أو الموسوية أو المسيحية أو الحمديّة . . » الخ فقال عن إبراهيم : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ٣ - ٦٧) وقال حاكياً وصية يعقوب لابنيه : (إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ٢ - ١٣٢) وقال واصفاً معنى الإسلام على لسان أمة محمد (لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ٢-١٣٦)

وهكذا نتحقق أن الإيمان بالإسلام إيمان برسالات النبيين جميعاً ، وأن المسلم الحق مؤمن بكل نبي دون تفريق . . وكفى بهذا المفهوم الرباني رباطاً بين الأفراد والأنواع ، يحطم حواجز الأهواء والشهوات والعصبية ، ويجعل من دستور (وعلى الأرض السلام) هدفاً مقدساً عملياً ، وفرض عين على كل مؤمن . .

هذه الحقيقة الإلهية أدركها النجاشي (أضحمة) بفطرته التي لم يشوهها التعصب ، حين جمع بين وفد المشركين ، ووفد مهاجري المؤمنين ، يستمع إلى تهم أولئك ودفاع هؤلاء .

وقد رغب يومئذ داهية قريش عمرو بن العاص أن يضرب المؤمنين بالنجاشي ضربة قاضية ، فزعم أنهم يطعنون بالمسيح وأمه . . ورد جعفر ابن أبي طالب ملخصاً حكم الإسلام في الموضوع فقال : « هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . . » فإذا النجاشي

يضرب بيده إلى الأرض فيأخذ عوداً ثم يقول (والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود . .) (١).

ويغضب البطارقة لما سمعوا من النجاشي ، ولكنه لا يأبه لغضبهم . .
ويكرم إخوانه المؤمنين ، ويرد وفد المشركين بهديتهم خائبين ! . .
وكذلك أدرك هذه الحقيقة وفد النجاشي من النصارى . . إذ سمعوا
القرآن من رسول الله ، فسالت دموعهم لما عرفوا من الحق ، حتى
استحقوا أن ينزل الله فيهم : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا . . الذين
قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا
سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع لما عرفوا من
الحق يقولون : ربنا آهنا فاكثبنا مع الشاهدين » ٥-٨٢ و ٨٣ .

* * *

امتحان الرجولة :

لا جرم أن مثل هذا الاعتراف بالحق ، كما تمثل في صراحة النجاشي
وفد الحبشة ، لم يكن ليحدث لولا شجاعة خارقة ، استطاعت أن ترتفع
بأصحابها فوق العصبية والأهواء . . ولا جرم أن أسمى ضروب البطولات
جميعاً إنما هي بطولة الاعتراف بالحق ، حين تتنازع عوامل العصبية
الموروثة والتقاليد المتحدرة من القرون . . ولعل لا أعدو الواقع حين
أقول « إن الجمود على التقاليد أبشع صور الجبن . . وإن هذا الضرب
من الجبن هو الذي أفسد فطرة الإنسان فشل عملها في إدراك الحق
وطلبه ، حتى أصبحت كجهاز الهاتف المختل لا يصلح للتخاطب . وهذا
الاختلال في الفطرة هو الذي يجعلك تيأس من إيصال الحق إلى بعض
النفوس ، لأنها فقدت الإرادة التي تصلح لالتقاط إشارات السماء . .
ونحن نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون
إلا من أتى الله بقلب سليم » ٢٦-٨٨ ، ٨٩ فنعلم أن سلامة القلب من الفساد ،
فساد العقائد ، وفساد الانقياد للتقاليد دون فحص واطمئنان ، هي الشرط

(١) سيرة ابن هشام .

الأول في استحقاق الرضوان الرباني . . . ولا سبيل إلى سلامة القلب ، وهو أمانة الله في : . بنا ، إلا بأن نتفقدته وأن نتعهد به بالإتقاء والجلاء والسلوك النظيف ، حتى يبقى أبداً صافياً شفافاً ، لا تصرفه الأباطيل عن رؤية الحقائق . وطبيعي أن هذا يقتضينا أن نبذل لهذا القلب من الجهد والرعاية والاعتناء . بالأقل مثل الذي نبذله لثيابنا وأطعمتنا والنفيس من أمتعتنا ! .

قبل أيام كان خمسة من المعلمين والمعلمات في سيارة ، اثنان منهم من حملة الشهادات الجامعية ، وأثناء الطريق أدار السائق مفتاح المذياع على القرآن الكريم ، فإذا بالمدرسين يغضبون ، ويطلبون إليه البحث عن أغنية ! . وأنى السائق ثم قال ، أليس القرآن أفضل من الغناء !! ويسمع الجواب : لا . . بل الغناء أفضل ! .

وعندما اشتد الخلاف وتمسك السائق والمعلمات بإيثار القرآن ، طلب المدرسان وقف السيارة ، وهناك هبطا منها مفضلين ركوب الأقدام على الاستماع إلى القرآن^(١) .

واتهم مرة أحد مدرسي التاريخ بالطعن على القرآن ، فدعى لمواجهة موظف إداري كبير ، وهناك سأله هذا : « أصبح أنك وصفت حادثة كذا بأنها أسطورة لا صحة لها ؟ » أجاب المدرس : « أنا نقلت في ذلك كلام المستشرقين ! . . » وسئل : « ألم تقرأ الحادثة في القرآن ١٢ . . أو كان المستشرقون أصدق من الله وأعلم !! . وكان جواب الأستاذ : إنه لم يتصل بالقرآن منذ الدراسة الابتدائية ! . . . »

وأنت قد تسمى هؤلاء مستهترين أو ما شئت من الأسماء . . أما أنا فلا أراهم أكثر من جبنة ، أسارى لتعصب مخز . . إنهم يؤثرون الغناء ، ويفرون من الالتزام على القرآن خوفاً من شيء واحد ، هو أن يقعوا في القرآن على حق . . ما هم عليه من الضلال ، أو يسمعون منه موعظة تنمضج عجزهم عن التهورس بأعباء الرجال !

(١) عرضت قضية هذين المعلمين في إحدى محاكم اللاذقية بسورية .

وقدما عمد المشركون من مكة إلى أحط الوسائل لسد منافذ النور ،
فأخذوا يقصون الناس عن الاستماع إلى هذا الكتاب ، خشية تحريره إياهم
من عبوديتهم » وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم
تغلبون ٤١ - ٢٦ .

ألم أقل لك : إن الخضوع للحق يقتضى بطولة . . لن تتوفر أبداً
لهؤلاء الساقطين في امتحان الرجولة ! . إن المعلم الذى يبلغ هذا الحد من
الاستخفاف بمقدساتنا الإلهية . . لن يكون أكثر من وباء في كياننا التعليمى ،
من شأنه أن يهدم كل ما بينه البيت المؤمن ، والمنهج الصالح . . . ولقد
بات واضحاً أن في جهازنا التعليمى مدرسين لا هم لهم إلا استئصال البقية
الباقية من بذور الخير في ضمير هذه الأمة ، فهم يجعلون من الحبة قبة ،
ومن ثقب المنهاج فجاجا واسعة أمام السموم الوافدة من الغرب أو الشرق ! .

تصور أن طالبة استطاعت الاحتفاظ بعقيدتها الإسلامية حتى نهاية
الدراسة المتوسطة ، وإلى هذا العهد كانت هى الوحيدة تقريباً بين أهل البيت
تقوم بأداء واجباتها الدينية على وجه مرض ، إلا أنها ما أن دخلت مضمار
القسم الثانوى حتى أخذت هذه الواجبات سبيلها إلى التلاشى . . . وبطريق
الاتفاق لاحظت الأم ابنتها معرضة عن الصلاة هازئة بها . . فعجبت ثم
سألها ، وإذا هى تسمع الجواب الذى كان مفاجأة غير سارة : لمن أصلى ! .
وأن هو الله الذى أصلى له ! . وإذا كان موجوداً فأين الدليل على أنه
قد أرسل محمداً بهذا الدين الذى يأمر بالصلاة ؟ ! . إن الناس كلهم لعاجزون
عن إعطائى الجواب على واحد من هذه الأسئلة .. فكيف بها جميعاً ! .

وهى قصة سمعتها من مدير معارف سابق ، ثم قصصتها على صديق
لى من المدرسين كنت على مائدته ، فضحك ثم قال « إنها بنت أختى » ! . .
لا تعجب إن معظم الصف على طريقتهما ، والفضل فى ذلك إلى زميلنا الأستاذ
(مسعود) الذى ما زال بن حتى أفلاح فى « تحريره » . . . !

ولقد حدثنى صديق آخر عن فتاة لهم أحرزت الثانوية صيف هذا
العام . . بعد أن أحرزت شهادة الإلحاد كاملة على يد أستاذها الفاضل . . .

فهى اليوم لا تكاد تطيق ذكر الله أو رسوله ، بل أنها لتصرخ فى وجه أبيها المسكين : أن يخلق فاه عند تذكرها بحقائق الإسلام . . لأن هذا ضرب من الرجعية التى لم يعد لها مكان فى نفسها ! . .

ولست فى سبيل الاستقصاء لهذه الأمثلة ، فالقارئ ، أيا كان ، لابد أنه يعرف الكثير من تلك الوقائع اليومية ، ولكن نريد القول بأن هؤلاء المدرسين هم المسئولون إلى حد بعيد عما نعانيه من الكوارث العقلية فى محيط التعليم . . .

نحرير أم تغريب :

والحرية يا قارئى هى المطية التى يركبها أولئك المدرسون إلى قلوب هؤلاء المغفلين من بناتنا وأبنائنا . . إنها الباب الذى تطل منه تفاحة الشيطان . . والأستاذ المولع بتهديم العقيدة إنما يقذف ألغامه من هذا المدخل المزوق . . ذلك أن لاسم الحرية وقعاً سحرياً فى غرور المراهق ، الذى تركز كل قوته فى غرائزه الثائرة ، وفى ذاته التى لا يكاد يحس غيرها ! . . والمدرس الماكر يعرف من أين تؤكل الكتف ، وليس أيسر عليه من أن يأكل الكتف وصاحبها فى هذه المعركة التى لا تكافؤ فيها بين الحصين ! . .

استمع إلى هذه المحاورة المألوفة . . .

« نحن هنا فى الصف مكلفون فحص كل ما يعترضنا ، فلا تقبل أية فكرة إلا بعد أن يسمح لها العقل بالمرور . . . وإلا فأى فرق بين طالب ثانوى وابن الشارع ! . . . »

ثم تأتى الخطوة التالية . . .

« . . أنت أيها الطالب إنسان ممتاز . . لأنك تهب نفسك للعلم ، ولكن العلم نتيجة للحرية ، فما لم تتحرر من كل فكرة سابقة لم يسعنا الحصول على المعرفة . . . »

ثم تأتى نتيجة المعادلة . .

. . . تقرر لدينا أن كل شيء ينبغي أن يخضع للبحث المجرد . . . وكل شيء يعنى كل شيء . . . حتى عقائدنا الموروثة ، وتقاليدها وكل ما سمعنا أو علمنا حتى الساعة . . . بهذا فقط نحقق امتيازنا الإنسانى ، وبه وحده نبرهن على الفرق بين العلم والجهل ، وبين الطالب المثقف وابن الشارع . . . فأياكم رضى أن يكون دون مستواه الإنسانى ، فيخضع عقله لموروثات فيها الحق والباطل ! . . .

. . . وهذه كلمات إن لم يقلها أستاذ ما فهمى ترجمة لما يقوله الكثيرون^(١) . . . ولا شك أن فيها من البروق الخادعة ما يكفى لإلقاء جرائم الريب فى كل شيء . . .

ومن أين للطالب الغض تلك العين السحرية التى تراه ما وراء هاتيك الكلمات ! . . . بل أنى لهذا المسكين أن يفطن إلى أنه تلقاء مناورة بارعة ، كستار الدخان يطلقه المحاربون لتغطية الزحف . . . !

وبدئى أن النفس التى استأسرت لهذه المقدمات لا تلبث أن تنخر صريعة تحت مطارق « العلم » حتى تصبح أخيراً إلى التفلت التام من كل آثار العقيدة ! . . .

وهكذا تبلور الحرية على أيدي هؤلاء المربين الفضلاء ! ! فى معان طريفة من الفوضى المنظمة . . . ! وما أيسر — بعد هذا النجاح — أن يجرح الطالب ذلولا مطواعا إلى الاستهانة بكل ما كان مقدسا فى نفسه قبل اليوم ! .

لقد كان حتى أمس القريب يعيش على أملين أحدهما مجد الدنيا ، والثانى سعادة الآخرة ، فإذا عرض له الشيء الذى لا يرضاه الدين أمسك عنه على كونه حراما . . . وإذا أتيحت له شهوة غابت عنها الأعين ، تماسك استحياء من العين التى لا يعزب عنها مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء

(١) يقول الدكتور كامل عياد « إن طريقة البحث العلمى جعلتنا لا نتقيد إلا بالواقع الذى تدركه الحواس . . . وأن نتحرر من العقائد الخيالية » انظر كتاب « العالم العربى » ص ١٦٤ .

. . أما اليوم وقد انهارت سدود الحلال والحرام ، فأية قوة بقيت للنفس
تحصنها من طغيان السيل ! . . لقد بات كل معاني الفضيلة والشرف والكرامة
والعفة أخيلة تافهة ، كالقلعة المهتمة يدخلها العدو من حيث شاء ومتى
شاء ! . . .

. * * *

حق وباطل :

تلك هي ثمرات « الحرية العلمية » التي ينهض بغرسها في أبنائنا هؤلاء
(العباقرة) من زملائنا ! . . . وهذا (التوجيه) العجيب لمفهوم الحرية
هو الذي ننعم اليوم بحصاده من التحلل والزيف والاندفاع المخبون وراء
الشهوات . . وإذا كانت المناهج الرسمية تلح دائماً على أن يكون هدف
المدرسة هو تكوين الجيل المؤمن ، فمن الطبيعي أن نتساءل : أبهذا الجهاز
الحرب من المدرسين يراد تكوين المؤمنين الصالحين ! ! . .

لا أزال أذكر حديثاً عابراً جرى ذات يوم بيني وبين أحد مدرسي
العلوم في الصفوف الثانوية ، إذ سمعني أستشهد بآية من القرآن الكريم ،
فلم يستطع الصبر على هذا الشذوذ وقال : وما شأن القرآن في موضوعنا ! .
أليس من الأفضل أن تعطى رأيك خالصاً من التأثير بالقرآن وغيره ! ! . .

قلت : وهل تظن كلامك هذا قد خرج من صميم نفسك خالصاً من
التقليد ! . . الإنسان يا صديقي ابن بيئته وثقافته ، وإنما تتمثل حريته الحققة
في أنه يملك من قوة الفكر واستقلال النظر ما يفرق به بين الحق والباطل ،
فلا يقبل حكماً إلا وهو مطمئن إلى صحته ! . .

قال : إذن فقل لي هل أنت مصدق بكل ما جاء في القرآن ! !

قلت : إن القرآن حقيقة كاملة ، وإيماني به طبعاً أشد من إيماني بوجود
دماغ في رأسك مثلاً . .

قال : إن القرآن يناقض نظرية دارون . . فكيف توفق بينهما ! !

قلت : ومتى كان قول المخلوق حكماً على قول الخالق ! . . أيها الزميل

ان نظرية دارون فيها الحق وفيها الباطل ، فهي كالكثير من النظريات التي طغت على الناس زمنا ، ثم تكشفت الوقائع عن زيف معظمها . . وطبيعي أنها تلتقي مع القرآن في حقائقها الثابتة فقط . .

قال : وهل في نظرية دارون غير الحقائق الثابتة ؟! . لقد ثبت لدى دارون أن الإنسان تطور عن القرد فهل يقر القرآن هذا ؟ .

قلت : مسكين دارون ! . . انك تقوله ما لم يقل . . . ولو درست نظريته لرأيت أن كل ما يراه هو أن ثمة تقاربا تشريحيا بين النوعين يرجع انبثاقهما من أصل واحد . . وليس في هذا ، إذا ثبت علميا ، أى تناقض مع حقائق القرآن الذي يقول : « وجعلنا من الماء كل شيء حي (٢١ - ٣٠) » وقد وصف القرآن عملية الخلق في آيات كثيرة من ذلك قوله : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فبارك الله أحسن الخالقين (٢٣ - ١٢) . . فلو أنعمت النظر قليلا من هذا الوصف فقط في ذكر السلالة ، ثم في صيرورة هذا الكائن خلقاً آخر بعد هذه السلسلة من الانتقالات العجيبة ، لأدركت أن منزل هذا القرآن (أعلم) من دارون بحقيقة الإنسان !!! ولكن المؤسف أنكم لا تعرفون شيئا عن هذا القرآن ، ثم تحكمون عليه غيايا بكل ما يسوغ بعدكم عنه ! .

أما الزعم بتطور الإنسان عن القرد . . فهو لا يعدو خيال أفاق ، شاء أن يشغل الناس بطريف غريب ، فألقى إليهم بهذه الأكذوبة . . ولكنها ما لبثت أن تسالت إلى مؤلفات بعض مدرسينا الجامعيين كحقيقة لا تقبل النقض ! . مستندين بذلك إلى ما كشفه بحاث التاريخ الطبيعي من آثار ، زعموا أنها بقايا ناس عاشوا قبل مئات الآلاف من السنين في (نندرثال) و (بكن) ثم في (بلتدون) . . وفيها كلها مشابهة من القرد ، إلى جانب الصفات الإنسانية ، فحكموا أن الثالث منها بخاصة وهو إنسان (بلتدون) يمثل الحلقة المفقودة التي تسجل مرحلة الانتقال من (القردية) إلى (البشرية) وليس عليك إلا أن تأخذ عدد أكتوبر ١٩٥٦ من مجلة المختار فتقرأ هناك

قصة « الأكذوبة الكبرى عن الإنسان الأول » . . تلك الأكذوبة التي
عمرت أوساط العلماء أربعين سنة كاملة . . ثم لم تفضح إلا عام
١٩٥٣ . . حتى تدرك إلى أي حد يمكن التعويل على مثل هذه الأقاويل . . !

* * *

ضجة في حصة البلاغة :

دخلت ذات مرة إلى صف ثانوى في حصة البلاغة فألفيت على السبورة
بالخط الكبير « ما الدليل على وجود الله !!! » .

وآلمنى أن أفاجأ بمثل هذا السؤال فقلت : يؤسفنى أن أجد بينكم من
لا يزال في حاجة إلى مثل هذا الدليل ! .

فوقف أحد الطلاب ليقول : « عفوا أيها الأستاذ . . إننا نطلب هذا
الدليل لنقدمه إلى أستاذ الرياضيات ، الذى استنفذ الحصة قبلك في حشد
البراهين العلمية على نبي وجود الله . . لأنه يستحيل على رأيه الإيمان بوجود
شيء لا يخضع للرؤية والتحليل ! . » .

قلت : وهل تسمون القول بإنكار وجود الله كلاماً علمياً ! . أرجح
أن هذا تعريف المنكر لا تعريفكم أنتم . . ومع هذا فلا بأس أن أقول لكم
بكلمة موجزة في هذا الشأن : إذا أنكرت علم هذا الأستاذ بالرياضيات فبم
يرد على !! بإجراء العمل الرياضى طبعاً ! . . . حسناً فقد استدللنا إذن على
علم الرجل بهذه المادة من خلال عمله دون أن نرى العلم ذاته ! . .

وهنا يطيب لى أن أقص عليكم حادثة شهدتها منذ زمن طويل . .
كنا في رحلة جبلية ، وفي عيادة طبيب صديق لنا في صافيتا^(١) التقينا بشيخ
قروى ، ذكر لنا الطبيب أنه مجنون يحسن الضحك عليه . وضحك رفاقي
من الشيخ . . وانتظرت حتى فرغوا فدنوت منه وقلت : عجبت من أمرك
أيها الشيخ كلما أحوجك الجواب عدت إلى القرآن . فلنفرض أن هؤلاء
لا يؤمنون بالله ، أفلا يكون من العبث استشهادك بالقرآن !! فلم يكتم

(١) صافيتا مدينة جبلية في محافظة اللاذقية بسورية .

الشيخ عجبته من كلامي ثم قال : وهل هناك من لا يؤمن بالله !! قلت :
أفرض أنني هو فكيف تبرهن لي على وجوده ؟ . . ولكن مهلا يجب أن
تعلم أنني لا أثق إلا بما أثبتته الحواس . .

وحسبت أنني أطبقت على الشيخ فلا يستطيع حراكا ! . . . ولكن
سرعان ما سألتني في هدوء عميق : بأي حواسك أنت أشد إيمانا ؟ . قلت :
بنظري . قال : ولم ؟ . قلت : لأنني به أرى ثم أدرك ما أرى . . . قال :
حسنا . . أفترى عينك التي بها ترى ؟ . قلت : طبعا لا . . . قال : فكذلك
الله . . به نرى ونلذرك ونعلم . . ولكننا لا نراه ! .

وهكذا يا أبنائي ترون أن ليس كل ما لا يرى غير موجود ، وأنتم
لو فكرتم لذكرتم أن الأشياء التي نؤمن بها ولا نراها أكثر آلاف المرات
من الأشياء التي نراها . .

وكتبت على السبورة أحد الايات من الشواهد التي أعدتها للدرس
البلاغة ، وسألت الطلاب أن يذكروا اسم صاحبه فقالوا : إنه من بائية أبي
تمام في فتح عمورية . . فأنكرت عليهم ذلك وأنكرت وجود شاعر بهذا
الاسم . . ولكنهم ضحكوا ثم قال أحدهم : لقد علمنا وجوده بشهادة
الثقات من علماء الأدب ومؤلفيه ، ثم بما يميز آثاره من كل آثار الشعراء
الآخرين . . فقلت : وكيف إذن يمكن إنكار وجود الله وقد أخبرت
السموات والأرض بوجوده ، وشهد له أولو العلم . . ولا يقع حسنا على
شيء إلا وفيه آية تنطق بهذه الحقيقة ! . .

* * *

الإنسان والطبيعة :

وهنا نهض أحد الطلاب ليقول : إن أستاذ الرياضيات يصر على أن
الإنسان ابن الطبيعة ، بها وجد ولا يد لغيرها في إيجادها . . . وكذلك يرى
أن العلماء مجمعون على التحرر من الإيمان بالله الذي لا يصدق بوجوده
إلا الغوغاء ! .

ولم أر بتر البحث دون استيفائه فقلت : افرض أنك أنت ذلك الأستاذ
فقل لى : أوجود أنت . . أم غير موجود ؟

- موجود . .

- أخالق أم مخلوق ؟

- بل مخلوق .

- أخلقت من غير شيء أم أنت الخالق لنفسك ؟ ! .

- بل خلقتنى - فى رأى الأستاذ - الطبيعة .

- حسنا . . لنحدد الطبيعة ما هي ؟ ! . إنها هذا الهواء ، وهذا

التراب ، وهذا الماء، وما هنا وهناك من نبات ومعادن وأشباه معادن . . .

ثم لنقارن بين موجودات الطبيعة ، ولننظر إلى مركز الإنسان بالنسبة إليها

جميعاً ، فسنبجد أن لكل خصائصه وطبائعه ، وما أحسبنا نختلف فى القول

بأن الإنسان أسمى هذه الموجودات كافة ، إذ يمتاز منها جميعاً بقدرة التصرف

وحرية العمل ، فهو الوحيد الذى يصنع الحضارة ، ويطور المدنية ، ويسخر

لمصلحته كل ما فيها من نبات وجماد وحيوان . .

هذه أمور مسلمة نخلص منها إلى هذا السؤال :

هل للطبيعة التى لا تعقل أن (تخلق) الكائن الذى يعقل !! ولنضع

السؤال بصيغة أخرى : هل لفقير لا يملك فلساً أن يهب لنا مليوناً من

الجنيهات !!

إن هذا البيت من شعر حبيب لجميل قوى ، ولكنه صورة مصغرة

من قوة الإبداع القائمة فى نفس الشاعر . . .

وهذا المصباح الكهربائى . . إنه لرائع مدهش ، ولكنه بما فيه من

دقة الصنع إنما ينطق بعبقريه صانعه وإدراكه الكبير لقوانين الطبيعة . .

ولا شك أنكم سترمون بالجنون أى مخلوق يجرؤ على القول بأن هذا

المصباح الكهربائى قد تألفت أجزاؤه على هذا النحو من الإحكام دون

أن تمتد إليه يد ! . . فما بالنا إذن ، بمخلوق يزعم أن صانع المصباح نفسه ،

بما فيه من دقة التركيب وفيوض المواهب قد وجد اتفاقا دون أن تمتد إليه يد خالق أكبر منه قدرة وحكمة ! .

واليوم قبل ساعة فقط كنت أستمع إلى حديث طبي من إحدى المحطات العالمية . . وكان الموضوع حول الفيروس والبكتيرية والفطريات وعجيب خصائصها . . ولعلكم تدهشون مثلى حين تعلمون أن الفيروس - مثلا - وهو لا يتجاوز الواحد من المليون من السنتيمتر ، يملك القدرة على تأليف الخطط ، واتخاذ الأشكال والأوضاع اللازمة لتنفيذها ، مما لا يتصور أدق منه في أكبر الحيوانات الأرضية ! . ومع ذلك فإن بعض المتحذلقين يريد منكم يا أبنائي أن تؤمنوا بأن كل هذه العجائب إنما وجدت من غير موجد ! . الحق . . . أن هذا كله إنما يوضح للعلاء ذلك الدستور الكوني الأعظم وهو أن كل ما في هذه العوالم إنما هو الشاهد الحى على وجود المبدع الذى هو وحده مصدر الوجود ، إذ ليس ثمة شىء مادمى يستطيع أن يخلق نفسه .

* * *

الواحد هو الأصل . .

ورأيت بعض الأيدى ترتفع رغبة في الكلام . . فأذنت لأحدهم فقال : إذا كان كل شىء دليلا على وجود الله أفلا يحق لنا أن نسأل ، لماذا لا يكون مجرد وجود الله دليلا على وجود مبدع وراءه ؟ . .

قلت : إن سؤالك هذا أشبه بسؤال تلميذ رأى بعينه أستاذه يحلل ثمانية عشر جراما من الماء ، فيفصل منها ستة عشر أوكسجينيا واثنين هيدروجينا . . ومع ذلك يقف هذا التلميذ ليسأل أستاذه : ألا يجوز أن يكون هناك عنصر آخر في الماء ! . .

ولكم تردد هذا السؤال على الألسنة من قبل ، فلنأخذ جوابه من الرياضيات نفسها ، ما دام حديثنا إنما كان بفضل من أستاذ الرياضيات . . أنتم تدركون أن كل عمليات الحساب قائمة على أرقام لا تتجاوز ما بين الواحد والتسعة . . ونحن من هذه الأرقام مضافا إليها الصفر نؤلف أى

مجموعة حسابية . قلت أو جلت ، وذلك بنقل الأعداد يمينا وشمالا ووسطا .
فالواحد على يمين الاثنين مثلا يساوى واحداً وعشرين ، كما أن الاثنين
على يمين الواحد يساوى اثني عشر ، وهكذا يتباين مدلول الأرقام
 باختلاف أوضاعها . . إلى آخر الخط . .

فلنأخذ الآن رقم ٩ ولنحلله إلى أجزائه . فسنجد أنه يتألف من الرقم
١ زائداً عليه ثمانية أمثاله ، وبهذا نترك أن الواحد هو أصل الأعداد
الصحيحة جميعاً ، فإذا انتقلنا إلى أجزاء الواحد $\frac{1}{2}$ ، $\frac{1}{4}$ ، $\frac{1}{8}$ ، $\frac{1}{16}$
إلى آخر ما يتصور من خط الكسر ، ثم نظرنا إلى مدلوله ، فسرى أن
الكسر بالغاً ما بلغ إنما هو جزء فرضي ، أوجدناه للاستعانة به على تحديد
المطلوب ، فلا مفهوم له إلا بالقياس إلى العدد الصحيح الذي هو الواحد
إذ يستحيل تصور الجزء إلا مقترنا به ، فنقول : واحد على اثنين ، كما نقول
واحد على مليون . . . وهكذا . . ومن هنا نترك أن أصل الكسر إنما هو
الواحد ، حتى الصفر إنما هو حد رمزي يستعمل بين عددين أو حالين ،
كما تستعمل الخطوط الوهمية لتقسيم مناطق الأرض .

بقليل من التفكير في هذا المثل أنها الأجزاء تقبضون على الجواب
المطلوب . . فكما أن الواحد هو أصل الأعداد جميعاً ، هكذا الخالق الواحد
لا شريك له ولا مثيل ، بأمره حدث الوجود ، وليس وراء وجوده وجود ،
إذ لا يتصور لوجوده بداية ، كما لا يتصور لوجوده نهاية : (هو الأول
والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ٥٧ - ٣) .

* * *

العلم طريق الإيمان :

بقى شيء واحد لم أجيبكم عليه هو موقف العلماء من الإيمان بالله . . .
فالحق أن العلم الصحيح هو طريق الإيمان بالله ، ويمكن القطع بأن البشر
مجمعون . منذ كانوا حتى تزول الأرض ، على ذلك ، لا يشذ منهم إلا
القليل النادر . . ولكن العين التي تمتد إلى أبعاد الآفاق فتبصر ملايين
الأشياء ، هي نفسها التي يملؤها المنظور الواحد مهما يكن صغيراً ، عندما

تقبل عليه وحده حتى يحجب عنها كل شيء آخر . . هكذا ترون الملحد مثلاً يحسب العلماء كلهم ملحدين لأنه محبوس في مستنقعات الإلحاد ! . .

ثم لتذكر أنه يستحيل إقبال المجموعات البشرية على الإلحاد ما دامت مالكة لحرية الاختيار . . . أما عندما يحجر عليها حتى لا ترى إلا من ثقب الإلحاد ، فطبيعي أن تجهل كل شيء عن الله . . . ولذلك يقول رسول الله : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . . .)^(١) .

والحق أن انتشار الإلحاد بين بعض الذين يحملون الشهادات الجامعية هذه الأيام ، إنما يعود إلى أسباب كثيرة أهمها اثنان :

الأول : إقبالهم على أفكار الملحدون دون غيرهم . . .

الثاني : وقوفهم من العلم عند الشاطئ ، فإن نصف العلم هو أخطر الجهل . . . وقدما قال سبنسر : إن العلم الصحيح ، الذي فات المعلومات السطحية إلى أعماق الحقائق براء من الإلحاد . . . وهو يرينا بكيفية لا تعادل صغر العقل الإنساني بازاء الخالق ! .

ولعل بعضكم قرأ كلمة هرشل الفلكي الإنجليزي الشهير : كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة على وجود خالق أزلي لا حد لقدرته . . فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم الذي هو صرح عظمة الله . . .

* * *

روادنا الروحيون .

وتمر الأيام فالشهور فالسنون على ذلك اليوم . . وتأتى مناسبة أخرى أجدنى فيها تلقاء وضع مشابه مع طلاب آخرين . . وكان الباعث هذه المرة آيات من القرآن ندرسها من مقررات المنهاج ، وفيها الحشر والحساب والثواب والعقاب . . ويتساءل بعض الحائرين من هؤلاء : كيف يكون هذا ؟ ! . .

(١) من حديث شريف رواه الشيخان عن أبي هريرة .

— قلت : ولم لا يكون هذا ؟ ! . .

غير أن طالبا أعرف إقباله على مؤلفات المصلين لم يتألك أن يجيب :
لأن العقل لا يؤمن بهذه الأخبار ! .

قلت : مهلا . . . وأى عقل تعنى ! . إن العقل يا بني اثنان : مادي ،
وهو الذي يقول فيه ديكارت : « إنه الهبة الوحيدة التي يتساوى فيها الناس »
ويتمثل بالقوة التي تعقل المعلومات الخارجية ، فتتولى تنظيمها ، وتحسن
بها محاكمة الأفكار الموضوعية . . ثم عقل إيماني زائد على المواهب المشتركة .
ينبثق من أعماق الضمير ، ولا يعرفه إلا الحر الذي يفتح قلبه لتور الله
ويروض نفسه على العيش في جوه ، حتى يدرك من الأنس به ما لا يدركه
أى كائن سواه . . . ونحن بهذا العقل الممتاز نتعرف حقائق العالم
المحجوب ، الذي يحدثنا عنه علام الغيوب . .

اسمع يا بني . . . إن هناك عالم الشهادة وعالم الغيب ، ولكل من
العالمين خصائصه وقوانينه . . أما الأول فهو ما تحسه من هذه الطبيعة مكشوفاً
لكل ذى بصر وفكر . . . كل امرئ يستطيع سبر غورها بنفسه ،
أو بتجارب الآخرين ، التي ليست في الحقيقة إلا وسائل للكشف الشخصي ،
تسدد الخطى إلى المعرفة من أقرب السبل .

أما العالم الآخر فهو غيب لا سبيل إليه بالحواس ، وإنما يستطيع
العقل المادي الاستدلال عليه بصورة مجملة ، فهو من دراسته لهذه الطبيعة ،
واطلاعه على نظمها ووقائعها ، وإيمانه بخالقها ، يدرك بالإجمال أن ثمة
حياة أخرى وراء هذه الطبيعة ، ولكنه عاجز عن معرفة محتوياتها تفصيلاً . .
وإنما يدرك هذه التفصيلات بوساطة الرائيين الذين أتيح لهم الإطلاع على
أسرار ذلك العالم ، وليس هؤلاء سوى النبيين ! .

كثيرون لا يصدقون بهذه الحقيقة ، لاشيء إلا لأنهم لم يروا بأعينهم
عالم الغيب . . وهم بذلك ينكرون قاعدة طبيعية أساسية في حياتهم . . وهي
أنهم لا يعرفون إلا القليل بطريقة الكشف الشخصي ، وأن معظم معلوماتهم
إنما جاءتهم بطريق الخبر عن الثقات أو غير الثقات ! . فأنا هنا أعرف جغرافية

ألمانيا وروسيا واليابان و . . . وربما استطعت تحديد موقع ما منها
وبعده عن مجلسي بصورة لا تنقصها الدقة كثيراً . . . كل ذلك دون أن
أكون رأيت أو لمست شيئاً من هذا عن غير طريق المصورات . وهذه
الأقمار الصناعية لم أرها قط ، ولكني موقن بانطلاقها عن طريق التواتر . .
فكيف يصح لهؤلاء أن يؤمنوا بكل ذلك عن طريق الخبر ، ثم يكفروا
بما وراءه ، مما جاءهم عن طريق الأنبياء ! . . « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه
ولما يأتيهم تأويله ! » ١٠ - ٣٩ .

الحق يا بني أن عالم الغيب ليس أكثر غموضاً وخفاءً من القطب الجنوبي
بالنسبة إلينا نحن الذين لم نرافق رواد القطب ، ولم نر بأعيننا تلك المجاهل . .
ومع ذلك نتلى بكل إيمان واطمئنان كل ما يقوله هؤلاء الرواد . .
لا لشيء إلا نقتنا بصدقهم ! . .

والأنبياء ليسوا سوى رواد كشفوا لنا عالم الغيب عن طريق الوحي ،
ثم جاؤوا ينبئوننا بتفاصيله . . وإذا كان ثمة من فرق بين روادنا الروحيين
وروادنا الطبيعيين ، ففي شيء واحد ، هو أنه قد يكون بين جماعة الدكتور
فوست^(١) مثلاً من يستهويه التزويد رغبة في الشهرة والمجد ، فيضم إلى الحقيقة
الواحدة عشر أباطيل ، أو قد يخطئ حسه في إدراك الشيء وتصوره فيخطئ
في وصفه ، على حين أن روادنا الروحيين معصومون عن كل هذا أو ذاك ،
لا ينطقون إلا بما رأوا وسمعوا . . « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا
منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ٦٩ - ٤٤ » . .

بقى أن نتأكد من صدق هؤلاء الرواد ونفحص أدلتهم ، وهذا أمر
ميسور نلمسه في الحقائق الخالدة ، التي حملوها إلينا منذ آلاف السنين ،
فكانت أكبر من الكون نفسه . . وفي القرآن وأخباره عن الطبيعة والإنسان ،
وما انطوى عليه من نظم شهد بكمالها أفذاذ القانون في العالم قديماً وحديثاً ،
وأيدتها الكشوف الحديثة ، أكبر دليل على أن هذا القرآن يهدي للتي هي
أقوم . . وأنه من رب العالمين . . نزل به الروح الأمين على قلب محمد
ليكون من المرسلين . . .

(١) قائد البعثة النيوزيلاندية إلى القطب الجنوبي عام ١٩٥٨ .

معنى النبوة :

قبل أعوام وفي أحد المصايف السورية جرى هذا الحديث الذي رأيت أن أسوقه هنا في معرض الكلام . . بل الدفاع عن الإيمان .

لقد ضم هذا المجلس يوم ذاك نفرا من شيوخ وشباب تعددت مساقط رؤوسهم ، واختلفت مسالك حياتهم ، ولكنهم اتفقوا على حب المعرفة ، واستهوتهم الرغبة المشتركة في بحث بعض قضايا الفكر ، التي أثارها دفعة التطلع إلى المجهول في صدور الكثرة من الشباب المتعلم . . وكنت واحداً من هؤلاء إلا أنهم لأمر ما جعلوني مركز الدائرة في موضوع المناقشة .

ولقد بدأت هذه الاجتماعات صغيرة على مقاعد المقهى ، ثم نقلت إلى الدور ، حيث أخذت تتسع حتى ضاقت بها الأفنية في بعض الليالي ، فانتشرنا على السطوح المتقاربة . .

وفي هذه السهرات الأدبية طرحت قضايا الإيمان والأديان والكتب المقدسة . .

وكان موضوع النبوة إحدى المشكلات الكبرى ، التي طرحت على بساط البحث . . وقد طرحت بلسان شاب أحاطت بقلبه الشكوك ، منصبه عليه من منافذ العقائد المنحرفة ، التي تريد أن تفرض نفسها كحل نهائي لكل عقد المجتمع ! . .

قال الفتي : لقد استراحت قلوبنا إلى الإيمان بوجود واجب الوجود ، بعد أن انهارت كل الريب التي تمجزنا عن هذه الحقيقة ، ولكن إيماننا بالله لا يفرض علينا الإيمان بالنبوة والنبیین ! . ودعني أعرض لك أفكارى بصراحة في هذا الموضوع فأنا أوقن بأن من حق الإنسان أن يكون حراً في اختيار ما يراه صالحاً من الأفكار والأعمال ، دون أي تدخل من خارج ذاته ومصلحة مجتمعه . . والنبوة إنما هي في أوامرها ونواهيها نوع من الوصاية السرمدية على الإنسان ، لا تعترف له ببلوغ رشد أبداً ! . هذا فضلا عن أنها متضاربة حتى لا تكاد تتفق ، فلكل نبي دينه وشريعته ،

ومن ثم كان لكل دين أتباعه المخاصمون لأتباع غيره ! . وهكذا تكون النبوة مصدرا لمتاعب البشرية ، والسبب الرئيسي لانقسامها وتفسخها . . كما أكد ذلك المعري في بعض لزومياته . .

وسرت هزة الاضطراب في أعصاب المستمعين ، كرد فعل لهذه الصراحة العنيفة . . ووجدت أنا فيها ما يستحق الاهتمام والتقدير ، لأنها في الواقع جاءت تلخيصا لكل شبهات المشككين في موضوع النبوة . . ولذلك عمدت إلى تحليل المقالة إلى عناصرها الرئيسية أولا ، ثم التعقيب عليها واحدا فواحدا . .

قلت : في كلامك نقاط ثلاث . . أولاها موضوع حرية الإنسان ومدى قدرته على الاكتفاء الذاتي . . وثانيها : موضوع النبوة وما تنطوي عليه من انسجام أو تناقض . . . وثالثها : نظرة المعري بخاصة إلى هذه المشكلة . . .

وأبدأ بثالثة هذه النقاط فأقول : إن رأى المعري في النبوة لا يؤثر على حقيقتها بشيء ، فهو حيناً يصدقها وأنا يشك فيها ، وتارة يهجم عليها بمثل هذا السباب الأحمق ، وفي جميع حالاته هذه لا يعتبر في الموضوع حجة لا سلبية ولا إيجابية . . على أن موقفه التصديقي من النبوة هو على أى حال أحق بالتقدير والقبول ، لأنه يتخذه وهو واع مطمئن يملك المعايير المنطقية ، التي تفرق بين الحق والباطل ، بخلاف موقفه السلبي ، فهو فيه مضطرب الفكر ، هائج العاطفة ، ناغم تأثر بمفاسد المجتمع ، أشبه شيء بذلك المخلوق الذي تسمعه في الأزقة يقذف بأرذل الألفاظ . وهو إنما يفعل ذلك في غياب العقل ، إذ يكون في غمرة من الانفعال العصبي تسلبه كل أثر للوعى . . وليس المعري في هذا إلا واحداً من الناس ، بل ربما كان أشدهم إسرافاً في الانفعال ، تصفو نفسه فيرسل نظر عقله صافياً في أطباق الكون . . ليعود بمثل هذه النفحات المحييات :

دعاكم إلى خير الأمور محمد وليس الأعلى في القنا كالأسافل
فصلى عليه الله ماذر شارق وما فت مسكا ذكره في المحافل

ثم تضطرب أعصابه فيزيغ بصره عن الحقائق ، حتى لا يستطيع النفاذ إلى ما وراء الأسوار ، فإذا هو يرى الناس بما تحفظه من تلك النفثات المهلكات - إذا صح أنه ناطق هذه النفثات - ! . . .
ونعود إلى أولى النقاط لنفحص حجة المنكرين للنبوة . .

* * *

حريتان :

وهنا لابد من تحديد مدلول الحرية بالنسبة للإنسان أولاً . . فنقول :
أن ثمة نوعين من الحرية ، أحدهما حرية التفكير بكل ما في الحياة من أسرار ،
وهي مظهر السمو الذي به يعرف الإنسان وظيفته من الوجود ، وبه يسيطر
على أزمة القوى الكونية التي سخرها الله للعمل بأمره . . وكل تحديد لهذا
الجانب من الحرية جريمة في حق الحضارة وبالتالي جناية على البشر جميعاً . .
فالإنسان في هذا المجال إذن بالغ الرشد لا وصاية عليه ، ولا حجر ، بل
كل شيء حوله مسخر لخدمته . .

ثم تأتي الصورة الأخرى لحرية الإنسان ، وتمثل في حق التصرف
بنفسه . . وبالأخرين من أبناء جنسه . . ويمكن عرض موضوع هذه الحرية
في العبارة التالية : هل الإنسان - فرداً أو مجتمعاً - أمين على مصلحة نفسه ،
وعلى مصلحة الحضارة ، وعلى مصلحة الكيان الإنساني ؟ ١٤ .

وما أظن الجواب على ذلك متوقفاً على الكثير من الذكاء . . فنحن
لا نكاد نجد فرداً من كل عشرة آلاف يعي نفسه ، ثم يحسن ضبطها ضمن
حدود الواجب . . فإذا التفتنا إلى المجتمعات الدولية واجهتنا أطباق الظلمات
بعضها فوق بعض . . فليس ثمة جماعة لا تحكمها أنانية الأفراد أو الأحزاب
وهذه هيئة الأمم ، وهي الصورة العظمى لأكبر حكومة عالمية ، تنوء تحت
كلاكل أصحاب « الفيتو » ممن لا يقيمون وزناً للإنسانية إلا بمقدار ما تؤمن
لهم من المنافع ! . .

وما أحسب عاقلاً يخالف برنارد شو فيما ذهب إليه حين قال : « إن
الإنسان الحاضر لم يرتق كثيراً من حيث المدنية والعلم ، فبناء البيوت لا يتغير

في ألف قرن بمقدار ما يتغير شكل قبعة المرأة في عشرين أسبوعاً ١ . على أن آلات الحرب التي لا تبقى ولا تذر لا يمكن أن تقاس بالقسي والسهام التي كان يستعملها القدماء . . .

ولو تأخر الزمن بتلك الجلسة إلى يومنا هذا لبادرنا فتانا بهذه الأسئلة :

هؤلاء الفوضويون الذين ذبحوا المئات من الأبرياء في الموصل . .
ودفنوا العشرات من الأحياء في كركوك . . وجروا جثث الشهداء في
شوارع المدن العديدة من العراق الشقيق . . أترام أماء على مصلحة أنفسهم
ووطنهم وإنسانيتهم ؟ ! . .

ولعل صاحبنا كان يجب : بأن هذا العمل فردي لا يعطي صورة
صحيحة عن حقيقة الإنسانية المتمدنة . . فنقول له إذن : وهذا الشعب المجري
الذي ثار لكرامته وحقه في الحرية والحيز . . ألم تر إلى الآلاف من الآليات
الروسية تقتحم عليه الدور والمدارس والأزقة لتخمد في صدره أنفاس
الكرامة ! . ثم لم تكف عن الفتك والتدمير حتى أحالت مدنه قبوراً لعشرات
الآلاف من الثائرين وغير الثائرين ! ! . . واليوم وقد اقتحم نصف مليون
شيوعي حرمة تشيكوسلوفاكية ، حتى ملأت آلياتهم شوارع المدن والقرى ،
تريد أن تخنق في صدور الملايين من أبنائها انتفاضة الحرية والشعور بالسيادة
في أرضهم . . أترى أصحاب هذه الدبابات ، وقد وصلوا بأجهزتهم العلمية
إلى دارة الشمس . . لا يصلحون أن يعطوا صورة صحيحة للإنسانية التي
تريدها ! . .

وما رأيك في مجازر الثورة الثقافية في الصين الحمراء ، حيث انطلقت
الغوغاء تفجر الدماء وتنشر الشقاء ، وتبث الرعب في كل شبر من تلك
القارة البائسة ؟ ! . . أليس وراء ذلك كله تدبير مفكرين بلغوا من قوة العلم
ما ذلل لهم مستعصيات الذرة والهيدروجين ، حتى أصبحوا مصدر الرعب
للعالمين ، ومنطلق الأفكار الثورية لكثير من (المثقفين) ! . .

ولو شئت لحشدت لك المئات من أمثال هذه الشواهد ، من زنجبار
وكينية وأميركة اللاتينية وعشرات الأقطار العالمية . . فضلاً عن الأقطار

الثورية اتقريبية . . وكلها ألسنة نواطق بأن الإنسان أخطر على جنسه من أن يعهد إليه بتقرير مصيره^(١) .

* * *

الوحي والعقل :

أجل يا صاح . . إن الإنسان هو الإنسان على مدى الأزمان . . قد يتقدم في مضمار السبق العلمى حتى يقتحم حرم الأفلاك ، ولكنه في الوقت نفسه يتأخر في مجال الخير حتى لتستجير من جرائمه الوحوش في الغابات . . ولا عجب في ذلك فالذى خلق هذا الإنسان زوده للحياة بالعقل والوحي ، فهو بالأول يكشف مخبات الأرض ، ويكتشف مجاهل السماء ، فينشئ المدنيات والحضارات ، وهو بالثاني ينظم هذه الطاقات لخير الحياة والإنسانية ، فيفقد نفسه وحضارته وقواه جميعاً في طريق الكمال . . الذى يحقق للإنسان في هذا الكون ملكوت الله . . وهكذا يكون العقل مع الوحي هما الجناحين اللذين بهما تخلق الإنسانية في الملأ الأعلى ، وأنت لا تجهل هول الكارثة التى يصير إليها النسر عندما يعترى التحلل أحد جناحيه . .

ولو قد أنعمت النظر جيداً فيما تقرأ وتسمع وترى من حياة الناس في مسالكهم المختلفة ، لأيقنت أن هذا الإنسان غير أمين على نفسه ، ولا على جنسه ، إلا أن يكون موصول القلب بأسلاك الوحي ، ملتزماً في سلوكه الخاص والعام أوامر الله الذى لم يخلقه عبثاً ، ولم يزوده بطاقاته الجبارة لعباً : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ! . . إن الله لا يهدي القوم الظالمين ٢٨-٥٠ » . ويبدو أن هذه الآية قد فاجأت الفتى بما لا يحتمل الصبر عليه ، فلم يدعى أمضى في عرضى قبل أن يعقب عليها بما خطر له ، فقال : اسمح لى أقاطعتك قليلاً . . لماذا يتهم بالظلم من لا يتبع محمداً ؟ . . أليس هذا منتهى

(١) وشاء الله أن أكتب هذه الكلمات بعد اطلاعى على أفكار صاحب (هذه هى الاغلال) فوجدت في هذه الحقائق خير تعقيب على اندفاعه المتهور في إيمانه بالعقل البشرى المجرد من ضابط الوحي . . . ولكن . . . من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل فلن تجد له ولماً مرشداً . . .

الحجر على حرية الفكر ! . . ألا يكفي أن يكون الإنسان خيراً حتى ينجو ؟ !
قلت : وسؤالك هذا ليس غريباً عن البحث ، فليكن جوابي متابعة له . .
إن الإيمان بمحمد ليس مجرد كلمة تقال . . ولكنه طريقة في الحياة
يهاجر بها الإنسان من عالم إلى عالم آخر ، في الخلق والمعاملة والسياسة والعلم
والاقتصاد . . . وطبعي أن الذين كفروا بمحمد إنما كفروا بطريقته
في الحياة . . وبما أن الله عز وجل أراد للإنسان الخير ، لذلك تعهده بالرسول
صونا له من مزالق الغي ، فشق له الطريق الصحيح الذي يعصمه من الشقاء . .
والإنسان بطبعه أعجز من أن يحيط علماً بكل شيء . . لهذا كان عاجزاً عن
تعيين الخير المطلق دون مقياس صحيح ثابت . . والإيمان بمحمد - مع
الأنبياء جميعاً - هو مقياس السواء . . هو الموصلة التي تعين اتجاه السفينة
دون أبحار زيف . . يضاف إلى ذلك أن الفرد ليس حراً أن يختار ما يشاء له
هوارة من طرق الحياة ، إذ هو فرد من جماعة ، فالطريقة المختارة يجب أن
يلحظ فيها مصلحة الجماعة على أوسع مدى ، وهي بهذا التحديد شيء
لا يمكن دراسته منفصلاً عن الأسباب الكونية جميعاً ، وهذا بدوره مستحيل
بالنسبة إلى الإنسان الذي لا يرى سوى الجانب القريب من سلسلة الأسباب ،
ومن ثم كان من الحكمة كل الحكمة أن توضع الطريقة من قبل الله الذي
لا يعزب عن علمه شيء . . وهذا ما ننبينه جلياً في قوله تعالى لنبيه : « قل
إن ضللت فإنما أضل على نفسي ، وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي - ٣٤ - ٥٠ » .
فنفهم من ذلك أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، وهو أهدى خلق الله ،
لا يستطيع الأطمثان إلى مواهبه وحدها في الاستدلال على الطريق الحق . .
ولا سبيل له إلى الهدى إلا باتباع ما يوحي إليه من ربه . ولو هو قطع عن
هذا النور لكان لزاماً عليه أن يخبط في الظلمات . . لا يعرف منها مخرجاً .
ولا يهتدى سبيلاً . .

* * *

وحدة الوحي :

وقلت للفتى الحائر :

والآن ننقل يا صديقي إلى بقية البحث . . لننبين معاً أمر الانسجام

أو التناقض في موضوع النبوة . . وقبل الخوض في هذه النقطة خاصة ، أحب أن أذكرك بأن قضية النبوة إنما تمثل في الحقيقة مظهر الامتياز الاسمي الذي أكرم به الله نوع الإنسان . . ذلك أن الله تبارك وتعالى يصطفى لرسالته إلى الناس عباداً منهم ، لا يمتازون عليهم إلا بشيء واحد هو أن الطاقات التي أودعها كل نفس إنسانية ، قد وصلت فيهم إلى المرتبة العليا من النضج ، فكانوا بذلك صالحين للتفاعل مع العالمين ، عالم السماء الذي منه يستمدون مبادئ الهدى ، وعالم الأرض الذي إليه ينقلون هذه المبادئ . . فهم كالدارة الكهربائية الكاملة ، تأخذ المدد من المولد لتمد به المصابيح والمحركات . . وبمقدار ما يتوقف نجاح العملية الكهربائية على صلاح المصابيح وتلك المحركات وقابليتها للانفعال ، هكذا يتوقف نجاح الأثر النبوي على سلامة القلوب الإنسانية من الفساد المخرب . . فيكون فيها القلب الذي لا يكاد يمس هذا المدد حتى يضاء ويضيء ، كما يكون بينها القلب المنطوق بالحرب ، الذي ماتت فيه كل قابليات الحياة والانفعال . . ومن أجل ذلك حدثنا الله بمثل هذا الخبر العجيب : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ١٧ - ٨٢ » .

وإذا علمت هذا يا صديقي كان طبعياً أن ترد بنفسك تلك الأوهام ، التي تربك النبوة مصدراً للخلاف والتضارب ، فما دام مصدرها هو الله الواحد ، كان طبعياً أن تكون واحدة في مبادئها وأهدافها جميعاً ، ثم تكون بذلك موحدة للإنسانية مؤلفة لقلوب البشر على الحق الواحد . . فإذا رأيت تدارب الناس من أصحاب الأديان ، وإذا رأيت تنازعهم على الدنيا ، فاحكم أن ذلك حصيلة بعد عن مفهوم النبوة . . هذا البعد الذي أحال النعم عذاباً . . والقلوب قفراً يباباً . .

ثم لقد رأيتك تخلط بين العقيدة والشريعة ، فن الخير أن تعلم أن العقيدة ، تعني مجموعة المبادئ الأساسية التي تصحح نظرة الإنسان إلى الكون ، فتجعله على بينة من أمر خالقه ، ومسئوليته التامة عن أعماله بإزائه . . وهي من هذه الناحية واحدة في جميع رسالات الأنبياء . . لا يجوز أن تختلف

في شيء من أصولها ولا من فروعها ، وكل اختلاف جزئي ، بينها في رسالة نبي وبينها في رسالة نبي آخر ، دليل قاطع على الحلل الطارئ على إحداها .

أما الشريعة فهي بعد ذلك . . مجموعة الأحكام التي ينزلها الله لتنظيم علاقات البشر ، من الناحية الحقوقية والجزائية والشخصية ، وهي لهذا صالحة للتطور بين كل رسالة وأخرى ، تبعاً لاختلاف أحوال البشر . فالحكم الذي يكون صالحاً في زمن نبي ، قد يبيت متخلفاً عن تطور الحاجة البشرية في زمان نبي آخر ، وذلك لأن الله إنما أنزله لظروف معينة ، فأعطاه بذلك صفة التوقيت الذي ينتهي بنزول الشريعة الجديدة بعده . .

ومن هنا كان الإسلام هو دين النبيين كافة . . وكانت شريعته هي الشريعة النهائية التي جاءت منسجمة مع الرشد العقلي ، الذي صار إليه الإنسان بعد مراحل التجارب التاريخية . . ومن عجيب أمر هذه الشريعة الإسلامية أنها تنبثق من أصول قليلة تؤلف كليات الأحكام ، وبتعبير آخر تحدد مجارى العدالة الثابتة ، فتعين للدولة الطريق الذي يريده الله ، ثم تدع لها ترتيب الفروع وفق الحاجة ، بشرط واحد هو ألا تنحرف في سيرها شرقاً ولا غرباً ، بل تظل متدفقة في خط الأصول التي تعين معالم الطريق . . وهذا ما دعا العلامة ابن قيم الجوزية إلى القول بأنه « حيث تتحقق العدالة فثم شرع الله . . » وطبيعي أن العدالة التي يعنيها ليست هي العدالة النسبية ، التي يتوهمها الإنسان باجتهاده الخاص وقد تجر وراءها عشرات المظالم . . كالعقار الذي لا يعالج نوعاً من الأمراض حتى يشحن الجسم بأنواع ما كان ليعرفها من قبل ، وإنما هي العدالة المطلقة ، التي تلحظ في أحكامها ما دق وما جل من الملابس والعلائق الفردية والاجتماعية والإنسانية معاً ، مما لا يمكن توفره في عالم الإنسان ، إلا إذا قام على أسس من المدد الرباني . . ذلك لأن الله جل شأنه هو المصدر الحيادي الوحيد الذي فيه صلاحية إعطاء الشريعة الكاملة التي لا تحابي فرداً على فرد ، ولا حزباً على حزب ، ولا دولة على دولة ، بل تهيب بالمؤمنين جميعاً أن « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . . إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ٤ - ١٣٥ » . .

وهكذا يتبين لنا يا صديقي أن الإيمان بالنبوات جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله ، لأن النبوة هي النور الذي يضيء أبداً ظلمات الحياة ، فيبقى الإنسانية عثار الطريق الطويل . . وأن النبوة أخيراً توحيد وتجميع وتوكيد للأخوة العميقة النازمة لأجزاء الإنسانية . . فلا سبيل إلى التعارف والتلاقي والعدالة الصحيحة إلا في ظلها وعلى أساسها . .

ولا شك أن الإنسان الذي يؤمن بالله ، ثم ينكر سلطانه عليه ، وحقه في توجيهه ، لا يقدره أدنى تقدير ، بل يستخف به ويعتبره من الهوان في المكان الذي لا يقبل أن يوصف به أضعف مخلوقاته . . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . .

* * *

هداية وقيادة :-

على أن النبوة علاوة على كونها هداية ، هي في الوقت نفسه قيادة ، بل هي في نظر العقل المجرد أصل القيادات الإنسانية جميعاً ، وكل قيادة يجب أن تكون ممثلة لها في سياسة الخلق ، لأن هؤلاء عيال الله ، فلا حق لأحد منهم في السيطرة عليهم ، إلا لغرض واحد هو السهر على رعاية شئونهم ، وتأمين نصيبهم من العدالة ، وجمعهم على الحق الذي هو قوام السموات والأرض . وأيما انحراف بالقيادة عن هذه السبيل يسلبها كل مسوغ شرعي للبقاء ، ولو حشدت لتأييدها أسلحة الأرض ، ومن ورائها جماهير المهرجين جميعاً . ولا يرد على هذه الحقيقة ما اصططح عليه الناس من شرعية حكم الأكثرية ، سواء كانت ظالمة أو راحمة ، فالشعوب في نظر الدين الإلهي ليست ملك الأقليات الطاغية والأكثريات الباغية ، حتى ولا ملك نفسها ، وإنما هي ملك لله وحده ، فلا سلطان عليها إلا بإذنه ولتنفيذ أحكامه . .

ولقد اعتاد الكثيرون أن يفرقوا عن عمد وعن غير عمد ، بين الإيمان بالنبي وبين الطاعة له . . فترى الواحد مطمئن القلب إلى صحة رسالته ،

ولكنه منصرف عن روح هذه الرسالة في ميدان التطبيق ، حتى ليقطع كل صلة عملية له بها ! . . . وقد نسي أن الإيمان الصحيح إنما هو تعبير القلب عن الثقة المطلقة بصاحب الرسالة ، وفي هذه الحالة تأتي الطاعة للرسول تعبيراً كاملاً عن وجود هذه الثقة ، فلا إيمان بغير ثقة ، ولا ثقة بغير طاعة ، ولذلك يقول الله تعالى : «وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ٤-٦٤».

ومن هنا يتضح ما نقصد إليه من أن النبوة هداية وقيادة ، فهي من ناحية تبليغ لوحى السماء ، ومن ناحية أخرى تطبيق عملي لهذا الوحي . . . يكون فيه الرسول القائد المطاع ، والأسوة المتبعة ، فيتخذ المؤمنون من حياته مثلهم الأعلى ، الذى به يقتدون ، وعلى غراره ينهجون .

والإنسان - على شدة نزوعه إلى التمرد - أبرز مثل تضربه الفطرة على حاجتها إلى القدوة ، فالأسرة يقودها أحد الوالدين ، والمدرسة تقودها الإدارة ، والصف يقوده المدرس ، والجيش يرأسه قائده الأعلى ، والدولة يقوم على رأسها أصحاب الحل والعقد ، الذين يخضعون بدورهم لنظام الجماعة ، واضغط الأحداث الخارج عن ظروف إرادتهم . . .

وليس هذا فحسب بل إن للناس جميعاً وراء ذلك ضروباً من القيادات التى تتحكم فى أخلاقهم ، وتمثل فى الأشخاص والجماعات ، الذين نتخذ منهم أسوتنا المحكية فى سلوكنا اليومى . . . فالمرأى الذى يزين جدران غرفته أو حانوته برسوم الخلقاء من صعايلك السينما أو الغناء ، إنما يعبر عن إيمانه بمثالية هذا الصنف من المخلوقات ، فهو يتخذ منهم القدوة فى جميع مظاهره ومسالكه . . . والأنثى التى تتبع صحف الأزياء الوافدة من الغرب ، إنما تعبر عن إيمانها بمثالية هؤلاء المأجورات الموزورات من عارضات الأزياء ، اللاتى تحاول جهدها التقرب من مستواهن فى الثوب والكعب وما إليهما ! .

وهكذا القول فى (التابع) الفكرى الذى يتعقب خطوات (زعيمه) حتى فى طريقة الكلام وعلك الأوهام . . . ونقل الأقدام ! . . .

وإذا كانت الأسوة أمراً لا بد منه بالنسبة إلى الإنسان ، فرداً أو جماعة ،
فخير الأسى أكملها وأجلها وأعلاها في مقاييس الخير المطلق ، ولذلك كان
النبي أسوة المؤمنين وقائدهم الذى لا يجدون السعادة إلا فى طاعته . . لأنها
فى الحقيقة طاعة لله ، الذى اصطفاه للقيادة ، وتعهد به بالتربية ، حتى كان
مثال الرائد الذى لا يكذب أهله ، والقائد الذى يسلك بجنوده طريق النصر .
« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ٣ - ٣١ » .

ولو أوتى الناس رشدهم ، وأحسنوا التفكير فى ماضيهم ، لأيقنوا أن
الإنسان لم يعرف الانتصار على الشر إلا بقيادة هؤلاء المصطفين ، وإن كان
ما تعانى به البشرية اليوم من ضروب الشقاء والبلاء إنما كان نتيجة انصرافها
عن طاعة النبيين إلى قيادة الطواغيت من الظالمين : « ألم تر إلى الذين بدلوا
نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . . جهنم يصلونها وبئس القرار .
وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله . . قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار
١٤-٢٨ و ٢٩ و ٣٠ » .

* * *

الشخصية الثابتة :

وألقت إلى القارئ لأقول له :

لقد تلخصت لك فى الصفحات الماضية ألواناً من البحوث جرت إليها
أسمار ما أحسبني قادراً على نسيانها ولعلى كنت أقل حضورها يومئذ ذكراً
لها بعد هذه السنوات . .

على أن من غريب الاتفاق أن أكتب اليوم هذا الكلام وبين يدي رسالة
من طالب جامعى عزيز ، يثير فيها من مشاكله النفسية ، ويعرض خلالها
من واقعه القلق ، ما يوشك أن يمحو الفاصل الزمنى : بين ذلك الأمس
وهذا اليوم ، حتى لكأنى أستمع من خلال رسالته إلى حديث ذلك الفتى
الذى فجر بحيرته أيامئذ كل هذه الخواطر . .

فهى إذن ضرب من تداعى الأفكار توقظه المناسبات المتماثلة ، فتكون
أشبه بالشرارة الصغيرة تسبب الحريق الكبير . .

ولذلك أراني مدفوعاً بحماسة المناسبة إلى أن أجعل من جوابي لهذه الرسالة خاتمة لهذا الفصل . . ولعلها أن تكون خاتمة صالحة لبحث يستهدف الدفاع عن الإيمان .

قلت لذلك الطالب العزيز :

. . . والآن إلى صميم الفكرة التي عرضت لها في رسالتك . . إن هناك عدداً من النقاط ، ولكنها تنتهي جميعاً إلى مصب واحد هو تلك اللجة من الصراع ، الذي شاء الله أن يدرب عليه كل نفس بشرية في مرحلة المراهقة ، التي قد تمتد إلى عدة سنين . وطبيعي أن هذا الصراع إنما يتفاوت قوة وضعفاً تبعاً للتفاوت في حيوية النفس ، وفي نوع تخصيصها . ولذلك أعتبر هذا النوع من الصراع دائماً وأبداً نتيجة طبيعية لدفقة الحيوية في نفس الفتى ، وإنما يقترب هذا الصراع من الهدوء بعد الغليان كلما اقترب الإنسان من النضج العقلي والروحي ، إذ يكون في عهد الشباب اضطراباً يخضع قوى النفس فتفاعل بالشك واليقين ، والألم والأمل ، فإذا انتهت إلى مرحلة النضج استحوالت طاقة جديدة ، مهمتها فحص الفكر المختلفة للوصول إلى أبعاد الحقائق في روية واطمئنان . وقد تشعب الطرق أمام النفوس في ذلك العهد القلق ، ويحتدم الصراع في بعضها إلى حد تضيق معه كل القوى الهادية ، لذلك كان لابد من إقامة السدود ، وحفر المجاري ، لتنظيم هذه الطاقات الإنسانية ، وعلى جودة هذه السدود والمجاري ودقة بنائها ، يعوقف الانتفاع بهذه الطاقة ، التي لا شيء أنفع لها من التنظيم ، ولا أضر لها من الفوضى . . وهنا يأتي أيها الأخ دور الإسلام الذي يقدم بتعاليمه الكاملة السليمة أفضل العون للنفوس ، إذ يشق لها المسالك المأمونة ، ويجنبها كل مضيق مضل . يقول الله تعالى في بيان حكمة الصوم : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ... لعلكم تتقون » ويقول تعالى في بيان وظيفة الصلاة : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . . » ويقول سبحانه : « واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . . » ومن هنا . . من هذه الإرشادات الإلهية نرى أن العبادات في الإسلام إنما هي وسائل ربانية لتربية النفس وتنظيم طاقاتها ، حتى

تكون في اتجاه تصاعدي دائماً وأبداً، وهو إذ يحرصها بهذه العبادات لا يقتل حيويتها ولا يضعف منها أبداً ، حتى تلك الغرائز الجنسية والشهوية ، لا يقف منها موقف العداء ، وإنما يعمل على تنظيمها ، فتتحول بذلك إلى طاقة بناء للحياة ، تماماً كما يفعل العلم بطاقة الذرة ، فهو حين يفك تماسكها لا يدع لها سبيل الانطلاق الفوضوي ، الذي من شأنه أن يخرب الحياة . وإنما يفتح لها سبيلاً تتدفق فيها قوى مخصبة وشفافة ومحركة . .

قدمت بهذه الكلمة لأذكر لك أنك قد أخطأت نحو نفسك كثيراً فيما مضى أيام هجرتنا أيها العزيز ، لتنعيم بصحبة أشخاص لم يفهموا هذه الحقائق ، فإذا أنت تنجذب إلى مجالاتهم الفارغة الخربة ، فتخسر أول ما تخسر لذة العبادة ، ونعمة الانتفاع بهذه التربة المحصنة من الآفات ، وتربح تلك البطالة الروحية ، التي لم تجد ما يملأ فراغها سوى قطعة الرد ، وذلك اللغو الذي كنتم تسمونه أحياناً « الأدب » . . ! وهكذا استمرأت نفسك ذلك الانحدار ، ثم فقدت القدرة على الانتظام في صفوف الربانيين ، الذين فتحوا قلوبهم لنفحات الإسلام :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تقطعه ينقطع

والسر من ذلك لا يجهله المحبتون ، يقول ربنا جل وعلا : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ١٨-٢٨ » .

لعلك تهمني بالقسوة في عتابك ، ولا قسوة هناك . . وإنما هي حقائق لا سبيل للتعبير عنها إلا بهذا الأسلوب ، فأنت إلى حبيب وعلى عزيز ، ولا أبيع لنفسى أن أضن عليك بشرة تجاربي ، وبخاصة في هذه الغمرة الحائرة التي تكتنفك من كل جانب .

لقد وصفت لي حياتك في ذلك الصراع الذي يجعلك أبداً متردداً بين توبة باكية وفسوق جارف . . وقد أحسنت عندما وصفت هذه الحياة

بأنها « زائفة » . . ثم أحسنت أكثر إذ وصفت لى ذلك الجو المسموم الذى يعيش - أو ينتحر - الناس فى ظله . فهم يصلون ويفجرون ، تشد بهم حبال خفية من إيمان الفطرة أو العادة . فتسوقهم إلى الصلاة والصيام ولكنهم لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم فى مخالب الموبقات . تعتصر بقية قلوبهم الجوفاء . . ! وكان من حقل أن تتساءل قائلاً : من ذا الذى يستطيع المحافظة على إيمانه فى هذا الجو المسموم ؟! . . ثم تحكم على نفسك عجلان بأنك قد انتهيت فلا رجاء فى خير لك بعد .

أجل لقد كنت بليغا فى عرض هذه المشكلات . وهذه الموبقات ، بيد أنك قسوت على نفسك كثيراً إذ يئست من استنقاذها ، وإذ حكمت أن الإيمان هرب من قلبك فلا رجعة له . . ! ولعمر الله ، إن كنت صادقاً فى حكمك على نفسك ، فبم تفسر هذه الدموع المقدسة التى تذرّفها ، كلما أصغيت إلى صوت الماضى ينطلق مجلجلا من أعماق فطرتك . . ! لا يا عزيزى إننى لأرى فى هذه الدموع وحدها سبيل النجاة ، إذا استطعت أن تضم إليها بعض نفحات القرآن .

بالتأكيد لست قادراً على تصوير هاتيك الأهواء التى تحيط بك بمثل ما صورتها أنت ، وليس فى وسعى أن أجد حكماً عليها أصبح من حكمك ، إذ أعطيها صفة الزيف الذى لا معنى له . . ولكن حسبي أن أقول لك هنا : هل تعتقد أن إنساناً يهتدى إلى مثل هذه الحقيقة فيكون ممن هرب الإيمان من قلبه . . ؟!

أجل يا عزيزى أنت فى مرحلة صراع ، بين حقائق آمن بها وروحك ، وأباطيل نسجت حولك مخافات هذه الأشباح التى يسمونها (الناس) وما هم إلا (زى الناس) . . وإنما يعوزك شىء واحد ليكون صراعك مجدياً صائراً إلى الاستقرار الكريم الحكيم . . ذلك الشىء هو أن تعيد النظر فى حقائق الإسلام لتصحيح نفسك على ضوءها ، ويومئذ ستعلم شيئاً جديداً هو أن المؤمن الواعى لهذه الحقائق هو وحده (الشخصية الثابتة) التى لا تفسدها الأباطيل ، ولا تخدعها الأضاليل . . وطبيعى أن العبادات الإسلامية

هي الباب الذي يجب أن تلججه للاطلاع على هذا العالم الرباني الرحيب ولكن عليك أن تعلم يا عزيزي أن هذه العبادات لن تقدم إليك الرى الذى يطيق ظمأك ، إذا أنت أقبلت عليها كما يقبل الناس ، فارغة قلوبهم من معانيها . يقومون بها بدافع من العادة وحدها . . ولعلك تعلم أن المسلمين لم يفقدوا جمال هذا الدين إلا يوم حولوا العبادات إلى عادات ! . .

إنك تستنصحنى وتستشيرنى ، وبذلك تحسن بن الظن ، فعلى أن أخلص لك النصيحة وأصدقك المشورة ، فأول ما عليك أيها الأخ العزيز أن تغادر سكنك ومن يساكنك ، إلى مكان تسمع فيه ذكر الله صباح مساء ، وتجد فيه من يذكرك إذا غفلت ، وينبهك إذا سهوت ، ويقيلك إذا عثرت ، يحبك لله ، ويشدك إلى الله ، فان الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . . ثم عليك بعد هذا أن تتخذ من القرآن غذاء لروحك ، فتكثر من تلاوته وتدبر آياته ، والفطنة إلى إشاراته ، فإنه مائدة الله أتاحها لعباده ، وحجب بها من أراد له الخير ، فضلا عن أنه الجديد الذى لا يبلى ، والمعجز الذى لا تنفذ عجائبه ، فلئن فعلت هذا لتجدن فى القرآن ما يمدك بعون جديد يجدد حياتك ، ويضاعف نشاطك ، ويكشف عن عينيك ظلمات الأوهام فتنظر بنور الله ، ويومئذ سترى أن للحياة معنى ، وأن لها جمالا وأى جمال ، وستفقه حينئذ دعوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إذ كان يقول : « أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ونعمي » (١) . . ويومئذ فقط ستهتدى إلى الطريق القويم الذى يحسن بك أن تسلكه ، فلا تقول ما قلته لى فى رسالتك : من أنك ستهجر حياة الدراسة إذ لا فائدة منها سوى التعب والإرهاق . . ! لأنك ستحس بهذا الروح الجديد أنك تتعلم لشيء أسى من المادة ، وأكبر من حطام الدنيا كلها . . تتعلم لأن العلم من النور الذى حض الله عليه الإنسان ، وبهذا يتحول العلم نفسه وسيلة ذات هدف

(١) من حديث شريف أخرجه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه . . .

أسمى ، هو معرفة الله والتأمل في ملكوت الله ، ثم الانتفاع به في إصلاح عباد الله . . .

وحيث أنني أخيراً أقول لك : إن الحياة نور وظلام ، وصراع لا ينتهي بين الحق والباطل ، ويستحيل أن يؤثر ذو عقل سليم الظلام على النور والباطل على الحق . . . ولكن الطريق الوحيد لمعرفة الحقيقة المطلقة والتحقق بها ، لا يمكن أن يتوافر لكائن بشري إلا في ظل هذا القرآن الذي (يهدي للتي هي أقوم) ، (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) . .

ونختبم أود أن تفتح قلبك لهذا النداء الإلهي الذي طالما غير القلوب ، وكشف للمؤمنين الدروب ، فزالت ببركته عنهم الكروب والخطوب :
(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله . . !)
والسلام عليك ، أولاً وآخراً ، ورحمة الله وبركاته . .

حُرِّيَّةُ الْإِنْسَانِ بَيْنَ الْجَبْرِ وَالْإِخْتِيَارِ

البدء والخرافات :

كنت مع أحد المعلمين المتقاعدين في شرفة أحد الفنادق بدمشق ،
عندما أخذ يقص على هذه الحكاية الشعبية :

قال : كانت الحملة التتارية بقيادة تيمورلنك تعيش في أطراف البلاد ،
وقد فتكت بحلب ، وزحفت كالجراد المنتشر على مدن الشام ، تهدم وتحطم
وتقتل وتيّم . . فتصل أخبار الفجائع إلى دمشق موجعة مذهلة . .

ولما رأى الناس أن لا عمل للسلاح في هؤلاء الغزاة لجأوا إلى الأولياء
يستمدونهم الدعاء وكان هنا (إسكاف) من كبار (الأقطاب) لا يزالون
يرددون عليه بأخبار تلك الفجائع ، فيطمئنونهم قائلاً : لن يدخل العدو
دمشق . . وإذا حاول . فسأقضي عليه بهذا . . (. .) . . ويهز بوجوههم سكينه
الحديدية . . فيعودون وقد امتلأت صدورهم ثقة بالمستقبل ، ولم يجدوا حاجة
لأى إعداد ! . ثم لم تلبث جيوش تيمور طويلاً حتى كانت محيطة بدمشق . .

وتهافت الناس على الولي الإسكاف يقتضونه الوعد ، ولكن الولي
سرعان ما فاجأهم بالنبأ الرهيب : إن الله قد بدا له ^(١) . . وأبى إلا أن ينزل
غضبه على دمشق . . ! !

وقبل ذلك طالما سمعت في طفولتي من يتحدث بهذه القصة على وجه
آخر ، إذ تقول : (كان في دمشق ولي كبير يلوذ به الناس في الشدائد . .
ولما أغار التتار على الشام وعد الناس بالقضاء عليهم ، وخرج بمريديه
ينتظر وصولهم تحت الأسوار . .)

ولكن ما أن بدت له طلائع تيمور ، حتى أمر أصحابه بالانسحاب ،
وفتح الأبواب أمام الغزاة . . لأنه أبصر على مقدمة التتار ولي الله الخضر

(١) غير رأيه . . ومذهب البداء من النحل الفسالة التي ذرقرنها منذ العهد الأموي . . .

وهو في عدة الحرب ! . . فدهش من ذلك وقال له : (وأنت معهم ؟)
قال الخضر : والله معهم وملائكته وكل شيء . . .) !!!

وأنا على الرغم من أني كفرت منذ عهد بعيد بهذه الأساطير ، لا أزال أجد فيها وفي أخواتها تفسيراً لمعظم أسرار الإنحطاط ، الذي قاسته هذه الأمة منذ قرون . . فأول هذه الأسرار إنحراف جمهور المسلمين عن طريق الإسلام ، الذي أنزله الله ، إلى إسلام آخر صنعته أهواء الدسائس من الدجالين والجاهلين من دراويش التكايا ، الذين حولوا بخرافاتهم هذه الجماهير إلى أكذاس من الغناء ، لا تستطيع الدفاع عن نفسها بوجه أى اعتداء ! . .

وثانى هذه الأسرار تزييف عقيدة الفطرة ، التي جاء بها الإسلام ، تحريراً للإنسان من أشراك البدع والانحرافات والأوهام ، ليرد إليه اعتباره المسلوب ، وليطلق مواهبه للعمل في ملكوت السماء والأرض ، طليقا من كل عبودية لغير ربه . .

أجل . . إن هذه الأساطير لتعطى صورة صادقة عن عقلية هذه الجماهير أثناء الغزو التتارى ، تتلاقى إلى حد بعيد مع الأخبار التاريخية الصحيحة ، التي نقلها إلينا ابن الأثير في كامله ، عن تلك المدينة الإسلامية شمال العراق ، إذ دخلها التتار دون مقاومة ، ثم مضى الغزاة المتوحشون يحصدون أهلها ، لا يدفع أحدهم عن نفسه ، حتى بلغ الأمر أن الواحد من التتار كان يدخل الشارع الأهل ، فلا يزال يفتك بالناس إلى أن ينكسر سيفه ، فيعمد إلى الحجارة يحطم بها رؤوسهم ! . وربما دعا الواحد من ضحاياه ، فيشير إليه بالاستلقاء ، ثم يذهب في طلب الحجر المناسب ، فلا يرفع هذا رأسه حتى يعود التتارى إليه فيقضى عليه . . .

وما كان العرب والمسلمون قلة بالنسبة إلى عدد الغزاة يومئذ . . وما كانوا لينقصهم السلاح بالقياس إلى عتاد العدو : . . ولكنهم كانوا يمثلون النفوس التي أفسدها الترف وحطمتها الميوعة ، وفقدت الدوافع الروحية التي تزود أصحابها بالمدد الذي لا يغلب ، من الطاقات الحية والمفاهيم

المسدة . . أمام طراز من النفوس لا يزال سليماً من كل هذه المهدمات ،
فهو وليد الصعراء فيه صلابتها وفيه خشونتها ، وفيه ألفة الشطف الذي بات
جزءاً لا يتجزأ من وجوده . . فكان بذلك أقرب شيء إلى خصائص العربي
يوم خرج من جزيرته يفتح العالم المريض بالعزيمة السليمة الجديدة . . اللهم
إلا بفرق واحد هو أن التاري كان هداماً لا يصلح لبناء . لأنه لا يملك
المفهوم الصحيح لحقائق الحياة ووظيفة الإنسان ، فلم يترك وراءه إلا حطام
المدن وأشلاء الحضارة ، وأرضاً صفصفاً قد حولها إلى مقبرة كبيرة
للشعوب . . بينما العربي لم يغادر جزيرته إلا لينشر في الدنيا نور الله الذي
ابتعث العرب ليخرجوا عباده من عبادة العباد إلى عبادة وحده : ومن
ضيق الدنيا إلى بسعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام^(١) . . وبذلك
كان هذا العربي بناء يرفع قواعد الأخوة والحرية والسلام ، ويهدم ركائز
البهى والعصية والظلم .

• • •

سلطان العقيدة . . .

ومن القوانين الأساسية (أن يكون للعقائد القلية سلطان على الأعمال
البدنية ، فما يكون من الأعمال من صلاح أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة
وصلاحها . .)^(٢) . . وهكذا ترجم العرب الأولون ، من تلاميذ محمد
صلى الله عليه وسلم ، معاني عقيدتهم بأعمالهم ، التي كانت مثلاً لكل خير . .
حتى استطاعوا أن يرفعوا القواعد لأنبل حضارة عرفها تاريخ الإنسان . .
وطبيعى أن تنعكس الآية إذا ما تسرب الفساد إلى هذه العقيدة ، كما يحدث
عندما نبدأ حل المعادلة الجبرية من نقطة الخطأ . .

وقد رأيت فيما قدمنا نبيل الانحراف الذى طرأ على عقيدة القضاء والقدر
لدى عامة المسلمين ، حتى كانت سبباً لانحيار قوتهم ، وانشلال طاقاتهم
إذ أصبحوا يعطلون القوانين الكونية فى الإعداد والاستعداد ، اعتماداً على

(١) من كلام ربيع بن عامر مع رسم قائد الفرس . .

(٢) من كلام السيد جمال الدين الأفغانى . .

سكاكين الإسكافين . . ويستسلمون إلى جلاذيتهم يقينا بأن ذلك قدر الله
الذي لا مرد له ! . . فكأنهم لم يسمعوا قط بقول القرآن العظيم :
« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . ٨ - ٦٠ » .

وقد يكون هناك بعض التطور قد بدأ ينظف عقيدة الإسلام في القضاء
والقدر من شوائب الدجالين ، فبردها إلى طريقها الصحيح ، كما هو
في الكتاب والسنة ، وأعمال الجيل الأول من تلاميذ المدرسة النبوية . . ولكن
الواقع أننا لا نبرح نصطدم بالكثير من رواسبها في أقوال العامة وأفعالهم . .
وإذا شئت أن تتعرف هذه الحقيقة فاسأل أيا شئت من منحرفي العامة عن
سبب انحرافه ، تسمع لفورك هذا الجواب التقليدي : (قضاء الله وقدره ؟
وأنا بدوري سألت قاتلين لم قتلتم ؟ . . وسارقين لم سرقتم ؟ . . وفاجرين
لم فجرتم ؟ ومقامين : لم قامرتم ؟ . . فكان رد الجميع واحدا : (إنه
قضاء الله وقدره !) وهي : (كاسات مقدرة . .) و (إذا وقع القدر
عمى البصر . .) ! . .

وأنا أعتقد أن ترك هذا الفساد العقدي يتركز في قلوب العامة ، من شأنه
أن يشل كل إمكاناتهم أخيراً في العمل لاستنقاذ فلسطين ، وتطهير أقطار
الوطن الإسلامي من أرجاس الغاصبين . . وحين أقول « العامة » لا أقصد
السوقة والأميين فقط ، وإنما أقصد الجماعات التي تعيش بمثل هذه العقلية
الخرافية في مختلف الأوساط والطبقات . . وأنا بمعالجتي الآن لهذا الوضع
إنما أرد في الواقع على مئات الأسئلة التي طالما سمعتها من معلمين وطلاب
ومثقفين . . .

* * *

نعم . . .

في الجيل الحديث نزعة إلى التمرد على كل قديم ، ولو كان هذا القديم
عين اليقين . . ومن ذلك موقفهم من عقيدة القضاء والقدر ، فأنت لا تكاد

تجد منهم معتدلاً في الحكم على هذه القضية ، وأقل ما يصفونها به : إنها خرافة معطلة لحرية الإنسان^(١) . . . !

ولا شك أن كل عقيدة تؤدي إلى تعطيل حرية المرء هي خرافة باطلة ، يجب تحرير الجنس البشري من ويلاتها . . على أن هذا يقتضي أن نكون على أتم الوعي في التقدير ، حتى لا يذهب البريء بجريرة المسيء ، وأول ما يجب أن نفعله هنا هو محاولة الحصول على الإجابة الصحيحة لهذا السؤال : هل نحن أحرار في هذا الكون !!! . .

وسؤالنا هذا ليس بدعاً في تاريخ الفكر . . لقد طرحه من قبلنا عدد لا يحصى من فلاسفة الأمم وحكمائها وجهلائها . . وانتهوا به إلى خلاف كبير . فكثير منهم أجاب عليه بالنفي المطلق ، وقليلون كان جوابهم الإيجاب المطلق . . وآخرون لا يقلون عن الفريقين قالوا في ردهم : نعم ولا . . .

ولا مجال هنا لعرض حجج كل من هؤلاء الفرقاء . . فلنكتف باستشراف الموضوع من زاوية الواقع ، الذي يحسه كل منا ، فلعله أصدق حكماً من كل ما قاله النظريون في هذا الأمر . .

(١) ومن غرائب هذا الانحراف في مفهوم « القدر » أنه اجتذب إليه بعض (الخرفين) من كانوا إلى عهد قريب من كبار دعاة التوحيد ، فراح يشهرها ويسخر من أهلها ، معتبراً الإيمان بها أحد (الأغلال) المقيدة لمقول المسلمين من الانطلاق والمشاركة في النشاط الحضارى . وقد جره هذا التحامق إلى تزوين الإلحاد والإشادة بأهله ، حتى ليزعم أن ليس في الإبداعات البشرية مكان لدى دين أيا كان ، بل هي كلها من نتاج الملاحظة ، الذين عولوا على جهدهم ، ولم يعبأوا بما وراءه من قوى إلهية ! . .

والمعجب في أمر هذا المفضل أنه لا ينجل من استعمال المغالطات لتثبيت سمومه القاتلة في نفوس الأغرار ، فهو يمهّد للبحث بمقدمة معقولة ، ثم لا يلبث أن يتفلسف نهائياً ليقرر ما يشاء دون ما حجة أو برهان . وكل هم أن يوم أولئك المغفلين أنهم سيكونون ضحية التخلف الدليل إذا هم سمعوا لأنفسهم بالالتفات إلى الدين . . ولا سيما الإسلام . . وأن ذريعتهم الوحيدة إلى كل مجد وعزة وقوة هي الانسلاخ التام عن كل مواريث النبوة ! . . ثم لا يستحي مع ذلك أن يختم تلك الصفحات الخمس عشر بادعاء الإيمان ، وتقديس الدين ، ولا غرض له من ذلك إلا التمسكين لسمومه الخبيثة أن تأخذ سبيلها في السريان إلى كل جنان . .

هذه الأديان السماوية كلها متفقة على دعوة الإنسان إلى تحقيق رسالته في الأرض ، باعتباره المخلوق الوحيد المسئول عن أعماله بين أهلها . . . وهي لذلك تلزمه تكاليف معينة من العبادات ، وحدودا معينة في المعاملات . .

ثم هذه القوانين التي تمثل عمل المدنية في تنظيم علائق الناس بعضهم ببعض ، والتي لا تخرج في واقعها المنطقي عن كونها تسجيلا لأعراف تواطئوا عليها من قبل ، أو استمدوها من الأديان نفسها ، هذه القوانين بما فيها من تحديد لحقوق الافراد والجماعات ، وبما تنطوي عليه من أحكام في المصالح والعقوبات ، إنما تنظر إلى الإنسان على أنه مسئول عن تبعة أعماله : صغيرا وكبيرا . .

وفي حياتك اليومية عشرات الملابس تؤكد هذه الحقيقة . . حقيقة المسئولية . فقد تختلف مع صديقك على موضوع ما ، وتثور أعصابك فتسبى إليه ، ثم تهدأ ثورتك ، وتسكن أعصابك فتندم وتعتذر . . وقد يتجاوز الخلاف حدود الإساءة إلى الإيذاء فلا يحى إلا بعقوبة في المال أو الجسد . .

هذه الأحداث والوقائع اليومية تتضافر للتأكيد على حقيقة أولية هي : إجماع السماء والأرض على حزية هذا الإنسان . . فالحرية وضمت على عاتقه التكاليف الإلهية ، وبالحرية فرضت على أعماله الأحكام القانونية ، وبالحرية كان مسئولاً عن كل صغيرة وكبيرة . . ولولا هذه الحرية لكان عبثا وجود الأديان وسفها تشريع القوانين ، وسفها قيام الآداب الاجتماعية بين الناس . . لكن هذا يا قارئى لا يعدو أن يمثل أحد وجهي الحياة . . فلنتعم النظر في وجهها الثاني .

* * *

لا . . . !

في الناس ذوو المزاج الناري ، لا يتمالكون أن يشتعلوا عند أول احتكاكة فيلذعون ويحرقون . . فعل النار عندما تلتقي بالوقود القابل للالتهاب . .

ومنهم الباردون الذين لا يعدون صفة الماء ، فهو يطفى النار ، ولكنه صالح للغليان إذا ما أخذ نصيبه من الحرارة الكافية .

ومنهم المتبلد أشبه شيء بطبيعة التراب ، قلما يرتفع إلى أعلى إلا بقوة الضغط . . ولكن فيه من مزايا الاحتمال ما يجعله صالحا للثقل من الأعمال .

وإذا كان التفاوت بين أمزجة الناس بالغاً هذا المدى من التباين ، فعنى ذلك أن مثل هذا التفاوت كائن حتماً في مجالات السلوك ، حيث يكون لكل فرد أو نوع عمله واتجاهه ونتائجه . .

ومن هنا تأتي التوزيعات البشرية التي تصنف الناس حسب مواهبهم ، حتى ليكون منهم الذى لا يصلح إلا للقيادة العليا ، ويكون فيهم الذى لا يحسن إلا رفع الأثقال . . ولا ظلم في ذلك ولا حيف ، لأن طبيعة التعقيد القائم في جهاز الحياة يقتضى مثل هذا التنسيق ، الذى يجعل لكل مكاناً لا يسد اختلاله مكان أخيه . . والعقل لا يستطيع تصور حياة يتساوى فيها جميع الأفراد بنوع الموهبة ، لأن حياة كهذه لا تتجاوز أن تكون حلماً مزعجاً . . وإلى هذه الحقيقة الرئيسية يشير القرآن الكريم إذ يقول : « . . ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ٤٣ - ٣٢ » فهي سخرية شاملة تريك كل فرد مسخراً ومسخراً في الوقت الواحد . . وفي الكلام المأثور : (الناس بخير ما اختلفوا ، فإذا تساوا هلكوا) !

والآن بوسعك أن تخلص بنفسك إلى حصيلة هذا التفاوت في أمزجة الأفراد وأنواع سلوكهم ، إذ بين لك أن هناك حالات لا يد للإنسان في تكوينها ولا تحويلها ، فالحال التي أنت عليها الآن إنما هي نتيجة سلسلة طويلة معقدة من الأسباب ، التي خرج معظمها عن حدود تفكيرك واختيارك . . بعضها يعود إلى الوراثة وبعضها إلى المجتمع ، وبعضها إلى الفطرة وهكذا ، إلى ما لا يدركه حسابك من حلقات السلسلة . . !

هل أنت راض عن كل ما أخذته عن أبيك وأمك وأجدادك من الصفات أأنت ترى من يملك خيراً منها ! أو لست ترى في الناس من هو خير من أبيك وأمك صورة وذكاء وخلقاً ؟ . . لم كان أبوك فلاناً . . ؟ وأمك

لم لم تكن فلانة . . ؟ ولونك . . وشعرك . . وطولك . . وقوتك الجسمية والعقلية . . ألم يكن ثمة سبيل لتكوين خير منها !!
وهل تعتقد أن هذا كله غير ذي بال بالنسبة إلى سلوكك وكفايتك الشخصية ! . .

ومثل هذه الأسئلة تستطيع أن تطرحها على أى كان من الناس والحيوان والطير . . وها هو ذا أبو العلاء يلتمس منك أن توجه بعض هذه الأسئلة إلى الغراب متحديا :

فقل للغراب الجون إن كنت سامعا أنت على تغير لونك قادر !
فماذا تتوقع من هذا الغراب لو استطاع الجواب ؟ . .

ولابد أنك قرأت يوما شيئا عن مركبات المادة ، وعن أبعاد الأفلاك ، ودورات الكواكب ، وعناصر الهواء ، فهل خطر للإنسان أن يتساءل :
لم حدث ذلك . . وعلى هذا الوجه دون غيره ؟ . . وماذا كان يحدث لهذه الكرة الأرضية لو اقتربت أو ابتعدت عن الشمس أكثر قليلا مما هي الآن ؟ .

بل ماذا كان يحدث لك أنت لو كنت تقرأ كلماتى هذه فى جو آخر أشد برودة أو أكثر حرارة مما يحيط بك . . أو كنت فى حالة من الجوع أو الشبع فوق حدود الاعتدال . . !

هذه أسئلة محرجة دون شك . . من شأنها القطع بجبرية الحياة إلى حد بعيد . . إلى حد حجب وجهها الآخر عن كثير من العيون المبصرة ، فراخت تزعم أن ليس للإنسان أى جزء من الاختيار ، وأن الحياة عوج محتوم لا مجال لتقويمه ، وأن من العبث صرف أية محاولة لتغيير الواقع الذى كان أو الذى سيكون ! . .

وقد ولد هذا الزعم مذاهب تمثلت فى (جبرية) قديمة و (وجودية) حديثة و (هيئية) مشهودة . وكثيرا ما بعثت القلق فى نفس أبى العلاء ، فأخذ يتردد بينها وبين ضدها ، فهو حينما يجزم بالجبرية فيصرخ يائسا :
ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا مماتى . . فهل لى بعد تنخير !

ثم يعود إلى الثقة بحكمة الله فيتوصل من ذلك ليؤكد مسئولية الإنسان :

تعالى الذى صاغ النجوم بحكمة عن القول أضحى فاعل السوء مجبرا

ولكنه مع ذلك ظل أميل إلى الجبر ، فهو يشير إلى ملامحه التى تواجهه فى معظم دروب حياته دون أن يستطيع لها تأكيدا أو نفيا (أرى شواهد جبر لا أحققه . . !) .

وما رأيك لو علمت أن الجبرية قد أصبحت اليوم عقيدة الكثرة من سكان الكرة الأرضية ، الذين اتخلوا مكرهين أو مختارين . من الفلسفة المادية دينا لا يؤمنون بغيره ! فهولاء يؤكدون لك أن الحياة الإنسانية خاضعة لطرائق الإنتاج ، وأن الأفكار والأخلاق نتيجة لازمة لهذه الطريقة أو تلك ، حتى الدين نفسه لا يعدو بنظرهم إحدى ظواهر الحياة الاقتصادية . وهم يدللون على ذلك بأن ظهور هذه الفكرة كان لازما دائما للمراحل الأولية والبدائية من حياة الإنسان ، الذى لم يؤمن بالله إلا بدافع الرغبة أو الرهبة . . . لذلك مثل لها بالمظاهر المتصلة بهذه المعانى ، حتى كانت مرحلة الزراعة ، وهى طبيعة الاستقرار المدنى الذى ربط الفكر الإنسانى بما وراء الطبيعة ، وذلك بدافع من الحاجة إلى الماء ، الذى لم يكن من سبيل لاستنزاله بأية وسيلة غير الاتجاه إلى ذلك المصدر الغيبي . . الأمر الذى أشرف على نهايته اليوم بدخول عصر الآلة . . هذه الآلة التى تنحصر حاجة الإنسان فى نطاق استجابتها وحدها . . فلمسة صغيرة لزر كافية لانطلاق آلاف الأجهزة ، ومن ثم لإنتاج الأكداش من المصنوعات ، التى كان يعجز عنها قبل الآلة آلاف المخلوقات . . وفى مثل هذا الجو الآلى تتلاشى - بزعمهم - فكرة الإله غير المتطور ، ليحل محله إله الآلة ، التى أصبحت وحدها صاحبة السلطان المطلق على الحياة . . . كما يتخرص هولاء الجبريون . . !

ولكن بين (نعم) تلك و (لا) هذه حقائق كبيرة سأحدثك عنها يا قارئى فى ما يلى . .

نعم ولا . . !

عرضنا فيما سبق إلى ظواهر الاختيار والإجبار . . ولحنا خلال ذلك أن أصبح المذهب هو أكثرها انسجاما مع منطق الفطرة ، وهو بالتأكيد ليس المذهب القائل بالحرية المطلقة ، ولا مذهب الجبرية الذى يسلب الإنسان كل اختيار ومسئولية . . ومن الحق أن نتعرف الآن حكم الإسلام فى الموضوع كما هو فى الكتاب والسنة . .

القضاء فى اللغة هو الحكم . . وفى الدولة هو التنظيم الذى يعطى الوقائع عقوبتها المناسبة ، أو حكمها المناسب . .

والقاضى هو الإنسان الذى يمثل هذا التنظيم ، صالحا للحكم بموجبه ، وإن لم يصدر حكما قط . . فإذا أصدر حكمه فى قضية فهناك الحكم المقضى ، إذ يكون قضاء بالفعل بعد أن كان قبل ذلك قضاء بالتقدير . .

وإذن فالقضاء — من حيث المفهوم الدولى — يمثل السلطة الحاكمة بالقانون ، وليس القانون سوى النصوص التى وضعها الشارع لأنواع الحوادث بطريقة محكمة ، عين فيها لكل مخالفة مقدرا وفق المصلحة العامة .

وإذا تدرجنا من ذلك إلى المفهوم الشرعى للموضوع ألفيناه أقرب شىء إلى هذا المدلول . . فقضاء الله حكمه الثابت الذى نستطيع تسميته بالقانون العام الذى يتناول كل شىء

أما القدر فهو من نفس المعدن . . إنه تفصيل الأحكام على قدر الوقائع . . وقد ورد التقدير فى لغة القرآن بمعنى الترتيب والأحكام (والقمر قدرناه منازل) (وخلق كل شىء فقدره تقديرا) (قوارير من فضة قدروها تقديرا . . .) وكذلك جاءت لفظة القدر ثلاثية من نفس الأسرة : (فقدرنا فنعم القادرون . .) (انا كل شىء خالقناه بقدر . .)

وإذن فلا حركة ولا سكتة إلا وهى محكومة بهذا القانون . فالإنسان الذى يلتقى بنفسه من أعلى ، سيسقط إلى أسفل حتما ، إلا إذا تعلق بمقاوم يمنعه من الهبوط ، وكل ذلك وما أشبهه يجرى وفق القانون الذى يحكم

الأجسام ، ومثل ذلك الأحداث المعنوية التي لا تخضع لمقاييس المادة . .
هي بدورها خاضعة لهذا التقدير القاهر . فكل استجابة لأمر مبدع هذا
الكون مؤدية إلى خير المستجيب . وكل مخالفة عن أمره صائرة به إلى
مقدارها من الشر . . وبذلك يتضح أن نتيجة كل عمل هي حكمه المقضى ،
مرتبة على ما سبقها من الوقائع ، فإذا أنت لم تفكر بالمخالفة ، ثم لم تنهض بالتالي
لتحقيقها ، لم يصدر عليك أى حكم . لأنك لا تنفك بريثا من المسئولية ،
فإن فكرت بالمخالفة دون أن تخرجها إلى الفعل كنت بحكم البريء . أما إذا
أتيت المخالفة دون تصميم سابق فإنما تتحمل من تبعها مقدار تهاونك
في التحرز منها ، كما لو كنت تجرب مسلسا في حاجز فأصبت إنسانا وراءه .
فإن لم تحكم كمجرم لفقدان التصميم ، وجب أن تحكم كمغفل لم تحسن استعمال
مواهبك ! . .

ومحصل ذلك أن قضاء الله بالتقدير غير قضائه بالفعل ، في الحالة
الأولى هو علم محيط بتفاصيل كل شيء كان ويكون . . ولكنه علم غير
ملزم ، أى غير مجبر أحدا على أى عمل من النوع الذى ترتب عليه المسئولية . .

وطبيعى أن علم الله غير علم الإنسان ، فأنت لا تعلم ماذا تكسب غداً ،
ولا تدرى بأى أرض تموت ، ولكنه تعالى عالم بكل ما سيحدث منك
ولك وعليك ، وهو محيط علما بما تكونه في أعماق نفسك من المقدمات
لعمل ما ، وهذا كله مكتوب لديه ، بمعنى أنه مكشوف لعلمه قبل أن
ينكشف لبصرك . . ولا عجب فنحن أفراد نمثل أدوارنا في مسرحية كبيرة ،
لا نرى منها إلا ما يتصل بنا مباشرة ، في حدود المكان والزمان . . فإذا
ذكرنا أن علم الله محيط بهذه الحدود كلها ، أدركنا أن ليس ثمة بالنسبة إلى
علمه أى فاصل بين حلقات الزمان الثلاث . . لذلك كان طبيعيا أن يرى
أجزاء التمثيلية كلها في الوقت الواحد . ولتقريب الفكرة تصور أن أناسا
بعضهم في قاعدة الجبل ، وبعضهم في السفح ، وأحدهم في القمة . . فهل
يستوى الجميع في مجال الرؤية ! . . طبعا لا . . ولا شك أن أتمهم رؤية

أعلامهم مكانا ، فإذا سجل هذا ما يبصره لم يكن يد أن يفاجيء الآخرين بجديد لا يعلمونه ، لأنهم لم يطلعوا عليه .

* * *

هذه الصدفة :

وواضح كذلك أن الأعمال ليست سواء ، إذ منها ما أنت مسئول عن تبعاته ، وهو الذى ينبثق من منطقة اختيارك ، فأنت مفوض بين إتيانه وتركه . . . ومنها ما أنت برىء من مسئوليته ، لأنه ينبثق من النظام العام الذى لست سوى جزء من آله الكبرى . ولا بأس أن أطرفك بهذا المثل الصغير الذى كثيرا ما تواجه مثله : سيارة من طراز معين يقودها سائق واع متزن . . . خرج بركبه إلى أحد المصايف ، وأثناء السير فوجئ بحشرة اندفعت من النافذة إلى إحدى عينيه فغرزت فيها إبرتها ، وكانت السيارة على رأس المرتفع ، فاذا هو يفقد وعيه ثم تكون الكارثة ! .

لابد أنك تتساءل معي : من المسئول عن هذا ؟ . . أما أنا فلا أستطيع الحكم قبل أن أعود إلى قانون السببية . . وهناك سارى عوامل لا عداد لها تتعاون كلها فى تنفيذ الكارثة . . هناك العلة التى اجتذبت الحشرة الجانية من وكرها ، وطبيعة الجو التى هأت لها الانطلاق من هذا المكان بخاصة . . ثم هناك سرعة السيارة التى لو زادت أو نقصت لاختلفت النتيجة . . ثم هناك موعد انطلاق السيارة ، فلو حدث فيه أى تبديل لكان جديرا أن يغير كل شيء . . ثم هناك مئات الأسباب لا تجد لواحد منها تعليلا شافيا^(١) . . وأراني مدفوعا إلى أن أحدثك بنجر فاجعة مر عليها حتى اليوم أكثر من عشرين سنة . . على أنها لا تزال عميقة الأثر فى نفسى كما لو حدثت صباح اليوم .

كان فى السيارة ستة عشر راكبا . . وقد وقفت فى بلد سورى بانتظار مسافر ترك مقعده ليأتى بحقيقته . . وضج السفر مستعجلين السائق لإنقاذهم

(١) أذاعت محطة بيروت قبل ساعات هذا الخبر : بينما كانت شاحنة ضخمة فى طريقها من سدنى فوجئ سائقها بعطسة أخلت توازنه فاذا هو يحتاج عمود كهرباء . . ويشب الحريق فى السيارة فيأتى على ما فيها من السجائر . . ويسقط بسبب ذلك ثلاثة جرحى ! . .

من هذا الحر . وجاء قاض يريد السفر فلم يجد سوى ذلك المقعد خاليا فاحتله
برغم صياح السائق والمعاون .. ويظهر أن صاحب الحقبة قد أبطأ قليلا ،
فلم يجد السائق سبيلا إلا أن يتركه بعد أن طار مقعده ! . وهكذا جرت السيارة
تدرج في طريقها . .

وأقبل الفتى صاحب الحقبة راكضا يلهث في اللحظة نفسها التي تحركت
فيها السيارة . . وراح يصرخ . . ويسب ، وقد امتلأ غيظا ونقمة ، واعتبر
القدر هو وحده المسئول عن تأخره ! . .

وما هو إلا ربع ساعة فقط حتى جاء النبا الهائل . . نبا احتراق السيارة
بجميع من فيها ، غير واحد استطاع أن يقفز من أحد الأبواب ، ليحمل
خبرها للناس ! .

لا أريد أن أقف طويلا على مجموع الفاجعة ، وإنما ألفت النظر فقط
إلى رجلين : أحدهما ذلك القاضى المسكين الذى امتطى السيارة رغم كل
معارضة ، معتبرا نفسه الغانم . . وذلك الفتى الذى تأخر لحظة ، ففقد مقعده
في السيارة ، ثم فقد نصيبه من الكارثة ، وهو يظن نفسه الخاسر ! .

من المسئول عن هذا التوجيه العجيب في حياة كل من الرجلين ؟ . .
من الذى ساق القاضى إلى حتفه ؟ . . ومن الذى رد الفتى عن هذا
المصير ! . . ولعلك تقول لى : هى الصدقة ! ! حسن . . ولكن ما الصدقة ؟

لقد اعتاد البشر أن يطلقوا اسم الصدقة على كل حادث عجزت وسائلهم
عن تحليله . . ومعلوم أن الأشياء كلما أوغلت في الدقة كان تحليلها أشد
عسرا . . وقد استطاع الإنسان أن يصنع الموازين التى ترن نقطة المداد . .
بيد أنها لا تزال عاجزة عن إعطاء أى حساب لثقل هذه النفحة التى تملأ
أنفك من عبير الزنبق مثلا . . فالغرام الواحد من العطر يتلاشى بفعل التبخر
خلال زمن معين ، فتعلم من ذلك أن كل ما استنشقت من شذاه كان شيئا
له وزنه ! . ولكنه وزن لا تتمكن من تسجيله أجهزة الإنسان . . فإنكارك
لحجم العبير كإنكارك لحجم البعير ! . . إنكار للواقع وإن كنت لا تملك
تقديرأ له . .

وهناك آلاف الحقائق ليس بوسع الإنسان أن يضع يده عليها ،
ولكنه يحس أثرها . . . وكثير منها كالأثير كان ركنا رئيسيا في القواعد
الرياضية ، التي بنيت عليها الكشوف الحديثة ، فلولا تقدير وجودها لاستحال
تحقيق الكثير من الأعمال العلمية . . .

ومع ذلك فإن أخى القوانين هي التي يجروا الإنسان على تجاهلها ،
ليقول : إنها المجهول الذي لا يمكن تسميته بأكثر من « الصدفة » ! . . .
غير أن هذه الصدفة ، على الرغم من أنف الإنسان ، لا تبرح هي المصدر
الأول لأخطر الحوادث الكونية . . . فالنار مثلا إنما اكتشفت بطريق الصدفة ،
إذ انفجرت لأول مرة من احتكاك حجرين أو غصنين في شجرة . . . فعرف
الإنسان طريق استحضار النار ، وإذا هي من أعظم موارد الطاقات ،
وأشدّها أثرا في حياة الإنسان . . .

والعقاقير الطبية إنما اكتشفت مفعولها بطريق الصدفة ، ولعل أول
ما عرف منها كان عشباً أكلته شاة مجروحة الفم فبرئ جرحها . . . فكان ذلك
سببا لمعرفة الإنسان أول المبادئ في تحضير الأدوية . . .

وهذا السلك البرقى . . . ألم يكن صدفة فوجيء بها الإنسان دونما سعى
أو انتظار ! . . . والبنسلين الذي أوشك أن يقضى على الكثير من الأمراض ،
إنما كان تحضيره لأول مرة بطريق الصدفة . . . إذ ظهر مفعوله في التهام
الطفيليات المرضية على غير ميعاد . . .

والذرة نفسها . . . ألم يكن تفجيرها على غير الفروض المتوقعة ؟ .
ذلك لأن التقدير العلمى كان يفترض أن يؤدي انفجار الذرة الواحدة إلى
انفجار كل ذرة تتصل بها . . . وإذا كان الكون كله في علوياته وسفلياته
يؤلف وحدة متماسكة ، من حيث اتصال الأجزاء ، لهذا كان طبيعيا أن
يتسلسل التفجير ، حتى يأتى على أجزاء الكون كله ! . . . وقد اعترف
العلماء أن (شيئا ما) قد حدث في مسير القانون الانفجارى . . . فحصر
مفعول التدمير في حدود معينة من المجال . . . ولكنهم لم يجدوا له تفسيراً
خارج منطق « الصدفة » ! . . .

وقد عرف عن أوتوهان عالم الذرة الألماني ، أنه كان يحاول إنتاج ذرة ثقيلة بإطلاق النيوترون على ذرة اليورانيوم ، فإذا الذرة نفسها تنفلق بدل أن تتضخم ، وإذا هناك شقان كل منهما يؤلف عنصرا مغايرا . ثم جاء الكشف الأعظم من هذا الانشطار ، إذ خرج به مقدار من الطاقة حدد بمئتي مليون فولط الكروني ! . . .

وهذه الطاقة التي انبثقت يومئذ بمحض (الصدقة) هي التي تردد صداها ولا يزال ، دويا هائلا في جنبات الأرض ، إذ كانت نقطة البدء في مرحلة جديدة من تاريخ الدنيا .

ولعلك لو تتبعت جميع القوانين التي تم كشفها للإنسان ، منذ أبعد عهوده حتى الآن ، لما وجدت أنها تتجاوز حدود هذه « الصدقة » ! . .

بقي أن نتذكر كون الصدقة هذه هي التي يعترف المؤمنون بأنها أحد مظاهر القانون الإلهي العظيم الذي يسمونه : (القضاء والقدر) فهم وغيرهم سواء في الشعور بوجوده ، ولكن الفرق بين الفريقين هو أن أحدهما آمن بما وراءه من الحكمة المدبرة ، فردده الى نفس المصدر الذي انبثق عنه كل الوجود ، بينما عجز الفريق الآخر عن التطلع إلى ما وراء حدود التراب فكفر بنعمة ربه . . . وأنكر كل حكمة في هذا التدبير ! .
ورحم الله القائل .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم !

* * *

خير وشر :

والحديث في القضاء والقدر يسوق بطبيعته إلى البحث في موضوع الخير والشر ، بل أنهما أكثر ما يذكران عند هذا الموضوع ، إذ تقع الحادثة فيختلف في تقديرها ، فإذا كانت مسيئة وصفت بالشر ، ثم جاء التساؤل : لم حدثت ؟ . وما الحكمة في حدوثها ؟ . . ثم يكون التسليم أو الضياع . .
وكثيرون من أصحاب النفوس الطيبة تنفر قلوبهم من نسبة خلق الشر

إلى الله فيقولون : الشر من أنفسنا والخير من الله . ثم لا يعلمون أن يجدوا من النصوص الإلهية ما يؤيد في ظاهره وجهة نظرهم ! .

والحق أن موضوع الخير والشر من التعقيد في الموضع الذي لا تنفع فيه النظرة العابرة . . إذ كثيراً ما تختلف على تحديد مفهوم كل من العنصرين ، حتى لمس الشيء الواحد خيراً وشرّاً في الوقت الواحد . .

. . من أروع ما قرأت لتوفيق الحكيم مقالة باسم « الحقيقة الكاملة » عرض فيها أفكاراً قيمة على لسان حكيم صيني ، جعله واحداً من سكان إحدى المزارع . كان لهذا الحكيم غلام وحصان ، وذات يوم فقد الرجل حصانه الذي أبعد في الغابات ، فجاء جيرانه يعزونه بمصيبته ، ولكن الشيخ يرد عليهم قائلاً : (وما أدراكم أنها مصيبة !) ثم يعود الحصان بعد أيام ومعه عدد من الخيول البرية ، فإذا بالجيران يقبلون لتهنئته بهذه النعمة . . ويرد عليهم : (وما أدراكم أنها نعمة !) .

وتمر الأيام . . ويسقط ابن الحكيم عن ظهر أحد الجياد ، فتكسر رجله ، ويعقبه ذلك عجزاً دائماً . . فجاء الجيران يعزون أباه الذي استقبل تعزيتهم بأولى كلماته . . ثم ما لبثوا إلا قليلاً حتى نشبت حرب طاحنة بين ملكهم وعدوه ، وسبق جميع الشباب إلى الحرب ، إلا المعطلين الذين كان بينهم ابن الحكيم . . وهنا أقبل جيرانه يهتونه بنعمة بقاء الولد إلى جانبه ، ولا ينسى هذا أن يرد على تهنتهم باستفهامه الحائر : (وما أدراكم أنها نعمة !)

وتقف القصة عند هذا الحد ، إذ كان معقولا أن لا تنتهي ، لو استرسل الكاتب في استقصاء ما يمكن حدوثه من مفارقات في حياة ذلك الحكيم . . فالواقع أن كل أحداث وجودنا ، دون استثناء صالح لأن نقول فيه إحدى هاتين الكلمتين : (ما أدراكم أنها نعمة !) . وما أدراكم أنها نقمة ! .) ومرد ذلك إلى (أن كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، وأن الإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر بين يديه ، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير

العزير العليم . . وإرادة الإنسان إنما هي حلقة من تلك السلسلة^(١) وقد مثل للحياة بنهر يجري . . فأنت لا تبصر منه إلا ما يليك ، فتحكم عليه بما تشاهد ، مع أن الحكم الصحيح ينبغي أن يلخص حقيقة النهر من منبعه إلى مصبه ! . ولو أن حشرة أعطت رأيها في عمود البرق وما عليه من الأسلاك ل قالت : ما أجهل الإنسان الذي يترك هذا للحر والمطر ! . وما ذلك إلا لأنها قصرت عن الإحاطة بمجموع الجهاز البرقي وأغراضه ، فجاء حكمها محدودا في شيء هو - بالنسبة إليها - غير محدود ! .. وإذا دل هذا كله فإنما يدل على النسبية في حقيقة الخير والشر . . فقصبة الصيني تعرض لك أربعة مشاهد . . لو أخذنا كلا منها على حدة لرأينا الصواب في كل من نظرات جيرانه . . على أنها بمجموعها أثبتت خطأهم في كل أحكامهم على أجزاء الحادثة ، وهكذا نستطيع سحب هذا النظر على مختلف الحوادث ، التي تتعجل الحكم عليها عادة . . ثم تأتي العواقب فيختلف فيها الرأي ، وأفرد مثل لذلك حادثة السيارة المحترقة . . أفلم يكن ركوب القاضى في تلك السيارة خيرا في تقديره ! .. وتختلف الشاب عن الركوب . . ألم يكن شرا محضا في نظر هذا الأخير ! ثم جاءت النتيجة بخلاف التصورين . . إذ انتهى الأول إلى الموت مشويا ، بينما انتهى الثاني إلى السلامة بتخلفه ! .

وليس لهذا وأمثاله إلا تفسير واحد هو : إننا جاهلون عاجزون . . لا نتجاوز في إدراكنا بعض الأحيان نظر الحشرة إلى عمود البرق ! ..

وقد لاحظ الجاحظ من قبل موضوع الازدواج في الخير والشر واللذة والألم . . فخلص من ذلك إلى اعتباره صورة من كمال النظام الإلهي في هذه الطبيعة (لأن المصلحة امتزاج الخير بالشر والضار بالنافع ، والمكروه بالسار ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلّة . ولو كان الشر صرفا هلاك الخلق ، ولو كان الخير محضا سقطت أسباب الفكرة ، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ، ومتى ذهب التخير ذهب التميز . . ولو استوت الأمور بطل التميز . . وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة .. ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه ،

(١) من كلام السيد جمال الدين الأفغانى في (العروة الوثقى) .

ولتعتلت الأرواح من معانيها^(١) وكذلك كان هذا الازدواج في نظر الفيلسوف الإيطالي الحديث (كروتشي) مجال العظمة الإنسانية ، إذ تتحول به الحياة إلى سلسلة ديناميكية من النضال المستمر وراء تحصيل الخير بالقضاء على الشر . . ولا سبيل إلى هذا إلا بالتصادم مع الشرور والأشرار ، إذ هذه هي الطريقة الوحيدة للظفر بالخير ، لا الزهد والعزوف ، وتجنب مواطن العراك ، ودعوى البراءة والطهارة الملساء^(٢) . .

• • •

الخطيئة الأولى :

ومما يتصل بهذا ما حدث بيني وبين صديقين من مثققي المسيحيين ذوي السلوك الديني . فقد تعرض أحدهما لموضوع الشر فوصله بالخطيئة الأصلية — على تعبيره — خطيئة آدم الذي بمعصيته لله جر الشقاء على نسله جميعاً ! . .

قلت : قد تكون معصية آدم سبباً في إخراجنا من الجنة إلى هذه الأرض ، ولكن لا أسمى هذا الخروج بنفسه شراً مطلقاً ، كما أني لا أستطيع الإيمان بتسلسله الوراثي في الجنس الإنساني . ولم يرض الصديق الآخر عن هذا التفسير فقال : كيف إذن توول النزوع إلى الشر في طبيعتنا ؟ . .

قلت : أما أنا فأؤمن بأن الإنسان يولد صفحة بيضاء . . والأحداث المختلفة ، مضافة إلى أثره ، هي التي تسيطر عليها قصته كاملة . . وأما نزعة الشر فهي بنظري من أعظم القوى التي زود بها الإنسان لبناء الحياة ، ذلك لأنها تمثل عملية الدفع الذاتي للعمل والبحث وللهدم والبناء . . ولو تصورت الإنسان خالياً من هذه النزعة لتصورته رماداً لا حرارة فيه ! . أجل يا صديقي إنها (ديناميكية) النضال الذي به تتحول هذه النطفة المذرة (الإنسان) عالماً من الطاقات الفعالة ، لا تفر لحظة عن الحركة والسعي والدفع والجذب ! . .

(١) انظر كتاب الحيوان : ١ / ٢٠٤

(٢) من مقال لعبد الرحمن بدوي في مجلة الكتاب .

ومن أجل أن نحيط علماً بهذه الحقيقة نفرض أن فصول الزمن قد أصبحت ربيعاً مستمراً ، أكله دائم وظله ، أكان من المعقول أن يفكر الإنسان بشق الجداول وعمارة السدود ، وإقامة الجسور ، وتشيد المصانع لإنتاج الأقمشة ، وتحضير الوسائل الملائمة لمختلف التقلبات الجوية !!

ثم نفرض أن الحياة قد نخلت من (شرور) الأمراض كلها . . أكان ثمة داع لازدهار الطب والكيمياء وعلم الحياة والجراثيم ! . .

لا يا صديقي . . ليس في النفس الإنسانية شر لا خير فيه . . . ولو قدرت أهمية هذه النزعة إلى الشر في عملية الحياة لشكرت الله على أن تفضل بها عليك ، كما تفضل بنزعة الخير سواء بسواء . ولأدركت ساعتئذ لم من الله على الإنسان بهذه الموهبة ، حين يدعو في القرآن للانتفاع بها في صراع الحياة فيقول : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) : ٩١ - ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ (١) .

أجل . . لقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها ، بأن أودعها حوافر الخير والشر ، ليزودها بأمضى سلاح في أروع كفاح ، الكفاح الذي يصقل مواهب النفس ليرز قدراتها الكامنة ، وهو سر تشبثنا بهذه الحياة ، وليس شيء أدعى إلى الانتحار من أن تفقد نفس الحى رغبة التفوق في معركة هذا الكفاح الحالد .

ولقد ورث الجنيس البشري عن أبيه الأول مجموع الصفات التي تمثل كيان الإنسان ، بما فيها من ملهات الخير والشر . . وهذه الصفات استطاع كثيرون من الناس أن يتسمنوا ذروات البطولة ، إذ كانوا مظهر الانتصار لكلمة الله في الأرض . وهذه الصفات نفسها سقط الكثيرون إلى حضيض البهيمية ، فلم يكونوا أكثر من هدامين لبناء الله ! . .

وأنا بهذه اليد أستطيع أن أشن أنواع الاعتداء ، وأشق صدور الأبرياء ، وبها نفسها أستطيع أن أضمد الجراح . . وأخفف الآلام . . وهذا معناه

(١) زكى نفسه : طهرها ، ودساها : أهملها وأفسدها .

أننا بموارثتنا الموهوبة نستطيع أن نسمو وأن نهوى : . وإنما يتفاوت الناس بمقدار إحسانهم وإساءتهم التصرف في هذه المواهب . . . والتصرف الناجح هو الذى يقوم بتأمين التوازن بين قوى النفس ، فلا تغطي إحداها على الأخرى ، ولا تتضخم واحدة على حساب هزال الثانية . وبذلك فقط يحقق الإنسان كماله المنشود ، ويتجنب الخلل الذى يهبط به إلى مزلق الوجود :

رب مستور سبته شهوة قد عرى من ستره وانتهكا
صاحب الشهوة عبد فإذا ملك الشهوة أضحي ملكا

وآخر ما أقوله يا صديقى أن من أعجب العجب أن يتخذ امرؤ من وراثة الصفات سيلا إلى القول : بأن الإنسان قد ورث عن آدم نزعته إلى المعصية . . . إذ لو صبح ذلك لوجب أن لا يلد المقامر إلا مقامرا ، ولا الزانى إلا زانيا ، ولا القاتل إلا قاتلا . . . على حين ترى الحياة مشحونة بالصالحين الذين ولدهم الفاسدون ، والعظماء الذين أنجبهم السخفاء . . . وكم من ناحات أصنام (كآزر) جاء من صلبه محررون للأثام من ربقة الأوهام والآثام . ولكن أحد الصديقين هداه الله لم يعبا بكل ما عرضت له ، وكأنه كان مشغولا من كل ذلك بما فى نفسه وحدها ، فإذا هو يقول : هنا نقطة الافتراق بيننا نحن المسيحيين وبينكم ، فأنتم تذهبون إلى القول بطهارة القطرة البشرية فتؤمنون بأن كل مولود يولد نقيًا ، ثم يأتيه الرجس من كسبه . . . فلما أن يستمر في طهارته فيسمو إلى الملأ الأعلى ، وإما أن يسقط به عمله فيهبط إلى ما تحت منزلة الأحياء . . . أما نحن فقد آمننا بإيماننا باتا قاطعا أن الإنسان يولد نجسا بما يرثه من صفات الخطيئة الأولى^(١) . . . ولا مطهر له إلا الإيمان بالمسيح — على طريقتهم طبعاً — ! .

* * *

الكسب والخلق :

ثبت مما أسلفنا تداخل العنصرين الخير والشر إلى حد يستحيل معه القطع بأن للشر وجودا مستقلا ، ومعنى هذا أن لا موضع للقول بأن الله غير خالق

(١) إلى هذا الاتجاه يذهب مؤلف كتاب « هذه هي الأغلال » إذ يرى القطرة البشرية مطبوعة على الشر المحض وإنما يأتيها الخير من الخارج فقط .

له ، لأن ذلك منته إلى الحكم بأنه غير خالق للخير أيضا ، ما دام الشيء الواحد في الوقت الواحد قد يكون خيرا من جهة وشرًا من جهة . . وإذن فالكلمة الآن حول مسئولية الإنسان في شأن هذا الشر . .

ويظهر أن حكيم المعرة قد اعتراه من الموضوع مثل الذي يعترينا منه . . لذلك نقرأ له مثل هذا القول :

لا ذنب للدنيا . فكيف نلومها واللوم يلحقني وأهل نحاسي^(١)
عنب وخمر في الانساء وعاصر فمن الملووم .. أعاصر أم حاسي !

فالمعري ينظر إلى الحياة فيجد فيها أكذاس الخلمات على اختلاف خصائصها وقيمها . . ثم ينظر إلى الإنسان فيراه حول بعضها إلى أدوات للتهديم ، فلا يشك أن الإنسان هو الجاني وأن الدنيا - وبتعبير آخر - القدر ، برئ من كل التبعات في هذا المضمار ! .

فهذا العنب أحد محتويات الطبيعة ، وليس ثمة مجنون ، بله العاقل ، يزعم أن وجوده شر . . ولكن زائفا من الناس يأبى إلا أن يجعل منه شرا ، فيعصره خمرا ، ويزينه للشاربين كأن يسميه مثلا (بيرة خالية من الكحول) ! فاللوم إذن منصب على العاصر والشارب فقط . . والمعري يوزع استفهامه لذلك بين الاثنين دون أن يذكر غارس العنب أو خالقه ، لأن براءة هذين لا يجوز أن تكون موضع شك . .

وأنت تستطيع أن تسحب هذا الحكم على كل ما يماثله من الحوادث ، فتحدد بذلك تبعتك في كل عمل خاضع للمسئولية .

ومثلا آخر . . تصور أنك دخلت مصنعا للعقاقير الطبية ، وأجلت نظرك في آلاف المستحضرات تقرأ على كل منها اسمه ومركباته وطريقة استعماله ، والحالة التي يستعمل فيها ، ثم رحت تلتهم من هذا أو ذاك على غير تقدير ولا مشورة طيب ! . . ولا تنس أن بين هذه المستحضرات سموما ثقيلة وخفيفة . . فهل تسمح لنفسك أن ترمي المصنع وصاحبه بتهمة الجهل أو العدوان ، إذا لم تحسن أنت أو غيرك . . استعمالها ؟؟ . .

(١) نحاس الإنسان : أصله وطبيعته . . .

هكذا تماما شأنك مع (مادة الشر) فهي مخلوقة بحكمة من الله ، فإذا رحت تصرفها في غير الطريق الذي عينه الشرع . كنت كذلك المغامر الذي لم يصدق الطبيب ، فراح يجرع السموم دون مبالاة ! . وبالطبع فأنت حين تقوم بهذا الشطط في استعمال السموم لا يصح اعتبارك خالقا لها ، ولكن يصح تسميتك مسيئا لاستعمالها . . وهذا هو تماما الحكم الذي يصدره الإسلام في هذه القضية . إذ يعتبر المعصية (كسبا) فيقول : — (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ٤٢-٣٠) (كل نفس بما كسبت رهينة ٧٤-٣٨) . والكسب ليس له إلا معناه المتبادر ، وهو انتقال الشيء من يد إلى يد . . فأنت تكسب عشر ليرات يوميا فيكون معنى ذلك أنها كانت مع سواك فانتقلت إليك . . فأنت إذن لم توجد لها من العدم .

أما مادة العمل فهي من خلق الله وحده (والله خلقكم وما تعملون ٣٧-٩٦) . وأوجهك بوجه خاص إلى ألفاظ الآية ، فهي تؤكد أن الله خلق قدرتنا على العمل كما خلقنا تماما . فإذا نحن فعلنا الخير بالقوة التي خلقها فينا ، وإذا فعلنا الشر فيها أيضا . . وهكذا ترى أن الفاعل وقدره الفعل ومجال الفعل . . كلها مخلوقات لله ، فليس للإنسان إذن سوى توجيه الإرادة إلى هذا أو ذاك من التصرف . . وفي حدود هذا التصرف المسبوق بالتصميم تكون مسئوليته عما كسبت يده . . وعلى ضوء هذا الإيضاح أيضا نفهم قول القرآن العظيم : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ٢١-٣٥) . . فهو مثلما (خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ٦٧-٢) خلق مادة العمل الصالح للخير والشر ، لا إلزاما بهذا وذاك ، ولكن امتحانا لمدى استجابتك إلى حوافز الخير من العقل الصحيح والقطرة السليمة والوحي المنزل على أنبيائه .

وعلى ضوء هذا المنطق الإلهي يجدر بك أن تنظر إلى موضوع المشيئة ، التي كثيرا ما يواجهك ذكرها في القرآن ، وبخاصة في مثل هذه الصيغ (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ٧٦-٣٠) (وما يذكرون إلا أن يشاء الله ٧٤-٥٦)

فأنت هنا أمام ما يسميه علماء المعاني (القصر) ، وهو قصر شيء على شيء آخر على وجه مخصوص كالشرط لا يتحقق جزاؤه إلا بعد تحقيق فعله . . وإذا فشيئتنا مقيدة بصدور الإرادة الإلهية سواء كان اتجاهنا نحو الخير أو الشر ! . ومن شأن هذا الارتباط أن يحدث مشكلة معقدة بنظر الذين لا يعلمون منطق القرآن . . والحق أن الموضوع هنا لا يعدو مدلول الآيات السابقة من حيث كون الأشياء جميعا مخلوقة لله ، محكومة بإرادته ، فالقوة التي تمثل مشيئة الإنسان ليست إلا جزءاً من كيانه الذي أبدعه الله فأحسن خلقه وتنظيمه ، فاذا ما تحرك هذا الكيان كله أو بعضه لعمل ما فلأنما يتحرك بما أودعه الله من طاقة العمل والحركة . . وطبيعي أن واهب القوة هو القادر على سلبها ووقف نشاطها ، فاذا عملت فعني ذلك أنه قد أطلق لها حرية العمل ، ولكن هذا لا يعني أنه راض بكل ما تعمل . .

فالمشيئة شيء والرضى بالعمل شيء آخر . . ولذلك نخبرنا سبحانه بأنه (لا يرضى لعباده الكفر) . . وقد سئل على كرم الله وجهه عن القدر فقال للسائل : (أخلقك الله تعالى كما تشاء أو كما يشاء ؟ . . أمحيبك كما تشاء أو كما يشاء ؟ . . أميمتك كما يشاء أو كما تشاء ؟ . . أميحشرك كما تشاء أو كما يشاء ؟ . . أميدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء ؟ . .) وبالطبع كان جواب الرجل على كل واحدة « بل كما يشاء . . » لذلك انتهى على بهذا الاستدراج إلى خاتمته الطبيعية إذ قال للرجل أخيراً : (قم فليس لك من الأمر شيء !) . .

فالتصرف المطلق في كل شيء إنما هو خاص بالله وحده ، وليس لأحد غيره كائناً من كان أن يتصرف إلا بمشيئة الله ، وفي حدود المجال المخلوق من قبله . . ونحن حين نفعل شيئاً فلأنما لنا فيه أثر الكسب فقط ، وما عدا ذلك فكله لصاحب الخلق مبدع الكل . . وقد وفق أعمى المعرفة إلى هذه الحقيقة أحسن توفيق حين قال :

لو كان لي أو لغيري قيد أنملة من التراب لكان الأمر مشتركاً^(١)

(١) من طرائف الشروح قول أحد مؤلفي الكتب الأدبية في تفسير هذا البيت : إن المعنى يتحدث عن الاشتراكية . . وكان ذلك بالطبع قبل فضائح الاشتراكية !

فتنة وبلاء :

وأرجو ألا يغفرك عليك مدلول لفظي « البلاء » و « الفتنة » فلا تقع في مثل تخطيط العامة عندما يفهمون الأمرين على أنهما شر محض . فالبلاء والإبلاء والابتلاء تكون في الخير والشر ، ومن ورودهما في معرض الخير قوله تعالى مثنيا على أبي الأنبياء إبراهيم : (إن هذا هو البلاء المبين ٣٧-١٠٦) فالبلاء هنا إنما هو إثارة الله لقوة الاحتمال في إيمان نبيه ليرفع درجاته في منازل الكرامة . . وكذلك قوله سبحانه في المن على المؤمنين يوم بدر : (. . وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ٨-١٧) وبهذا المعنى جاء البلاء والإبلاء في مديح زهير إذ يقول :

رأى الله بالاحسان ما صنعنا لكم فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

أما الفتنة فقد استخدمها القرآن للمدلول نفسه ، فآله يخبر عبده موسى : (قال فإننا قد فتنا قومك من بعدك ٢٠-٨٥) فتنة الله لقوم موسى امتحان ما يتظاهرون به من الإيمان ، وهي في كلمة موسى اعتراف بحكمة هذا العمل الإلهي في كشف بواطن النفوس ، كشفا يثبت نوع استحقاقها للمثوبة أو العقوبة . . وقد استعمل القرآن أيضا هذا اللفظ في نطاق الإيذاء بسبب العقيدة فقال : (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ٨٥-١٠ . .) (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ٢-١٩٣) (والفتنة أشد من القتل ٢-١٩١) وهو في كل هذا لا يعدو مدلول الامتحان المفهوم من سائر الآي . . لأن من نتائج هذا الإيذاء الكشف عن قوة العقيدة أو ضعفها في المتحنيين . وأحسبك توافق على أن من الخير للإنسان تعريضه للهزات النفسية ، التي تكون أفضل تدريب له على مواجهة الحزن ، والتمرس بأعباء المقاومة . .

وأنا أعتقد أن الله إذا أحب عبداً لم يدلله ، بل يقذف به إلى ساحة النضال ليستكشف بنفسه مواهب نفسه . . وبذلك يعده لرسالته التي لا يطيق تحملها ذوو النفوس الخرعة ، والقلوب الهلعة ! . والجندى الذي لا يستعمل قواه في العديد من المناورات ، لن يكون جديراً باقتحام الساحات . .

الصبر والنصر :

ومن هنا كان الصبر على البلاء - بنظر الإسلام - قرين الإيمان وهو إحدى ثمراته الناضجة . . وقد لاحظنا فيما قدمنا من الأمثلة ، أن كثيرا من مظاهر الكروب تحجب وراءها كل أمر محبوب ، وقلب المؤمن فقط هو الذى يدرك هذه الحقيقة ، لذلك كان صاحبه هو الإنسان الوحيد الذى لا تضعفه تقلبات الأيام ، ولا يصرفه غناء السيل عما رسب تحته ، فتراه هادئ الأعصاب رابط الجأش أبدا ، حتى فى أشد المواقف حرجا . . لأنه يقرأ فى كتاب ربه (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ٢-٢١٦) .

وقد وصف المتنبي وقفة سيف الدولة إبان معركة الحدث فقال :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فهو يرينا إياه فى قلب الخطر ، تمر به الأبطال حاملة جراحها ، وهو منطلق الأسارير ، كأنما حفظ من الموت فى جفن الموت ! . وإنه لموقف لا يتأتى لإنسان عادى ، لذلك يصور رأى الناس فيه على هذا الوضع الغريب :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم : أنت بالغيب عالم

وحقا أن موقفا كهذا لا يمكن تفسيره بألفاظ الشجاعة والعقل والحزم . . فلم يبق إلا أن يظن بصاحبه علم الغيب ! . وأنا شخصا لا أستغرب من رجل وقف حياته على الجهاد فى سبيل الله حتى كان يجمع غبار ثيابه من المعارك فى وسادة أوصى أن توضع تحت رأسه فى القبر . . . لا أستغرب من إنسان مثل هذا أن يثبت فى وجه زلزال تفر منه آلاف الأبطال ، وأن يكون ثباته مستمدا من اليقين المطمئن بأن الله لن يخذله ، مادام يجاهد فى سبيله ، فهو يثبت كى يفكر بالعمل الذى يجب اتخاذه ، لتغيير طريق المعركة تحقيقا لوعده الله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين ٣٠-٤٧)

وبذلك يتضح بجلاء كيف يصبح الإيمان بالقضاء والقدر مبعث القوة التي لا تقهر، إذ يؤلف بين نفوس المؤمنين وقوانين الحياة في انسجام مدهش، يملؤها بالطمأنينة في أخرج المناسبات، ويشحذ نشاطها الدائب في جميع الحالات . . . ويحصنها من اليأس، فلا تفرعها المثبطات، لأنها تعلم أنها ليست وحدها، وأن أزمة الأمور في يد اللطيف الخبير . . . قرب ظاهر نعمة كان طليعة نعمة، ورب غمرة بلاء انجلت عن الفرج والضياء :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

* * *

الهداية . . .

كثيرا ما تطالعك في القرآن الحكيم مثل هذه الآيات :

(من يهد الله فهو المهتد ٧ - ١٧٨) . . (ومن يضل الله فإله من هاد ٤٠ - ٣٣) (ومن يضل الله فإله من سبيل ٤٢ - ٤٦) . . وما أحسبك إلا وقفت طويلا تلقاء هذه المعاني، وقد امتلأت هما وهلعا . . إذ تتوهم أنك بإزاء أحكام قاطعة في سلب الإنسان كل قدرة على التخير . . فالهداية من الله مباشرة، والضلالة منه كذلك، والناس إما شقي قضى عليه بالضلال منذ الأزل، وإما سعيد كتبت له نعمة الهداية منذ سطر اسمه في لوح الوجود . . فلا جدوى بعد ذلك لعمل، ولا حصيلة لسعي . . والويل لمن يقف في وجه الأقدار . . !

وأول ما ألفت نظرك إليه هنا هو ما سبق أن عرضناه من الكلام على الجبر والاختيار، حيث تتبين من جديد أن القول بتعطيل حرية الإنسان بما يتنافى مبادئ الإسلام البديهة، وقد أريناك أن مجرد تكليفك دليل قاطع على حريتك، إذ لا يجوز الجمع بين التكليف والإكراه بحال . . والا اتهمت ربك بالظلم، وهو الذي يقول : (وما ربك بظلام للعبيد ٤١ - ٤٦) . . و (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ١٠ - ٤٦) .

ثم اقرأ معي قول القرآن : (. . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل، إما شاكرا وإما كفورا ٧٦ - ٢ و ٣)

ثم قوله الآخر : (وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا أعمى على الهدى ٤١-١٧)
ثم قل لي : هل تشم في كلتا الآيتين رائحة الإلزام بالهداية . . . إن الله
في الأولى يهدي الإنسان طريق الحق ، ثم يدع له أن يختار بين الكفر والشكر
. . . وفي الثانية يهدي ثمود . . . ولكن ثمود يؤثر الكفران على الإيمان . :
وهذا واضح الدلالة على أن الهداية هنا إنما هي مجرد الإرشاد إلى الحق
باقامة معاملة (لئلا يكون للناس على الله حجة) فلا أثر للإكراه ، ولا مظنة
للإلزام . . . تماما كما تقول : هديت فلاناً الطريق ، وأنت تريد أنك عرفته
إياه ودلته عليه ، ولا يفهم من ذلك أنك أكرهته على سلوكه . .

على أن الهداية قد ترد بمعنى الإلزام كما هي في فاتحة الكتاب (اهدنا
الصراط المستقيم) فالؤمنون هنا يسألون ربهم أن يربط قلوبهم بالهدى فلا
يزيغوا عنه ، كما ورد في الكلام المأثور (اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا
اتباعه . .) ولكن قلما ترد الهداية على هذا الوجه في أسلوب القرآن
بغير صيغة الطلب ، فاذا جاءت الهداية بهذا المعنى في صيغ أخرى فليبان
أن الله لم يفعل ذلك قط ، وأن الإلزام بالهداية مخالف لسنة تعالى ، وذلك
كما ترى في قوله : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ١١-١١٨)
و (. . لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ١٣-٣١) و (ولو شئنا لآتينا
كل نفس هداها ٣٢-١٣) . . وأنت ترى كيف قيد لفظ الهدى بحرف
الامتناع (لو) في جميع هذه الآيات ..

فهو إذن قادر على قسر الناس على طريق واحد ، ولكنه لم يفعل
رحمة وتكريماً لإنسانيتهم . . إذ ترك لهم سبيل استعمال الجهد الشخصي ،
ليتقاضوا مكافآتهم وفق العدالة ، ومن ثم ليسعدوا بشعرات انتصاراتهم التي
حققوها في معركة الحياة . . (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل
مثقال ذرة شراً يره ٩٩-٨،٧) . . .

وطبيعى أن الإنسان الكريم يفضل ألف مرة أن يترك له الخيار في
سلوك الطريق الذى يشاء على أن يقاد بخطمه إلى الجادة . . وإذا شئت فجرب

ذلك في طفل . . حاول أن تكرهه على طعام أو لعبة . . فانك ستحس بتمرده ، حتى تدعه لنفسه ، لأنه يأبى أن يتنازل عن استقلاله الشخصي لأية إرادة خارجية .

وقد رأيت كثرة من الناس تنسب إلى القرآن مثل هذا القول : (لا تهد من أحببت . .) ثم يفهمون من ذلك أن الله يأمرنا أن ندع الناس ، فلا نهديهم ولا ننصح لهم ! . . وقد جهلوا أنهم أحدثوا في الآية تحريفا حاد بها عن وضعها الإلهي ، إذ أن الله تعالى يقول مخاطبا نبيه : (إنك لا تهدي من أحببت . . ولكن الله يهدي من يشاء ٢٨ - ٥٦) فالآية - كما ترى - إخبار مصدر بالتوكيد ، يطيب الله به قلب نبيه ، إذ يراه حزينا لإخفاقه في إقناع من يريد هدايتهم بحقائق الدعوة ، فيذكره بالقانون الإلهي الذي حدد مهمة الرسول بأنه مذكر لا مسيطر . وأن الذي يحكم قلوب البشر هو الله وحده ، فليس لأحد من خلقه سلطان عليها . . فاذا ما قرأنا الآية مصحفة على طريقة هؤلاء العوام انتقل المعنى من الخبر إلى الطلب ، وتحول التذكير إلى نهى عن الإصلاح ! .

وعلى كل ففي صدر الآية توكيد لما أريناك من نفي الإلزام بالهداية ، وأما عجزها ففيه تقدير بأن هذا الإلزام لا يملكه إلا الله ، فهو وحده الذي لو شاء لسد على عباده كل منفذ غير طريق الهداية ، فيكرههم حتى يكونوا مؤمنين . ولكن شاءت حكمته ألا يفعل ذلك تكريما للإنسان وسموا به عن مرتبة الحيوان ! . .

* * *

والضلالة :

وننظر الآن إلى موضوع الضلالة ، ولعل البحث هنا أكثر تطلبا للدقة ، لأنه يتصل بفلسفة القانون الإلهي ، الذي يستشفه المؤمن من خلال التدبير الكوني العام . فالله سبحانه يقول : (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ١٥ - ٨٥) ويقول أيضا : (وما خلقنا السموات والأرض وما

بينهما لا عيب (٢١-١٦) وأقرب ما تقررة الآيتان أن هناك نظاما إلهيا شاء الله أن يقوم به الكون علويه وسفليه وما بينهما ، نظام تمثله في الأولى كلمة الحق ، التي تقابل نبي اللعب في الآية الثانية . . . وبمجرد ذكر النظام نتصور ترتيبا غائيا ذا وسائل وأهداف ، تجعل لكل من أجزاء الكون عمله في تحقيق الغاية الكلية ، وهذا من بدسيات العلم ، إذ أصبح مقرا أن كل شيء في هذه الطبيعة مخلوق بقدر (إنا كل شيء خلقناه بقدر ٥٤ - ٤٩) وأن ثمة قوانين قاهرة ، محكوما بها كل شيء في الكون ، من الجماد إلى النبات إلى الحيوان والإنسان ، وأية مخالفة لواحد من هذه القوانين ، جزئيا أو كليا تنتهى بكارثة على المخالف (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ٣٣-٦٢ ولن تجد لسنة الله تحويلا ٣٥ - ٤٣) .

هذا الماء الذى تجرى فيه الفلك غادية رائحة بما ينفع الناس . . لم يكن سبيل إلى الانتقال على سطحه لولا مراعاة السنن الإلهية في عمل الطفو والرسوب . . بل لم يكن سبيل إلى سبحك فيه لولا ما تدربت عليه من تطبيق لهذه السنن . .

ومثل ذلك القول في الطيران الذى كان مستحيلا لولا مراعاة قوانينه ، التى تقتضى حساب كل ما يتصل بمركبات الهواء وضغطه ، وثقله ، ومقاييس المقاومة ، وطبيعة الأجسام . . وليس في الكون شيء يمكن الإفادة منه إلا وفق قوانينه الثابتة ، سواء في ذلك أكبر الأجرام وأصغر الذرات . .

ومن القوانين الإلهية في نفس الإنسان أن سعادتها موقوفة على مدى انسجامها مع حقائق الحياة ، وإذ كانت هذه الحقائق مما لا يمكن للنفس إدراكه من زاويتها الخاصة ، إذ هى مفطورة على أن لا ترى من الشيء إلا ما يقابلها . . لذلك كان من كمال التنظيم الإلهي أن يسعفها بمخطط دقيق واضح ، يعين لها السبيل التى يجب أن تسلكها من هذا الكون .

ولك أن تتصور بن يديك آلاف الأجزاء لجهاز معقد، ومعه مخططة الذى يعرض لكل منها رسمه ورقه ومكانه ووظيفته .. فأنت هنا إما أن تجرى في تركيبه وفق التصميم الصحيح ، فتضع كل جزء موضعه المرسوم . . وإما أن تتركب رأسك فتلصق العين محل الأذن ، والأنف مكان الفم ، والرأس

موضع القدم ! . . ومثل هذا الانحراف عن تصميمات صاحب المخطط لا تستطيع أن تجد له اسماً أليق من (الضلال) . . فأنت به ضللت عن سواء السبيل ، وأنت إذن مسئول عن ضلالك بمقدار ما تعمدت منه ! .

ومن هذا يتجلى لعينيك تلك الحقيقة الكبيرة ، وهي أن أحد القوانين الإلهية في الأرض ، أن النفس الإنسانية تقرر هدفها الأخير من نقطة الابتداء — كما أسلفنا — فاذا باشرت سيرها في اتجاه ما ، لا تلبث أن تألف جوه فتتمضي إلى غاية المطاف . . إلا أن تعترضها عقبة تردّها إلى أول الطريق ، لتختار اتجاهها من جديد . . وطبيعي أنه لو شاء الله لغير من هذه القوانين ، فلحصر الأهداف كلها في واحد ، ثم لجعل جميع طرق الإنسان صائرة إليه كما يقول العامة (كل الدروب إلى الطاحون) .

وبهذا الترتيب الحكيم ، وبهذا الإلزام الجامع بين المقدمات والنتائج ، كان منطقياً القول بأنه تعالى هو خالق الضلالة ، كما أنه خالق الهداية . . وليس هذا بمسقط مسئولية الإنسان الذي اكتسب بإرادته وفعله ما شاء الله من هذه أو تلك .

أما أن يوجد في الناس من ينسب الإضلال إلى ربه ، بمعنى الإفساد لعمل خلقه ، فذلك هو عين الكفر بمنطق القرآن ، الذي يقول : (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ٩ — ١١٥) لأن مثل هذا التفكير صائر بصاحبه حتماً إلى نسبة كل سيئة إلى الله ، حتى ليردد ما قاله من قبله مشركو الجاهلية الذين كانوا (إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ٧ — ٢٨ !) فجبههم الله بهذا الرد العنيف الملجم : (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ٧ — ٢٨) .

ولربما صرفك إلى التردد في هذا الأمر ما تقرؤه من قوله تبارك وتعالى في مطلع سورة (محمد) صلى الله عليه وسلم : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ٤٧ — ١) فتذهل عن صدر الآية حتى لا ترى سوى نهايتها ! . فحاول إذن أن تتذكر أنك أمام « قضية » تامة لها مقدماتها ونتائجها الطبيعية ، فالإضلال هنا إنما هو نتيجة لازمة لتصرفات مليئة بالتصميم

على الفساد . . وماذا يستحق الكفر والصد عن سبيل الله غير الإضلال ! .
بل إن الإضلال هو صورة من الجزاء العادل للسلوك الذى آثره الفساد بعمله
اختياره . .

. . ولعل هذا يكون لديك أكثر وضوحا عندما تنعم الفكر فى هذه
الآية الأخرى : (يفضل به كثيرا ويهذى به كثيرا . . وما يفضل به إلا
الفاسقين ٢ - ٢٦) فأنت ترى هنا أن الإضلال والهداية متعلقان بمشيئة الله
وحده ، فحيث شاء وضع هذا أو ذاك ، ولكن لا تنس أنها مشيئة الحكيم
الذى تنزهه عن العبث ، فهو يهب نعمة الهدى للراغبين فيها والعاملين لها ،
ولا ينزل نعمة الإضلال إلا بالفاسقين الصادين عن طريق الله (الذين ينقضون
عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى
الأرض . . أولئك هم الخاسرون ٢ - ٢٧) .

وإذا تذكرنا المدلول اللغوى لمادة (ضل) و (أضل) ازدادنا ثقة بما
ذهبنا إليه ، فى الكتاب الحكيم (وقالوا : أنذا ضللنا فى الأرض . . أننا
لنى خلق جديد ٣٢ - ١٠ ١٩) فهم يتعجبون من خبر الوحي بأن الله
يجمع ذراتهم بعد أن تفرقت بملايين الذرات الأخرى ، ليردهم إلى الحياة
من جديد . فالإضلال هنا هو ذهاب الأجزاء وضياعها على غير هدى .
ويصف البحرى وقع نبلته فى جسد الذئب فيقول :

وأبعثها أخرى فأضلت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد

فالإضلال النصل تغيبه عن الأنظار بحيث لا يرى أين ذهب . . وهو
نفسه المعنى الذى نجده فى سائر استعمالات القرآن العظيم لهذه المادة فى
مقابل الضلالة . . فكما أن الاهتداء هو السلوك الصحيح فى الطريق الصحيح ،
فى ضوء الوحي ، فالضلال هو عكس ذلك ، سلوك الخابط فى طغياء
مظلمة ، إذا أخرج يده لم يكدرها . .

وعلى هذا وذاك يكون الضلال الذى يقدره الله على العصاة هو كما
أسلفنا العقوبة ، التى استحقوها بتعمدهم الخلاف عن طريقه ، إذ تعرضوا
بفسوقهم لغضب الله ، فسلبهم نعمة الاستقرار والسداد ، فاضطربت أعمالهم ،

والتوى تصورهم ومساء تفكيرهم ، فهم لا يعرفون إلى الصواب طريقا ، ولا يهتدون إلى السلام سبيلا .

والآن وبعد أن اتضح لبصرك مجال الرؤية في هذا الجانب ، ستفهم في عمق أكبر قول العليم الحكيم : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا . . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين .) ٧ - ١٤٥ . . .

فهؤلاء المتكبرون الجاهلون للحق ، المعرضون عن الرشدا ، المصرون على الغي^١ ، المكذبون بآيات ربهم . . أى حكم في حقهم أعدل من إغلاق الباب ، باب الهدى في وجوههم ! . .

فنحن إذن تلقاء قانون لا محاباة فيه . . إذ ليس الإضلال في هذا القانون سوى حصيلة الجهد الذى يبذله الضال ، فكان به موزع القوى ، مضطرب التوازع . . لا يعرف الطريق سوى إلى العمل السوى . . وبذلك صبح أن يوصف الله بكونه مضل هذا الفاسق . . على اعتباره سبحانه هو واضع القانون الذى قضى عليه بتلك العقوبة . . كما نقول : أعدمت الدولة فلانا . . لأنها نفذت فيه حكم الشريعة وفق جريمته التى استحق عليها الإعدام . فالدولة بذلك لا تخرج عن كونها ممثلة للعدالة ، والمسئول عن هذه النتيجة هو المجرم ، الذى خرق بسوء تصرفه حرمة العدالة ، فاستوجب عقوبة الموت . .

* * *

حقيقة التوكل . . .

وإذا كان الله خالق الخير والشر ، والضلالة والهدى ، فمن كماله ألا يلزم أحدا بشيء من هؤلاء ، وألا يقضى بالشر أو الضلال على أحد من عباده ، إلا بعد أن يرضى هو لنفسه ذلك . . ثم يسعى لكسبه مختارا . . وهذا ما نفهمه صريحا من قوله تعالى : (.. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ٦١ - ٥) فهو لا يقضى بالزيغ إلا على من آثره واتبع هواه بغير هدى من الله . .

وكذلك تجد هذه الصراحة نفسها في قوله الآخر : (فأما من أعطى واثقى ، وصدق بالحسنى ، فسيسره للبسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسيسره للعسرى)^(١) فأنت ترى هنا تسلسلا محكما ربط كل مقدمة بنتائجها ، فالمعونة على الخير وتقوى الله وتصديق الإنسان بكلمات ربه . . كل أولئك طريق الانسجام السعيد مع حقائق الوجود . . أما البخل والاستكبار عن الحق والتكذيب لرسالات الله ، فطريق الشقاء الأبدى الذى لا قرار معه ولا اطمئنان . . وهى هى الحقائق التى فهمها المؤمنون الأولون من رجال الإسلام لموضوع القضاء والقدر ، تمثلت فى حياتهم قولاً وعملاً ومنهاجا . . وهذا على بن أبى طالب يعود مرة من قتال فيتقدم شيخ من جنوده يسأله : (أخبرنا عن سيرنا هذا . . أكان بقضاء وقدر !؟) فيقول على : (ما وطننا موطناً ، ولا هبطنا وادياً ، ولا علونا تلة إلا بقضاء وقدر) . قال الشيخ : (أحسب عناثى عند الله . . وما أرى لى من الأجر شيئاً !) ولكن علماً سرعان ما نقض بحكمته ذلك الحكم اليائس ، ليرد السائل إلى القانون الذى أوشك أن يضل عنه ، فعقب على كلام الشيخ بقوله البالغ : (بل لقد أعظم الله لك الأجر فى سيرك وفى رجوعك . . ولم تكن فى شيء من ذلك مكرهاً ولا مضطراً . . ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب . . وسقط الوعد والوعيد)^(٢) .

وهذا كلام حكيم نشأ فى حجر النبوة ، وعاش حقائق الإسلام ، حتى بات حجة فى استنباط أحكامه ، وهو كلام واضح الدلالة فى توكيد ما ذهبنا إليه ، من حرية الإنسان ، وكونه خالياً عن كل إكراه فى أعماله المستولة . ولا ريب أن هذا ينقض إلى حد بعيد تلك المفاهيم السوقية التى تشذ عن صميم الإسلام ، حتى لتجعل الإنسان ريشة فى مهب الأعاصير ، لا سلطان له على سلوكه ! . . وقد حدث أن سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ناقتة : أيتركها ويتوكل على الله ؟ . فكان من حكمته صلى الله عليه وسلم أن يعلمه أن التوكل على الله لا يتم إلا بعد أن يستنفذ المؤمن جهده فى استعمال السنن الطبيعية ، وفى مقدمتها هنا تقييد الناقة بما يمنعها من

(١) الاستغناء هنا بمعنى الاستكبار ، والآيتان من سورة الليل : ٥ - ١٠

(٢) نهج البلاغة . .

الفرار ، لذلك قال للرجل : (اعقلها وتوكل)^(١) ويحضرني هنا ذلك الجواب النبوي الحكيم الذي رد به صلى الله عليه وسلم على أبي خزيمة إذ سأله قائلاً : أرايت رقي نسرقيها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها . . هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ . . » .

فقال صلوات الله وسلامه عليه « هي من قدر الله ... »^(٢) ففي هذا الجواب العجيب تقرير حاسم لكل جدل حول هذه الحقيقة الكبيرة ، وهي أن التوكل الحق لا يعدو استعمال القوانين الكونية على وجهها الصحيح . . فن جهل أو تجاهل هذه القوانين ، وحاول تحقيق مراده بما كسبها أو إغفالها صار مسعاه إلى البوار ، ولم يكن متوكلاً ، وليس له في هذه الحال من وصف إلا أنه لم يكن على ثقة تامة بالنظام الذي أقام الله عليه هذا الكون ، أو أنه - على أفضل الاحتمالات - على جهل مطبق بهذا النظام ، وهذا ما نفهمه صريحاً من الحديث القدسي الذي يقول تعالى فيه : (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)^(٣) وهذا عين الحق إذ (لو كانت المعصية حتماً لكانت العقوبة ظالماً . .) .

* * *

حجاج آدم وموسى (ع)

إن بحثنا كالذي نحن بصددّه تاهت فيه ملايين العقول ، واضطربت فيه مفاهيم المتكلمين ، منذ بدأ الإنسان يواجه تعقيدات هذا الوجود ، يقتضينا أن نقف قليلاً عند قصة نبوية تداولتها صحاح المجاميع ، وحرار في كتبها الكثيرون من مختلف أصناف المفكرين . . تلك هي قصة الحجاج الذي حصل بين موسى وأبيه آدم عليهما السلام ، والذي انتهى بإفحام الابن أمام حجة الأب .

(١) حديث « اعقلها وتوكل » رمز الترمذي إليه بالغرابة ، وانكره بعض الحديثين ، وقد قطع ابن حبان في صحيحه بصحة اسناده ، وفي رواية الطبراني بلفظ (قيدها) بدل (اعقلها) وقال فيه الزين العراقي : « ان اسناده جيد . . »

(٢) عن زاد المعاد ، وقد عزاه إلى المسند والسنن . .

(٣) من حديث طويل رواه مسلم ، وهو الرابع والعشرون من الأربعين النووية . . .

وخلاصة القصة كما أخرجها مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (تحاج آدم وموسى . فقال له موسى : أنت آدم الذى أغويت الناس ، وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال آدم : أنت الذى أعطاك الله علم كل شيء ، واصطفاك برسالاته ؟؟ قال : نعم . قال : فتلومنى على أمر قدر على قبل أن أخلق ؟ . .)

وقد تعددت روايات الحديث ، واختلفت بعض ألفاظه ، ولكن الاتفاق مجمع على أصول القصة ، وكأن ذلك الاختلاف بين بعض ألفاظها وبعض ، ضرب من التفصيل لما أجمل هنا أو هناك . ففى بعض الروايات (كتب على) بدل (قدر على) وفى بعضها الآخر (فم تلومنى ؟ . . فى شيء سبق من الله فيه القضاء قبلى ؟ . . .)

فوضع الاشكال فى الحديث محصور فى إقرار النبيين عليهما السلام أن المصيبة التى لزمّت البشرية بخروج آدم من الجنة ، كانت مسبقة بتقدير الله قبل خلق آدم . .

ولدى التأمل الدقيق فى نظم الخبر النبوى نلاحظ أن استفهام موسى (ع) كان منصبا على ناحية بعينها هى تسبب آدم فى إخراج ذريته من الجنة ، فالكلام أشبه بعتاب له على ذلك . فجاء جواب آدم على غاية من الحكمة إذ لفت نظر ابنه إلى أن بقاءه فى الجنة كان مستحيلا ، لأن الوقائع التى أدت إلى مغادرتها كانت قائمة فى علم الله ، بحيث لا يتصور حدوث شيء منها غير الوجه الذى حدث ، وكان على موسى ألا يفوته ذلك ، لأنه ضمن الأمور التى أعطاه الله علمها منذ أنزل عليه التوراة ، وكتب له فيها خبر آدم ، وما سبق فى علم الله من عصيانه وغوايته واستيجابه بذلك مفارقة دار الخلد . .

فظهر حجة آدم على عتاب موسى إذن حاصل من تذكيره ما نسيه من سبق العلم الإلهى بتسجيل الوقائع على ذلك النحو الحاسم الذى لا يقبل المحو . . وفى ذلك نقض قاطع لمذهب القدرية المنكرة لسبق العلم بالأشياء

قبل وجودها ، وزعمهم أن الله لم يقدر الأمور أزلا ، ولم يكتبها ، ولم يتقدم له علم بها ، وإنما يأتنفها علما حال وقوعها (١) . .

وما أحكم قول الخطابي في حديث موسى وآدم (ع) : قد يحسب الكثير من الناس أن معنى القدر والقضاء من الله هو الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ، ويتوهم أن قوله صلى الله عليه وسلم : (فحج آدم موسى) من هذ الوجه ، وليس كذلك ، وإنما معناه الاخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم . . وإنما كان موضع الحجة لآدم : أنه تعالى قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه وأن يبطله بعد ذلك ! . . (٢)

* * *

النور والظلمة . . .

ولعل من أخطر ما تضطرب فيه عقول الحيارى ما روى أحمد والترمذى عن عبد الله بن عمرو من قوله صلى الله عليه وسلم : (ان الله خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل فلذلك أقول : جف القلم على علم الله) (٣).

فها هنا مشهد المخلوقات وقد أخرجوا من العدم إلى الظلمة ، ثم أشرق عليهم نور ربهم ، فاذا هم فريقان أحدهما في ذلك النور ، وهو الذى أخذ طريقه إلى السعادة ، والآخر من حجب عنه ، فكان نصيبه غمرات الشقاء . . أفليس هنا (جبر) لازم لكلا الفريقين أن يسلك سبيله دون ما حيلة أو قدرة على تغيير ؟ . . ذلك ما يراه قصار النظر ممن لا تتجاوز بصائرهم أحد جوانب المنظور ، فيحكمون على كله بما يبدو لهم من جزئه . . أما الموفقون إلى الخير ، فيعلمون أن الحق وحدة لا تتجزأ ، فاذا غم عليهم منها جانب عمدوا إلى استكشافه باستقصاء سائر الجوانب . . وهكذا يرجعون إلى محكم الآيات وواضح الأحاديث ، فيرون (الحقيقة الكاملة) التى لا جبر فيها

(١) من كلام السفاريني في شرح منظومته (الدرة المضيئة) ص ٣٥٩ ج ١

(٢) انظر شرح الدرة ص ٣٤٥ و ٣٤٦ . .

(٣) قال في ذيل المشكاة : حسنه الترمذى ، واسناده صحيح .

ولا انفلات ، إذ يعلمون أن حديث الظلمة والنور هذا لا يختلف عن حديث حجاج آدم وموسى ، من حيث التوكيد على سبق علم الله بالوقائع ومستلزماتها ، مما لا يقبل تحويلا ولا تبديلا . . لأن معنى ذلك أن الذين أصابهم نور ربهم هم الذين علم الله جهادهم المستقبل لتجنب معصيته ، وإصرارهم حتى النهاية على التزام طاعته . . فاستحقوا بذلك هداه ورضاه . . وأن أولئك الذين فاتهم النور إنما استحقوا ذلك بما علم من إثارهم الغي على الرشاد ، والعمى على الهدى ، فاستوجبوا بذلك سخطه . . وهكذا كان انتشار النور على أولئك ، واستمرار الظلمة على هؤلاء ، علامتين ثابتتين على الطريق الذى سيختاره كل منهما فى مؤتلف وجوده . . فلا إلزام ولا إكراه ، ولكنه تسجيل لوقائع علمها الله ، وجهلها سواه . . ولا يستغرب ذلك ممن (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ٢٠-١١٠) ! . . .

ثم إن فى خاتمة الحديث الشريف (. . جف القلم على علم الله) ما يدفع كل شبهة عن هذه الحقيقة ، التى أجمع عليها السلف من أهل السنة ، والتى قطع بها أبو هريرة (رض) حين سأله أبو عثمان مولى أبي هاشم عن القدر ، فقال : اكتب منه بآخر سورة الفتح « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ٤٨ - ٣٩ » . . . فنعتهم قبل أن يخلقهم ، ثم أعلم أنهم يكونون عليه إذا خلقهم^(١) . . فهو يفسر القدر بالعلم تفسيراً لا يقبل أى تردد .

الرؤيا الصادقة :

ولقد كان من الطبيعى أن لا يعتور هذه الحقيقة أى إشكال لولا جمود فى التفكير من بعض الناس - وما أكثرهم - عجزت معه عقولهم عن التفريق بين صفات الرب وصفات العبد ، فتوهوا أن كل اشتراك فى الوصف اللغوى بينهما مؤد إلى المشاركة فى نوعية الصفة أيضا ، ومن ذلك عجزهم عن تصور العلم الإلهى محيطا بجزئيات الحوادث قبل حصولها فى عالم المادة ،

(١) أخرجه رزين . انظر جامع الأصول رقم ٧٥٨٧ . . .

لأن مفهومهم عن محدودية العلم الإنساني مغاير لهذا الإطلاق . . ومن هنا جاء إقدامهم على الانحراف بمفهوم القدر إلى معنى الجبرية الملزمة ! . .

وقد سبق أن أشرنا إلى بعض خصائص العلم الإلهي حين مثلنا له بتفاوت مجالات الرؤية . . والآن نذكر القارئ بحقيقة لا يكاد يجهلها إنسان ، لأنها من مستلزمات الفطرة البشرية في كل نفس سوية . .

إنها قضية الأحلام الصادقة ، التي تطل بك على ما وراء واقعك مما لم يكن يخطر في تصورك ، ثم تأتي الأحداث بها على الصورة التي رأيت دون زيادة أو نقصان ! . . .

نهضت ذات صباح من نومي مدعورا . . وقصصت على أهلي ما رأيت وكأني أراه هذه اللحظة : شاهدت والدتي داخلة على من الباب المواجه لسريري وعلى وجهها ملامح الغضب والثورة ، وما أن وقفت بإزائي حتى جعلت تصب ثورتها على بشدة لا أستحقها . . وكنت خلال ذلك أحاول تهدئتها وإطفاء ثأرتها بمختلف الوسائل ، ولكن عبثا فقد كانت كالقدر الغالي لا يزداد إلا فورانا . . حتى فقدت صبري وأهويت برأسي في شدة على الجدار ! . . .

ولم أكد أنني من قصة رؤيائي حتى بصرت بالوالدة تواجهني من المدخل نفسه ، وعلى الصورة نفسها . . حتى انتهت إلى ، وطفقت تقلد بحمها نفسها . . ورجوت منها وألححت بطلب الأناة ، وذكرتها بما رأيت : . ولكنها لم تكن لتسمع ما أقول . . حتى انتهت بي الأمر إلى استكمال الدور الذي لم أنسه بعد ، فألقيت برأسي بالشدة نفسها على الجدار ! .

وفي يوم تال رأيت أختي قادمة من سفر ، فسألتها عن شقيقتها التي كنت أتوقع قدومها معها ، فقالت : « ستصل عصر اليوم إن شاء الله » . وفي ضحي يوم الرويا هذه وصلت هذه الأخت فسألتها عن أختها فإذا هي تبجيني بالعبرة نفسها دون أي خرم أو خزم ! . .

وفقدت ذات يوم محفظة نقودي ، وقلقت كثيرا لذلك ، حتى رأيت في نومي أن إنسانا - أعرفه - قد أتاني وأنا جالس بباب المتجر ، وعلى

وجهه ابتسامة ، فقلت : أى فلان ! . . إنك أنت الذى أخذت المحفظة ،
ولست بمستردها ولا بمطالبك بها . . ولكننى أريد أن أعلم كيف أخذتها ؟ .
فاذا هو يتنسم أيضا ثم يلج المتجر حتى ينتهى إلى سترة لى معلقة فى صدره ،
فأمسك بطرفها ومد يده الأخرى إلى جيبها فاستخرج منه شيئا وهو يقول :
« هكذا أخذتها ! » . .

وطلع الصباح ، ومضيت إلى متجرى ، وجلست على مدخله ناسيا
كل أثر للرؤيا . . وإذا أنا أفاجأ بوجه هذا الإنسان مطالاً من مكان الرؤيا
نفسه ، فعادت إلى بتفاصيلها ، فأعدت عليه ما قلت له فى رؤياى حرقاً حرقاً ،
فاذا هو يرسم الابتسامة نفسها على وجهه ، ثم يتقدم ، ليقوم بكل ما رأيته ،
ويقول كل ما سمعت ! . . .

وضمنى ذات يوم مجلس مع مدرس ماركسى - بلغنى أنه تاب أخيراً -
وكان شديد الإنكار لعالم ما وراء الطبيعة ، فذكرته بالرؤى الصادقة ،
فردد جواب فرويد الذى يقطع بأن الرؤيا ليست سوى الرغبات المحبوسة
نعجز عن تحقيقها فى الواقع ، فتنتلق لتحقق نفسها فى عالم الخيال ! . . .
فقلت : ولكن هذا يقتضى ألا يتعلق شيء من ذلك بغير الماضى الذى ترك
رواسبه فى العقل الباطن . . فلا سبيل إلى تصوره لأمر من المستقبل على
صفته التى عليها يقع . . قال : هو كذلك . قلت : ارجع إلى نفسك واسألها :
ألا تذكر رؤيا عن أمر لم يكن قد حصل ثم حصل كما مثلته ؟ . . فأطرق
ملياً ثم قال : بلى هناك رؤيا لا أنساها . . ذلك أننى رأيت ابن عم لى يطعن
رجلاً بمنجرج فيشقه من أدنى عنقه إلى حدود سرتة . . وما هى إلا أيام حتى
تحققت الرؤيا بكل أجزائها ، ورأيت الشق يبدأ وينتهى فى المجال نفسه الذى
حددته الرؤيا . . والحق أننى حتى اليوم حائر فى أمر هذه التصورات ،
لا أعلم كيف ولماذا وقعت هكذا تماماً ! . .

قلت : ولكننا نحن نعلم . . أنها وقعت هكذا لأنها قبل حصولها فى
مجال الحواس ، رسمت تفاصيلها كاملة فيما تسمونه عالم ما وراء الطبيعة . . .
وهذا وحده كاف لهدم الأسوار التى تحيطون بها عقولكم ، عندما تحاولون
إيهامها أن ليس فى الوجود سوى هذا المحدود .

العدالة العليا . . .

وفي حياتنا اليومية أسرار كثيرة ما نعجز عن تفسيرها بالطرائق الرياضية، فنقف منها موقفنا من تلك الأسرار التي عرضنا لها في باب الصدقة من هذا البحث . . . وهي مثلها تماما لا سبيل إلى تبين حقيقتها إلا في ضوء الإيمان بحكمة الله وعدالته المطلقة .

يقول الله : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . . . ويعفو عن كثير ٤٢ - ٣٠) فنحن هنا أمام قانون صريح يقضى بأن كل انحراف عن طريق الحق له من العقوبة بقدره ، إلا ما شاء الله أن يعفو عنه ، كما تعفو الدولة عن بعض المخالفات بين الحين والحين . . . وهو قانون عام لا يختص بالمسلم دون غيره ، وإنما ذكر فيه المسلم لأنه بتصديقه الرسالة يكون أشد اهتماما به ، فيحاول أن يطهر نفسه من المعصية تجنباً للجزاء ، حتى إذا حلت فيه العقوبة لم يستقبلها بالجزع واليأس ، بل أنس بها ثقة بما تحمله من روح التطهير . والإنسان الذي يعنى بمراقبة نفسه وحوادثه يعرف أهمية هذا القانون في حياته اليومية . . . ولا عجب أن يكفر به أولئك الذين أحاطت بهم خطيئتهم حتى ألفوا جوها ، فتعطلت مداركهم دون الإحساس بها ، كالأسماك التي تعيش في قاع المحيط ، لا يخطر في بالها النور لأنها لم تر النور .

حدثني صديق ثقة أن خالا له قد مر برجل يصفع أباه العجوز . . . وما أن بصر به الشيخ المسكين حتى أخذ يستصرخه مستغيثا لينقذه من ولده . . . واستجاب صاحبنا للاستغاثة ، فدفع عنه ذلك العاق ، غير أنه لم ينس أن يقول له وهو يدغدغ كتفه : (هل تذكر يوم مررت بك وأنت تصفع أباك هنا قبل ثلاثين سنة ، وقد جعل يستنجد بي كما تستنجد بي أنت اليوم !!!) . . . وما كان الشيخ المضروب ليحير جوابا . . . بيد أنه نكس رأسه دافع العينين ، كأنه يعتذر لذلك الأب الذي لا ندرى قصته أيضا مع أبيه . وهناك حادثة صغيرة جدا ، ولكنها لا تفارق ذاكرتي منذ أربعين سنة ، لأنني لا أرى فيها إلا صورة تنفيذية لذلك القانون الذي لا يحابي . . .

كان ذلك يوم جئت إلى دارنا فإذا بطفلة مسيحية من جيراننا ، لا تتجاوز الثامنة تتدحرج من أعلى الدرج حتى تستقر في أرض الزقاق ، فاحتضنتها أتفقد ما حدث لها ، فإذا جرح في طي شفتها السفلى . . . وعلمت أن شقيقة لي من لداتها هي التي دفعت بها من صحن الدار . وذهبت بالطفلة الجريحة إلى طيبينا (العربي) الذي أشار بأخذها لفورها إلى البحر . . . وغسلت لها جرحها . . . وكنت أرى الماء يتسرب من ثقب الشفة كأنه يندفع من أنبوبة إبريق ! . ومضت أيام وبينما أنا ذات ظهيرة على مدخل الدار رأيت أخي يضرب تلك الشقيقة الصغيرة يعود ذى فروع فيجرحها في شفتها السفلى . . . وأخذت الصغيرة إلى الحكيم نفسه ، وأشار على بنفس الطريقة الأولى ، فمضيت بها إلى البحر ، وهناك بصرت للمرة الثانية بالمشهد نفسه ، مشهد الماء يتسرب من ثقب الشفة كأنه يندفع من أنبوبة إبريق ! . . .

ثم مضت أيام وأيام . . . وإذا أخي يعود من نزهة في ضواحي البلد ، وقد وضع راحته على شفته ليسد جرحها الذي شقه عود شائك . . . وصحبته إلى الحكيم نفسه . . . ثم إلى البحر نفسه . . . حيث واجهت للمرة الثالثة المشهد نفسه . مشهد الماء ينبجس من تحت الشفة السفلى كأنه يندفع من أنبوبة إبريق ! .

وأعتقد أن لو جريت في استقصاء هذا الضرب من الحوادث اليومية في حياة الناس لضاقت حياتي عن استيعابه . . . وفي ظني أن القارئ أيا كان لابد شاعر ، وهو يقرأ هاتين القصتين ، أنه غير غريب عن هذا النوع من العقوبات الصغيرة . . . لذلك أقف لأتساءل : أي تفسير رياضي يمكن به تعليل هذا التطابق العجيب في جزئيات الحوادث الثلاث ! . . .

ومع ذلك فليس ضروريا أن يحدث مثل هذا التناظر دائماً لتوافر الموعظة . . . وإنما المهم أن مسرح الحياة مليء بالمآسي التي تنسجم فيها المقدمات مع النتائج

* * *

إشارات من السماء . . .

وكنت أقرأ هذا الفصل لأخ كريم من المحامين ، فاذا هو يمسح جبهته

ليتذكر تفاصيل حادثة لا يزال أثرها في رأسه ، على الرغم من انقضاء
عشرين عاما . .

كان يومئذ يذاكر دروسه في مقهى بدمشق ، فإذا كرسي يسقط عليه
من القسم الأعلى فيصعقه ، ثم تنبه على قهقهة طويلة ، فعلم أن المعتدى واحد
من جنود فرنسيين كانوا يسكرون هناك ويعربدون ! . ويظهر أن الجندي
هذا قد شاقه العبث برأس هذا الفتى الملون فألقى عليه المقعد ، ثم راح يستمتع
بمنظر جريمته في حبور لا يستنكر ممن نشثوا على روح التمييز العنصرى
المتعصب .

وكانت العدالة الصورية أعجز من أن تمتد إلى تلك اليد ، فترك الفتى
أمره إلى الله . ثم لم يطل الانتظار سوى بضعة أيام حتى جاء من يبلغه أن
عدالة السماء قد أخذت مجراها . . إذ كان هذا الجندي متحصنا في أحد
خنادق الجبهة ، فسقطت على سقفه قبلة لم تنفجر ، ولكنها قذفت يافوخه
بدعامة من الحشب كان فيها حتفه ! .

وهكذا شاءت حكمة الله أن تجعل أداة التنفيذ هذه المرة دعامة بدل
المقعد ، فاختلف بعض جزئيات التطابق ، غير أنه ظل روح العدالة هو
البارز ! .

وإني لأعرف وكثيرين غيرى موظفا توفي قبل قليل بعد أن قضى
أعوامه الأخيرة نهياً لعدد من الأمراض المتناقضة ، وقد حدثني طبيبه أن
كلا من هذه الأدوية يقتضى ضربا من العلاج من شأنه أن ينشئ المضاعفات
الرهيبية في العلة الأخرى ! . وهذا ما اضطره أخيرا إلى وقف العلاج كله ،
منتظرا بمريضه الأجل المحتوم ، الذى لم يوافه إلا بعد أن أمسى شاوا محطما
كالثوب الممزق الذى لا سبيل إلى تربيعة ! .

وعندما تعلم أن ذلك المسكين قد صرف كل سنه في الشرطة نكبة على
كل ضعيف ، وعدوا لكل شريف ، حتى أنه لم يتورع عن اغتيال بعض
الأبرياء إكراما لعيون أحد الرؤساء الأشقياء . . إذا علمت هذا فتذكر

قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : إن الله يعلو للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته (١).

وكيف أنسى قصة ذلك الرجل الآخر الذى جمعت بينه وبين أمه ذات مساء رغبة فى إصلاح ذات البين ، فذكرت بعض ما تشكو منه . . فإذا هو تأخذه العزة بالإثم ، فيتجه إليها بدفقة من أقدر الشتائم ، ولا يكتفى بذلك حتى يبصق فى وجهها ! . . وكانت عجيبة الصبر ، إلا أنها لم تمالك أن ترفع عينها إلى السماء لتقول فى انكسار عميق « اللهم . . إليك أشكو ! . . » .

وانتقلت الأم المظلومة إلى جوار ربها ، وتخلف الولد العاق الذى لم يندم على بغيه قط . ولقد رأيت عقيب ذلك يتهاذى على عكازه ، وقد تحطم شبابه الأنيق تحت عجلات سيارته ، فما أن وقعت عيناه على حتى أخذته الرجفة ، وصرف وجهه عنى بسرعة ، كأنما أدرك أننى سأسترد بمنظره هذا رواية القدر التى ختمت بهذه المأساة الفاجعة !

وإنى لأفكر فى ما آل إليه هذا الفتى من عجز دائم ، ثم حاجة لا تسدها إلا الصدقات ، فلا أتمالك أن أهتف فى أخفض صوت وأعق خشوع « آمنت بعدلك يا رب ! . . »

وفى حياتى ظاهرة طريفة من هذه الأعاجيب لا تقل عبرها عن محتوى أخواتها الأنفات .

لقد شاءت نزعات التهديم فى سورية أن تبدد الدولة ملايين الليرات لإحداث مسابح مختلطة تقضى على البقية الباقية من الفضائل . . ولم يكن فى وسع مثلى أن يعمل شيئاً ولا سبياً فى ذلك الجو المشحون بالإرهاب ، إلا أن يحرك لسانه بكلمة النصيحة والموعظة الحسنة ، فقامت بجولة على مدن الساحل ، أتحدث إلى المسلمين فى المساجد والمجالس الخاصة ، أحذر وأذكر وأبين للناس ما يراد بأخلاقهم ودينهم وأبنائهم وبناتهم بهذه (المدايح) . . فلما عدت إلى مستقرى فى اللاذقية وجدت دعوة عاجلة

(١) متفق عليه ..

لزيرة المباحث . . واستقبلني هناك ضابطا المركز ، وجعل كبيرهما يستجوبني في ما قلت وفعلت ، فكررت ما أسلفت ، فقال : ومن الذى كلفك هذا ؟ قلت : بكلفني من لا يرد أمره . قال : ومن لا يرد أمره غير الرئيس ؟ قلت : إنه الله الذى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ومسابجكم المختلطة منكر لا نعلن أمام الله إن لم نهض بواجب التحذير منها . قال : هذا إصرار على معارضة سياسة الرئيس التى تقضى بإخراج المرأة من وضعها الموروث ، فما عليك إذن إلا أن تستعد لمغادرة البلاد . قلت : مثل هذا الإنذار أحرى أن يوجه إلى (الطاشناق)^(١) أما أنا فلا يزال على واجب نحو بلادى ، لأننى لم أتم رسالتى التى بدأتها منذ أربعين سنة فى خدمة الجيل .

وما هى سوى أيام حتى جاءت النتيجة الأولى لهذه المحاورة . . وهى تسريحى من عملى فى التدريس ، وكان مرادهم من ذلك حرمانى مورد الرزق ، إذ كنت لا أملك سوى مرتب ذلك العمل .

وأقبل بعض الإخوة بصبروتى ويعزوتى ، فضحكت وقلت لهم : « لقد فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله ، وسترون أنه لن يتخلى عني أبداً . . »

وكان القدر كان ينطق بلسانى ، فما هى والله سوى أيام حتى سقط النظام الغاشم كله ، فصرح الرئيس الذى مرحتى ، وصرح رئيسه الكبير الذى أوعدنى بالشتى ذات يوم ، فأخرج فى موكب من الهوان اللائق ، ووضع مساعدهما من كيار الإداريين تحت المراقبة المذلة ، ثم أعدت إلى عملى على أعينهم جميعا . وتم ذلك بقرار بخاص من رئيس الوزارة التى قامت على أنقاض ذلك النظام ، ألا وهو الصديق العزيز الدكتور عزت النص عييد كلية الآداب فى جامعة الرياض .

ولا أرى حاجة للتعليق على هذه الواقعة بآية كلمة ، لأنها كآخواتها ليست سوى إشارات من وراء الغيب تهتف بكل لسان : إن وراء هذه

(١) حزب إرمنى كانت السلطات السورية أياما قد ضبطت لديه أجهزة لاسلكية للاتصال بالعدو .

العدالة الأرضية المشبوهة المشلولة لعدالة سليمة من كل تشويه ، فإذا أُتيح للظالم أن ينجو من قبضة الأولى ، بما يملك من قوة الرشوة والإغراء ، فهو واقع لا محالة في قبضة الثانية ، وإن تأخر به القضاء . . (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ١٣ - ٣٣) .

• • •

المسرحية الكبيرة :

على أن هذه أحداث خاصة لا تتجاوز فيها عدالة السماء نطاق الأفراد . . فلنتنظر إلى مجالها الآخر في حياة الجماعات ، وهناك سنواجه الأعجب والأغرب . .

أم بأسرها محيت من سجل الوجود ، فلا يرى من آثارها سوى أثر معطلة وقصر مشيد وكمن تيجان تدرجت برؤوس أصحابها ، فأصبحوا ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وما هي ذي امبراطوريات نشهد بأعيننا اختفاءها عن المسرح ، ففي نصف قرن توارت قيصرية الروسية مخفية مكانها لأمة أخرى لا تمت إلى تلك بنسب أو دين وسقطت قيصرية روسية ، ثم زالت خلافة آل عثمان ، وقبل ربع قرن استحوالت النازية وأختها الفاشية رمادا تطوّه الأقدام ، بعد أن بلغت من القوة ما مكن لهما أن تتحكما في مصائر الشعوب وخرجت بريطانيا المنتصرة من الحرب العالمية صفر اليدين من ممتلكاتها في الهند وباكستان وإفريقية والمحيط الهادى لتقع راحة في مؤخرة الأمم « العظمى » .

وفي الأرض اليوم بعبع كبير قد استطاع أمس ، بضخامة ثروته وتحجر مشاغره ، أن يخلق مع حلفائه البغاة إسرائيل ، ليتخذ منها خنجرا يغرزه في جنب الأمة العربية والإسلامية واستعبد بملايينه المغرية العديد من حكام المسلمين ، يشتري ذممهم لاستبعاد شريعة الله عن حياة شعوبهم ، ومن ثم لإخماد نشاط الدعوة الربانية ، ولتعطيل حركتها عن الامتداد في جنبات الأرض . ولكن هذا البعع آتية لا محالة يوم غير بعيد لا يخيف

فيه أحدا ، لأنه سيصبح يومذاك تمثالا كبيرا من الوهم يحمل إلى ناظره أفجع الذكريات ! . .

لقد شاء الله أن يتأخر بنا الأجل حتى يرينا طلائع هذه التوقعات في حياة تلك الأمة . . فإن الخلاف العنصري بين بيضها وسودها يجعل الحياة فيها على فوهة بركان . . ولقد جاءت موجة الاغتيالات السياسية فيها متلاحقة مرعبة تشد أبصار العالم شداً إليها وهو يتساءل : أين المصير ! . . وبأني الجواب من فيتنام وكورية ، حيث يصاب كبرياؤها بأشد الضربات إذلالاً لتلك النفوس التي فقدت حس العدالة ، حتى لم تعد ترى في إسرائيل سوى أنها تنفيس عن أحقاد الصليبية العمياء نحو الإسلام ! . . وإذا كان هؤلاء وأذنابهم من عباد المادية المتحجرة قد عموا عن عبر هذه المحن الصماء ، فلم يشهدوا ما وراءها من عدالة السماء ، فنحن تلاميذ مدرسة النبين لا يسعنا أن نغفل عن معنى الانتقام الإلهي ، الذي تأتى فيه العقوبة متناسبة مع هول الجريمة المقترفة في إقامة دولة صهيون ، وفي الجناية الخلقية التي ترتكبها حضارتهم ، إذ تنفث سموم الفجور باسم الحرية على بقية الفضيلة في سائر أنحاء العالم . .

وهناك طغاة وطمغاة برزوا فجأة على كامل الشرق أو الغرب ، كما تاشق الأرض عن الكمأة في ليلة مظلمة ، لا عمل لهم سوى إثارة البكين من الغرائز الحسية ، ثم دفع أصحابها لاغتيال أمن الشعوب وفضائلها التي بها احتفظت حتى الآن ببعض نفحات الاستقرار . . ومع ذلك . . ومع كل ما استولوا عليه من هذه الطاقات الجهنمية ، وما حققوه بها من تحطيم وتدمير ، فهم اليوم يركضون إلى مصابريهم المحتومة في أعماق الهاوية ، تسوقهم القبضة الخفية نفسها التي تدفعهم لتمزيق وشائج الأرحام ، ونسف جسور السلام . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد .

أجل إنها مسرحية كبيرة رهية تمثل فيها كل أمة دورها المرسوم ، ثم تخلى مكانها لأمة أو أم . . وتتطاحن فيها الأفكار والمذاهب ثم تنطوى

وقد لفها العدم . . حتى يأتي يوم لا دار فيه ولا ديار (لمن الملك اليوم ؟ . .
لله الواحد القهار) .

ذلك هو سلطان القضاء والقدر ، لا يفلت من قبضته شيء في الأرض
ولا في السماء ، فلا كبيرة إلا أحاط بها ، ولا صغيرة إلا أحصاها ، ولئن
أنكرته العقول الترابية ، إن في رؤوس المؤمنين لعقولا ترصد ملكوته بعين
لا تخطئ لأنها تنظر بنور الله .

وإنه لسلطان تعيا دون الإحاطة به مدارك البشر ، فإذا أتيح لبعضها أن
يستكشف بعض أسرارها هنا وهناك ، فكفى بالفجر دليلا على النهار . وإذا
كان من حق العلم أن يحدد مركبات الكواكب استناداً إلى مقياس التحليل
الطيني ، فأحرى بالعقل السليم أن يستدل من القريب على البعيد ، ومن
المحدود على غير المحدود . .

والمؤمن قد يعجز عن تفسير بعض الوقائع من قانون القضاء والقدر ،
إلا أن ثقته المطلقة بعدالة الله تملأ صدره بالاطمئنان ، ألا إن كل شيء هناك
يجرى وفق الخطة المثلى . . التي لا يعثرها خلل أو نقصان . .

المسجد
وأشهره في المجتمع

المؤسسة الأولى :

أرأيت إلى مركز الكهرباء تمتد أسلاكه إلى أنحاء البلد جميعها ، حاملة تياره الدافع والمضى . . . أرأيت إلى أثر هذا المصنع في حياة البلد ، إذا كانت أجهزته عاملة ، وشبكته سليمة ، وإذا كان كل من المصابيح والمحركات صالحا بدوره لاستقبال تياره ! . . .

لا شك أن كل شيء في هذا البلد سيكون حياً ، فالصناعة ناشطة ، والمتاجر رائجة ، وليس ثمة من ظلام . . . وإذا وجد مصباح منطفى ، أو محرك ساكن ، فما علينا إلا البحث عن العلة في داخل كل منهما على حدة .

هذا المركز الكهربائي أكثر ما يكون تمثيلاً لمهمة المسجد في بناء المجتمع . . . إنه مركز الإشعاع ، منه يتزود الفرد بالمفاهيم الصحيحة لحقائق الحياة ، فيفقه الحلال والحرام ، والحق والواجب ، والمباح والمحظور وما يستحسن وما يستهجن . . . فيكون ذلك أهم سبب لاحتفاظ مجموع الأفراد بشخصية الأمة .

ثم إنه مركز التدريب على تحقيق معاني الإسلام ، تتلاقى فيه الجماعة من الناس فتتعارف قلوبهم وأجسامهم ، وتتقارب سوياتهم الخلقية ، إذ يجد الضعيف نفسه بإزاء القوى ، والحاكم بجانب المحكوم ، والفقير على قدم المساواة مع الغني ، فلا يلبثون أن تمتلئ نفوسهم بشعور الوحدة التي تفتت الفوارق ، حتى يستيقنوا أنهم كتلة متضامنة ، كل جزء منها لخدمة الكل ، وبذلك يتلاشى من نفوسهم ما تركه اختلاف المنازل الاجتماعية خارج المسجد من موجبات التباين ، الذي من شأنه أن يجعل من المجتمع الواحد شعوباً وأممًا ، لا يجمع بينها إلا صراع الطبقات ! . . .

ثم إنه المجتمع الطبيعي الذي تبحث فيه مشاكل البيئة كل أسبوع ،

فتناقش على ضوء الأحكام الآلهية ، فلا ينصرف الأعضاء - المصلون - حتى يتكون لدى كل منهم الفهم الصحيح لما يجب عليه نحو مجتمعه القريب أو البعيد ، وبهذا يظل المجتمع على صلة بالمنابع الأولى ، التي تكفل وحدة الاتجاه العام ، مهما تباين الاجتهادات الفردية .

ثم إنه المدرسة التي يتعلم فيها الطالب من المهد إلى اللحد كل ما يعوزه من مبادئ الحياة : حياة البيت ، فلا يتهاون بحق أهله عليه ، ولا بحق الله عليهم . وحياة السوق ، فلا يخلط الحلال بالسحت ولا يستبدل الخبيث بالطيب . وحياة الحكم فلا يتخذ من عباد الله خولا ، ولا من ماله دولا . . . وإنما ينظر إلى السلطة التي في يديه على أنها وسيلة لإعلاء كلمة الله ، وتحقيق رسالته في عباده

وأخيراً إنه نقطة الانطلاق الأولى في طريق الحياة الأبدية ، منها يبدأ الفرد سعيه إلى الآخرة وهو مطمئن لأنه في الطريق الذي لا يضل سالكوه . فلا ينصرف إلى الشعب الملتوية ، ولأنه فيه يتفهم مدلول قوله تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (١٥٣-٦) . . .

من أجل ذلك كله كان المسجد أول مؤسسة أنشأها رسول الله صلى الله عليه وسلم في تنظيمات المجتمع الجديد بعد الهجرة . . . فقد نزل أول قدمه طيبة المباركة في قباء ، وفيها أسس مسجده ، ثم نهض منها بعد أيام يسيرة ، حتى استقرت به القصواء على مريد السهلين ، وهناك نخط لهذه المؤسسة ، وأقام حولها بيوت أصحابه ، وألصق بها بيوته ، ثم أطلقها تعمل في بناء الحياة الإسلامية المطهرة على أسس التوجيه السماوي ، رابطاً عن طريقها دنيا الناس بآخرتهم . . . ومنذ ذلك اليوم يصبح المسجد مثابة المؤمنين التي منها يتلقون مقوماتهم الروحية خمس مرات في اليوم واليلة . . .

وهكذا نظر المسلمون الأولون إلى المسجد على أنه فكرة تحمل كل هذه المعاني ، فأقاموا صلتهم به على أساسها ، فكان له من الأثر في تكوينهم ما لم يعرف التاريخ له مثيلاً في أي عمل تربوي . . .

وكان العهد بالمعابد أن توقف على الصلاة والتوجيه الروحي ، لا تتجاوز ذلك إلى أعمال الدنيا ، فإذا المسجد في الإسلام يتسع ويتسع حتى يشمل الدنيا والآخرة ، وقد بدأ مهمته الشاملة هذه لأول مرة على يد رسول الله ، إذ كان يمثل وحدة اجتماعية كبيرة ترتبط بها قلوب الأفراد جميعا . .

ففي مسجد الرسول كان المسلمون يجتمعون لمناجاة ربهم بقيادة نبيهم ، فيقوم فيهم مقام المدرب العسكري ، وفق نظام دقيق ، يفرض سلطانه على القلوب والجوارح . . وفي هذا المسجد تلقى المؤمنون أصول الشريعة التي جعلتهم معلمين للإنسانية كلها . .

وكان من سنته صلى الله عليه وسلم أن يبعث مناديا يدعو الناس إلى (صلاة جامعة) كلما حدث أمر يتطلب اجتماع الناس للتشاور ، وقد جعل الإسلام يوم الجمعة موسم الحشد الأسبوعي الذي يحيل المسجد ندوة يستمع فيها المسلمون إلى محاضرة الأسبوع . . تشرح لهم ما هم في حاجة إلى معرفته من شئون دينهم ودنياهم . وقد تحول مسجد الرسول بعض الأحيان مستشفى تقام في بعض جوانبه مراكز التمريض ، حيث يعالج الجرحى المصابون من قبل رجال ونساء ، تطوعوا لهذه المهمة أو عينوا لها . .

ومن هذا المنطلق أخذ المسجد سبيله في ضبط المسيرة الإسلامية ، حتى لقد كانت المساجد الجامعة في صدر الإسلام ، ومنها جامع عمرو ، تؤدي بجانب رسالتها الدينية عدة رسالات (فن على منابرها تذايع أوامر الدولة وقوانينها . . وكان القضاة يحكمون بين الناس فيها ، وقد شاهد ناصر خسرو في ذلك الجامع محرري الصكوك والعقود ، كما رأى فيه مجلس قاضي القضاة ، وكان في الزيادة الغربية منه ، كما كان فيها مجلس قاضي الحكم الشافعي ، ومجلس قاضي الحكم المالكي .

وكان فيه أيضاً بيت المال لحفظ أموال اليتامى ، عاينه ابن زسنة في القرن الثالث الهجري أمام المنبر ، ووصفه بأنه شبه قبة عليها أبواب من حديد . . ثم نقل إلى صحن المسجد . . وإلى الآن يوجد في الجامع الأموي بدمشق والجامع الكبير . . . بيت المال (١) . .

(١) الكلام الذي بين الأهلة منقول عن مجلة منبر الإسلام ج ٣ ربيع الأول ١٣٨١ هـ

جامعات شيعية . . .

ومع تطور الدولة الإسلامية تطور وضع المسجد في طريقه الذي رسمه الرسول نفسه ، فاذا هو يستخدم التقدم الهندسي والاجتماعي لتوسيع الوسائل التي تمكنه من تحقيق مهمته في قلب هذا التطور العام . .

ومن هنا بدأنا نرى المساجد - منذ العهد الأموي - تتخذ صفة المركز الثقافي الكبير ، إذ أصبحت جامعات شعبية مفتوحة الأبواب لكل راغب في المعرفة ، لا تقيده بدوام ، ولا تفرض عليه مادة دون أخرى ، بل تفتح لمواهبه طريق الانتخاب الطبيعي ، فينتقل من حلقة إلى أخرى ، ومن شيخ إلى شيخ ، حتى يستقر في الاتجاه الذي يتلاءم مع استعداداته ، وبهذه الطريقة كان للمسجد فضل التخرج لأكبر العباقرة ، الذين تسنموا مقاعد الإمامة في الدنيا والدين . . .

وفي العصر العباسي لم يعد المسجد هو المركز الاجتماعي الوحيد ، إذ انتشرت إلى جانبه المدارس والجامعات على اختلاف درجاتها واختصاصاتها ، ولكنه بقي مع ذلك محافظاً على اتجاهه الأصيل ، يكافح برسائله النيرة ظلمات الفتن والبدع ، التي نشرتها الفرق المحدثه والفلسفات الوثنية ، فكان كسفينة النجاة في وسط خضم هائج . . حتى إذا جاءت عصور الإنحطاط استعاد المسجد مكانه أول الأمر في ظل المماليك أو كاد ، وها هي ذي مخلفاتهم في مصر والشام تؤكد هذه الحقيقة ، إذ نرى حول كل مسجد جامع ملحقاته من الغرف والمكتبات ، يأوي إليها الأساتذة والطلاب ، وقد حبست عليها الأوقاف الغنية ، لتوفر لهؤلاء وأولئك وسائل العيش الكريم ، فلا ينصرفوا عن العلم إلى التفتيش عن الخبز . . هذا إلى ما أقاموه من مراكز الخدمات العامة كالرباطات والمشافي والمساعدات الاجتماعية المختلفة .

ولكن هذه المرافق الضخمة سرعان ما أتت عليها أيدي الغاصبين ، فزقتها شذر مذر ، ولم يبق منها غير المساجد مجردة من كل ملحقاتها الأخرى ،

إلا ما لا غنى عنه من بقايا الأوقاف التي سلمت من مخالب الطغاة (١) .

على أن المسجد كمركز للخدمات العامة لم يتخل عن وظيفته نهائيا حتى ذلك العهد ، إلا في بعض الأقطار ، إذ سرعان ما أطل بوجهه الجديد من عاصمة الدولة العثمانية وتوابعها . وفي القسطنطينية حتى اليوم عدد من أضخم مساجد الدنيا ، لا تزال ، شاهدة على ما كان من أهمية للمسجد .

واقراً معي فيما يلي بعض الوصف لمسجدين منها ورد في محاضرة أحد المستشرقين إذ يقول : (في عهد العظمة التركية كان المسجد مركزاً اجتماعياً ، فمسجد محمد الفاتح مثلاً كان على جانبيه كليات ومستشفى ومركز لتوزيع الطعام ، وخان - فندق - وعلى رابية أخرى كان يربض أوسع المساجد إطلاقاً وهو مسجد سليمان القانوني الذي كان حوله عشر مؤسسات منها أربع كليات ، والمدرسة لم تكن مدرسة دينية كما نفهم (٢) لقد كانت وحدة للسكن ، وكان المسجد غرفة للدرس وقاعة للمحاضرات) . . .

وكان بوسعك أن ترى لعهد قريب أساتذة جالسين في صحن المسجد في الصيف ، وفي المسجد نفسه أثناء الشتاء ، يدرسون جماعات صغيرة من الطلاب (٣) . . .

وهكذا استطاع المسجد أن يحتفظ بمركز القلب من المجتمع الإسلامي أزماناً متطاولة ، على الرغم من كل المشتطات التي اعترضت طريقه . . حتى إذا بدأ انحراف المسلمين في كل مكان عن روح المسجد ، أخذت هذه المؤسسة الإسلامية الكبرى بالانحدار ، إلى أن انتهت اليوم إلى وضعها الأشل . . الذي لا تكاد تؤدي معه أية مهمة في الكثير من المناطق الإسلامية .

(١) بدأت سرقة الأوقاف عن طريق السطو ، ثم صارت في ظل الطواغيت من الحكام تسرق بقوانين !

(٢) يريد أنها لا تكتفى بتدريس الشؤون الروحية وحدها .

(٣) كتاب « الإسلام في نظر الغرب » ص (٨٤) تعريب اسحق الحسيني .

لقد أصبح كل عمل المسجد هناك أن يستقبل بقية من المصلين ، أكثرهم من الذين أوهتهم الشيخوخة ، فلجأوا مضطرين إلى المسجد ، يغسلون بالصلاة أوضار الأوزار . وقد تجد بينهم القليل من الأحداث والشباب ، ولكن قلما تعثر فيهم على رجل الثروة أو صاحب الثقافة العصرية العالية .

• • •

نماذج وألوان . . .

ولقد بقي للمسجد من مهامه الأولى صورة الخطابة والتدريس العام ، فكما عنت مصالح الأوقاف بتأمين المفارش والمياه والإضاءة لهذه المساجد ، تعهدت لمساجد الجمع كذلك بتأمين خطباء الجمعة والعيديين ، وبتدريب المدرسين الذين يتولون تعليم العامة شئون العبادة .

وكان هذا عملا مشكورا من شأنه لو أحسن توجيهه ، وأعطيت فيه الأقواس برايتها ، أن يرد لهذه المؤسسة الكثير من عظمتها السلبية . على أن واقع الأمور لا يثلج الصدور ، وذلك أن هاتيك المساجد لم تكن لتشكو اليوم فقدان المدرسين والخطباء ، وإنما كانت ولا تزال تشكو فراغ هؤلاء من القوى الروحية التي تجعل لسكلماتهم عمل النور في أحشاء الظلام ! . وما أحسب القارئ في حاجة إلى من يحدثه عن هذا الضرب المؤلف من خطب الجمع والأعياد ، التي تضيق بها بعض المنابر قبل الضمائر . . . فهي خطب يمكن أن تحتوى كل شيء إلا حقائق الإسلام ، التي توظف هوامد الهمم ، وتغير مسالك الأمم . . .

وما أراه كذلك بحاجة إلى من يحدثه عن الجانب الآخر من أعمال مدرسي المساجد في ظل الأنظمة المعادية للإسلام ، فهم لا يختلفون عن زملائهم أولئك ، إنهم جميعا ، إلا من رحم الله وأخلص دينه الله ، صور ممسوخة من عمالقة الماضي ، لهم أشباحهم وليس لهم أرواحهم ! . وما ذلك إلا لأن وظائف التدريس والخطابة قد أصبحت محبوسة - إلا قليلا - على طائفة من المرتزقة ، لا يكاد أحدهم يدير نظرا أو يعمل فكرا خارج نطاق الأبواب الخاصة بمباحث الطهارة وأحكام العبادة العملية من كتب

الفقه^(١) فهم يكادون لا يعرفون شيئا من هذه الأفكار الخطرة التي تهاجم العقائد الإلهية في قلوب الشباب ، ولا يهتمهم من وظيفتهم إلا الاطمئنان لبقائها ، والحصول على علاواتها ، وفي سبيل ذلك تراهم على أتم الاستعداد لترديد كل ما على عليهم من فوق أو من تحت ! . . .

وإذا شئت فانظر إلى حلقة المدرس المسجدي ، تعرف من عدد الذين جوله ونوعهم مقدار تعويلهم عليه وانتفاعهم به ، فهم بضعة نفر من العجزة الجهلة الذين ربما فاتوا سن المقهى ، أو فرغت أيديهم من ثمن القهوة ، فاتخذوا من ساعة الدرس فرصة للتفريج عن النفس . . . دون أن يعوا شيئا مما سمعوا^(٢) . . .

لقد سمعت واحدا من هؤلاء المدرسين يحدث الناس بنعيم الجنة ، فيقف نصف وقته على وصف عتقود واحد من أعنابها ، إذ جعله يمتد مسافة كذا من الأعوام ! . فتذكرت سلف هذا المدرس الكريم الذي مر به بشار بن برد وهو يتحدث عن قصر في الجنة ، فيجعل فناءه مسيرة مئآت الأعوام ، فما كان من بشار إلا أن هرول في طريقه وهو يقول : « بثست الدار هذه في كانون الثاني ! . . . » . . .

ورأيت كذلك أحد هؤلاء الشيوخ يتحدث ذات مساء عن آداب التحية فيقول : لا ينبغي لكم إذا حياكم فقير أن تهضوا له ، وعليكم أن تهضوا فقط للغنى ، لأن الأول لم يعتد احترام الناس ، فيعتد النهوض له بخرية منه ، والثاني قد ورث هذا الاحترام أبا عن جد ، فإذا أنتم لم تهضوا له اعتد ذلك منكم إهانة ! . . .

(١) يقول الإمام أبو الفرج بن الجوزي في نقد الفقهاء : « انهم جعلوا النظر جل اشتغالهم ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن وسماع الحديث وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعلوم أن القلوب لا تنحش بتكرار إزالة النجاسة والمساء المتخير ، وهي محتاجة إلى التذكير والمواظب لتنهض لطلب الآخرة . . . - تلييس إبليس ص ١٣١ -

(٢) لا حاجة للتذكير بأن المسجد ، في المناطق التي سلمت حتى اليوم من تسلط الثوري ، لا تزال منطلق الإشعاع العلمي ، وفي مقدمتها الحرمين المباركان والله الفضل والمنة . . .

ثم راح يفيض على حلقاته من مثل هذا « العلم » حتى سمعته يقول :
« وهل هناك أحقر وأكبر جريمة من الفقير الزاني ! . . انه بحاجة إلى الدرهم
ومع ذلك ينفق ما يجمع على الفحشاء . . على حين أننا نجد للغنى عذره ،
إذا أقدم على هذا الفجور ، بما يملك من الأموال والقصور . . ! »

ولقد والله حدثت عن هذا المدرس أنه يتكلم في حلقات النساء عن
موجبات الغسل ، فلا يترك جسماً ولا جزئاً إلا أظن في ذكره . . مما
ينجّل الحيوان فضلاً عن الإنسان !

وكانت نخطب هذا المدرس أيام القرنين صورا من بلاغات رجال
الانتداب . . حتى لأتذكره يوم الإضراب الكبير يقف على منبره عام ١٩٣٦
فيندد بدعائه ويسفه المحرضين عليه ، ثم يجعل ذلك كله تفسيراً لقول رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » (١) . .

على أنني لم أتعرض بعد إلى أولئك السوق ، الذين جيء بهم من هنا
وهناك ليكونوا أئمة وخطباء ومفتين . . ولعل القارئ لم يفقه أن يستمع إلى
الخطيب منهم لا يحسن قراءة الآية من كتاب الله ، ولا إقامة الحديث من
كلام رسول الله ! . ولعله لم يحرم الصلاة خلف واحد من أئمتهم ، فيستمع
إلى تلاوته وهو يلف حروف القرآن لفا ، أو يبتلعها ابتلاعاً ، أو يمزقها
تمزيقاً . . فلا يستطيع إلا أن يخرج من الصلاة أو يفارقه بالنية ضناً بصلاته
أن يفسدها هذا الجاهل ! . . .

وليس لك أن تدهش من كل هذه المفارقات ، حين تتذكر أن هؤلاء
ما كانوا ليتبوؤا تلك المراكز لو استقام الأمر في مجالس الأوقاف . . .

ولعمر الله إن معظم البلاء إنما جاء من طريق هذه المجالس ، التي
كثيراً ما تجد على رأسها أناساً لا يقيمون وزناً للإسلام ، ولا يكادون يفقهون
شيئاً من أحكامه ! . . .

ولا عجب . . فان تطهير الأوقاف من رواسب العقلية التي تركها

(١) حديث صحيح رواه مالك وأحمد - المشكاة ٤٨٣٩ -

الحكم الأجنبي وخلفتها ظلمات الإنحطاط يتطلب جهداً كبيراً وزمناً غير يسير . . .

* * *

ليس هؤلاء جهلاء :

وطبيعي أن الجهل ليس هو المشكلة كلها بالنسبة إلى موضوع المسجد . ولئن كان بين الذين أسلفت الإشارة إليهم من هو في العلم أفرغ من الفقاعة ، أن هنالك أيضاً من لا تعوزه شهرة العلم ولا رفعة الشهادات ومع ذلك فكثير منهم لا يرتفع عن مستوى أولئك السوقة المغممين ، من حيث الإساءة لكرامة العلم والدين . . . والمشاركة في عملية التهديم . . . وذلك لأن مشكلتنا الكبرى في الوسط المسجدي إنما هي مشكلة الحاجة إلى الإخلاص الكبير ممزجا بالعلم الكثير .

ومالنا نذهب بعيداً ! . . لقد رأى الناس قبل عام فقط شيوخاً من ذوى السمعة الضخمة في أوساط العامة يذهبون في رحلة استطلاعية إلى مركز الإلحاد العالمي ، ثم يعودون ليجعلوا من خطبهم المسجدية أطرف لون من الدعاية لتلك الدولة . . حتى أو شك السامعون لخطبهم أن يفركوا آذانهم ليتساءلوا عما إذا كان هؤلاء يتكلمون عن مكة أو موسكو ! . . وعن الإسلام في ظل الخلفاء الراشدين ، أو عن الشيوعية في ظل خلفاء ماركس ولينين وستالين ! . .

ثم ما كان أشد دهشة الناس عندما أخذوا - بعد عام واحد - يسمعون إلى خطب هؤلاء أنفسهم وهي تهلل بالطعن على الشيوعية والشيوعيين ! . وكأنهم نسوا المثل الذي لا يكون ناسيه معذوراً : « إذا كنت كذوباً فكُن ذكوراً » !

وما ائحال القارئ قد نسي أن هنالك بين رجال المساجد أناساً يحملون طغراء « كبار العلماء » ثم لا يتورعون أن يذهبوا أبعد من ذلك في مضمار « التقدم » حتى ترى أحدهم وهو يردد في رثاء « ستالين » ما قاله الصديق

في رسول الله : « بأبي أنت وأمي .. لقد طببت حيا وميتا » ! . وحتى لترى بينهم من يبلغ به الغرور أن يخرج على إجماع الأمة كلها ، منذ تزول القرآن حتى الآن ، فيزعم أن الصوم فريضة اختيارية ، لا يلزم بها إنسان يجد في صومه نصبا ! . .

ومن غريب الاتفاق أن أحضر في إحدى المكتبات هذا الحديث بين رجلين ، أحدهما معمم . .

قال المعمم لصاحب المكتبة : « .. ولقد سمعته يقول في خطبة الجمعة ، ومعى عشرات المصلين ، ما نصه بالحرف : « إن قليل الحياء كافر . . . » وترقبته حتى قضيت الصلاة فجثته أقول : « كنا ننتظر دليلك على ما قررته في خطبتك من الكتاب والسنة . . ويظهر أن الوقت قد ضاق على المنبر ، فهل لك أن تتكرم بهذا الدليل علينا ! » . . .

وتابع المعمم : « ولكنه هرب من الجواب لأنه ما كان يملك دليلا » . ولم يكن مثل هذه السقطات غريبا لدى بالنسبة إلى الخطيب الذي حدث عنه ، فقد عرف له الناس من أمثالها ما لا يحصى . . ولعل من أطرفها قوله في خطبة منبرية سابقة : « إن كل ذى عين زرقاء من أهل النار » . . ويستدل على ذلك بقوله تعالى : (ونحشرهم يوم القيامة زرقا) ! . . ومن أوقع سخافاتة تقريره في درس مسجدي له ذات أصيل من رمضان ، وكان حديثه عن المرأة ، فقال : « .. لقد كثر الزنى بسبب الحجاب في صدر الإسلام أما اليوم وبعد زوال الحجاب وانتشار الاختلاط فقد انتهى ذلك المنكر ! » والذين كانوا يستمعون إلى هذا الهذر لم يفهم العلم بأنه إنما كان يدافع بذلك عن سفور بناته وتبذلهن ! . . .

على أن لهذا المعمم الذى ينكر عليه من (الروائع) ما لا يقل دلالة على اللغو . . فلقد دخل المكتبة وأخذ في حوارته ذاك ، وأنا أحقق في كتيب من تأليفه هو ، وأكاد لأصدق عيني . . وليس ذلك عائدا إلى ضخامة عنوانه ، بل لتلك المجموعة العجيبة من الألقاب التى أطلقها على نفسه . فهو يقدم نفسه لقراء ذلك الكتيب بهذه الأسماء : (الإمام الشافعى - الإمام

أبو الهدى - الرائد الشرقي الكبير - رائد السلام العام - قاهر أعداء المذاهب المتحدة - عميد العلم العربي - !! . .)

فتركته حتى أنهى محاضراته عن زميله ، ثم أخذت أقرأ له هذه الألقاب وأنا أسأله عن كل واحد منها : من تقصد بهذا ؟! . .

وراح يجمع بكلمات لم أفهم منها سوى أنها لون من الدعاية لترويج الكتاب . . تماما كما يصنع باعة الخضار عندما يزخرفون أعلى سلعهم ليخدعوا بها الأنظار ! وقد نسي الشيخ أن القط أكثر الحيوانات الأهلية أسما وأقلها ثمنا ! . . .

ولقد حدثني من أثق به أنه شهد هذا المعجم نفسه يلقي خطبة الجمعة في أحد المساجد الكبرى ، ثم يختم خطبته تلك بهذه الكلمة التمثيلية : « إنني أدعوكم إلى هذا - واستخرج من أحد جيوبه كتاب الله - ثم استخرج من جيب آخر كتابه هو قائلا : وهذا ! . . » .

وأحب صاحب (الألقاب الستة) أن يشرفني بمعرفته ، فسأل صديقي الكتيبي عني ، فقدمني إليه باسمي ، فأبدى الإمام ، حفظه الله ، اهتمامه بي . . ثم قال : إنني أقدرك بالرغم من أنني كنت أحاربك . قلت : وهذه أعجوبة أخرى . أن تحارب من لا تعرف ! .

قال : « كنت أسمع عنك بعض الأفكار التي ينكرها شيوخ المذهب ، فأشارك في إنكارها عليك » . قلت : كان خيرا من ذلك أن تلقاني فتداول البحث في هذه المشتبهات ، حتى ننتهي بها إلى الحقيقة . أما حרבك على السماع فشيء لا يعرفه المثبتون من أهل العلم ، لأنه بحث في غير موضوع .

أما الحرب التي يشنها على هذا المعجم وأضرابه ، ممن لا يحسنون البراز المكشوف ، فيلجأون إلى الرمي من وراء الجدران ، فهي حرب قديمة لا تنتهي حتى يرجع الإسلام نقياً صافياً كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، أو ينتصر الحشويون فلا يزالون يضمون إليه من هنا شيئاً ومن هناك أشياء ، حتى يتحول دين الله إلى ركام من الطقوس الغريبة لا يستبين الناظر إليها أثراً من حقائق الوحي .

بهذا يتضح لك أن الجهل ليس هو المشكلة كلها في موضوع المسجد ه
فمثل هؤلاء لا يستطيع أن تنكر عليهم العلم إذا كان العلم مجرد القراءة والكتابة ،
وحفظ المتن ، ثم حمل الشهادات وتدييج المقالات ، وحتى نشر المؤلفات ،
ومن ثم فلا مجال لتسويغ أعمالهم بأنهم لا يعلمون . بيد أنك لا تستطيع مع
ذلك إلا أن تحشر هؤلاء وأولئك جميعاً في قفص الاتهام ، عند النظر إلى
جهودهم الفعالة في تشويه رسالة المسجد .

ولقد كان في وسعهم كافة أن يطلبوا رزقهم ومجدهم في أى مجال
من الحياة غير المسجد ، ولعلمهم أن يكونوا أكثر نجاحاً من معظم الأطباء
والمهندسين والصناع و « الفنانين » لو زاحمهم في ميادينهم ، ولكنهم
— سألهم الله — أبوا إلا أن يمتطوا ظهر المسجد ، ليتخذوا منه ذريعة
يأكلون بها الدنيا ! . ويا ليتهم كما سمعوا وعوا إنذار الله : « ولا تشتروا
بآياتي ثمناً قليلاً . . . ٢ - ٤١ » . .

* * *

قوة وأمانة :

وطالما حاولت أن أثين السر في هذا الانهيار الذى يتجلى في أوساط
الكثرة من المسجدين . ولكن عبثاً ، فقد رأينا بين هؤلاء التقى الطيب
— إذا كانت التقوى والطيبة مجرد البساطة وحسن النية — ورأينا بينهم
الذكى اللبق الذى يلعب بالشقر والبقر — على لغة الحريرى — فلا حسن
نية أولئك ولا شطارة هؤلاء بشافة أو نافعة ! . . على أتى سرعان
ما وقعت على جواب هذا التساؤل ، وأنا أقرأ اليوم قول ابنة شعيب في وصف
موسى كما يرويه القرآن : « يا أبت استأجره . . إن خير من استأجرت
القوى الأمين . . » فتساءلت عن السر في إعجاب الفتاة بهذا النبى . . فإذا
أنا أمام القوة والأمانة . والقوة ليست دائماً قوة العضلات . . بل هى القوة
في كل شى مادياً ومعنوياً ، فالتفكير الصحيح قوة ، والإرادة الحازمة
قوة ، وقد عنت ابنة شعيب بأمانة موسى عفته الخلقية ، ونحن نستطيع

توسيع مدى الأمانة حتى تشمل الحرص على الحق ، والفناء فيه ، ثم الحفاظ على عهد الله الذى واثق به المؤمنين أن يكونوا مخلصين له الدين ، لا يخافون فيه لومة لائم . . . وبهذا نستيقن أن لا سبيل إلى النجاح فى أى عمل دينى ما لم تتوافر فى ذويه هاتان الصفتان معاً : القوة والأمانة .

ونحن كثيراً ما نقع بين المؤمنين على رجال من طراز نموذجى فى الصفاء الروحى ، ولكن ينقصهم الإدراك الذى يعصمهم من الهبوط ، وبذلك كانوا فريسة سهلة لكل طالب صيد ! . . .

ثم كثيراً ما تقع على طراز آخر من الرجال ، يملكون من الذكاء ما يجعلهم فى الصفوف الأولى . . . ولكنه ذكاء الثعالب لا يستغل غالباً إلا فى اصطيد الدجاج ! . . .

وما أخال إنساناً يجهل أن الشيطان الذى حدثنا عنه الله – لا فاضل عباس المهداوى^(١) – له من سعة الثقافة وبراعة الذكاء ، وسعة العلم ما لا يملكه الملايين من علماء البشر ، ومع ذلك لم ينتفع من كل مواهبه إلا اتقان فن الفساد والإفساد ! .

* * *

صور وعبر :

فى ذلك البلد الذى لا يزال يحتفظ بالكثير من المميزات المرموقة عند الهاربين من جحيم (الثوريات) شاهدت ولمست العجائب من الأخلاق (التقدمية) . . . وفى أوساط المسلمين تأخذ هذه (التقدمية) طابع التحدى والطابع الدموى فى كثير من الأحيان . . .

ولا أريد أن أسهب فى التمهيد . . . بل سأكتفى بذكر الوقائع ، ثم نتبين علاقة هذه الوقائع . . .

سألت أحد طلابى فى الجامعة إذا كان قد أتم زواجه الذى سبق أن

(١) فى إحدى المحاكمات الحمراء التى أدارها المهداوى فى بغداد أعلن أن الشيطان ليس هو سوى أهواء النفس ، وليس له وجود خارجها ، وقد نفى المسكين أن موضوع الشيطان لا يخضع للأحكام العرفية ولا لقوانين الطوارئ . . .

أخبرني به . . فقال : لقد انفرط عقته قبيل الدخول . ثم قص على هذا الخبر العجيب الغريب ، وخلاصته أن قاضي بلده قد حكم بإلغاء عقده ، إذ ثبت له أنه ينتمي إلى جماعة إسلامية معروفة ، في حين أن زوجته تنتمي إلى إحدى الفرق الثورية .. والقاضي لا يرى تزويج مثلها لمثله لأنه ليس لها بكفء ! . .

وحدثني صديق من أهل العلم أنه قصد مع نفر من زملائه لزيارة معمم كبير سبق أن عرفوه من بعض آثاره العلمية ، فلما كانوا على مدخل قصره العامر استقبلهم بهذه المفاجأة : أقدم إليكم نفسي بصفتي (فلانيا) ! . وكان من حق الزائرين أن يدهشوا إذ يرون شيخا من كبار أهل العلم يقبل أن يكون ذبلا لمهرج سيامي كبير ! . .

وفي بلد كان لنصف قرن خلا فقط أحد مراكز الإشعاع الإسلامي ، تستمع اليوم لخطباء يمجدون اليسارية ويرفعون أكفهم بالدعاء لكبير أقطابها ! . . بل إن بعض هؤلاء الخطباء ليديرون خطبهم حول تفسير فقرات من (ميثاقه) كما يصنع أحرار العلماء عندما يديرون خطبهم حول آية من كتاب الله ، أو حديث من كلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد سمعت بأذني هاتين أحد هؤلاء يخطب في مسجد أحد المصايف . فيستعمل تعابير الصحف الحمراء . . ويأبى على السامعين أن يتجاوزوا حدود التعاليم المادية ، فيحمل على المؤمنين بالدعاء ويسخر منهم ما أسعفته لغته السوقية ، ويتبادى في بيانه العجيب حتى لا يرضى أن يذكر اسم الله . تبارك وتعالى إلا بهذا اللفظ المحرف (أللا) فيقول : « أللا لا يريد ، وأللا آل وأللا . . . » فيعبث باسم الله جل وعلا وهو يظن أنه يحسن صنعا ! . . ولما ذكرت لأحد اخواني ما ألاحظ على هذا (الخطيب المصقع) من ملامح الانحراف لم يستغرب ذلك ، بل قال لي : انه أمين سر إحدى المنظمات اليسارية . . أو أنه كان كذلك ! .

وأنا لا أتهم منابر ذلك البلد كلها بهذا الهبوط ، معاذ الله . . فإنه البلد ذو الماضي المجيد الذي لا يزال يحتفظ بدعاة يشرفون منابرهم بكلمة الحق ،

لا يخافون في الله لومة لائم . . . ولكن الذي أريد من هذا العرض هو إبراز الأثر الذي يتركه أولئك الخطباء الآخرون في قلوب العامة ومشاعرهم ، إذ يحدرون عقولهم فيقودونهم إلى محاربة الإسلام وأهله من حيث لا يشعرون أو يشعرون ! . . .

ولا حاجة إلى القول بأن كل انحراف في عقلية العامة نحو أعداء الإسلام من الشرق أو الغرب أو أذناهما ، إنما مرده في الغالب إلى هؤلاء الذين لا يرون في (المشيخة) سوى وسيلة للارتراق ، ولو على حساب مصير الإسلام نفسه ! . . .

* * *

أشياء لا تصدق . . .

هؤلاء هم خطباء الفتنة ، ولكي تبين مدى تأثيرهم في قلوب الغافلين نسجل هنا حادثة لا تكاد تصدق ، ولا عرف التاريخ لها نظيراً في حياة المسلمين منذ كانوا . .

لقد وزعت في ذلك البلد منشورات تدعو إلى تجميع المسلمين في أكبر مساجده ، لإظهار شعورهم بإزاء عدوان الصهاينة الرهيب على المسجد الأقصى عقيب إحراقه .

وعقب الجمعة زحفت الجماهير إلى الجامع الكبير ، ولكن ما كاد الناس يفرغون من الصلاة حتى انفجرت أصوات بالهتافات لفلان
وتعبد هؤلاء تعطيل الحفل ، فاستمروا بهتافهم يشوشون به علي المشايخ ، الذين أرادوا الكلام في بيان أهمية العدوان ودلالاته . . . ونجحوا فيما قصدوا إليه ، فلم يتركوا لأحد أن يتكلم . . . وعندئذ دعى الناس للسير في تظاهرة منظمة لإظهارا لمشاعرهم ، وانطلقت آلاف الحناجر بهتاف لا إله إلا الله والله أكبر . . .

ولكن أولئك الغوغاء أبوا لهذه الشعارات أن ترتفع ، فأخذوا يردون عليها بمثل هذا التجديف : (لا إله إلا فلان ! . . فلان هو الله ! . .)

وكانوا يفعلون ذلك محتمين بمسئلتهم التي تسلموها لمواجهة اليهود في خطوط النار، فجاءوا يرهبون بها المؤمنين في بيوت الله، ويعطلون تظاهراتهم ضد أعداء الله ! . . أى والله ! . .

ونحن لا نريد من ذكر هذه الظاهرة مجرد التنديد بمديريها ومنفذيها ، فقد كفانا ذلك قادة القوم إذ أبعدها هؤلاء الغوغاء عن المنطقة كلها عقيب ذلك التحدى فأحسنوا صنعا ، ولكن نريد فقط أن نتساءل عن الدوافع الخفية التي جرأت هؤلاء الأوشاب على اقتحام هذا الباب ! . .

الواقع أن خطباء الفتنة لم يكونوا خالين من تبعات هذا التهجم على الإيمان وعلى قضية المسجد الأقصى نفسها . . ذلك لأن دعايتهم الملحة لتضخيم بعض المهرجين ، وعلى منابر المساجد بوجه خاص ، قد ألقى في أحقاد الغوغاء أن كل حركة وسكنة يجب أن تتوج باسمهم ، وإلا فهي عميلة وخائنة ! . . حتى لقد أفلت من أيديهم زمام هؤلاء المضللين أنفسهم أخيراً ، فإذا هم يجابهونهم بما لا يرغبون ، إذ يمنعونهم حتى الكلام في ذلك الحفل . . فكان شأنهم معهم كشأن ذلك المحامى الذى اتفق مع الراعى على سرقة الأغنام ، فأوصاه ألا يجيب على أى سؤال في المحكمة الا بكلمة (ماع . .) فلما نجحت الحيلة ونجا الراعى من المسئولية ، وجاء المحامى يطالبه بقسمته من الغنيمة ، لم ينل منه إلا كلمة (ماع) . . وأنا لا أرجم بالغيب عندما أؤكد هؤلاء ، الذين ضللوا جماهير المسلمين بدعاياتهم ، أنهم أول الخاسرين في هذه الصفقة ، وسيرون قريباً أنهم سينتهون إلى المصير نفسه الذى انتهى إليه ذلك المحامى ، إذ يشعرون بأنهم فقدوا احترام هذه الجماهير ، بما هدموا من ثقتها بإخلاصهم . . بل لقد بدأوا يواجهون هذا المصير بأسرع مما كان متظراً . .

وعندما نقدم هذه الأمثلة من ذلك البلد العزيز لا نقصد إلى الحصر ، فليس هو في ذلك سوى صورة من معظم البلاد العربية والإسلامية ، وإن كانت الصورة أشد بروزاً ، فلأن طبيعة المسلمين في ذلك الجو أشد حرارة ، فاندفاعهم في الطريق الخاطئ أشد بالتالى قسوة ، كما تشهد بذلك الأحداث .

وطبيعي أننا لو شئنا استقصاء مظاهر هذا الانحراف في غيره لما أعوزتنا الأمثلة . .

وقد أسلفنا فيما تقدم بعض الوقائع من مصائب المنبر الإسلامى بسورية ، ونضم إليها الآن وقائع أخرى ، لا يخلو ذكرها من العبرة .

في جامع ابن أدهم بجبله ، من الساحل السورى ، وقف مفت معروف بخطب المسلمين ، وكانت الغيوم متلبدة بين المملكة السعودية ورئيس الوحدة المؤثودة ، فجعل خطبته صورة من ترهات صوت العرب ومفترياتها على السعودية ، ثم ختم خطبته برجاء للراغبين في الحج إلى بيت الله أن يستنزلوا سخط الله على رجال المملكة وهم متمسكون بستار الكعبة ! . .

وشاء الله أن يجتمع بعض حجاج جبله ذلك العام حول الكعبة المشرفة . فيقول أحدهم : لا تنسوا وصية الشيخ بالدعاء على القوم ! . وكادوا يفعلون لولا أن قبض الله لهم من أقنعتهم بفساد تلك الوصية ! . .

وقد أسعف الحظ هذا الشيخ إذ أخذت له صورة بجانب (فلان) فكانت له مورد رزق لم يغلق إلا بزوال تلك الوحدة المظلومة . .

وسمع المصلون أخاه ذات يوم يخطب المسلمين في مسجد كبير . . فيقول : لقد انتصرنا في مصر ، انتصرنا في العراق . . انتصرنا في لبنان . . انتصرنا في اليمن

وكانت الأقطار التي يذكر انتصاراتهم فيها يومئذ غارقة في جداول الدماء . . أو خارجة من جداول الدماء . . ففي العراق حيث القتل والسحل وطمر عشرات الأحياء في قبور جماعية^(١) وحتى أكل لحوم الأحياء^(٢) ومحام المهداوى التي كانت مهزلة الدنيا في فن العدالة الاشتراكية . .

(١) أعلن ذلك عبد الكريم قاسم نفسه وبصوته من إذاعة بغداد إذ كان يخاطب مندوبى اتحاد الطلاب - وهى منظمة حمراء فعلت الأفاعيل أيام حكمه - فقال مندوبهم : المجرمون هم الذين دننوا مائة وسبعة وعشرين إنسانا في الرمادة وهم أحياء . .

(٢) نشرت الصحف يوم انقلاب العراق الأول صورة الأمير عبد الإله وقد علقت جثته فى مكان ما ، والشيوعيون يأكلون منها ! . والظاهر أنهم التذوا ذلك اللحم فاستخرجوا الجثة من القبر وأعادوا التهام لحمها أكثر من مرة ؟ .

وفي لبنان حيث المذابح الأهلية التي ذهبت بخمسة آلاف قتيل فلم
تدع بيتاً في منجاة من المأساة . . وفي اليمن حيث تقوم تجارب الغازات السامة
وقنابل النابالم ، وتدمير المساجد على رؤوس المصلين ، وإتلاف أسباب
الحياة واستئصال الأحياء في المدن وفي القرى . . وفي مصر . . كان أعظم
انتصاراتهم تدمير الحياة الاقتصادية ، وتعليق دعاة الإسلام وهداته على
أعواد المشاتق ، وشحن السجون بعشرات الآلاف من الأبرياء ! . .

وما أروعها من انتصارات ! . . .

وكان هناك زميل للأخوين ينافس كبيرهما في طريقته . ولا يزال
الناس يذكرون موقفاً له عجباً ، وذلك يوم أعلن ثاني الانقلابيين في سورية
أديب الشيشكلي دستوره ، وطرحه للناس ليقولوا فيه كلمتهم . وفي اجتماع
حشد له جمهور من ذوى المصالح ، انتصب هذا المعمم ليعلن على الدنيا
فتواه بأفضلية هذا الدستور ، وعبقريته مخرجه . . وكان مما قاله يومئذ :
لقد أنجبت الأمة العربية من قبل محمداً وأبا بكر وعمر وإخوانهم ، واليوم
تنجب رجلاً جمع عبقرياتهم جميعاً ، هو . . الزعيم العظيم أديب الشيشكلي^(١)
وقد سبق أن قدمت للقارئ نماذج من عقلية هذا المعمم يسهل بعدها
أن يقدم على أهوال من هذه المراتق .

وحتى دمشق عاصمة الإسلام الثانية . . لم تبرأ من هذا الوباء ، على كثرة
ما فيها من العلماء والصلحاء .

تد سمعت دمشق دروساً وخطباً طويلة وعريضة في الدعاية لإسقاط
أحد أعلام الإسلام ، في انتخاب فرعى كان يتنافس فيه واحد من حزب
ثوري . . ولم يكن لصاحب الدروس ، وهو من كبار المعتمدين ، من
مصلحة في ذلك سوى إرضاء من خلفه من الطواغيت .

ثم شهد مئات الألوف في سورية صاحب هذه الدعاية على شاشة التلفاز

(١) هذه خلاصة خطبته التي نشرتها الصحف المحلية يومئذ .

يمسك لحيته الكريمة وهو ينصح المسلمين بتأييد ذلك الحزب ، والتمتع بقيادته ..

وقد شجع موقفه هذا جماعة من الفارغين على الاندفاع الأعمى في ركاب السياسة الثورية ، حتى أصبحوا يتكلمون باسم العلماء ، ويطلقون على أنفسهم ألقابهم ! . ولا يستحي أحدهم أن يتسلق المنبر بحماية الحراب فيمجد اليسارية واليساريين ، وهو يكشف عن مسلسه بين الحين والحين ! : ثم كان من نتائج هذا الهوان ، الذي أصاب المسجد في ظل بعض العاثم المرتزقة ، أن اقتحم بعضهم مسجدا كريما في حي الميدان ، الذي عجزت عن اقتحامه من قبل دبابات الفرنسيين ، وجعلوا يتحلون المؤمنين بالمتاف الحزبي ، ليدفعوهم إلى عمل شيء يعطيهم الفرصة لتدمير المسجد على رؤوس المصلين كما حدث في حماة . . . وكما حصل في قلب الجامع الأموي الكبير إذ اقتحم سليم حاطوم حرمة بالآليات ، ونثر في جوانبه دماء القارئ وأشلاء القارئ والراكمين . .

وكان ذلك كافيا لتسلل الضعف إلى كثير من الرؤوس التي عجزت عن احتمال مسئولية العاثم ، فأعلنت استسلامها للواقع ، ورضيت أن تصدر الموائد الحزبية في مناسباتها المختلفة ، وأن تظهر على رأس المسيرات التي تنظم لاستعراض القوى ، وإيهام المراقبين بأن وراء المتسلطين تأييد الشعب وعلى رأسه (أصحاب الشعائر الدينية) ! .

ولا حاجة بنا بعد ذلك إلى تتبع هذه الوقائع في المناطق الثورية الأخرى فهي أشهر من أن تذكر ، ولا غرابة في انتشارها حيث ينبغ الحكم المطلق بكل كلة على صدور الناس ، وحيث يهد هذا الحكم رجال الإسلام بقطع الأرزاق والأعناق ، فلا يجد ضعفاء العزائم والمهابطون مندوحة من الخضوع وترديد ما يهواه المتسلطون ، ما داموا لا يخشون في زيغهم رقبيا ولا يترقبون حسيا ! ..

على أن من غير الإنصاف أن نكتفي بالحديث عن جانب السقوط ، ونسكت عن جانب السمو في هذا الموضوع ، ونحن نسجل وقائع التاريخ .

لقد شئت رحمة الله أن يحتفظ المسجد برجال لم يصرفهم الروح
عن الجهر بكلمة الإسلام في كل ما يعتور المسلمين من محن وفتن . . وقد
تفاوتوا في قوة الاحتمال فتفاوتوا في أسلوب التعبير ، حتى كان منهم من
يقولها مغلفة بلقافة الأناة والحكمة فهز القلوب والعقول في أناة وعمق .
دون أن يعرض نفسه وإخوانه للبلاء ، وفي اجتهاده أن ذلك أنفذ للحق ،
وأبقى للوسيلة . . ومنهم من ضاق صدره بالصبر على الهوان ، فأطلق كلمة
الإسلام مدوية مجلجلة زلزلت عروش الطواغيت ، فلم يروا مدفعا لخطرهم
إلا بالقضاء عليهم . . وهكذا انضم إلى مواكب الخالدين ثلة جديدة من
الشهداء العلماء . . ولا جرم أن الزمن سيطوى في غباره أكذاس الجبارين
من أعداء الإسلام ، الذين سلطوا على شعوبه ، فسلبوه بالحديد والنار حق
الدفاع عن نفسه ووطنه ومقدساته . . فلا تذكرهم الأجيال إلا للتمثيل على
البغي والطغيان . . في حين تتردد أسماء عبد القادر عودة ومحمد فرغلي وسيد
قطب وعبد العزيز البدرى وإخوانهم ألسنة صدق في الآخرين ، مادام
للإسلام بقاء في العالمين . .

* * *

سفينة وحانوت . . .

أعرف مسجداً بنى على التقوى ، إذ شيده رجل من النخبة الطيبة ،
في منطقة لا مسجد فيها على سعتها ، فلما أنجزه دعا لافتتاحه أحد العاملين
في خدمة الدعوة ، فلم يتردد في الإجابة ، واستمر يلقي فيه خطبة الجمعة
مدى ثمانية أشهر دونما أجر أو رغبة في أجر . . وكان الناس يهرعون إلى
ذلك المسجد لاستماع خطبة هذا المتطوع ، حتى أخذ يغص بالمصلين
الوافدين من مختلف أنحاء البلد وضواحيه ، فلا يبقى موطئ لقدم خالياً
لا داخلاً ولا خارجاً . . وقد ألف الشارع المتصل بالمسجد أن يمتلئ خلال
ذلك بسيارات الأغنياء ، الذين ما اعتادوا دخول المساجد قبل ذلك
إلا في الندرة !

وكانت هذه ظاهرة غريبة استرعت نظر الكثيرين ، إذ أكدت لهم أن

المسجد غير متعذر أن يستعيد من جديد تأثيره في اجتذاب الناس وتوجيههم ، وبخاصة لدى المثقفين ، عندما يتاح له الأظهار الذين يملكون القوة والأمانة :

وشاء الطغيان أن يبعد هذا المتطوع عن منبر ذلك المسجد ليحل مكانه رجل آخر بالأجرة . . وفوجئ المصلون بتغيير الخطيب ، لذلك كان لابد للمتطوع أن يودع الناس ويوصي خلفه . . فوقف عقيب الصلاة يلقي فيهم آخر كلماته . . وكان مما قاله للخطيب الجديد : « إن هذا المسجد أسس على التقوى من أول يوم . . وكان من فضل الله أن حفظ لمنبره طهره فلم ترسل منه كلمة إلا في مرضاته . . فاحرص على سلامة هذا الاتجاه أيها الخطيب ، وتذكر أن المسجد في الإسلام سفينة النجاة ، يلجأ إليه الغارقون في لجج الضلال ليستعيدوا اطمئنانهم ، وليعرفوا طريقهم ، لذلك كان لزاما على الداعي المؤمن أن يصون منبره من الانحراف ، فلا ينزل إلى حماة الشارع . . إن هؤلاء الناس رعبتك وهم إنما يقبلون على خطبة الجمعة ودرس المسجد ليتزودوا منها بالحكمة التي تقوم اعوجاجهم ، وتصحيح اتجاههم ، فإذا هبطت بمنبرك إلى سوية الشارع فقدت القدرة على التأثير فيهم ، وأوشك مسجداك بذلك أن يكون حانوتا صغيرا في شارع كبير ! » .

ولعمر الله أنها لكلمة حق أريد بها الحق . . وليس للمسجد من معنى سوى أنه حانوت صغير إذا هو انحرف عن هذا القصد الذي أوضحته يومئذ تلك الكلمة القصيرة .

• • •

هدم وبناء . . .

وطبيعى أن خطيب المسجد أو مدرسه لن يكون ذلك الربان الحكيم ، إلا أن يكون ممتثلًا يقينًا أن مهمته الكبرى تقوم على الهدم والبناء الدائمين . ه فهو هادم لكل باطل تريد التيارات الفاسدة أن تركزه في قلوب الناس ورووسهم ، وهو بان لهذه النفوس عيها بالمنظار السوى الذى يكشف حقائق الدنيا . وأنا لا أعلم كيف يتاح لقائد المسجد أن يكون الهدام البناء ، إذا هو لم يفهم قبل كل شيء أنه أمين الله على دينه وعباده ، مكلف أن

يحرس أبواب التعاليم الإلهية في يقظة ، فلا تتسرب إليها الطفيليات من هنا وهناك ، ثم عليه أن يصون قلوب رعيته من سموم البدع ، التي تريد أن تزاحم عليها حقائق السماء ، ذلك لأن العقائد الصحيحة كما أنزلها الله إنما هي وصفة ربانية ، رتبت فيها مركبات الدواء حسب حاجة الفطرة ، فكل زيادة أو نقص في هذا العنصر أو ذاك جناية على الإنسان ، كتلاعب الصيدلي الغشاش بوصفة الطيب الماهر ! . ولتوكيد هذه الحقيقة يقول الله تبارك وتعالى مندداً بالزائغين عن سبيله : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ! . ٤٢-٤١ » . ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم محذراً من سلوك هذه الطريقة المخوفة : « . . . وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة (١) » .

ولقد طالمنا رأينا واقع المسجدين على غير هذه الجادة ، إلا من رحم الله - وقليل ما هم - فهم لا يكادون يفرقون بين جنر وفرع ، وبين أصل ودخيل ، وإن بعضهم ليهم بثوبه ، يتأنق به ، وينتقى طرازه ونسجه ، وبعمامته فيقضي الساعات في تكويرها وتقييبها ، أكثر مما يهتم بالدين الذي يتعلمه ويعلمه الناس

وأشد البلاء هؤلاء أنهم قلما يتصلون بالمنبع الآلى من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل يأخذون كحاطب الليل دون أى تدقيق ، ولهذا كثيراً ما تسمعهم ينسبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس له به علم ولا يعلمون أنهم يكذبون عليه شائوا أم أبوا . . . وقد يقرؤون الحديث الصحيح من كلام الرسول ثم يعرضون عنه ، إشاراً لكلام واحد من الشيوخ ، وحجتهم في ذلك أن هذا الواحد أعلم منهم بكلام الرسول فالأخذ عنه أحوط لدينهم ! . ولقد والله سمعت واحداً من هؤلاء ومن ذوى المناصب الدينية العالية ، يقول لى بصراحة مدهشة : « إننى لأخذ بكلام شيخى ولو تعارض مع نص نبوى ثابت ، لأننى أشك بعلمى

(١) حديث صحيح رواه الترمذى وأبو داود .

وأثق بمأخذ شيخى ، ! . تماما كما فعل الذين من قبلهم إذ كانوا :
(إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ٢-١٧٠)
... وهذا الكلام قد تجد له تأويلا يرضيك ، ولكننى لا أفهم منه سوى
الجهل المطبق بمذاهب الأئمة أنفسهم ، الذين يقررون جميعا أن الحديث
هو مذهبهم إذا صح ، ثم الجهل المطبق بكتاب الله الذى يتعبد عباده بمتابعة
الرسول صلى الله عليه وسلم دون غيره من الخلق ، فلا دين إلا ما جاء به
فقط ، وكل كلام أو عمل من غيره فوسيلة إلى معرفة ما قال الله وقال
رسوله ...

سألنى ذات يوم واحد من هؤلاء الشيوخ عما أقوله فى الاستغاثة برسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أقف فى ذلك عند أمره تأديبا وامثالاً
فلا أستغيث إلا بالله . . فقال : هذا خطأ محض . قلت : ألا تسألنى عن
دليلي ؟ اسمع . . هل تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما صح
عنه : « . . إذا سألت فاسأل الله . . » (١) قال : ومع ذلك فنحن نرى صحة
الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم والكيلاى والرفاعى و . . و . . قلت :
يا شيخ . . أنا أقول لك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وتقول
لى : نحن نرى ونحن نقول ؟ . . ومن أنتم ومن نحن يا شيخ ؟ . إن الله يقول :
(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ٢٤-٦٣)
فهو يحذرنا من مخالفة رسوله ، فهل عندك آية من كتاب الله يحذرنا فيها
من مخالفتك أنت وأمثالك ! . .

ونحن لا نلتبس من هؤلاء أن يهملوا مذاهب الأئمة فى أمور دينهم ،
ولكننا نقول : إن تقديرنا لمذاهب الأئمة لا ينبغى أن يصرفنا عن الاتصال
المباشر بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . . والا استحالة المذهب نفسه
دينا ، حتى يكون هو الأصل فى نظر أتباعه ، وبذلك تتعطل مهمة القرآن
والسنة ، حتى ينحصر عملهما فى تزيين الجدران وصدور النسوان ، وما أحسب
هنالك شيئاً أخطر على الدين والمذاهب من ذلك الخطر الماحق .

(١) من حديث صحيح رواه أحمد والترمذى .

حمد وقصد ونسوة . . .

والأصل في الأشياء دائماً أن يكون الرأس هو مرجع الأمر ، يصدر توجيهه إلى بقية الأعضاء فتعمل وفق تقديره ، وهكذا كان الوضع بالنسبة إلى أجزاء الأمة أثناء عصور الإيمان ، إذ كان الناس تبعاً للعلماء في أحكام الشريعة ، فهم بنظرهم أهل الاختصاص ، تفرغوا لفقه الدين واستنباط الأحكام ، على وجه لا يتاح للجماهير المشغولة بكدحها ، فاذا جاؤوهم يسألون عن الحلال والحرام ، ردوهم إلى قول الله ورسوله ، في إخلاص المؤمن الذي يبتغي أجره من الله وحده . على أن هذا الوضع سرعان ما انقلب مع غيره من الأوضاع رأساً على عقب ، فاذا الشارع هو الذي يسيطر على الجامع ، وإذا البدع التي تلهم عقائد العامة هي التي تفرض نفسها على شيوخ المساجد ، حتى لا يجروا هؤلاء على مخالفتها وإعطاء حكم الشريعة فيها ، خشية أن يندبوا بالوهابية والسلفية . . ونحو ذلك من أنواع الألقاب . . .

وبذلك أضيفت أسباب أخرى جديدة إلى عوامل الانهيار العام ، وإذا المدرس أو الخطيب قبل أن يلفظ كلمة الحق يراجعها مائة مرة متسائلاً عن رأى فلان وفلان فيها وموقعها منه ! . . وطبيعى أن العامة لن ترضى عن غير الخاطبين بحبالها على طريقة « يا داخل بلد العميان ضع يدك على عينك » . وهكذا أصبحنا نرى البدع في كل مكان ، تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس ، يعمل بها الجاهلون ، ولا يستكف عن تأييدها العالمون ، حتى لقد انتهينا إلى اليوم الذي ورد ذكره في حديث ابن مسعود إذ قال : « يأتى على الناس زمان تكون السنة فيه بدعة والبدعة سنة . . »^(١) وفي مثل هذا الوسط لا تجد أشد عذاباً من أهل الحق الذين أخذوا أنفسهم به ، حتى أصبحوا غرباء بين أهلهم وإخوانهم ، فهم كما أنبا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « سيأتى على الناس زمان يذوب قلب المؤمن في جوفه كما يذوب الملح في الماء . . يرى المنكر يعمل ولا يستطيع أن يغيره »^(٢) . . .

(١) انظر « البدع والنهي عنها » لابن وضاح ص ٨١ . .

(٢) عن عطاء بن قيس الحراساني ، المصدر نفسه . .

ولقد استفاد المصلون من هذه الغفلة ، فاندفعوا يشرعون للناس الخرافات
ويمكنون السخافات ، حتى طم البلاء وعم ، فإذا المشعوذون يتقدمون
الصفوف ، ومن خلفهم الناس راغمى الأنوف . . وإذا نحن أمام مساهر
لا أول لها ولا آخر . . قبور أولياء يطاف بها صباح مساء ، يطلب
منها كل شيء حتى النجاح والحمل والشفاء ، وليس هذا فحسب ، بل إن
هناك مقامات لدواب هؤلاء الشفعاء ، تقدم إليها الندور ، ويوقد عليها
البخور ، والويل لمن تحدثه نفسه بالاعتراض ، أو يسول له عقله الانتقاد^(١).

والموجع في ظل هذه الظروف الشاذة ، أن ترى الرجال الذين هم مظنة
الصلاح والعلم ، يقعون فريسة هذه المصايد العامة ، فيذوبون في بوتقتها
متبرعين أو متفيعين . . !

وكمثل من ذلك أسوق هذه القصة من ذكريات ليلة لا أنساها . .
كان المجلس حاشدا بأصناف الناس ، أكثرهم المتعلمون ، وبين هؤلاء
بعض خريجي المعاهد الشرعية العليا . . وتكلم الشيخ المحتنى به ، بما فتح
الله عليه . . ثم جاء صاحب الدار بالماء فقدم إليه كوبا ، فشرب قليلا منه
وأعاده ، فإذا هو يرد سوّر الشيخ إلى الأبريق ، ثم يدور به على الحضور
ليتناولوا منه جرعات مباركات . . !

ولقد استقبلهم الشيخ أول الأمر بكلتا يديه ، يمدهما لا للمصافحة ولكن
للقبل ، ثم شيعهم كذلك بمثل ما استقبلهم . . !

وكذلك لاحظت بين هؤلاء من كان لا يكتفى بلثم الراحتين ، حتى
يمسح بهما الرأس والعينين . . ! على أن أغرب ما شهدته يومذاك موقف
الرجل الذي كان أعلى الحضور شهادات ، يتمسح بآثار الشيخ ، ويأخذ
سوّره في كثير من اللهفة المصطنعة ، كأنه يريد أن يغري الآخرين بمثل
عمله ! . . فلم أتمالك أن أردد في نفسي رأى أبي الطيب في مثله :

عجبت لمن له حد وقد وينبر نبوة القضم الكهام

(١) في اللاذقية حفرة يقال إنها مدفن الفرس التي كان يركبها الولي المغربي . . لا تزال
حتى اليوم تزار وتبخّر . . .

وقد كان لصاحبنا حد وقد ، وكان مرجوا أن يقوم الكثير من ذلك
 الاعوجاج . . ولكن نبا منه في المجلس صارم كان جديرا أن يقطع ، لو
 كان في يد تحسن الضرب . . وما ذلك إلا خطب يسير ، إذا قوبل بما
 هو أشد وأدهى ، مما أصبح مألوفا في كثير من المساجد حيث يصل الشيخ
 متأخراً لخطبة الجمعة ، فلا يبقى واحد من مريديه هناك إلا نهض على قدميه
 إجلالا للشيخ . . ! وهو عن ذلك راض وبه جد مسرور . . ولم لا يكون
 راضيا ومسرورا . . ووراء ذلك الجاه والمال والمنافع التي لا حد لها . .
 وقد نسي معه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سره أن يتمثل له
 الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار)^(١) ونسوا وجهلوا أن من الأدب
 النبوي أن يجلس الرجل حيث انتهى به المجلس^(٢) .

* * *

سلطان الغوغاء . . .

ولقد أدركنا الناس في بعض مدن المسلمين ، يتخذون من يوم المولد
 موسما للخروج بالحمل ، وهو جمل يرفع عليه هودج خال ، وتسدل عليه
 ستائر الحرير ، ثم يسار به في الشوارع الرئيسية ، تحف به الجماهير ،
 في مقدمتهم الشيوخ . . والمحظوظ من الناس هو الذي يمسك بزمامه . ويتزاحم
 أصحاب الحاجات على الحيوان ، وبخاصة طالبات الحبل ليظفروا بلمسة
 من الجمل ! .

وجاء يوم على مدينتي لم يكن فيها شاب ممن يحسنون هذا العرض ،
 إذ كانت الحرب الكبرى عام ١٩١٤ قد ساقطت الفتيان إلى سوح القتال ،
 وبذلك تعطل خروج الحمل لأول مرة في يوم الذكرى النبوية . . وسرعان
 ما أقبل الشيوخ والعجائز على ساحة المسجد يحتجون على ذلك صائحين
 صاخبين : هذا تعطيل لشعائر الدين ! . .

وأدركت الناس كذلك يحصنون بيوتهم من الأفاعي بتعاويد يكتبها
 لهم الشيوخ فجر عيد الصليب من كل عام ، فاذا أشرقت الشمس جاؤوا

(١) رواه الترمذى وأبو داود .

(٢) روى أصحاب السنن أنه صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس . . .

زرافات ليأخذوا نصيبهم منها ، تم ذهبوا يعلقونها فوق أبوابهم وعلى
جدرانهم ! . .

وكما حدث في شأن المحمل حدث في شأن التآثم يومئذ . . وذلك أن
فقدان الورق اضطر الشيخ إلى إلغائها . . ويا لهول النبأ ! . . فقد تجمع
الناس في فناء المسجد يضجون ويهتفون : ذهب الدين . . ذهب الدين .

وما لي أعود إلى الماضي ، وأماي من الحاضر ما لا يحصى من هذه
العجائب ! . . وحسبي أن أذكر القارئ فقط بما يسمعه فجر كل يوم ،
وظهر كل جمعة من أصوات المنشدين في مكبرات المآذن . . يوقعون
ألحانهم المتضاربة في ما يسمونه : التسبيح أو التذكير . .

ولا أزيد القارئ علماً بهذه « الأغاني الدينية » . . فهي أخلاط من
الكلام العجيب . . فيه الشعر السليم والمكسور المحطم . . وفيه ما له بعض
معنى . . وفيه ما لا يفهم عاقل مراده ! . . ولتقف من هذا كله على
(تسبيحات) الفجر . . وما أحسب القارئ إلا قد دغدغت سمعه بألحانها
الفوضوية ، يرسلها مع الأثير سوقي قد ضاق به مضجعه ، من إفلاس أو
أرق أو . . . فراح يوقظ النيام ليشاركوه أرقه وقلقه ! . .

وفي رمضان يضيق ليل المؤمن ، الذي يهيمه أن يؤدي صلاة التراويح ،
ثم ينهض لصلاة الفجر في وقتها . . ولكن . . مسكين هذا المخلوق . .
إنه لا يكاد يسلم عينيه إلى إغفاءة مريحة حتى يزلزله صياح (المسبح) يصدع
أطباق الليل ، فإذا هو شاخص البصر لا يستطيع إلى الغمض سبيلاً ! . .

ولقد كان المكبر نعمة في بعض الأحيان ، ولكنه في المآذن وفي
رمضان نعمة أي نعمة ! . . إذ أصبح وسيلة لتنافس (أبطال التسبيح)
فما يكاد ينطلق صوت أحدهم حتى تتجاوب الأصوات من هنا وهناك
وهناك ! . . وإذا أنت من ذلك تلقاء ألوان من (البرازيت) لا تميز معها
حرفاً من حرف . . وتستمر هذه (السمفونية) حتى يأتي الفجر الصادق
بأذان الصباح ، فتنهض للصلاة التي لا نوم بعدها للمساكين ! . .

ولقد ابتلى حيناً ذات حين بفتى مستهتر ، لا يعرف طريق المسجد إلا في ليالى رمضان .. إذ يقدم إلى مكبره ، فلا يزال يوق فيه حتى يقبل المؤذن ، فيدع له المكبر والمسجد معاً ! . وهكذا دواليك حتى نهاية رمضان ! . .

ولا تحسبن هذا بدءاً من الأمر ، فأنت واجده حيث ذهبت من بلاد الإسلام إلى بلاد الحرمين . وذات مساء كنت أقاسى الأمرين من هذه البدعة في حماة ، حيث قدر لي أن أنام في منزل يجاور مسجداً فإذا أنا فريسة لذلك (المسبح) الآخر الذى بدأ صراخه في فحمة الليل ! . .

وشكوت أرقى لمضيفي ، وتساءلت عن سبب سكوت الأوقاف عن هذا الإزعاج ، فإذا المصيبة واحدة . . إنها مصيبة الشارع الذى سيطر على الجامع ، حين جرد هذا من القوة التى تدفع عنه ! . .

ولقد ذكر لي ذلك المضيف أن ناساً قد شكوا هذا الأمر إلى الأوقاف فتحركت لمنعه ولكن . . ما كاد الخبر يشيع في الحى حتى ثار العامة ، واقتحم بعضهم إلى المكبر متحدياً ، يقرع الأسماع بما يشاء من لغو القول ومنكر اللحن . . ثم راح هؤلاء يذيعون في أوساط الغوغاء أن فلاناً وفلاناً يريدون منع المؤذن من توحيد الله ! . . .

وانتبه إلى هذا الزعم الخبيث الذى يتهم المصلحين بأنهم يريدون منع الناس من التوحيد ! . إنه الحجة نفسها التى يلقيها الشيطان على ألسنة الغوغاء عندنا حين يتهمون المصلحين ببغض رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لالسبب سوى أن هؤلاء يدعون إلى الوقوف بالأذان عند صيغته النبوية دون تزيدها ، فلا يجهر المؤذن بغير ألفاظه التى جاءت عن عصر النبوة . . فإذا هؤلاء يضجون ويصرخون : يا غارة الله ! . إن أولئك يريدون منع الناس من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

* * *

لباب وقشور . . .

تلك صور مصغرة من البدع التى اقتحمت حرم المسجد في الكثرة من ديار المسلمين . . فلي تذكر القارئ معى صور المساجد التى استحالت

قبوراً . ثم استحالت كعبة يقصدها كل ذى حاجة وعلة ، حتى السكارى
يكرعون الخمر فى ساحاتها ، وحتى الكاسيات العاريات ، يعرضن لحومهن
فى جنباتها^(١) . . . ودعى أقص عليك واحداً من أحداث هذه القبور السعيدة ،
احتكر لنفسه نصف أحد المساجد ، واحتل بسلطانه نصف قلوب المسلمين
فى بلده ، على الأقل ، فهم يتسابقون إلى الاحتكاك به ، وأسعدهم الذى
تتاح له الصلاة خلفه أو بجانبه ! . . .

لقد جرو إمام هذا المسجد ذات يوم فأعلن : أن الإسلام لا يبيع
إتلاف الأموال فى كسوة الأضرحة ، لذلك يرى أن يتخذ من إحدى حلل
هذا الضريح جبة له يدق بها جسده ، فى ذلك البرد القارس ! . . . ويشيع
الخبر فى الحى . . فإذا الناس حتى السكارى منهم ينتخون لقداسة القبر ،
وينذرون الشيخ بالكارثة ، إذا هو أقدم على ذلك ! . وتقف الأوقاف وراء
الغوغاء . . وبذلك انتصر القبر . . وظل ناعماً بحلله الفاخرة يقدمها طعاماً
سائغاً للأرضة . . والفئران ! . وليست هذه المعركة الأولى والأخيرة التى
ينتصر فيها سلطان الغوغائية ، مادام هؤلاء هم الكثرة الساحقة السافهة . .
ومادام المصلحون - فى الغالب - مبعدين عن قيادة المساجد . فهم يرسلون
أصواتهم من وراء زحام العامة دون أن يجدوا لهم نصيراً إلا إيمانهم بالحق ! .
ولقد بدت طلائع انهيار المسجد منذ أن امتدت إليه أصابع الترف . .
على أيدي العابثين . . الذين أبوا إلا أن يسلكوا سبيل أشباههم من أباطرة
الروم وفارس ، فراحوا يصبون ملايين الدنانير على تزويقها وتزيينها
ونقشها وترصيعها بالفسيفساء المذهبة ، فأشبعوا بذلك نزوة البطر ، التى
حفزت الفراعنة والأباطرة من قبلهم على تبديد أموال أممهم فى صنع الأهرام
والمسال وأقواس النصر وأنواع التماثيل ! . . .

وبذلك بدأ الانصراف عن الباب إلى القشور ، حتى كاد الناس ينسون
مفهوم المسجد الصحيح ، الذى أراده الشارع صورة من البساطة تصل

(١) شاهدنا ذلك وأسفاه فى مسجد المغربى باللاذقية ، وليس هو بغريب بالنسبة إلى
بعض المقامات فى القطر المصرى . . وقد سمع الناس حديث الشيخ عاشور عن بعض ذلك ،
فى لحظة عابرة من إذاعة القاهرة . . .

التفوس بحقائق الإسلام ! . وتسابق المحسنون إلى تشييد المساجد على الطريقة نفسها ، حتى أصبحت الزخارف في الكثير منها مشغلة للعين وللقلب ، تنزع المصلي من جوه الروحي الخاشع لتطلق فكره في الرسوم المدهشة البارعة . . كأنما المسلمون قد نسوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة بأن تميظ ستارها ذات التصاوير عن جانب بيتها ، لما شغل بصره وذهنه منها أثناء صلاته^(١) وكأن أولئك (المحسنين) لم يسمعوا إنذاره صلى الله عليه وسلم لأمثالهم بقوله : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد »^(٢) .

وبذلك فقد المسجد الكثير من دوافعه العليا ، ليكون أحياناً سبباً إلى إضعاف وحدة الجماعة ، بما تشيعه زخارفه من روح التنافس على الإسراف والتبذير ! .

ولقد كان للإسراف في تزيين الكنائس أثره الكبير في استهواء كبار المسلمين ، الذين ما لبثوا أن سلكوا الطريق نفسه ، فإذا المسجد يقارب الكنيسة لا يختلف عنها ، إلا في موضوع رسوم الطبيعة الحية ، التي لم تبرز بعد على جدران المسجد ، على حين قد غزت الرسوم الأخرى من زخرفية وطبيعية مساجد المسلمين في كل مكان . وما نحن أولاء نسمع أصواتاً جريئة تدعو اليوم إلى استكمال طريق التقليد بإدخال رسوم الأحياء إلى جدران المساجد ، وذلك بعرض القصص القرآنية في لوحات فنية ، تذكر رواد المساجد — على زعمهم — بأحداثها وعبرها مجلوة في أبلغ بيان ! ! .

وقد نسي هؤلاء وأولئك أن المسجد هو المكان الوحيد الذي يجب الحفاظ عليه سليماً من أهواء الناس ، ليظل البرزخ الذي يصل بين الدنيا

(١) روى البخاري عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) : « كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أميطي عنا قرامك هذا ، فانه لا يزال يعرض لي في صلاتي . . وفي رواية أخرى (فانها ألتفت عن صلاتي) .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي وصححه ابن خزيمة .

والآخرة ، حتى إذا فسدت الحياة من حوله كان صالحاً لأن يمدّها بالعلاج الذى يقوم أودها ويدركها بالعافية ، وهى المعانى الأصيلة التى عبر عنها عمر بن الخطاب حين خاطب باني المسجد بهذه الكلمة الحكيمة : « أكنّ الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر » . .

وليت الأستاذ محمود تيمور ، وهو صاحب الدعوة لإدخال صور الأحياء إلى المساجد ، قد ناقش هذا الموضوع على ضوء حسه الفنى ، إذن لتذكر أنه إنما يدعو ، من حيث لا يدري ، إلى مسح هاتيك المعانى الإلهية التى تحملها قصص القرآن ! . لقد نظر هذا الأديب إلى قصص أهل الكتاب مصورة على جدران الكنائس ، بأيدى ميكال أنج وأضرابه فأخذ بالبراعة والرشاقة وتساقط الظلال والألوان ، حتى تمنى لو يرى مثل ذلك على جدران المساجد ! . وقد نسى حضرته أن المعنى الأدبى حين ينتقل إلى الرسوم والتماثيل ، يفقد أول ما يفقد روح التأثير ، الذى تختص به الكلمة . . لأنه يحاول اختصار الآفاق النفسية المتعددة فى منفذ واحد هو النظر وحده ! .

ونحن قد نعجب بمنظر الطبيعة تخطه ريشة مفن ، لأنه يعرض لنا ، وفى تناسق الأصباغ ، كل ما يجعل هذه الطبيعة مؤثرة ، ولكن هذا المنظر نفسه يحبس موحياته فى إطار المعنى الواحد أياً كان هذا المعنى ، وبذلك يقف عاجزاً عن تحقيق المهمة التى يستطيعها الأديب ، حين يعرض لتصوير هذا المنظر عينه بقوة البيان الفحل . . فلا يقف عند حدود اللون والظل ، وإنما يتناول كل منافذ النفس الإنسانية ، بما يستخدمه فى هذه العملية من خصائص الفنون جميعاً : اللون والتجسيم والحركة والنغم والرمز وما وراء ذلك ، مما تطلقه همسات الحروف من المعانى غير المكتوبة . . إلى ما هنالك من أسرار وأسرار ، تجعل الأدب وحده هو صورة الحياة الكاملة بالنسبة إلى الفنون جميعاً . وما على الأستاذ تيمور وهو القاص البارع إلا أن يجرب ذلك بأن يكلف أحد كبار الرسامين تصوير إحدى قصصه التاجحة ، ثم يقارن بينها رسوماً وبينها كلاماً . . ويومئذ سيتعرف عملياً خطأ ما يدعو

إليه ، إذ يتبين له إلى أى مدى استطاع فن الرسم أن يمسح معانيه ! . . وإذا كان هذا سيحدث في قصص الأستاذ تيمور فإذا يكون الأمر إذاً في قصص القرآن ! . . هذا ولا يجوز أن ننسى أخيراً أن الفكرة المرسومة غير الفكرة الملفوظة والمكتوبة ، فلأولى تأثيرها العابر ، يدغدغ النفس مرة أو مرتين أو مرات . . ثم يآلفها النظر فتعجز عن الإثارة ، أشبه بالسلك الكهربائي عندما ينقطع عنه التيار ، فيعود كأي خيط معدني ، لا يفعل ولا يتفاعل . . على حين تظل هذه الفكرة في التعبير الأدبي حية ، يتجدد إحاؤها في النفس ، بمقدار ما تنطوى عليه من دوافع العبقرية ، أو بمقدار ما تكون عليه النفس من استعداد للتلق ، ومن هنا يطل السر الذي يجعلنا نقرأ الآية من القرآن مائة مرة ، وفي كل مرة نحس لها من الطعم والدوق والانفعال ما يكاد يكون نسيج وحده ، بالنسبة إلى المرات السابقة . . فلا غرابة إذاً أن يكون تصوير القصص القرآني - لا كان - نذيراً بالكارثة ، كارثة الفراغ من التأثير الذي اعتاد القارئ أن يستقبله من خلال النظم الفنى الأعلى لهذه المعاني الإلهية .

* * *

بطالة ورقص . . .

كان في مقدمة الحطامات التي عصفت بالمسجد أيام الكوارث ، تحول في بعض المناطق إلى ملجأ للعاطلين ، يأوون إليه في سياحاتهم الفارغة ، فينعمون بالدفء وألوان الاحترام . . دون أن يقدموا للمجتمع شيئاً مقابل ذلك . . اللهم إلا زيادة الكسالى ، الذين استطابوا هذه البطالة ، فراحوا يحولون مساكن العلماء إلى ملاه دخيلة ، يقيمون فيها حفلات الرقص والغناء باسم التصوف ، الذي لم يسمع به الإسلام قبل تدفق التيارات الغريبة ، بما أحفظ صدور المفكرين على هؤلاء المهرجين . . حتى قال فيهم المعري :

أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهم وأهون بالحلول :
أقال الله حين عبدتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي ! .

وقد لى هؤلاء تشجيعاً كبيراً من يخفء الحكام ، الذين كانوا في حاجة إلى إلهاء العامة عن مفاسدهم ، فأغدقوا عليهم المال ، وأباحوا لهم

موارد الأوقاف ، يتصرفون بها وفق أهوائهم . . حتى أوشكت هذه المؤسسات الضخمة أن تتحول أخيراً إلى تكايا خاصة بذوى البطالة وأشباههم . . من الدراويش ! . . .

ثم جاءت سياسة التجهيل فجردت المسجد من أعظم موارثه ، إذ أقصت أحرار الفكر عن ذروات المنابر ، لتسلمها إلى صنائعها ، من الذين أتقنوا فن الملق والانحناء ، فكان يسيراً على هؤلاء أن يرددوا كل ما يوحى إليهم . . حتى استحوالت بعض خطبهم أخيراً إلى ألوان من الهتاف السوقي بحياة فلان وفلان من أقزام الرجال ! . .

ولا ريب أن هذا الانحدار كان سبباً فعالاً في استعجال المصير ، الذي انتهت إليه هذه المؤسسات المسجدية مؤخرًا على يد الملاحدة الكمالين في عاصمة الخلافة ، حيث بلغ الغزو الغربي ذروته في معقل الإسلام ، فراح يمحو معالمه من البيت واللغة والمدرسة والقوانين . . ولم يكن حظ المسجد منه دون ذلك ، إذ جرد من كل ملحقاته الثقافية والاجتماعية ، وألزم الاقتصار على استقبال المصلين وحدهم ، فكان ذلك قمة الكارثة المالية على الإسلام في تركية (إذ جاء عملاً هداماً لأنه أدى إلى فصل الخدمات الاجتماعية عن المسجد)^(١) . .

* * *

أمسجد أم متحف ؟ . . .

وقد حدث العلامة الهندي أبو الحسن الندوي في (مذكرات سائح . .) أنه شاهد في أحد مساجد السودان صورة كبيرة لأحد مشايخ الطرق هناك ! . وهي بادرة تعيد إلى أذهاننا قصة الوثنية الأولى كما رواها ابن عباس ، إذ يؤكد أن أول ما عرف البشر هذه الأوثان كان من مثل هذه الطريق ، حيث أراد بعض أصحاب « النوايا الطيبة » تثبيت آثار صالحهم ، فاتخذوا

(١) الإسلام بنظر الغرب ص ٨٥ . . .

نماثيل على أشكالهم تذكر أقوامهم بفضائلهم ، ليلتزموا سبلهم . . غير أن هذه النماثيل ما لبثت أن تحولت آلهة تعبد من دون الله . . . ونحن لا نخشى أن تستحيل صورة الشيخ السوداني تمثالا يعبد على طريقة الوثنية الأولى . . ولكن الذى نخشاه أن تكون هذه البادرة الشرارة التى تضرع النار ، والنفخة التى تسبق الإعصار . . . فيفتح بذلك الدرب واسعا أمام صور الأحياء ترصع جدران المساجد باسم الغيرة على الإسلام . . حتى يأتى يوم يتعذر فيه التفريق بين المسجد الإسلامى والمعبود الوثنى ، أو بين المسجد والمتحف ! . كما يريد الأستاذ محمود تيمور . .

* * *

هجوم مريب . . .

ونعود إلى الكلام عن كفاح المسجد فى صراعه التاريخى فنقول : إن عدداً قليلا من المساجد فى الأقطار العربية قد استطاع بقوة الاستمرار أن يصمد أمام الأعاصير ، كالجوامع الأزهر وجامع الزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى مراكش . . وهذه الجوامع القليلة نفسها لم تتمكن من الصمود لولا ظروف استثنائية ضخمة ، جعلتها ذات أثر كبير فى مجالات النشاط العام ، فواصلت طريقها حتى أمس القريب ، كمراكز ثقافية تساعد على استبقاء الأثر الإسلامى فى الانبجاعات الإقليمية إلى حد كبير . . غير أن دعاة الانحراف لم يهملوا أمر هذه البقية الباقية من آثار الركائز الإسلامية ، فهم يعملون بكل قواهم للقضاء عليها . . وليست حملة الدكتور طه حسين قبل سنوات على الجامع الأزهر بعيدة عنا ولا غريبة علينا ، إذ أخذ يدعو إلى إنهائه كجامعة إسلامية ، وتحويله إلى معاهد علمانية ! . وقد نسي الدكتور أن القضاء على هذه الجامعة الإسلامية العظمى وليدة القرون العشرة ، معناه القضاء على مصر نفسها كمركز اتصال بين أجزاء العالم الإسلامى ، هذا فضلا عن حرمان مصر أيضا من بقية الثقافة الإسلامية التى حفظت للأمة دينها ، وشخصيتها ومعالمها المميزة فى أشد ظلمات القرون . .

أما جامعا الزيتونة والقيروان فلا يقل نصيبهما من حملات المستغربين عن زميلهما الأزهر ، وهما اللذان صانا لتونس ومراكش شعلة الكفاح طوال زمن المحنة الاستعمارية ، بما زودا خريجيها من معاني الحرية ، التي يعتبرها الإسلام أساس الحياة الإنسانية .

وإذا كان هذا وضع الجوامع العظمى في القاهرة وتونس والمغرب ، فغير مستغرب ما انتهى إليه واقع المسجد في سائر العالم الإسلامي ، من هذا التقلص الذي يوشك أن يسلبه كل أثر على المجتمع ، بعد أن جرد من كل مؤثراته الفعالة ، فاضطر إلى الدوران ضمن هذه الدائرة الضيقة من الصلاة والموعظة الخاوية غالبا من كل منفعة إلا ما شاء الله . . .

ولقد بدأ هذا التجريد الأخير طبيعيا إلى حد . . . إذ جاء في الوقت الذي انتقل به زمام الحياة إلى قبضة الحضارة الجاهلية ، التي بات من حقها أن تهاجم بوسائلها الجديدة كل معالم الحضارة القديمة ، بغض النظر عن قيمتها الذاتية ، وهكذا انتزعت مؤسسات المسجد لتلحق بأجهزة الخدمات الأخرى . كما حدث في تركيا مثلا إذ (تحولت هذه المدارس - مدارس المساجد - إلى مراكز لتوزيع الحليب ، وأندية رياضية ، وغرف نوم ، في حين تركت المساجد لتكون مراكز للعبادة ، وإلى حد ما مراكز للثقافة الدينية^(١)) ثم ما لبثت بعض الحكومات المستبدة أن حذت حذوها في بعض الدول الإسلامية فاستولت على أوقاف المساجد ، وبذلك جردتها من أهم مصادر القوة ، وأخضعها للإرادة السياسية كأي مؤسسة حكومية أخرى .

وما دامت الحياة نفسها معركة صراع ، فلا غرو أن تمتد الحلبة إلى سوح المعابد . . . التي كان عليها أن تدافع عن نفسها بتطوير وسائلها ، إلى الحد الذي يتطلبه منطق الحياة ، وإلا فليس طبيعيا أن تظل مثلا حلقات المساجد هي صاحبة السلطان في ثقافة الأمة ، بعد أن قامت المدرسة الحديثة بهجومها المركز على طرائق الثقافة القديمة جميعا . . . وليس طبيعيا أبدا أن

(١) (الإسلام بنظر الغرب) ص ٨٥ . . .

يستعيد المسجد سلطانه على المجتمع بهذه القبضة من « مشوهى الحرب »
وأعنى بهم أولئك المساكين من أئمة الصلاة ووعاظ الجمع ومدرسى الطهارة .
بعد أن امتلأت الأرض من حول المسجد بمجامع الكسالى - المقاهى -
وأندية الرياضة ، ومحافل الفنون ، ودور الخيالة ، ومسارح الرقص ،
ومغريات المسابح والمشارب والمقامر ، وما إلى هؤلاء وأولئك من عوامل
الجذب والدفع المسلحة بكل جديد من مبتدعات العلم والفن ! .

* * *

رجال ورجال . . .

ولقد رأينا مثل هذه الصدمات تعترى حياة الكنيسة ، وبخاصة منذ
عصر الصناعة الكبرى في أوروبا ، إذ كان من طبيعة العلمانية أن تطارد
الفكر الدينية المحافظة ، ثم كان من طبيعة السيطرة الجديدة لفلسفة الماديين
أن تنزع الجماهير من أحضان الكنيسة . . ثم جاءت الثورات الفكرية ،
والمذاهب الدينية ، والإنقلابات السياسية ، فجردت الكنيسة من وسائل
التأثير المباشر في المجتمع . . بيد أن الطبقة الأكليريكية هناك كانت أصلب
من أن تنحني للعاصفة ، فما هي إلا أن سكنت قليلا حتى نهضت لتنظيم
الخطط الجديدة لغزو العالم في الداخل والخارج ، وإذا بيعتات التبشير تنتشر
في كل جزء من أرض الله ، لا تستثنى مجاهل أفريقيا ، ولا مغاور أسكلة
للحوم البشرية ، وإذا الكنائس في أميركة وأوروبا وأفريقية وآسية وحدات
اجتماعية كاملة ، فيها الجامعة والكلية والمدرسة ودار الحضارة ، ومعها
المكتبة والمصح ودار التوليد ، وحتى أندية اللهو وبرامج التلفزة والسينما ،
ومسارح التمثيل ! . وقد بات مألوفا جداً ، في كثير من الجامعات الأميركية
مثلا ، أن يبدأ الأطباء أول أعمالهم بأداء الصلاة ، وأن تعلق في صدور
القاعات كلها صور القديسين والألواح الدينية الأخرى ، وأن تفتتح ساعات
الصباح في مدارسهم ، سواء في واشنطن أو روما أو اللاذقية ، بالصلاة
ورسم إشارات الصليب من قبل الجميع أساتذة وطلابا وطالبات . . وليست
الجامعة الأميركية في بيروت أو القاهرة إلا صورة من هذا النشاط الكنسى
الواسع ! . وفي بيروت أكبر مكتبات الشرق قاطبة ، وهي تابعة للارسلانيات

اليسوعية التي لا يقف نشاطها عند حد . . . وها هي ذى مستشفيات الإقليم السوري بأجمعها يقبض على أزمة التبريض فيها راهبات من قبل هذه الإرساليات^(١) ، أولى مهامهن تبليغ رسالة الكنيسة إلى كل مريض ، وهن لا يعملن في مستشفى إلا بشرط أن توقف هن فيه قاعة خاصة يقمن فيها الصلاة كل يوم بقيادة أحد القسس ، وكل ذلك بمساعدة فعالة من الأطباء والموظفين المسلمين الذين يرون من التسامح تقديم كل وسائل التشجيع هن ، في حين قلما يخطر على بال أحدهم تقديم أية معونة لأى مسجد أو مشروع إسلامي ، بل قلما يتنازل أحدهم أن يشارك المسلمين في أداء صلاة واحدة — إلا من رحم الله — ومن هنا يتبين الفرق العجيب بين رجال المسجد ورجال الكنيسة ، فهؤلاء يتلقون الإصابة القاتلة ، ولكنهم لا يموتون ، بل ينتفضون فيزول القبر والكفن . . . ثم يبدؤون من جديد ، وقد استفادوا من عبر الماضي ، فيشقون للكنيسة طريقها المأمون ، على حين أن زملاءهم من المسلمين يسقطون تحت أول صدمة . . . ثم يرضون بالأمر الواقع ، فيفقد المسجد على أيديهم كل إمكاناته الموروثة ، ليدوروا في حلقة الضيقة المفرغة ، وإذا هم أخيراً مقطوعو الصلة بجماهير المجتمع ، يرون بأعينهم إلى المساجد تخلو شيئاً فشيئاً من المصلين ، لتنتل بهم مجامع الكسالى والضائعين المحيطة بالمساجد نفسها ثم لا يفعلون شيئاً . . . كأن ذلك لا يعينهم ، لأنهم أعجز من أن يفكروا بكل هذا ، ولأن معظمهم لا يعدو كونه موظفاً (يعدد أياماً ليقبض راتباً) . . .

ولقد جر هذا التماوت وراءه كوارث وكوارث ، من أقربها انصراف الناس عن الثقافة الدينية ، حتى أصبح البيت العريق في خدمة الفقه الإسلامى يوجه ولده إلى أى فرع من فروع الجامعة إلا كلية الشريعة . ولقد راجعت مع صديقين لى شيخاً من رجال القضاء الشرعى ، نحاول إقناعه بأن يوجه أحد أبنائه الثلاثة لدراسة الشريعة ، فأبى وأصر على توجيهه إلى الكيمياء ، وذلك بالرغم من ميل الابن الشديد إلى الدراسة الإسلامية ! .

(١) هذا ما كان عليه الوضع أثناء كتابة هذه الكلمة .

وقد بلغت أن الأب قد اضطر إلى إنذار ولده بقطع كل معونة عنه ، إذا هو أصر على الانتساب إلى كلية الشريعة ، حتى أكرهه على النزول عند أمره . وكل عذر الأب أنه يخشى على ابنه الفقر وفقدان المركز المناسب ، وأن يكون كبعض هؤلاء الشيوخ الذين فقدوا كل احترام ! . وقد نسي أن المسجد إنما يحتاج إلى الدم الجديد الذي ينقذه من أولئك العاجزين ، وأن ابنه حين يتخرج في كلية العلوم فلن يكون أكثر من شهادة بين آلاف الشهادات الجامعية ، ولكنه لو تخرج في كلية الشريعة لكان جديراً أن يكون كوكبا يسهم في تبديد الظلام ، وكشف الكثير من الآلام . . . وليت الشيخ تذكر فقط شيئاً واحداً هو هذه المكتبة الكبرى التي هيء واحداً من بنيهِ وبناته للإفادة منها . . . والتي سيكون مصيرها بفضل توجيهه إلى أيدي الجاهلين من باعة الجبن والزيتون ، كما كان حظ مئات الأطنان من أنفس المؤلفات العربية في تركية عقيب المحنة الكمالية !

* * *

المسجد والمقهى :

وأخيراً لقد ركز الإسلام لواء المسجد ليجعل منه أساس البنية الاجتماعية ، وفضلاً عما أنشأ له من المهام في قلب المجتمع ، فرض له من الآداب مجموعة تمكن له من النفوس بقوة . ففي المسجد يمرن المسلم نفسه على أنواع من الفضائل العملية ، من شأنها أن تطبع كل سلوكه بمعاني الإسلام الحية ، التي تعمل في نشر الدعوة الإسلامية ما لا تعمله مئات الخطب والكتب . . . وما بالك بإنسان يحين وقت الصلاة فيترك عمله أياً كان ، ليأخذ بالاستعداد لها ، فيغسل أطرافه ، وينظف ثيابه ، ثم يلج باب المسجد في خشوع الموقن أنه مقدم على الله ، وهناك يمسك لسانه عن كل سوء . . . بل عن كل كلام إلا التسييح والتحميد للحكيم الحميد ، حتى إذا أعوزه الكلام مع رفيق له ، لم ينطق إلا همساً . . . ثم تقام الصلاة ، فينتظم مع إخوانه في صف لا فرجة فيه ، ولا تجدد فيه عوجاً ولا أمثاً ، يقوده إمام لا يجوز سبقه في حركة ولا سكونه ، ثم يتلو من كلام الله ما يذكره بمبدئه ومنتهاه ، وصلته بواهب الوجود ، وبإخوته في الإنسانية ، قائماً

في تأمل ، راکعاً في تذلل . . ساجداً في تضرع . . مكبراً لجلال الله
في كل نقلة ، داعياً بالسلام لنفسه وإخوانه المؤمنين من الأوّلين والآخرين ،
مصلياً على النبي الذي هداه الله به لكل هذا الخير ، حتى إذا ختم صلاته
بالتسليم على نفسه ومن حوله لبث مكانه قليلاً في غمرة من الذكر والتأمل ،
ثم غادر المسجد ، في مثل الخشوع الذي دخل به ! .

ولك أن تتصور هذا الإنسان ، وقد أخذ في تدريب نفسه على ذلك
الطراز من الهدوء والخشوع زمناً لا يقل في مجموعه عن الستين دقيقة
في خمس صلوات من كل يوم وليلة ، ثم لك أن تسأل نفسك عن الكيفية التي
سيكون عليها هذا الإنسان ، تحت تأثير ذلك النوع العجيب من التربية
الربانية . .

ولا بد أنك رأيت كيف أن عملاً ما من شأنه أن يطبع نفس صاحبه
بآثاره ، حتى لتمييز بين ذى المهنة والآخر فتعرف الجزار بعنفه ، والمدرس
بارتفاع صوته وطريقته المنطقية ، والمحامي بنزعة الجدلية ، والحياط بلطف
مأخذه وحسن صبره . . . وبمثل هذا المقياس تعرف المصلي بصفاته الخاصة ،
من جمال التواضع وأدب التعبير ، وطول الأناة ، وعمق التأمل . . اللهم
إلا أن يكون قد حول العبادة إلى عادة ، فأصبح لا يتصل بها إلا كما يتصل
الإنسان من رواد المقهى بمقعده منه في الوقت المعتاد . ثم لا تنس أن تقارن
بين هذا المخلوق الذي نشأ في أحضان المسجد ، فحمل روحه في سلوكه
وفي حركاته وسكناته ، وبين مخلوق آخر تلقفته المقاهي والأندية ، ومختلف
المسالك الاجتماعية الأخرى ، فنشأ على طريقتهما التي تصنعها الأهواء والمنافع ،
مما قد يتبع اللذة العابرة ، ولكنه لا يعطي المعاني الإنسانية الباهرة .
فإذا الحياة بأشباهه قفر من المودة الحقة ، يتلاقى فيها الأحياء كما يتلاقى
السجين مع حارسه ، فقد يتبادلان الابتسامة ، ولكنها ابتسامة تخفى وراءها
ألف لعنة ! .

ويسير عليك بعد هذه اللوحة أن تدرك أي خير حرمة هذه الأمة ،
منذ اليوم الذي انصرفت فيه عن معاني المسجد ، وأي جريمة يقترفها الناس

فى حق أنفسهم . حين يرضون لها أن تهجر هذه المعانى ، لتغمس
فى غمرات الملامى والمقامى . . .
والآن ما أحسبك تنكر على القول بأن أفضل ما يصنعه المصلحون
المخلصون لهذه الأمة هو أن يردوا القافلة الضالة إلى طريقها الآمن . . إلى
المسجد .

* * *

الأمل الوحيد :

ولكن من حقلك على أيضاً يا قارئ أن تعجل إلى السؤال عن الوسيلة
بعد أن عرفت الهدف . . فأنا مثلك موقن أننا غير قادرين على تحقيق هذه
العودة إلى المسجد بوسائلنا الراهنة . . إن جهاز المسجد فى وضعه القائم غير
جدير بمهمته ، ولا بد من تحول جذرى يضع الأمور فى نصابها ، وفى
مقدمة ذلك تطهير دوائر الأوقاف من المدلسين والمهرجين ، الذين لا يتورعون
عن بيع تأييدهم لكل (ناقد) . . وإذا كان من حق أى نظام فى العالم لا يؤمن
على تنفيذه سوى الموقنين به ، فمن حق المسجد على وزارة الأوقاف فى كل
بلد إسلامى أن تنقذه من أيدي الذين لا يؤمنون برسالته ، وأن تذكر أن
معظم المجالس المشرفة على إدارة المسجد فى الكثير من ديار المسلمين هى
من بقايا التربية الدلية ، التى تجعل هذه المجالس ملاجئ مغلقة ، لا يدخلها
إلا أولو الأنصار ، من الذين حافظوا على وجودهم فيها بقوة السلاح
أو الزور أو الاستمرار . .

والحق أن من الغفلة غير المعقولة أن نختم هذه البحوث عن رسالة المسجد
ومصيبته ، دون أن نضع أمام أعين القارئ صورة مصغرة لهذه المجالس
التي تتحكم فى مصائره ، والطريقة التي تؤلف على أساسها . . فهى من
الطرافة بحيث لا يجوز حرمانه من معرفتها والاطلاع على بضاعتها .

كانت الهيئات الوقفية ولا تزال جزءاً لا يتجزأ من نظام الحكم القائم
فى ديار المسلمين خلال مراحل التاريخ ، فما دام الإسلام هو الذى يحكم
تصرفات المسلمين ، فلن تخرج هذه الهيئات عن كونها وسيلة لتحقيق غاية

الواقف ، تتعهد صيانة الأوقاف وتثمينها ، وتنظم مراقبتها ومصارفها في خدمة المسجد والمؤسسات المحبوسة عليها . . حتى إذا اقتحم الاستعمار الصليبي قلاع الإسلام أطلق يده في تلك الكنوز ، وراح يتصرف بها لمصلحته ، فيعين لها من شاء ، ويحرم منها من شاء ، وينفق من ريعها حتى على تنصير المسلمين ، كما فعل في الجزائر وغيرها من مستعمراته .

وكان موقف الغير من المسلمين بإزاء هذا العدوان هو موقفهم بإزاء النظام الاستعماري كله ، إذ لا يمكن إقناع المستعمر بإصلاح الوضع الوقفي على حدة ، وهو الذي يقبض على ناصية الأمر في كل ميدان . . وهكذا استمر الكفاح عاما ضد النظام بأجمعه ، حتى فتح الله للمسلمين سبيل الحرية ، فخرج المستعمر بجنوده وأسلحته ، ولكنه لم يخرج إلا بعد أن خلف وراءه جيلا من الذين نشثوا على طاعته وتقديسه ، وامتزجت أساليبه الإدارية بأرواحهم ، فلم يروا خيراً من مواصلة طريقه في التنظيم والإدارة والتعليم . . ولم يكن حظ الأوقاف من هذا الاستخلاف بأفضل من حظوظ المؤسسات الأخرى ، فإذا هي تستمر في الطريق نفسه الذي زجها به العدو من قبل . وفي كثير من الأحيان تحت سلطان الأشخاص أنفسهم الذين اختارهم لها . .

ولم يكن بد في النهاية من التظاهر بإصلاح الأوضاع الوقفية ، فصدرت القرارات بتنظيمها على أساس المجالس الجديدة التي حدثت بآثارها . . أما كيف تتألف ؟ . . ومن ؟ . . فهنا موضع البحث .

لقد أوجب التنظيم الجديد في ظل الحكم الجاهلي أن تتألف هذه المجالس من أفراد مسلمين يمثلون مصالح البلد . . أي من التجار والمحامين والأطباء والمهندسين وممثلي الجمعيات الإسلامية وأرباب الشعائر الدينية و . . . ويتم انتخابهم بإشراف مفتي المحافظة ومدير أوقافها . . ويعتبر فائزاً بالعضوية كل من نال المزيد من الأصوات .

ولا تعجب إذا قلت لك أن بين هؤلاء الذين انتخبوا لإدارة أوقاف المسلمين من لا يفهم من الموضوع سوى أنه فرصة للظهور أو تحقيق المصالح ؟

لأنه بطبيعة نشأته بعيد عن جو المسجد ، بل عن جو الإسلام مطلقا . . . ومعنى هذا أن ناساً لا علاقة لهم بأمر المسجد فرضوا أنفسهم بقوة القانون عليه وعلى أهله ! . . . فإذا أضفت إلى ذلك موجهات السياسة ، والإيعازات التي لا سبيل لمخالفتها ، أدركت أن هذه المجالس لم توجد إلا لتثبيت الخلل الذي اعتري حياة المسلمين وضمان استمراره .

ولا حاجة للتذكير بأن السلطان الفعلي في هذه المجالس يظل في قبضة المفتين ، فهم مع مديري الأوقاف الذين يحضرون جدول البحوث لكل اجتماع ، فيستبعدون ما يرون ويقدمون ما يشاؤون ، وهم متعاونين مع مديري الأوقاف الدائمين يتولون تنفيذ المقررات بالطرق التي يختارون . . . وطبعي أنهم هم الذين يعينون أرباب الشعائر الدينية ويعزلونهم ، دون أن يكون لأعضاء المجالس من أثر في ذلك سوى الرجاء والشفاعة ، إذا كان ثمة من ضرورة للرجاء أو الشفاعة ! .

وبقليل من التفكير يمكن للقارئ أن يتصور جو الإرهاب الذي يحيط بهؤلاء المساكين ، ممن يسمونهم أرباب الشعائر الدينية ، تحت سلطان هذه المجالس التي لم توجد في الأصل لخدمة الدين ، بل لتنفيذ أهواء المتسلطين . .

إن هؤلاء المساكين مقيدو الألسنة فلا ينطقون إلا بما يؤمرون ، ومقيدو الرأي فلا ينتخبون لتلك المجالس إلا من لهم يسمون . . . والويل لمن يشذ منهم أو يخالف ، فإنهم برزقهم مهددون ، وبالدسائس والوشايات محاربون ! .

وطبعي أن وضعاً كهذا ليس من شأنه أن يقدم أي خير للإسلام ، أو هؤلاء المساكين ، الذين يريدون الواجب على التفرغ لخدمته ، وعرض حقائقه ، والدود عن حياضه ، ويأبى المتسلطون إلا أن يجعلوا منهم العوبة يتصرفون بها كما توحى أهواؤهم ومصالحهم ! . .

لقد كان في وسع هذه المجالس أن تقدم لقضية المسجد خيراً كثيراً ، لو أحسن اختيار أفرادها ممن لديهم الوعي الإسلامي ، والإخلاص لقضية أمتهم ودينهم ، ولكن هذه أمنية لا مطمع بتحقيقها إلا في ظل النظام القائم

على هذه الأسس ، وما دام البون على هذا المستوى من التفاوت بين الواجب والواقع ، فسيظل السير إلى الوراء ، وسيظل الإصلاح حلما بعيد المنال .

وليس موضوع مجالس الأوقاف . في كنف هذا الفراغ المحير ، إلا كموضوع قانون الانتخاب النيابي - المؤثود - فقد فرض هذا القانون لكل طائفة من أبناء البلاد - بما فيهم الأرمن - مقاعد بنسبة عددهم ، ولكنه ربط مصير كل طائفة بإرادة الأخرى على صورة سلبتها كل حرية في اختيار نوابها . . . وبذلك خضعت الأكثرية الإسلامية لإرادة الأقلية المسيحية ، ففي وسع هذه الأقلية بتعاونها وتنظيمها ، أن ترفع إلى النيابة من تشاء من مرشحي المسلمين ، دون أن يستطيع المسلمون فرض سلطانهم على مرشحها ! .. ومن هنا جاء تسلل بعض المتحرقين من المسلمين إلى الحكم بوصفهم نواباً عن المسلمين ، على الرغم من أنهم لم ينالوا من أصوات المسلمين في الاقتراع إلا قلة ضئيلة ، بل أن بعضهم - وهم من كبار الحزبيين - هزمتهم أمتهم في بلدهم ، ولكنهم مع ذلك انتزعوا النيابة بأصوات غير المسلمين من خارج بلدهم ! . . .

ولئن دل هذا على شيء إنما يدل على أن وراء هذه التنظيمات الملقومة بمؤامرات تستهدف تجريد المسلمين من كل قدرة على تحسين أوضاعهم ، سواء منها السياسية أو الدينية . . . وعندما نقرر هذه الحقيقة لا نخص بها سورية وحدها ، بل لا نستثنى من أخطارها أي بلد إسلامي جرفته تيارات المذاهب الغربية أو الشرقية . . .

وهذا لبنان وهو البلد الذي تغطيه الأقطار المجاورة على حريته وبحبوخته ، لا تختلف أوقاف المسلمين فيه عن أخواتها في سورية ونحوها . . . وحسب القارئ ، للإلمام بواقعه الرهيب ، هذه المقتطفات ننقلها إليه من مقالة للأستاذ الشيخ سعيد شعبان ، نشرتها جريدة الشهاب اللبنانية في عددها الصادر في ١٧-٢-٨٨ هـ . . .

قال الأستاذ شعبان :

(... إن للقضية - قضية الواقع السيء الذي تعانيه المؤسسات الإسلامية

بلبنان - وجهها آخر . . ألا وهو المستوى الذى بلغتته الإدارة الوقفية ،
التي تعتمد استبعاد الأكفاء ، الأمر الذى حمل أكثرهم على الجنوح حفاظا
على لقمة العيش ، مع إيمانهم بمخالفة ذلك لأوامر الله ، وشعورهم بالإثم
من انجرافهم تحت الضغوط . . فقد مارس الموظفون في هذه الدائرة ذلك
على أعين الملاء . . ففى كل مناسبة تقدم فيها الأكفاء كانوا يجدون الإدارة
هى العقبة الكثود والحصم اللدود لكل إصلاح ، وكنا نراهم يمارسون
بأشخاصهم عملية الدفاع عن أوضاع فاسدة ، ليحافظوا على الأجواء التي
ألفوا العيش في مناخها ، ثم يشنون هجوما معاكسا على كل جهة تنوى
الإصلاح وتسعى لتحقيقه . . كنا نرى الضغوط على العلماء الذين لهم حق
اختيار الأشخاص للمجالس الوقفية والشرعية تتجلى تارة بتهديدهم
في وظائفهم ، وطورا بالوعود والعروض الرخيصة المبتذلة . . ولقد أخبرني
بعضهم أنه كان يغرى بما لا مجال لذكره ! ! . . وآخر يهدد بالكشف
عن شخصه من خلال خطه على ورقة الاقتراع إن هو خالف ما رسم له . .
بما تأباه المروءة ويرفع عنه الرجال . . . ولو أنهم تتاح لهم فرص آمنة
لنطقت أفواههم بالعجائب ، ولكن الجو المفروض عليهم يحول دون
تجرئهم على أن ينبس أحدهم بكلمة ! . .) . .

* * *

إلى المسجد :

لأنه لواقع رهيب هذا الذى تصوره كلمة الأستاذ شعبان . . ولكنه
ليس بغريب على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

لقد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، وأوشكت
الحياة أن تسمى مباءة أدواء لا علاج لها ، وفي مثل هذه الظلمات يفتقد
البدر ، وتتلهف العيون إلى النور . . وقد تساوت الأقطار الإسلامية كلها
في أنها جربت الابتعاد عن مثل الإسلام مختارة أو مضطرة ، فثبت لها
جميعاً أن ليس في مدينة الغرب ما يعوض خسارتها الروحية ، لذلك وجدت
نفسها مضطرة إلى استعمال الكابح في منزلقتها الخطر ، فهي اليوم تحاول

الاستمساك ببعض أسباب الإسلام الذي لا نجاة إلا به ؛ وها هو ذا نذير تركي مخلص ، يصرخ في مجلة (صوت الإسلام) : « إن القواعد الاجتماعية والأخلاقية للجهاز السياسي قد دمرت في دور من المحنة العنيفة ، أفقد الشيوخ الاحترام ، ففقد الشباب الطاعة ، ومستوى المعاملات قد انحط كثيرا ، ونشبت الفوضى في الحياة الاجتماعية ، والأمل الوحيد هو العودة إلى الدين » (١).

فلنتعظ بتجربة تركية الحاسرة . ولنجدد حياة أمتنا بردها إلى المسجد ، فإذا أعوزتنا الوسائل التي تقنع الناس بالعودة إليه ، فلا بد من أن نحمل إليهم زوجه في كل شيء ، وبخاصة عن طريق المدرسة ، التي آن لها أن تثوب إلى رشدنا ، فقتعيد منزلها العليا أيام كانت تثنفس برثيئ ، فتحمل من جوه الروح الذي يجعل المعرفة طريق الإنسان إلى الحق والحرية والخير ..

لذلك كله كان المسجد هو البرزخ الذي يجب الاحتفاظ به فوق مستوى الأهواء والمكاسب العابرة . . ليكون دائماً وأبداً صالحاً للإنتقاذ . وقد روى عن المسيح (عليه السلام) تشبيه دعاة الحق بالملح الذي يصلح الطعام . . فإن هو قد فسد لم يكن هناك أمل بأي إصلاح . وها نحن أولاء نرى إلى الملح يوشك أن يفسد ، أو يفقد قدرته على الإصلاح ، فلنحاول أن نتدارك الأمر رحمة بأنفسنا ووطننا وأجيالنا القادمة . .

إننا ندعو للعودة بالمسجد إلى مهمته التي أرادها الإسلام ، وبعض الوسائل الموصلة إلى ذلك أن نظهر محاريبه ومنابره من الصعاليك ، الذين صاروا بالمسجد إلى الشقاء ، الذي وصفه أمير الشعراء حين تنفس صدره بهذا البكاء :

مررت بالمسجد المحزون أسأله : هل في المصلى أو الخراب مروان !
تغير المسجد المحزون واختلقت . على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في مناره إذا تعالى ، ولا الأذان أذان !!

(١) (الإسلام ينظر الغرب) ص ٨٧ . . .

طرائف من الغرب

والحديث عن المسجد يجر إلى الحديث عما يسمى اليوم بالمراكز الإسلامية وبخاصة في أوروبا وأمريكا ، ذلك لأنها ضرب من المساجد ذات المرافق الثقافية ، التي في وسعها - لو أحسن توجيهها وإدارتها ، أن تستعيد ماضي المسجد ، أيام كان منطلق الحياة الإسلامية كلها .

إن الإسلام يخوض في هذا العصر أعظم معاركه طرا ، معركة الدفاع عن البقاء . والدفاع عن المثل ، والدفاع عن الأرض ، والصمود في وجه التيارات السامة الوافدة من الغرب الصهيوني ، ومن الشرق الملحد على السواء . وفي كنف هذا الواقع الرهيب لابد من استعمال الوسائل المشروعة كلها لإفساد خطط الغزاة رجالا أو أفكارا . وإقامة مراكز لهذه الغاية في قلب الغرب والشرق من أهم هذه الوسائل . ولا شك أننا قد سجلنا بعض النجاح حتى الآن في مضمار الشكل ، فهناك مراكز فخمة في الولايات المتحدة وأوروبا إلى حد معقول . ولكن نظرة فاحصة إلى المضمون تكشف لنا حقيقة مؤسفة ، وهي أن في هذه المراكز كل شيء من ألوان الدعاية السياسية إلى ألوان الترفيع ، إلى حسن استقبال الراغبين في الاطلاع على أشياء من حياة الشرق ، ونحو ذلك . . أما عرض الإسلام ، والدعوة إليه ، وتعهيد أبناء الجاليات الإسلامية بما يحفظ لهم دينهم في تلك الأوساط ، التي لا تتصل بالمعاني الإسلامية من قريب أو بعيد ، فذلك آخر ما يخطر في بال القائمين على معظمها . . وليس هذا بالأمر الغريب ، ما دام هؤلاء إنما يمثلون (التيارات للتقدمية) في بلادهم ، فلا يهمهم من أمر الإسلام إلا ما كان ذا نفع مباشر لهذه الغاية الأولى . .

ولقد حدثني بالأمس طيب عربي كان عائدا لتوه من الغرب . . فقال : قصدت إلى المركز الإسلامي في ... يحملوني شوق حار لسماع الأذان والانتظام في صفوف الجماعة ، وما أن بلغت حتى فوجئت بأبوابه مغلقة وثلاثة من مستخدمييه على مقربة منه ، فسلمت وسألت : أليس هذا وقت صلاة

العصر ؟ . . قالوا : بلى . قلت : فعلام لا أسمع أذاناً ولا أرى صلاة ؟ .
فقال كبيرهم : لأننا لا تفتح المسجد إلا أيام الجمعة والعيد . .

وراح المستخدم يعلل ذلك بقوله : إن افتتاح المسجد في سائر اليوم
يكلف جهوداً ومصروفات . . هذا إلى قلة الراغبين في صلوات الجماعة .
قلت : الجماعة تنعقد باثنين فأكثر ، وأنتم ثلاثة فلم لا تقيمونها بكم على
الأقل ؟ . ثم قلت : ألا تفتحون المسجد لأحد خلال الأسبوع ؟ . فأجاب :
بلى نفتح للراغبين في مشاهدة داخله . . قلت : فاسمحوا لي إذن بذلك .
وفتح المسجد ودخلت ، ولم أتردد فأقمت الصلاة بنفسى وحيداً ،
وهم ينظرون ويستغربون لأنى خالفت شرطهم .

قال الطبيب : وأغرب من هذا ما لقيت في إذ كنت أقضى فترة
تخصصى في بلد بعيد عن المركز الإسلامى فجئته ذات يوم لاستطلاع أحواله
وللتنظر فيما يمكن أن نفيده منه ، فوجدته مفتوحاً ، وكان المسئول الكبير
وهو من حملة الدكتوراه في الدراسات الشرعية غائباً ، فانتظرت حتى عاد ،
وهناك قلت : لا بد أنكم تقومون بمجهود مشكور في ميدان الدعوة إلى الإسلام
وتعريفه والدفاع عنه . . فارتبك الرجل ولم أظفر منه بجواب شاف ، فقلت :
نحن في شهر رمضان ، وهو موسم العبادة والقرآن ، فلو أنكم خصصتم بعض
الوقت من كل يوم لتفسير بعض الآيات أو الأحاديث لوجدتم إقبالاً من
الطلاب المسلمين ، ولكان في ذلك خير كثير . فقال : ولكن أوقاتنا
فيما قبل الظهر مشغولة كلها بين حاجات البيت واستقبال الزوار وإعداد
الشاي . . وما بعد الظهر فهو وقت راحة لا مكان فيه لغيرها

وما أرائى بحاجة للتعليق على هذه الطرائف ، فهى بنفسها ناطقة بواقع
تلك المراكز ، التى لا تختلف عن أية دائرة حكومية في الدولة التى تسيطر
عليها عن طريق هؤلاء الممثلين الأفاضل . . .

ولقد حدثنى هذا الطبيب النسيب أيضاً بأن اتفاقاً تم بين الحكومة
الإنجليزية والحكومة المصرية ذات يوم على أن تمنح كل منهما الأخرى

أرضاً صالحة لإقامة معبد عليها ، فأما الأرض المصرية فقد ارتفعت عليها الكنيسة المنشودة في أقصر وقت ممكن . . في حين بقيت الأرض الإنجليزية خاوية على عروشها . . تنتظر حجر الأساس للمسجد المتفق عليه ! . .

وطبيعى أن لمثل هذا التصرف الرسمى إجماع العميق في نفوس الممثلين الرسميين ، الذين لا يكلفهم أحد أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك .

* * *

المفتريات والملحقون الثقافيون :

وذات يوم تلقيت رسالة من أحد الطلاب العرب في أسبانيا ، فيها المقيم المقعد عن أحوال المسلمين هناك ، وانقسام الطلاب بين مختلف التيارات غير الإسلامية ، وما تلقاه العناصر الإسلامية من إيذائهم ومشاكساتهم ومن وراءهم من الممثلين الدبلوماسيين . وكان مما حملته تلك الرسالة إشارة إلى كتب تدرس للطلاب الأسبان ، وهى مشحونة بالطعن على الإسلام والافتراء على صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم . . مما لا يتعذر إبطاله على أى مسلم ذى ثقافة متوسطة ، ومع ذلك فإن تلك الأباطيل تمضى في طريقها إلى عقول الأجيال الأسبانية فتملؤها حقداً وبغضاً للإسلام وأهله ، دون أن تجد من مسئول مسلم أى ملاحظة أو اعتراض . . ونحن مضطرون إلى تحميل أولئك المسئولين واجب الرد والاعتراض على أشباه تلك المفتريات ، لأن مثل هذه الكتب الرسمية في مدارس الدولة الأسبانية لا سبيل إلى تغيير شيء منها إلا عن طريق الدول الإسلامية ، التى بوسعها إخذاث محاورات مع رجال الخارجية الأسبانية لإقناعهم بسحب هذه الأضاليل من الكتب . . وفى اعتقادى أن الحكومة الأسبانية التى تحتفظ حتى الآن بعلاقات طيبة مع العرب ، وتأتى من أجلهم الاعتراف بإسرائيل ، وتقيم الاحتفالات بذكرى عظماء العرب الأندلسيين بين الحين والحين ، فلن يتردد في تصحيح الوضع لو أحست من العرب والمسلمين أى اهتمام بهذا الموضوع .

والمسلم الحق الذى يبلغ سمعه مثل هذه الوقائع المؤسفة لا يسعه إلا أن يتساءل في غصة محرقة : ما مهمة الملحقين الثقافيين في السفارات الإسلامية

لدى الدول الأجنبية ، إذا هي لم تسع هذه المقتريات ، أو لم تبذل جهداً في فضحها بالحجة ، والعمل على تغييرها بالطرق الدبلوماسية .

بل إن من حق كل مسلم أن يطلق مثل هذا التساؤل ، لأن منطق الإسلام يقضى أن تكون مهمة الملحق الثقافى المسلم بالدرجة الأولى استخدام كل وسيلة ممكنة ومفيدة للدعوة إلى الإسلام ونشر محاسنه ورد فرى أعدائه . . ثم رعاية شئون الطلبة المسلمين باستخدام الوسائل الممكنة ، لحمايتهم من المفسدات الخلقية والانحرافات السلوكية ، حتى يتوافر لهم الجو الصالح الذى يجعل منهم أعضاء صالحين لمجتمعهم ، الذى سيتولون شؤنه بعد التخرج . . أبجل تلك هى مهمة الملحق الثقافى المسلم فى البلد الأجنبى بالدرجة الأولى كما يحددها منطق الإسلام ، الذى يجعل الدعوة إلى الله وظيفة كل مسلم أيا كان ، فكيف إذا كان المسلم ملحقاً ثقافياً ؟ . .

ولكن . . كم هم الملحقون الصالحون الذين يعملون بمنطق الإسلام . . وبالتالى أين هم من هذه المأسى التى يعانىها الإسلام تحت سمعهم وبصرهم ؟ . .

الواقع - وبالأأسف - أن معظم هؤلاء الملحقين غير مزودين أولاً بالفهم السليم لحقائق الإسلام ، ثم هم بالتالى موجهون فى غير هذا الطريق ، وبخاصة فى ظل الحكومات (التقدمية) التى لا ترى أخطر على وجودها من بقاء الفكر الإسلامى فى موضع القوة . .

وطبيعى أن (المركز الإسلامى) الذى يسيطر عليه مثل أولئك الملحقين لا يستطيع تقديم أية خدمة سلبية أو إيجابية لهذا الدين .

ومن هنا كان العمل الإسلامى فى العالم الغربى ضمن نطاق الطلاب الإسلاميين وحدهم - وقليل من الدبلوماسيين الطيبين - فهم بإمكاناتهم المحدودة ، وإخلاصهم غير المحدود لرسالة الإسلام ، يقدمون أكبر الخدمات لأوطانهم وشعوبهم ولقضايا المسلمين فى أنحاء العالم . . وذلك على الرغم

من كل المشتبكات ، التي لا نبالغ إذا قلنا أن معظمها يأتيهم من قبل تلك المؤسسات الدبلوماسية ، التي تمثل أنظمة الحكم غير الإسلامية في ديارهم . .

وما دنا في صدد الكلام عن المؤسسات الإسلامية الثقافية خارج العالم الإسلامي ، فلا ينبغي أن تغفل موضوع البعثات الثقافية التي يشرف عليها أولئك الملحقون . .

إن قضية البعثات هذه ذات وجوه متعددة ، كلها خطيرة وجليـل ، والذي يهمنا من هذه الوجوه هنا هو الجانب الخاص بالاتفاقات الثقافية التي تعقد بين الدول الإسلامية والدول الأجنبية . .

أول ما يلاحظ على هذه الاتفاقات أنها قائمة على ادعاء تقارض الخبرات ، وتبادل المنافع العلمية في نطاق الدراسة . . ومن هذا الباب تدخل الشيوعية (التقدمية) ملفوفة بأدمغة الشباب ، الذي كان ولا زال محسوباً على الإسلام . ولا حاجة إلى التذكير بالفواجع التي فجرها هؤلاء في ديارهم وشعوبهم ، فهي مما لا يستطاع إنكاره ولا تحديده . . وعن طريق هذه الصادرات الحمراء تؤدي الدول (الصديقة) واجبها المتفق عليه على أتم الوجوه . . ويبقى أن نتساءل : ما الذي قدمنا نحن إلى هؤلاء من الخبرات التي تعهدنا بها مقابل ذلك ! . .

وطبيعي أننا لا نملك أسراراً جديدة من علوم الذرة أو الفضاء أو الكيمياء فنتحفهم بها . . وليس في مدارسنا ولا جامعاتنا ما هم في حاجة إليه فنتفح به مبتعثيهم إلينا ، اللهم إلا أن نمكنهم من دراسة لغتنا لنعطهم الوسيلة الناجعة لنشر تعاليمهم المدمرة لوجودنا في أوساط جماهيرنا ، التي كانت في شبه منجاة من تلك الشرور قبل ذلك . .

ولا غرور ولا عجب فنحن - كلنا - من الشعوب التي تحتل رأس القائمة بين المتخلفين في علوم المادة جميعها . ولا فخر ! . . فهاذا إذن تكافؤ أولئك المحسنين على أفضالهم (التقدمية) ١٢ . .

لو كنا جادين في تصرفاتنا حقاً لقلنا : إننا أمة خسرت زمام المبادرة

في كل ميدان . فليس لدينا ما نقدمه للبشرية ، اللهم إلا رسالتها الإلهية التي
أعرضت عنها فجنت بذلك على نفسها وعلى الإنسانية كلها . .

أجل . . إن لدينا مفاتيح الحلول التي تتطلبها مشكلات الجنس البشري
في ميدان العقيدة والأخلاق والمثل ، التي لا سبيل إلى السلام الفردي والأمن
الجماعي إلا بها وعن طريقها . .

إن لدينا الإسلام . . فهل يسمح لنا هؤلاء (الأصدقاء الألداء) بإقامة
مراكز لعرضه على شعوبهم ، وتفنيد ما حاكوه من مفتريات شيطانية
عليه ؟ . .

لقد فتحت الأنظمة (التقدمية) أبواب بلادنا على مصراعها للماركسية
واللينينية والستالينية والمادية والهووية والجيفارية والكاسترية و . . وما
لا نحصى من بلية ورزية . . فهل يأذن لنا أصحاب هذه العقائد — التي ملأت
الكرة الأرضية أشلاء ورعباً ودماءً — أن نفتحم أسوار بلادهم لنملأها حباً
وصلاحاً وسلاماً ! . .

وإنه لسؤال لا نتطلب جواباً عليه . . لأن جوابه مشهود في واقعنا ،
محسوس في ضمائرنا . . . كل شيء ينطق به ويشير إليه . .

فهؤلاء (الأصدقاء الألداء) مستعدون لأن ينسفوا كل اتفاق بيننا وبينهم ،
بمجرد أن نعرض عليهم فكرة عرض الإسلام في بلادهم . . وهم معذورون
في ذلك لأن وجودهم كله قائم على إنكار الدين ، والعمل على استئصال
جلوره ، من كل ضمير يستطيعون الاتصال به أو السيطرة عليه ، وبخاصة
في أوساط المسلمين الرازحين تحت حكمهم ، والذين أصبحوا تحت مطارق
الإرهاب الأحمر في آخر مراحل التصفية .

ونحن من جانبنا قد تخلينا — حكومياً — عن رسالة الإسلام فلا مكان
في تفكير حكامنا (التقدميين) لمثل هذه (الرجعية) المرعبة ! . .

أجل . . لقد نسينا الله فأنسانا أنفسنا ، وكان من ذلك أن انقلبت في
أعيننا المقاييس ، فسمينا الهديم تقديمية ، والهداية رجعية ، وسرت عدوى
هذه (الانتقالية) إلى المسجد والمركز والسياسة فإذا نحن ضائعون لا نكاد
نعرف إلى أين سائرون . .

إلى كلمةٍ سَوَاءٍ

لغة ودين :

الدين في اللغة « الجزاء والمكافأة » ويوم الدين هو يوم الجزاء ،
وفي القرآن الكريم (ذلك الدين القيم .. ٣٠ - ٣٠) أى النظام المستقيم القائم
على حساب كل شيء .. وفي الحديث الشريف « الكيس من دان نفسه ^(١) » .
أى حاسبها وضبطها . وقوله تعالى : « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك
١٢ - ٧٦ » يعنى نظام الملك وقانونه ، وكذلك قوله تعالى « فلولا إن كنتم
غير مدينين .. » أى محكومين خاضعين لتدبير الله وحكمه . . ومن ذلك
قول عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا

يريد أنهم امتنعوا عن طاعة الملوك . . فيكون الدين . لنا بمعنى الخضوع .
وقد أخذ اسم المدينة من هذا المعنى ، لأن في المدينة الحكم والقضاء ،
وفيهما خضوع الناس للقوانين . ومن أسماء الله « الديان » لأنه القاهر فوق
عباده . . والمدير أمورهم وسائسهم . . ويتصل بذلك (التدوين والديوان)
إذ فيهما معنى الحساب والتسجيل وضبط الأمور ، وكذلك الدين (بفتح
الดาล) لأن فيه التزام المدين بالأداء . أما قول الشاعر الآخر (أذلك دينه
أبدأ ودينى !) فهو يريد دأبه ودأبى . . وينطوى ذلك على معنى التكرار
أو الاستمرار الذى يصبح به العمل نوعا من العادة التى لا تخلو من معنى
الخضوع أيضا .

من هذا كله نحصل على تحديد واضح لمعنى (الدين) فى الأصل اللغوى ،
فتراه لا يخرج عن مفهوم الحساب والجزاء والطاعة والمتابعة المستمرة .
فإذا نظرنا إليه فى المفهوم الإسلامى علمنا أنه ذو صلة وثيقة بهذه المعانى ،
فالدين فى الإسلام هو « النظام الإلهى الذى يحدد للإنسان معالم السلوك

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن شداد بن أوس . وصححه السيوطى فى الجامع
الصغير .

في حياة مؤقتة ، هي معبر إلى مقر ثابت وحياة لا تنتهي ، وهو إذ يفعل ذلك يريه وسائل النجاة كجسور ممتدة فوق أودية تطفح بالسيول . . السيول التي تملأ الأرض خصبا ونورا وقوة ، إذا أحسن استعمال طاقاته في تنظيم مجاريها وسدودها ، ولكنها تفعم الكون كله شرأ ودماراً إذا هو أهملها أو أساء تصريفها .

ثم يذكره دائماً وأبداً أنه محاسب على ما كسبت يداه ، فعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يأتي موعد ذلك الحساب ، ليكون مستعداً أبداً للمشول أمام الحسيب الذي لا تفوته صغيرة ولا كبيرة .

وهكذا نعلم أن معنى المحاسبة ملازم لمفهوم الدين لا ينفصل عنه . . محاسبة الإنسان لنفسه ، ومحاسبة المجتمع المؤمن لأفراده ، ثم المحاسبة الأخيرة الشاملة « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ٢٦ - ٨٩ » وهي محاسبة تأخذ صفة الاستمرار الثابت وتتسم بطابع الخضوع المطلق .

ولا جرم أن الدين بمفهومه هذا يؤلف نظاماً عملياً دقيقاً يلزم النفس ، فهي أبداً في مراقبة وأعية لكل حركاتها وسكناتها . ، مملوءة الشعور بالمسئولية ، لا تسمح لغرائزها أن تشتط إلى ما وراء الحدود المشروعة المعقولة . وبهذه المراقبة وبهذا الشعور الواعي بالمسئولية تتحول أعمال النفس جميعها عبادة خالصة ، ثم تصبح الأرض على سعتها معبداً لا تحده الجدران ولا يحتاج إلى كاهن ، إذ يكون الضمير الممتلئ بالروح هو الضابط الذي يعين حركات الفرد . وبذلك تكون العبادة في الدين على ضربين : عبادة متشنة كالصلاة والصوم والحج وما إلى ذلك من الفرائض المكتوبة . وعبادة دائمة لا يستثنى منها عمل . فالمؤمن في مزرعته عابد لأنه يعمل وفق النظام الرباني الذي منح له الأرض ليتعاون مع إخوانه على استثمارها ، وهو في مصنعه عابد لأنه قائم بقسطه من التعاون على توفير حاجة إخوانه ، وهو في متجره عابد لأنه يؤمن لإخوانه حاجاتهم من إنتاج المصنوع والمزرعة ، كي يوفر لهم الفرص الكافية لتحقيق مهامهم المختلفة في خدمة المجموع . وهو كموظف - رئيساً للدولة أو كناساً للشوارع - في عبادة دائمة ،

لأنه قائم بحراسة العدالة وإنجاز المصالح ، وتيسير سبل الخير لإخوانه الكادحين في مملكة الله . . ثم لا يكون في الأرض عمل صالح إلا وهو لون من العبادة التي يرفعها الله .

هذا المفهوم الشامل لموضوع الدين ، هو الذي يفترض تحقيقه في نفس كل مسلم ، حتى أجهل المسلمين بأحكام دينه مادام هذا المسلم معنياً بأمره ، يعيش في جو الجماعة الإسلامية . . والأمر الطبيعي جداً في المسلم أن تراه أبداً يحكم على هذا الشيء بكونه حلالاً ، وعلى ذلك بكونه حراماً ، وعلى الآخر بأنه مباح أو مكروه ، فتستيقن أن الدين في الوسط الإسلامي كالماء بالنسبة إلى السمك ، حتى إنك لترى العصاة أنفسهم يقرون بسوء ما يعملون ، فالواحد من هؤلاء يقترف الإثم وهو خائف من الحساب ، ويترقب القرص للمتاب ، دون أن يشعر بأن استمراره على المعصية من شأنه أن يضعف في نفسه عزيمة التوبة حتى يتعذر عليه أخيراً تداركها ويفوت عليه فرصها . .

والآن وعلى ضوء هذا المخطط اليباني لحقيقة الدين يسعنا أن نتساءل إلى أي مدى يتحقق هذا المفهوم لدى غير المسلمين ؟؟ . . وبوجه خاص لدى المسيحيين ؟

ونحن مضطرون إلى البحث عن المسيحية في حضارة الغرب لسبب بسيط : أن الغرب هو الذي يسيطر حتى اليوم شتناً أو أبيناً على زمام التوجيه في معظم الأرض ، بعد أن تخلى المسلمون عن مهمتهم في قيادة العالم . وعندما نتعرف مفهوم الدين في الغرب ، إنما نتعرف بذلك المصدر الذي جاءتنا منه تلك الانحرافات الجديدة في مدارك الكثيرين من أبنائنا لهذا الموضوع .

• • •

المسيحية في الغرب :

المفهوم العام للدين لدى الغربيين أنه إحذني الحاجات النفسية ، ينال منها الفرد كما ينال من أي شيء .. فهو إذا جاع تلمس السبيل إلى الطعام ،

وإذا ظمئ مد يده إلى الخمر . وإذا أحس الهياج الجنسي عمد إلى إروائه من أى طريق ! . هكذا تماما يأخذ طريقه إلى الكنيسة يوم الأحد ، لأنه اعتاد أن يسلك هذا الطريق في مثل ذلك اليوم ، ولعل أحسن مثل لهذا الواقع ما كتبه أحد أدباء أمريكا عن حياة لندن إذ يقول : (إن لندن تعبد بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع ، فإذا جاء اليوم السابع ذهبت إلى الكنيسة) . .

والكنيسة في هذا المفهوم لا تختلف عن السينما . . ذلك المعبد الذى استولى على قياد الجماهير فهى زاحفة إليه صباح مساء . . منه تتلقى التوجيه العقلى ومن كهنته ، المؤلفين والممثلين والمخرجين ، يستمد الجميع غذاءهم اليومى الذى يحدد سلوكهم في نواحي الحياة جميعا . وليست الكنيسة بالنسبة إلى السينما والمسرح والمرقص والمسيح والمشرّب ، سوى واحد من عوامل التربية الاجتماعية العامة ، ولكنه بالتأكيد أضعف الجميع تأثيرا في حياة الأفراد والجماعات الغربية . وإنك لتسمع مثليهم السياسيين وكتابهم الاجتماعيين يلحون أبدأ على تطوير سوية المعيشة تبعاً لتطور المدنية ، ولكنك قلما تسمع صوتا واحدا يدعو إلى رفع مكانة الأخلاق إلى مثل ذلك المستوى ، لأن الحياة في مفهومهم إنما هى هذا الطعام وتلك المرفهات الجسدية ولا شيء وراءها .

وطبيعى أن عقلية كهذه لا تتسع لمقاييس الإسلام في تعريف الدين ، ومن هنا جاءت انعزالية المسيحية في الغرب عن سائر شئون الحياة . . وأصبح مألوفاً أن تسمع بين دعاة الإيمان هناك من يقول - مثل ديل كارينجى : « لا مندوحة من الفصل بين العلم والدين ، فالعقل للعلم الذى لا يفهم إلا الحقائق المادية ، والدين للقلب والعواطف التى لها عالمها المستقل . . فلنطلب المعرفة عن طريق العقل ، ولنلتمس الراحة النفسية في ظلال الدين » . وما أظنك تشك في أن حقيقة هذا الفصل بين العقل والقلب هي الخطر الأكبر على الدين ، لأنه يصوره في خلد الناس مجموعة من الأوهام الناعمة ، أشبه شيء بأخيلة الحشاشين ومدخني الأفيون ! هذا فضلا عن أنه يقسم النفس

الإنسانية فيجعلها مناطق متنازعة.، بعضها للنشاط والبحث ، وبعضها للكسل والاستسلام الأعمى . وبذلك يصبح كل واجب الفرد نحو دينه أن يحمل هويته دون أن يترتب عليه أى واجب نحوه ! . . . وفى ظل مثل هذا المفهوم العجيب للمعاني الدينية لا يدهشك أن تقرأ هذا الخبر العجيب الغريب عن امرأة أمريكية تملك بيتا للدعارة ، فتقدم طلبا إلى الوزارة المختصة تقول فيه : « إنها أدارت هذا البيت بمتهى الاستقامة وفقا لتقاليدها الدينية طوال خمسين سنة ، وهى اليوم تلمس نقل ملكيته إلى ابنتها ، التى هى على ثقة أنها ستديره بمثل تلك الاستقامة ! . . . »

ولقد حدثنى أخ كان يتابع الدراسة فى إحدى جامعات فرنسا ، أنه تعرف هناك رجلا جعل يرافقه فى مختلف المناسبات ، حتى بات طبيعيا أن يعرض وإياه للأمور الدينية ، فلما سأله ذات مرة أن يوضح له سبب التناقض بين ما يتعلمون وبين ما يدينون . . انتفض الزميل الفرنسى « التقي » ، ثم سأله بلهجة « العجب البالغ » : ألسنت كاثوليكيًا . . ! ومعنى ذلك أن مجرد كونك كاثوليكيًا يفرض عليك أن تصرف ذهنك عن كل سؤال من هذا النوع ! . . .

وكشأننا فى محاكاة الغربيين تلقينا بالتسليم هذا النوع من الفصل المضحك بين القلب والعقل ، فاذا معظم الشباب الجديد ، مسلمين ومسيحيين فى هذا الشرق ، ينظر إلى القرآن والكتب المقدسة من وراء هذه النظارة المستعارة .

وما أحسب القارئ قد نسى ما حدثته به فى فصل مضى عن ذلك الأستاذ المسلم الذى أدهشه أن يجدنى مؤمنا بالقرآن. كله ! .

والآن أرجو أن يضم إلى علمه طريقة أخرى أنقلها إليه عن زميل من المعلمين الذين حضروا إحدى المؤتمرات التعليمية فى الإسكندرية . فقد تعرف هذا الزميل هناك معلمة شملتة بجميل الإيناس ، وعرف من أمرها أنها عاملة على إعداد جواز للسفر إلى الججاز لأداء فريضة الحج . . حتى

إذا جاء يوم العطلة الأسبوعية ذهبت به إلى الشاطئ السعيد ، وهناك سألته عما إذا كان يحسن السباحة . فاعترف بعجزه المخجل . ولكنها - وما أكرمها ! - أثبتت إلا أن تتم فضيلة الضيافة فإذا هي تعرض عليه أن ينزل معها إلى الماء لتعلمه السباحة !

وأنت تستطيع أن تقارن بين هذه (الحاجة السابحة) وبين هاتيك القواداة الأمريكية المستقيمة . . وبقليل من الاستقراء ستدرك وحدة المقياس في العقليتين ، اللتين لا تريان أية صعوبة في الجمع بين الخيال الديني والواقع الملوث ! . .

وبديهي أنه مقياس لم يأت من هذا الشرق ، وإنما ولد في أحضان الوثنيات اليونانية البعيدة ، ثم مضى في امتداده هنا وهناك حتى انتهى إلى واقعنا الشرقي على ما تراه ! . .

* * *

الإسلام والعلم

وهنا أذكر كلمة زميل مسيحي ، أدهشه أن يراني منكبرا لفكرة الغربيين في هذا الفصل بين العقل والدين ، فقال : وما شأن الدين بالعلم ؟ وهما متوازيان لا يلتقيان ! . قلت إن الدين الذي يتنكر لحقائق العلم يحكم على نفسه بالموت ، إذ يبرهن بذلك على زيفه وأنه ليس من وحي الله .

— حسنا إن القرآن يقول بانبساط الأرض ، وقد أثبت العلم كرويتها .

— جهلة القرآن هم الذين قالوا بانبساط الأرض . . أما القرآن فقد حقق كرويتها منذ أن أنزل الله فيها قوله : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ٣٩-٥) ولو رجعت إلى بحوث علماء الإسلام في عصور الحضارة الإسلامية لرأيت شبه إجماع منهم على ذلك .

— ولكن بعض المفسرين لا يقرون ما تريد من التكوير . .

— إن التكوير هو التكوير أقروا أم لم يقروا . ولكن المهم أن تعلم يا صديقي أن المسلم إنما يستمد من كتاب الله وما صح من سنة رسوله غير

ملزم بما يقوله أى فقيه . . لأن الناس بشر يصيرون ويخطئون . وقد رأينا عالماً كبيراً من المحدثين - قبل نصف قرن - يقول بعدم إمكان الطيران ويعتبر جهود علماء أوروبا في هذا المضمار عبثاً لأنه يقرأ في القرآن : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان ٥٥-٣٣ » . ثم ها هو ذا الإنسان يطير قاطعاً الفضاء بأسرع من الصوت ، ثم ها هو ذا يطلق أجرامه الصناعية محملة بالأحياء إلى ما وراء جو الأرض . . فلو أخذنا برأيك في إلزام القرآن تبعة أخطاء المفسرين لكان علينا أن نكفر بالقرآن ، أو نسلم على العمياء زاعمين ألا علاقة للعلم بالدين ! . .

- ولكن الآية صريحة بنى القدرة على الطيران وإمكانه . . فالعالم ليس هو المخطئ . .

- بل هو المخطئ . . لأنه لم ينظر إلى الآية من خلال نظمها ومدلولاتها اللغوية ، وإنما أطل عليها من كوة الآراء التي قرأها وسمعها . فالآية لا تنفي إمكان الطيران وإنما نفت-إمكان النفاذ من أقطار السموات والأرض دون سلطان . وإذا علمت بأن من معانى السلطان القوة والحجة والبرهان علمت بالضرورة أن الأمر متوقف على حصول الوسيلة المحققة لهذا النفاذ ، فهو إذن تنبيه رباني صريح بأن نفاذ الإنسان من جو الأرض إلى الجواء الفلكية الأخرى أو بعضها ممكن عندما يستكمل كشف القوانين التي تفتح له الطريق^(١) بخلاف النفاذ من أقطار السموات والأرض جميعاً الذي سيبقى في حيز المستحيلات . .

- حقاً إنه لتخريج معقول . . ولكن لم يقل به المفسرون !؟ .

- لأن المفسرين كغيرهم من الناس مقيدون بمفاهيم يثابرونها ، فلا يستطيعون التفكير بالشئ قبل توافر ظروفه ، ومن الطبيعي جداً أن يقف

(١) ذهب المفسرون لهذه الآيات مذاهب شتى ، ورجح بعضهم ربط أحداثها بيوم القيامة . . ولكنهم لم يستندوا في ذلك على أثر حاسم ، فظل الموضوع ضمن حدود الاجتهاد . . وبذلك يترك باب الاجتهاد في فهمها مفتوحاً على ضوء الكشوف العلمية . وسياق كلام عن ذلك في آخر الفصل .

العقل — وهو القوة المحدودة — عاجزاً عن الإحاطة بمعاني القرآن غير المحدودة ، وإنما يتقدم المفسرون في الكشف القرآنية على مقدار تقدم العقول في كشفها العلمية (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ١٨-١٠٩ . .) . .

— طيب . . لقد بدأ الإنسان يفكر بغزو الكواكب ، وقد سمعت أمس حديثاً عن المريخ يؤكد أن شروط الحياة متوفرة فيه إلى حد . . . فيمكن والحالة هذه أن يكون عليه نوع أى نوع من المخلوقات الحية . بل إن عالماً أمريكياً يؤكد أنه قد تبين من خلال مرصده كثيراً من الأقنية الهائلة تخترق المريخ من القطبين إلى الوسط ، فتوقع أن يكون ثمة ضرب من النشاط العقلي في سكان ذلك الكوكب أكبر من كل ما عرفه البشر على الأرض . فهل تجدد في القرآن ما يسوغ هذا النوع من التفكير ؟

— لم أزعم قط أن القرآن كتاب جغرافية أو فلك ليتولى تفصيل كل شيء من هذه الظواهر . . . ومع ذلك فإننا نقرأ فيه مثل هذه الإشارة التي لم تقل فيها الكلمة الأخيرة حتى الساعة : (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) ٤٢-٢٩ فأنت ترى أن ثمة إخباراً صريحاً بوجود دواب في كل من السموات (١) والأرض ، وأن من الميسور جمع هؤلاء هؤلاء . وقد أطلق الله في القرآن اسم الدابة على كل حي إذ قال : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع . . » ٤٥-٢٤ .

وأنا أعرض لك هذه الإشارات القرآنية دون أن أعطيها تفسيراً قاطعاً ، وكل ما أريده هو أن أذكرك بأن الإسلام لا يؤمن بخرافة الفصل بين العلم والإيمان ، بل إنه على الضد من ذلك يلهم كوامن النشاط الإنساني للتفكير

(١) من معاني السماء في الذكر الحكيم السحاب والسقف . وكل ما علاك فهو سماء . وسيأتي تفصيل ذلك .

في آفاق السموات والأرض . . حتى ليقطع بأن تقدير الخالق مخوف على عقول العلماء وحدهم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ٣٥-٣٨ ..

ولا عجب فبالإسلام « حررت الروح من الهوى » وأطلقت إرادة الإنسان من القيود التي طالما أبقتة موثقاً إلى إرادة ناس آخرين . أو إلى إرادة قوى أخرى يدعونها خفية . فهوى الكهان وحفظه الألفاظ المقدسة الزائفون ، وسياسة الخلاص ، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان . . لأن الإنسان بالإسلام أمسى خادماً لله وحده^(١) :

* * *

الدين والكنيسة

ومن العقائد الأساسية لدى كل مسيحي أن رجال الكنيسة هم الممثلون لسلطة التشريع في كل ما يتصل بموضوع الدين . وقد أدى ذلك مع الأيام إلى أن تصبح مقررات هؤلاء الرجال هي المصدر الرئيسي ، إذا لم نقل الوحيد للمسيحية ١ . وبذلك صار الإنجيل رمزا معنوياً ، إذا قرئ فإلى حد ولغاية واحدة هي التبرك فقط . وقبلما نجد مسيحياً عادياً مثلاً يعرف شيئاً عن مضمون العهد القديم ، إلا ما يسمعه أثناء الصلاة . وقد أشار (بيارضودج) إلى ذلك صراحة حين قال : « نحن المسيحيين لا نقرأ سفر اللاويين بتاتا ، ولا نصوصاً من رسائل بولص ، وإنما نغنى عناية جدية بالموعظة التي ألقاها المسيح على الجبل ، والقاعدة الذهبية ، وبعض النصوص الجميلة التي تتعلق بالحياة الحديثة^(٢) . بل لقد سمعت كاهناً ينكر اتهام النبي سليمان بالوثنية ، ويقرر فيه حكم القرآن فقلت : ولكن العهد القديم يخبرنا أنه ارتد إلى الوثنية ونشر عبادة البعل .. فقال بالحرف : نحن لا نؤمن بأخبار العهد القديم ١ » . .

(١) الدكتور « لوريا فيشيا فاغليري » في كتابها دفاع عن الإسلام ص ٤٦ ط ٢ ، وقد كان من مقتضيات البحث أن نتناول هنا موضوع الرحلة القمرية وما أثير حولها وبيان موقف الإسلام منها ، ولكننا أرجأنا ذلك إلى نهاية الفصل ليكون ملحقاً له مستقلاً .

(٢) كتاب « الإسلام بنظر الغرب » ، ترجمة اسحق الحسي ص ٤٣ .

وطبيعى ألا يكون كل كاهن أو كل مسيحى من هذا الطراز جاهلا
لخضمون العهد القديم أو منكرا لأخباره . . ولكن فى هذا دليلا على أن
اقتناء المسيحيين للكتب المقدسة لا يعنى بالضرورة اطلاعهم عليها أو تصديق
جميع أخبارها بالتفصيل . . ذلك لأن القوم - فى الغالب - مكتفون من
الدين بما يأخذون عن رجال الكنيسة ، لا يكلفون أنفسهم مهمة التنقيب
عن مستنداتهم ولا تتبع مصادرهم . ومرد ذلك إلى أمور :

١ - أن جمهور المسيحيين قد ألف منذ عصور الاضطهاد أن يتلقى
تعاليم دينه مباشرة من أفواه رجاله الذين كانوا وحدهم مظنة الإطلاع
عليها ، وذلك بسبب ما لقيه أتباع المسيحية خلال القرون الثلاثة الأولى
من مطاردة ومصادرة ، قضت عليهم أن يفروا بدينهم إلى المغاور والكهوف ،
وأن يستخفوا بعبادتهم عن أعين العدو ، حتى إذا جاء عهد قسطنطين كان
العارفون لحقيقة المسيحية وتعاليمها قلة نادرة ، فلا غرابة أن يستمر الناس
بالرجوع إلى هذه الجماعة يستفتونها فى كل شىء .

٢ - إقامة هؤلاء المسئولين من أنفسهم مشرعين فى أحكام الديانة ،
فلم يقفوا عند حدود ما جاء به المسيح من قول وعمل ، ولم يشاؤوا أن
يتقيدوا بتعاليم الكتب السابقة التى استمر عليها المسيحيون حتى المؤتمر الأول
الذى عقد فى أورشليم بعد عشرين سنة ونيف من نهاية المسيح ، بل أخذوا
يتصرفون فى الأحكام حسب المناسبات ، فيعطلون ما يرون تعطيله ،
ويثبتون ما يستحسنون تثبيته . . حتى أنهم ألغوا جميع محرمات التوراة
كلحم الخنزير والربا وما إليهما ليحصروا الممنوعات فى أربعة أشياء هى :
« الزنا وأكل المخنوق والدم وما ذبح للأوثان »^(١) ثم ما لبثوا أن قضوا بإباحة
كل مأكول ومشروب بحجة « أن كل ما يدخل الفم ليس ينجس الإنسان ،
إنما ينجس الإنسان كل ما يخرج من فيه » . وبذلك انفصلت المسيحية
عن أحكام الكتب المقدسة السالفة تماما . . .

٣ - ويأتى هنا ثالث الأسباب وربما أكبرها جميعا ، وهو امتزاج العقيدة المسيحية بالفلسفة الإغريقية عن طريق الأفلاطونية الحديثة ، كالتثليث الذى استقرت عليه المسيحية بعد مجمع نيقية ، المعقود فى آخر الربع الأول من القرن الرابع الميلادى . . . وإنما هو فى الواقع صورة جديدة مما كانت الفلسفة اليونانية قد انتهت إليه فى تصوراتها للألوهية على أيدى فلاسفة الإسكندرية ، وبوجه أخص على يد أفلاطون الذى مزج فى هذا الموضوع بين أفكار الأغريق والهنود^(١) ومن هنا تحولت العقيدة المسيحية من حيز البساطة التى هى سمة العقائد الإلهية فى كل وحى إلى ميدان التعقيد الفلسفى الذى لا طاقة للجمهور بحل رموزه ، بل إن رموزه لتتوهم بها أدمغة الكبار من فلاسفة المسيحية أنفسهم ، الأمر الذى جعلها مبعثا لعشرات الفتن والمذابح فى تاريخ الغرب والشرق !

وقد تأتى عن هذا كله أن أصبح جماهير النصارى مقيدون بتعاليم رجال الكنيسة وحدهم . وبات من المسلمات الرئيسية لديهم أن هؤلاء الممثلين الرسميين للكنيسة مزودون بالعصمة التامة من كل خطأ أو انحراف ، بل لا يجوز عليهم الخطأ والانحراف ، لأنهم مسددون بإلهام الروح القدس ! وهكذا عزل عامة النصارى عن أصول المسيحية فى مجموع الكتب المقدسة حتى غدا من مصطلحاتهم الكنسية تقسيم أسفار العهد الجديد إلى أسفار تاريخية صرف ، هى الأناجيل وكتاب أعمال الرسل ، وأسفار تعليمية هى بقية الرسائل التى قررت المجاميع قبولها . ومعنى ذلك أن القسم التاريخى لا يفرض على

(١) تلخص أفكار أفلاطون فى الناحية الإلهية بما يلى :
(أ) انه تعالى واجب الوجود ومنشئ الكل . (ب) أول شيء صدر عن أعمال هذا المنشئ هو العقل الذى له قوة الإنتاج . (ج) أن هذا العقل الفعال قد انبثق عنه الروح الذى هو وحدة الأرواح جميعا . . ثم عن هذا الثالث يصدر كل شيء . .
ومن هذا التزاوج نشأت عقيدة التثليث المسيحية ، وإن اختلفا أحيانا فى بعض التفاصيل .
فالآب فى عقيدة التثليث يقابل منشئ الكل عند أفلاطون : والعقل المنتج هو الابن والكلمة لدى النصارى ، وليس روح الكل فى تعبير أفلاطون سوى روح القدس عند المسيحيين . وقد فسر هذا الموضوع بدقة المستشرق ليون جوتييه فى كتابه - المدخل إلى الفلسفة الإسلامية - وانظر العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية لمحمد طاهر التير ص ١٩ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٥ ..

المسيحيين أية التزامات ، وإنما هم ملزمون فقط بتحقيق القسم التعليمي الذي يعتبر وحده الشريعة العملية . . . وها هو ذا أحد كبار القسس - عبد الأحد - يعلن أن المؤسس الحقيقي للمسيحية إنما هو بولس ، الذي كان أشد أعداء المسيحية منذ ظهورها حتى ما بعد المسيح . . . الذي وضع بتعاليمه ورسائله الأربع عشرة أساس العيسوية ، كما هي الآن . على هذا لا يعتربك أى عجب إذا قيل لك : إن ديانة المسيح قد أقصيت تماما من حياة النصارى منذ ذلك اليوم ، الذي اعتبرت فيه رسائل بولس أساس المسيحية ! .

ومنذئذ عزلت الأناجيل والأسفار القديمة عن حياة الناس العملية لتكون فقط مرجعا تاريخيا لا سلطان له على أى توجيه ! وقد اعترف الكثيرون من احرار الفكر فى العالم الغربى (أن الدين الذى اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس) (١) . . .

وهذا نيتشه يتحدث عن البون الشاسع بين تعاليم المسيح وديانة بولس فيقول : « لقد كانت دعوة المسيح فى جوهرها دعوة إلى النظام والقوة ، أما بولس فقد حولها إلى دين صار ملاذاً للخائفين والمذعورين » ولذلك أطلق نيتشه على بولس اسم « باسكال اليهودى » لأنه بنظره ميال إلى الخرافات والمكر (٢). ويعبر - كولن ولسون - عن هذا بقوله : « إن قول المسيح : كن سيد نفسك قد تلاشى وحل محله مسيح آخر من اختراع بولس » (٣) . وإن المسيحية لم تركز على تعاليم المسيح وإنما ارتكزت على عقيدة ميتافيزيكية اخترعها بولس (٤) ، ولهذا يأسف الكثير من أحرار الفكر ، لأن حركة الإصلاح البروتستانتية لم تكن لصالح فكرة المسيح بل كانت لصالح مسيحية بولس (٥) . وقد أكد ذلك (ويلز) فى (ملخص التاريخ) بقوله : إن المسيح لم يبشر بالمسيحية المعروفة اليوم ، وإنما أحدثها بولس المتعلم بالاسكندرية ومنها أخذ تعاليمه الوثنية ، التى استحالت فيها آلهة قدماء المصريين إيزيس وهورس وسيزايس إلى الآب والابن وروح القدس . . . »

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥) أنظر « سقوط الحضارة » لكولن ولسون ص ١٧٩ - ١٨٨
ترجمة زكى حسن ط ١ .

معركة لا بد منها :

وإذا أنت أنعمت الفكر في سفر (أعمال الرسل) تبينت أن إقدام القوم على إلغاء شريعة التوراة وبخاصة ما يتعلق منها بالمحرمات والختان ، إنما كان بدافع التيسير لانتشار المسيحية بين الشعوب الوثنية في القرون الأولى ، ثم ما لبث هذا الضرب من الاجتهاد أن أصبح أساس العمل التبشيري لدى خلفاء الرسل من رجال الكنيسة ، ومن هنا تسربت تقاليد الأمم الوثنية وبخاصة في نطاق الشعوب الرومانية إلى صميم المسيحية ، لاسيما بعد أن حصرت كل المحرمات في الزنى ، والدم والخنوق والمذبوح للأصنام ، كما بينا آنفا ، حتى لقد أصبح معلوما عند مؤرخي الكنيسة وعلماء الاجتماع أن المسيحية بعد امتزاجها بتلك الشعوب قد أخذت صبغة أخرى غير التي بشر بها المسيح . وما أظن مثقفا يجهل الأصول الوثنية لكثير من الطقوس والاعياد المسيحية^(١). كما أنه لم يعد بين طلاب المدارس الثانويين من يجهل أثر الوثنية اليونانية والرومانية في هذه التماثيل والرسوم التي تغطي على جدران الكنائس في الشرق والغرب ، وموقف الأباطرة الرومان والروس منها بين موافق ومخالف ، وما صدر بشأنها من قوانين محرمة ومحلاة ، حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم جزءاً لا يتجزأ من المسيحية ، يتفتنون في نحتها وتلوينها وزخرفتها ، فهي في كل كنيسة ، ما عدا الكنائس الإنجيلية ، حتى لتستحيل بها المعابد متاحف ومعارض ! . . . وهي في كل بيت لا تخلو منها حجرة ولا منضدة ، يركع لها الجميع ضارعين مستنجدين ، كما يركع المؤمنون لرب العالمين ! . ولو سألتهم لقالوا لك : نحن لا نعبدها وإنما نقدر بها ذكرى أصحابها ، فنحي معاني حياتهم في نفوسنا ، ونتوسل بهم إلى الرب لقضاء حاجاتنا تماماً كما قال جاهليو العرب في آلهتهم من قبل : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ٣٩-٣ .

(١) اقرأ من ذلك قصة الفداء في الهنوكية وتقديم كرشنا نفسه للموت من أجل تخليص الإنسان من الخطيئة الأصلية ، وكذلك موضوع العادة عند الأمم الوثنية السابقة للمسيحية . . . وقارن بما انتهى إليه الأمر في العقائد النصرانية - (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية) ص ٤١ و ٤٣-١ . . .

ولا شك أن هذا ضرب من التطور البعيد تناول السطوح والأعماق ،
فنأى بالمسيحية عن أصولها البسيطة التي لم تعرف قط هذه الظواهر قبل
اندماجها في تلك الشعوب .

وجريا على قوانين الحياة كان لابد للكنيسة التي قبضت على ناصية
الحكم أن تفكر بالتشريعات الزمنية مع عملها الديني ، وإذ لم تجد في الانجيل
ولا في الرسائل أى أساس للسلطات المدنية ، واستحال عليها الأخذ
بتشريع العهد القديم . . عمدت إلى سد هذا الفراغ بقوانين أخذت أصولها
وتفاصيلها من هنا وهناك . ثم فرضتها على الشعوب وأمر مقدسة ليس لأحد
تجاوزها أو مناقشتها ، ثم ما لبثت أن احتكرت مهمة التعليم ففرضت على
الرعية آراء رجالها في الفلك والجغرافية والتاريخ والطبيعة ، دون مراعاة
لوقائع الحياة ولا لقوانين الكون . . الأمر الذي ما لبث أن اصطدم بطلائع
الفكر الجديد المنبثق من حضارة العرب في الأندلس والشرق ، فإذا هي
أمام معركة لا مندوحة من خوضها ، معركة تفرضها القوانين التي لا تسمح
بالبقاء إلا للأصلح .

• • •

بواعث العلمانية :

وما أراى في حاجة لأن أحدث القارئ هنا عن تلك التجارة التي عمد
إليها البعض من ورثاء بطرس في روما ، إذ راحوا يبيعون صكوك الغفران ،
ويقطعون الأرض في ملكوت السماء لمن شاء من الراغبين في الشراء . .
وها هو ذا فيكتور هيجو - أديب فرنسا الأكبر - يترجم طغيان المفكرين
ضد هذه الانحرافات في واحدة من روائع قصائده بعنوان (المسيح
في الفاتيكان) ، فيصور المسيح وقد سُمّ المقام في السماء ، إذ رأى الشعب
يتوجه بصلاته إلى القديسين والأيقونات الذهبية . . ولذلك يهبط إلى الأرض ،
ويقصد الفاتيكان ليستطلع الخبر :

« وبلغ السيد فسحة متسعة مملوءة بالإشياء التي لا اسم لها . .
عظام وأيقونات وقطع معدنية . .

وهناك مأمورون عديدون يسرعون بإعداد الرزم وشحنها . .
وآخرون يقبضون الأموال ، ورئيس هؤلاء مجلل بالحرير . .
وإذ شاهد هذا الرئيس المسيح داخلا بأثوابه البالية صاح في حدة :
من سمح بدخول هذا المتشرد الحقير إلى مقام سيد الدنيا - البابا !
أرنا الفضة التي في جيبيك . . إننا لا نبيع على وعد . .
هذه أوامرنا البابوية المقدسة : المغفرة للأغنياء ، أما الفقراء فالشيطان !
وينفجر السيد المسيح بالسخط من هذه الأوضاع الشاذة . .
ويتدفق بالتوبيخ لهذا الرئيس :

ويل لكم . . تقتلون تعاليمي بتمويهاتكم ! .
وتدنسون هيكل بأصنامكم ! . .
لقد شاهدتني أورشليم راكبا على جحش ! . .
أما شعب رومة فينظر إلى قداسة البابا ممتطيا ظهور المسيحيين ! . .
إنكم لا تحترمون شيئا . .
كل شيء لديكم سلعة تباع ولا يقدر المؤمن أن يخطو في كنائسكم
دون أن يدفع ! . .
ولكن دولاب الزمن قد ابتداء يدور . .
والشعوب التي أتعبتها أحمالكم قد بدأت تتحرك . .
ارتجفوا أيها الكهنة . .
ان رومة تتحرك . وفرنسا ترتجف . . . الخ .

ودعني أذكرك بما أصاب الحركة الفكرية على يد الكنيسة في الغرب
من الصدمات المزعزعة ، إذ تجردت لنور العلم تريد إطفاءه ، قاذقة بالهرطقة
كل من يجروا على الكلام في موضوع لم توافق عليه الكنيسة . . ولا يزال
حديث محاكم التفتيش وتقتيل أحرار الفكر بيد قضاة الكنيسة ، يشكل
بقعة الظلمة في جبين التاريخ الحديث . . وحسبك أن تتذكر أنها جعلت
حكم الموت أو التحريق نصيب كل من يعثر معه على كتاب من تأليف
العرب ولو كان بحثا في الزراعة ! . .

ولعلك قرأت خبر (جاليلي) الذى سبق إلى المحاكمة لأنه تكلم عن دوران الأرض ، وهو أمر لم يقل به رجال الكنيسة . . فهو إذن معاد للمسيحية ، ولا مكان في الحياة لمثل هذا المغامر . . ! وهكذا خبر هذا المسكين بين الموت مصراً على رأيه ، وبين الحياة مكذباً لنفسه ، فأثر السلامة لرأسه ، وأقر على نفسه بالكذب . . ! بيد أنه لم ينس أن يضرب بقدمه الأرض بعد ذلك وهو يقول : « ولكنها مع ذلك تدور . . ! » . . .

أجل . . . ذلك هو تاريخ الكنيسة . . أيام كان للكنيسة سلطان نافذ على المجتمع . . تساهل مع التقاليد الوثنية ، وقسوة على أحرار الفكر الباحثين عن الحقائق الكونية ، ثم سوق للشعوب إلى المجازر باسم الغيرة على تعاليم المسيح ! . . وكانت النتيجة المنطقية لهذا كله أن يبلغ الضغط حد الإشباع ، ثم يأتى الانفجار . . فتقسم الكنيسة بعضها على بعض ، وتثور العقول والضمائر المحبوسة ضد المهازل التى تمثل باسم المسيح ، ثم كانت ذروة الكارثة على المسيحية وعلى الدين كله ، تلك الثورة النفسية التى أوقدها الشعور بالظلم ، فى صدور رواد النهضة العلمية فى العالم الغربى ، فإذا هم يبعثونها خملة شعواء جامحة ضد الدين بكل معانيه وحقائقه ! . . وإذا هم يعلنون منذ ذلك اليوم ألا مكان للدين فى ميدان العلم . . وألا إيمان بشيء لا يقع تحت المنظار والإحساس . . ومن ثم فلا محل للإيمان بالله فى عالم المخابر والمباحث ! . . وبذلك انتصرت تلك العلمانية التى عزلت الفكر عن معانى السماء ، والتى لم تكن فى الواقع إلا حصاد التعصب الممزق ، الذى رافق سلطان الكنيسة منذ الخطوة الأولى ، فجعل تاريخها سلسلة من الاضطهاد والحرمان واللعن ، تصبه فى وجه كل من حاول البحث عن الحق. (١) .

ولقد كان حقاً على الكنيسة منذ البدء أن تتذكر كون خلو الأناجيل

(١) اقرأ حديث الجامع المسكونية فى كتاب « محاضرات فى النصرانية » ص ١٢٠-١٤٧ . ثم لا تنس أن النهضة العلمية قد استقرت أخيراً فى طريق الإيمان بالله ، بعد تلك العواصف التعصبية المتعاقبة ، ولكنه إيمان يختلف عن مقررات الكنيسة بكونه منبثقاً من أعماق المخابر العلمية التى تشير بكل حقائقها إلى الله . . وهذا « جورج إيرل دافيز » أحد كبار علماء الغرب يصف لك هذا الإيمان الجديد بأنه « يقوم على أسس يختلف كل الاختلاف عن الأساس الذى يقوم عليه الإيمان المستمد من سلطان الكنيسة ورجال الدين » . . .

وبقية الأسفار الحديثة من كل أثر للنظم السياسية ، إنما هو دليل قاطع على أن مهمتها محصورة فقط في حدود التهذيب الروحي ، وإحياء القيم الخلقية ، في عالم هو أحوج ما يكون إلى هذه المثل . ولو هي قد تدبرت كلمة الإنجيل : « اعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » . ولو هي عملت بوصية مؤسسها بولس : « لتخضع كل نفس للسلطين . . لأنه ليس سلطان إلا من الله . . ومن يقاوم السلطين يقاوم ترتيب الله^(١) » لجنبت نفسها ، ولجنبت الإنسانية ، ولجنبت الدين كل هذه الزعازع . . ولكن مما يؤسف أن هذه الحقيقة لم تظن إليها الكنيسة إلا تحت مطارق الثورات والمذابح ، ولذلك لم تعد إلى حدودها الحاضرة إلا بعد أن كلفت البشرية بحارا من الدماء والدموع ، وعشرات الملايين من القرايين الإنسانية . . .

* * *

عصمة الكنيسة :

ولكن . ولنقلها بصراحة : إن هذه التجارب المرة لم تؤت حتى اليوم كل ثمارها المرجوة ، إذ لا يزال هناك كثير من الأمور تنتظر التعديل وفقا لمنطق الواقع . . ولعل في مقدمتها هذه السلطات الكنسية التي تضع في أيدي رجالها حق التشريع الديني ، واختراع الشئون التي يتوهمون فيها خدمة للمسيحية ، مهما اشتطت عن منطق التعاليم الأساسية ! . . ولقد أشرنا إلى ذلك عندما عرضنا لإيمان الجماهير المسيحية بعصمة رجال الكنيسة ، على وجه يجعلهم يتلقون كل قرار كنسي بروح التسليم المطلق ، دون أي اهتمام بالمستندات القانونية . . الأمر الذي عطل تفكير العامة إذ أوقع في خلدكم أن المسيحية ليست سوى بلاغات رجال الكنيسة ! . . والغريب أن يتساوى في هذا المفهوم جميع الطبقات منهم ، حتى رجال الفكر الذين أصبحوا يرون الدين ضربا من الاحتكار . . فكما يجب على المريض أن يعمل بتوجيهات الطبيب دون مناقشة ، هكذا يجب على المسيحي أيا كان أن يلتزم رأي الكنيسة دون مناقشة ! . . وهو تمثيل قد يكون معقولا حين

(١) رسالة بولس إلى رومية ص ١٣ . .

يكون الموضوع موضوع اختصاص في الدراسة ، فيكون هناك العالم بالدين والجاهل به . . فلا يستغنى هذا عن سؤال ذاك فيما يجهل . ولكن ثمة أصولاً لا بد من توافرها للجميع جاهلين وعالمين . . ذلك ما يتعلق بأسس العقيدة والمتبع الذي منه تستمد . أريد أنه لا بد في العقائد من مصدر إلهي يرجع إليه عند الاختلاف ، ويكون بمثابة المقياس لكل قول في هذه الناحية . وهذا يقضى أن تكون آراء رجال الدين كآراء غيرهم ، مغرضة للفحص في ضوء هذا القانون الأساسي ، فلا يقبل منها إلا ما كان مطابقاً لمنطقه . فالمسلمون والمسيحيون سواء في أن منهم الجاهل والعالم ، والأكثر علماً . ولكنهم يختلفون في الأساس ، فبينما يؤمن كل مسلم أن كل قول في العقيدة موضوع مناقشة إلا ما قال الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ترى المسيحي يستسلم لكل ما يقوله رجال الكنيسة دون تردد أو مراجعة . . وهذا واقع كثيراً ما كنت أجهله حتى لمستته عن كتب في حياة أصدقائي من المسيحيين . وشد ما أدهشني قول أحدهم ، وهو اليوم كاهن ومن أحسنهم تهدياً : أنتم المسلمين تخطئون عندما تناقشوننا بأقوال المسيح . . فالمسيحية يا صديقي ليست هي الأناجيل بل هي ما اتفق عليه رجال الكنيسة . . .

وهنا تذكرت قول القرآن العظيم : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو . . » ٩ - ٣١ ثم تذكرت تفسير رسول الله لهذه الآية إذ قال له عدى بن حاتم (رض) : إنا لسنا نعبدكم . فقال صلى الله عليه وسلم : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ . . ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ . . فقلت : بلى . قال صلى الله عليه وسلم : « فتلك عبادتهم . . »^(١)

وما لنا نعود إلى أبعاد التاريخ ونحن نرى كل يوم صوراً جديدة من هذا التحكم المطلق . وما أخال أحداً قد نسي بعد ذلك النبأ الجريء الذي أرسله جناب البابا قبل بضعة أعوام ، يوم وقف يعلن في جماهير الحجاج :

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وحسنه ، وكثير غيرها .

« أن العذراء قد رفعت إلى السماء . . وأن على كل كاثوليكي أن يؤمن بذلك دون ريب ، وإلا عرض نفسه للحرمان ! . . »

ولقد تلقى يومئذ مئات ألوف الحجاج هذا البلاغ طبعاً بالانحناء ! . . ولعل قليلين جداً منهم هم الذين سألوا أنفسهم في همس بالغ : ومن أين استقى جنابه هذا الخبر الذي جهله العالم المسيحي كله طوال العشرين قرناً ! . وطبيعي أن أصحاب هذا السؤال من القلة التي لا تستطيع الإيمان بعصمة قداسته (١) . . .

ولقد جربت أن أسأل مدرسا من زملائي المتحمسين للكتلكة عن انطباعاته بإزاء بلاغ البابا هذا . . فقال : ذلك أمر تلقاه. مثبت الملايين بالتصديق والرضى فلا مجال للجدل في حقيقته ! . . قال هذا وهو يرفع قبعته ويحنى رأسه في خشوع . . .

ونسى زميلي أن القصة لا تعدو الإنخبار بمحدث تاريخي ، لا يقويه تصديق مئات الملايين ، إذا لم يكن له سند من التاريخ نفسه . . وليس مجرد تصديقه أو تكذيبه دون سند إلا كذلك المثل الذي يتندر به العامة في بلادنا ، إذ يقولون : أن رجلا استحلف آخر على أمر . . فأجاب قبل أن يفهم الأمر : أقسم أنه حق . . ولكن ما هو ؟ ! . .

وقد كان من جميل الاتفاق أن أستمع الساعة إلى خبرين ، يحمل كل منهما دلالة القاطعة بأن هؤلاء المحترمين من رجال الكنيسة لا يزالون اليوم حيث كانوا قبل مئات السنين ، لم تقدم عبر الأحداث أي شيء . .

أما أول الخبرين فيرويه صديق محام ، وخلاصته أن موكلة له مسيحية قد رفعت على زوجها دعوى بطلب الطلاق لدى المرجع الكنسي . . وكان لابد من الحكم بذلك لاستحالة الإبقاء على الرابط الزوجي بينهما . .

(١) كانت سلطة البابا قاطعة دون ما حاجة إلى إعلان عصمته ، فلما أخذت الإنكار الحرة تتسلل إلى الإمارات الإيطالية في مطلع القرن التاسع عشر ، نهض البابا جريجوري السادس عشر بمقاومتها وأصدر في ذلك منشورا عام ١٨٣٢ ثم عقب البابا بيوس التاسع بمنشور آخر أصدره عام ١٨٦٤ على النهج نفسه . . ثم فاجأ الفاتيكان العالم بقرار أعلن فيه أن البابا معصوم من الخطأ - قصة الاضطهاد الديني ص ١٤٠ .

غير أن الحكم جاء بنفسه عجيباً ، إذ تردد على ذلك المطالبين أن ياتى بغير
زواج ثلاث سنوات ! . .

ودهش صديق المحامى لهذا الحكم ، رد ال المطالبة بما إذا كان مدافع
سيخضع لحكم الكنيسة بالامتناع عن التزويج بل بعد الطلاق ! وانتهز
المرأة أجابت بكل بساطة : انه لن يحتاج إلى ذلك لأنه أرى بطلان زواجه اليوم .
وبنى أن يعرف الصديق كيف تعالج هي مرفوعة تزا شلال هذه المادة . .
غير أنه لم يسمع منها جواباً إلى سؤاله !

وأما ثانياً الخبرين فيقصه على شاب مسيحي . وما نسيه : أن زواجه
قد هجره فلجأ إلى المرجع الكنسى . ولكن دون معاوية . إذ قال :
أشهر لا ينظر في قضيته . . على أنه فوجئ يوم أمس بجمع من الذين
المرجع ، وهو يقضى بالتفريق بينه وبين زوجته . كما يقرر حاله بأن
طفله الذى لم يتجاوز الشهرين بعد ! . .

وكل ذلك دون أن تعقد أية جملة لهذا المذبح . وما أبهى لم يكن
الرجل راضياً بهذا الحكم الذى لا أساس له من القانون أو الشريعة . .
أكشف سرا إذا قلت : إنه بعث في صدر الشاب ثورة من الشك ضد الدين
كله الذى يمثله ذلك المرجع المحترم ! . . وطبيعى أن شيئاً من ذلك
لم يكن ليحدث لولا ذلك المبدأ العسارم ، مبدأ الاستبداد الذى يمثله سلطان
الكنيسة . . وأنا لا أرتاب لحظة في أن هذا المبدأ هو الذى تقضى أولاً
بانقسام المسيحية على نفسها ، فجعل من الدين الراشد أديانا ، ثم كان دين
الذى أسدل حجاباً كثيفاً بين المسيح وبين دلالات المكتب المقدسة القاطنة
بنبوة المسيح ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم بوحدة الرسالة
الربانية التى أنزلها الله على أنبيائه جميعاً ، فحال بذلك دون الوحدة العالمية . .
ومن هنا كان رجال الكنيسة هم المسئولين الأولين عن انتشار كل مذهب
مادى في الأرض ، والسبب الأول والأخير في انسلاخ مئات الملايين من
المؤمنين بالله عن هذه العقيدة في ظل الشيوعية الأهمية . . التى لم تكن
في حقيقتها سوى نهاية المطاف للحرب الطويلة الأمد ، بين الكنيسة ومصلحة
الشعوب . .

« أنت الذي أعطيتني الحياة . . . ليصل نعمة الأبدية إلى كل من
أعطيته . . . وها الحياة الأبدية فلا أنت يعرفها أناس أنت تملك الحقيقة ومعرفة
. . . وبين الناس الذين لم يعرفوك »

هناك ثلاثة عناصر أساسية في أدب يليق برسول كريم
تدور حول الله . وهي : ١- التواضع . ٢- التواضع . ٣- التواضع .
١- التواضع : الله عز وجل هو الذي خلقنا من عظمته .
٢- التواضع : الله عز وجل هو الذي خلقنا من عظمته .
٣- التواضع : الله عز وجل هو الذي خلقنا من عظمته .

وماذا يقول الملاحون في المسيح غير هذا الذي يقوله ربهم عن لسان
المسيح : (وماذا قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله
إليكُم ٤١-٤)

ولو رضى المسيحى هذه الحقيقة أكان ثمة خلاف فى العقيدة بينه وبين مسلم؟!

لكن هل يصدق المسيحي نفسه فيما يقرأ من كلام المسيح هذا !
كلا لأنه مقيد بتفسير الكنيسة التي تقول له : (إن المسيح يتكلم هنا عن
ناسوته الذي هو به رسول لا يملك شيئاً . . فلا تنس أن له صفة أخرى
هي اللاهوت الذي هو به إله وبه يملك كل شيء . .) !

ثم لنقرأ الآن من إنجيل يوحنا أيضا . . « إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطىكم « بار قليط » آخر ليثبت معكم إلى الأبد . . وهو يعلمكم كل شيء . . وهو يذكركم كل ما قلته لكم . . يشهد لأجلى . . يوبخ العالم . . لأنهم لم يؤمنوا بى . . وأن لى كلاما كثيرا ولكنكم لستم تطبقون حملة . . وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق . . لأنه ليس يتكلم من عنده . بل يتكلم بكل ما يسمع وينبئكم بكل ما سياتى . . وهو معجدنى »

(١) إنجيل يوحنا ص ١٧ . .

ولا شك أن المسيح الذى يتلو فى ونعى هذه الإشارات ، سيدرك بصورة مجملة أن هناك رسولا من عند الله سيأتى بعد المسيح ، حاملا للناس رسالة ضخمة يفصل بها الله لعباده كل شىء : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء . ١٦-٨٩ .) وهى رسالة خالدة لأنها تثبت إلى الأبد ، ومجددة للحقائق التى دعا إليها المسيح ، إذ تذكرهم بكل ما قال ، بعد أن يكونوا قد نسوه أو أخطأوا تفسيره ، وشاهدة له ومجددة ، لأنها تدفع عنه ما أحيط به شخصه من مغالاة الذين ادعوا له الألوهية ، ومن تخرصات الذين رموه وأمه بكل فرية . ومن صفات هذه الرسالة أنها تنطوى على أسرار من النظم والحقائق لم يكن لدى البشر طاقة بحملها وبفهمها أيام المسيح ، وبذلك تعلم البشر جميع الحق الذى يجعلهم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك .

أجل . . . هذا أقل ما ينبغى أن يفهمه قارئ هذه الفقرات من بشارت المسيح عن أهم أحداث المستقبل . . . ولا سيما إذا ضم إليها ذلك الخبر من إنجيل يوحنا نفسه ، إذ يحدثنا عن جماعة ذهبوا لاستكشاف أمر يوحنا المعمدان فراحوا يسألونه : هل أنت المسيح ؟ هل أنت إيليا ؟ . . . هل أنت النبي ؟؟^(١) فنعلم أن لدى علماء إسرائيل خبراً نبوياً عن ثلاثة مبعوثين آخرهم (النبي) . . . فإذا كان إيليا هو يوحنا نفسه فقد بقى علينا أن نعلم من هو هذا النبي ! . . . ولا سبيل إلى صرفه عن (محمد) صلى الله عليه وسلم ، ما دما قد علمنا أن بعثة محمد كانت أعظم حدث فى سير التاريخ ، وفى مفاهيم الحضارة بعد المسيح . ومثل هذا النبأ العظيم لا يجوز أن تغفله الكتب المقدسة ، وهى التى تحدثت عما دونه أهمية ! . . .

على أن القارئ المسيحى بالتأكيد سوف يكذب نفسه مرة أخرى أيضاً ، إذ يسمع تفسيرات الكنيسة التى ستقول له : البارقليط هو روح القدس ، وقد حل بعد المسيح على تلاميذه فأنطقهم بكل اللغات ! . . .

وطبيعى أن ليس لدى المسيحى العادى متسع للتحقيق فى هذه التوجيهات ، فضلاً عن ثقته العمياء بما تقرره الكنيسة ، وإلا فكيف يفوته العلم أن

(١) يوحنا ص ١

في كلمة (بارقليط آخر) دلالة حاسمة على أن الخبر به إنسان يميز بالرسالة الإلهية كالمسيح نفسه ، وأن في توبييخه للعالم ، على عدم إيمانهم بالمسيح ، دلالة أخرى على أن المسيحيين الذين تظلمهم بعثة هذا (البارقليط) سيكونون منحرفين عن حقيقة الرسالة المسيحية ، فهم من أجل ذلك يستحقون توبييخه . وعلى هذا فسيكون تفسير البارقليط بالروح القدس أو المعزى تصرفا لا يتفق مع النص ولا مع المنطق ، خصوصا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى أخبار المؤرخين مثل « وليم مور » الذي يقول بأنه وجد من أتقياء المسيحيين بعد المسيح من ادعى كونه هو البارقليط الموعود ، وأن ناسا كثيرين قد اتبعوه مصدقين . . بل إن صاحب (لب التواريخ) يؤكد أن النصاري ظلوا قرونا قبل البعثة النبوية ينتظرون هذا المرسل . . وهذا وحده كاف للقطع بأن مسيحي القرون الأولى ، أو كثيرين منهم بالأقل ، ما كانوا ليفهموا البارقليط إلا إنسانا سويا لا ملاكاً ولا روحاً إلهياً . وفرق بعيد بين رجل يواجه العالم كله برسالة السماء ، وبين حال إلهامى خاص ، لا يتجاوز عددا محدودا من أبناء البشر أيا كان هؤلاء ! . .

ولكن لا ننسى أننا نطالب القوم بأمر خطير ، يقتضي إعادة النظر في الكثير الكثير ، فإن مجرد إثبات كلمة (أحمد) أو (صاحب الحمد) كما يرى بعض المستشرقين مكان كلمة (المعزى) في الترجمة العربية لمعنى البارقليط كاف وحده لنسف كل الحواجز القائمة بين المسيحية والإسلام ، إذ تتلاقى يومئذ وصية المسيح هذه حرفيا مع ما أثبتته القرآن من كلام المسيح إلى بني إسرائيل : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . . ٦١ - ٦٢ » (١)

(١) نشرت مجلتنا الأزهر والتمدن الإسلامي وغيرها نبأ هاما استتته مجلة (المصور) عن الفاتيكان من مصادر دقيقة الاطلاع ، مؤداه أن البابا الراحل قد ألف لجنة من كبار علماء اللاهوت لوضع تقرير دقيق عن حقيقة الدين الإسلامي . . وقد أنهت اللجنة دراستها الطويلة العميقة ، فخرجت بتقرير يشهد بصحة الإسلام وصدق رسوله ، وأن البابا قد عزم على إصدار بلاغ يفاجئ العالم بالاعتراف بالإسلام كدين إلهي حق . على أن الأجل الذي دهم البابا قد حال دون تحقيق هذا الحدث ، فأصبح الأمر موكولا إلى تصرفات البابا الجديد ومجلسه الأعلى ! .

وما يلفت النظر ذلك الحدث الآخر الذي تناقلت عبره وكالات الأنباء مؤخرا وهو إنشاء مسجد للمسلمين في حاضرة الفاتيكان ، فهل يعتبر هذا طلعة المرحلة الحديثة في حياة الإنسانية ! .

شاهد من إيطاليا :

ولقد آثرنا نقل كلمة (البارقليط) كما جاءت في التراجم المطبوعة في لندن عام ١٨١١ و ١٨١٢ و ١٨١٣ ردى بدليل كلمة (بيريكليتوس) اليونانية . والعارفون باليرنانية القديمة يعلمون أنها تحمل معنى (سميد) أو (أسعد) دون خلاف . . تم ترجمت في الطبقات العربية الأخيرة بكلمة المعزى - التي أشرنا إليها - وفي إحدى الطبقات اليسوعية بالتركية تذييل لكلمة (المعزى) يقول بأن الأصل اليوناني ليس له معنى (إيلاد) . . وهذا النفي في الواقع ينفي ما يريدون إثباته في تلميذاتهم ، لأنه يؤكد الصلة القائمة بين الحمد والبارقليط بدلاً من أن ينافيها .

ولإيضاح هذه الحقيقة نقل للقارى عن كتاب (قصص الأنبياء) . هذا الحوار الطريف بين مؤلف المرحوم (عبد الوهاب النجار) وبين صديقه المستشرق الإيطالي الدكتور (كارلونيلى) وهو يحمل الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ، وكان آنذاك يدرس التربية في دار العلوم بالقاهرة .

المؤلف : ما معنى كلمة (بيريكليتوس) ؟

المستشرق : إن القس يقولون : معناها المعزى .

المؤلف : إني أسأل الدكتور كارنيلينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اليونانية القديمة . ولست أسأل قسيساً .

المستشرق : إن معناها (الذى له حمد كثير) .

المؤلف : هل ذلك يوافق الفعل التفضيل من فعل (حمد) ؟

المستشرق : نعم .

ولا شك أن في هذا الاعتراف الصريح من دلات المستشرق الإيطالي شهادة اتهم ضد أولئك الذين لا يستحيون أن يغيروا الوقائع اللغوية والدينية والتاريخية تأييداً لما وجدوا عليه آباءهم . . ولو كان

والقارئ يرى بلا شك أن في هذا القرار كل ما استطاعت المحكمة أن تجمعها من الأسباب المسوغة لحكم الموت ، وهي لا تعدو من الناحية السياسية اتهامه بالخروج على القوم ، وادعاء ملك إسرائيل . . ولكنها من الناحية الدينية تسجل ادعاء المسيح النبوة . . وهذا أشد مؤيدات الحكم حتما . .

وهنا لابد من القول بأن ادعاء الألوهية كان أحق باهتمام بيلاطس ، فلو أن المسيح نسب ذلك لنفسه ، أو رماه به خصومه اليهود لما أغفل القرار ذكره . . وبذلك يثبت بما لا يقبل الجدل أن وصف المسيح بالألوهية لم يعرف في زمنه قط ، كما لم يثبت أنه شاع قبل ظهور الأناجيل ، الذي تأخر إلى مطلع القرن الثالث بعد ميلاد المسيح . وعلى هذا فلن يبقى في العقل مجال للقول بالطبيعتين . . بل الصواب كل الصواب الوقوف عند اعتراف المسيح نفسه الذي نقلناه فيما تقدم عن إنجيل يوحنا . .

ولعل قارئنا يقول هنا : إن مضمون الحكم البيلاطسي لا يخرج عما قروته من انتفاء نسبة التأليه إلى المسيح . . ولكن ألا ترى أنه يضعنا أمام مشكلة ضلبي بين لصين . . كالشأن في رواية الأناجيل نفسها . . فلهذا المتسائل نقول : إن الذي يهم الباحث من هذا القرار بالدرجة الأولى إنما هو شخصية السيد المسيح على لسان أعدائه الأولين وأتباعه المؤلهين . أما موضوع الصلب فأمر دون ذلك . لأنه لا يعدو أن يكون ضربا من العدوان على رسل الله ، تعرض لمثله أكثر من نبي قبل المسيح ، وكل ما تتضمنه الوثيقة من هذه الناحية هو أنه صدر عليه حكم الموت على الشكل الموصوف ، وليكن الحكم شيء والتنفيذ شيء ، والوثيقة نص قضائي يثبت بصورة الحكم ، لا قرار تنفيذي يصور تنفيذ الحكم . . ونحن المسلمين مقتنعون أتم الاقتناع بأن الحكم لم ينته إلى التنفيذ ، وذلك اعتمادا على شهادة الله من فوق سبع سماوات بأنهم ما قتلوه وما صلبوه . . بل رفعه الله إليه

* * *

ظلمات وأشعة :

من الإنصاف للمدنية الجاضرة — على علاقتها — أن نقر لها ببعض الفضل.

في تخفيف قبضة الكنيسة عن عقول أبناء المسيحية . . فلقد جاء حين من الدهر كان رجال الكنيسة هم مصدر كل خبر ديني كما أسلفنا ، سواء في الشرق أو الغرب ، ومن هذا الباب دخلت على نفوس الجماهير عقد التعصب المجنون ضد الإسلام ونييه ، إذ كان كل ما حصل لديهم من علم عن محمد صلى الله عليه وسلم هو أنه عدو المسيحية الأكبر . بعد أن صوروه لهم كمجموعة من الشواذ البشعة ، من شأنها أن تملأ قلوبهم بالحقد عليه وعلى دعوته وعلى أمته! . . ولما تخلص العلم من عقد التعصب الكنسي - إلى حد ما - نشطت بعض الرؤوس إلى البحث الحر في حقيقة هذا النبي فإذا هي تطل على غير الجحيم الذي وصف لها ، وإذا هي أخيرا تذيب من حقيقة هذا النبي ما تكفل بتبديد الكثير من الظلام ، الذي أطلقه المتعصبون منذ عهود الصليبية الأولى . . وها نحن أولاء نرى من ثمرات هذه الحرية ما يبشر بغد أفضل ، نتعارف فيه المسيحية والإسلام عن كذب تعارفا بقيء على العالم بكل خير . . ومن كان - قبل قرن فقط - يتوقع أن يسمع رجلا كاثوليكيًا كالأستاذ (شيرل) عميد كلية الحقوق في جامعة (فيينا) يقول في مؤتمر للحقوقيين عام ١٩٢٧ (إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها . . إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قته بعد ألفي عام . .) .

ومن كان يحلم أن ترتفع أصوات العديد من أساطين رجال القانون في العالم المسيحي إجلالا لشريعة محمد واعترافا بكمال « أحكامها التي لا يمكن لشيء في الوجود أن يكون أتم منها رجحانا » كما يقول سبنسر . وهل كان يعقل قط أن تفسح أعظم كنائس أمريكا منابرها لداعية مسلم كسعيد رمضان ، ليتحدث عن الإسلام وقضايا العرب بأنصع حجة وأصرح بيان . ! وها نحن أولاء نقطف للزيد الثمرات من هذا التحرر الكريم ، يتجلى في طائفة من كبار أدباء العرب المسيحيين كمارون عبود ، وميخائيل نعيمة^(١) ونبولس سلامة ، ولييب الرياشي ، ونظمي لوقا ، ومن قبلهم

(١) من المؤسف أن ينحرف الأستاذ نعيمة في تيار الماديين فيزعم - فلما قيل لي - أن هزيمة حزيران كانت نتيجة الدين . . وبقليل من التفكير يعلم أن الدين لم يدخل المعركة قط .

الأدبية العالمية في زيادة ، ثم قعيد الحرية المجهول الآخر أسبر (الغريب)
الذي ملأ آفاق لبنان هتافاً بحقائق الإسلام ، أيام كان البلاء موكلًا بالمنطق .
فكانت مجلته - الشمس - هي النور الوحيد في ظلمات تلك العهود ، عهود
الانتداب الفرنسي ، حتى توفاه الله ثابتاً على الحق لم يرج أحدا ولم ينحس
إلا الله . .

وأى مفكر منصف لا يمتلئ إعجاباً أمام هذه الروح الخيرة من الحرية
التي يحمل لواءها بين شعراء العرب الصديق الأستاذ رشيد سليم الخوري
(الشاعر القروي) فتطلق لسانه بمثل هذه النفثات الخالدة : (لم تكن لي
فكرة سوية عن الرسول العربي . . حتى آتاني الله فضله . . فأماط عن
بصيرتي حجاباً من الجهل كثيفاً . . وحلق بي إلى سماء من تراثنا الروحي
لم تكن خطرت لي على بال . . وأى حر يعشق الفضل حيث وجدته ،
وأديب يهيم بالحكمة وساحر البيان لا ينخر ساجداً للحديث الشريف ومعجز
القرآن . . .)^(١) .

ومثل هذه النفس التي حررها الحق من أغلال التعصب غير مستغرب
أن تقذف وجه الباطل بمثل تلك الصيحة المجلجلة الأخرى^(٢) :

من يبك عهد المواهي والدمى فأنا والحمد لله قد حطمت أصنامي
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت عروبتى مثلي الأعلى وإسلامي

* * *

الحق يحرككم :

أجل . . هذه نعم ما كنا لنحلم بها لولا دفقة الحرية التي كشفت
عن العالم غريبه وشرقيه الكثير من ظلمات التعصب . . ولكن المحزن حقاً
أن هذا النور لا يزال بعيداً عن الكثير من النفوس التي ألفت حياة الظلام .
أليس من المؤلم المفجع أننا لا نتفك نرى بين ظهرائنا شباباً امتلأت رؤوسهم

(١) من مقدمة ديوان القروي . . . (وليته تذكر أن السجود لا يجوز إلا لله ، إلا أنه
علم ذلك بعد إعلانه إسلامه والله الحمد) .

(٢) من مطولة راتمة ألقاها الشاعر في حفلة تكريم أقاتها له الحكومة السورية في دمشق
قبل سنوات . . .

بيضاة الثقافة العصرية ، على حين قلوبهم ظلت محبوسة في سجون التقاليد الكنسية ! . شبابا لا يعرفون عن محمد إلا ما كان يسمعه جهلاء أوروبة عنه في عصور الصليبية ، وهم مع ذلك يقرؤون بعض الدروس عن هذا النبي ، ويسمعون الكتاب الذي جاء به بموج به الأثير صباح مساء ، ثم هم يعلمون مع ذلك أن محمدا من أبناء هذه الأرض العربية ، ولعلمهم قرووا في بعض الكتب أن القرآن الذي أنزل عليه هو الذي حفظ لأمته لغتها ، وبالتالي بقاءها القومي ، فكان من حق تاريخ أمتهم عليهم أن يكلفوا أنفسهم بعض البحث عن حقيقة هذا الرجل ، الذي يدعى أنه رسول الله إلى الناس جميعا ، ويرميه خصوم الحق بألوان من التهم لو صحت واحدة منها لكانت جديرة أن تمحو اسمه من تاريخ الإنسانية ! .

ولكن . . وما أوجع لكن ! . . إن هذا الشباب الذي لا يقبل أية فكرة في الرياضيات والفيزياء وما إليهما دون قناعة وتحقيق ، هو الذي يتلقى تهم خصوم محمد دون أية مناقشة أو تدقيق ! . . فتراه يردد ما قالوه فيه ، من غير أن يكلف نفسه السؤال عن بواعثه وخوافيه ! . وما كان أحراره أن يقرأ في تدبر قول الإنجيل : (تعرفون الحق والحق يحرركم . .)

وأذكر هنا حديثا قديما سمعته من الشاعر اللبناني الأستاذ (سعيد عقل) في شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكنا آنذاك في سهرة عند الصديق الأستاذ (رشيد سنو) بطرطوس^(١) ، وكان الحديث مما لا يتفق مع الصحيح من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، فراجعته في الموضوع ، وأوضحت له الحقيقة بدلالات تاريخية ، فإذا الدهشة تعلو وجهه . ثم يسألني في إلحاح عما إذا كنت واثقا مما أقول ! . فقلت له : كل الثقة : . وقد رواه فلان وفلان في كتاب كذا . . وإذا شئت رجعنا إلى المصدر في الحال .

فلم ير ضرورة لذلك ، وقال : هذه معلومات تلقيتها من المستشرقين أساتذة اليسوعية في بيروت ، وكنت أحسبها فوق كل ريبة ، حتى سمعت

(١) مركز إحدى المحافظات السورية . . .

منك ما ذكرت . . لذلك أود لو أجمع بينك وبين هؤلاء الأساتذة لتناقشوا في الموضوع فيعلموا مثل الذي أعلمتني .

قلت : لا مانع عندي من ذلك . . وسأحاول الاتصال بك لهذه الغاية في أول رحلة قادمة إلى بيروت .

وغادرنا الأستاذ - عقل - في اليوم التالي إلى لبنان . . ولم ينس أن يلح على بتحقيق هذا الوعد وهو على مدخل السيارة . .

ثم شاء الله أن أكون في بيروت بعد أيام ، فكان أول عمل قمت به بعد الاستجمام أن ذهبت أقتش عن الشاعر حتى التقيته في مقهى الشرق من ساحة الشهداء . . وهناك ذكرته بما اتفقنا عليه ، فأظهر الاهتمام ، ووعد بتهيئة الاجتماع يوم غد . .

ولكن يؤسفني أنني لم ألق صاحبي في ذلك الغد . . على كثرة ما انتظرتة وسألت عنه ، فحزمت بذلك متعة اللقاء الذي كنت شديد اللهفة إليه ! .

والذي أهنئ من تذكر هذه الحادثة هو أن الأستاذ عقل لم يرض يومئذ باستعمال عقله . . وأبي إلا أن يسمع في موضوع البحث حكم اليسوعيين ! . ثم لم يكتف بذلك حتى . . نسي موعد الاجتماع الذي ألح هو عليه ! .

* * *

بين التقليد والتحقيق :

والتزام الأستاذ عقل لمقررات اليسوعيين ، يذكرني - وأنا أراجع مسودة هذا الكتاب - بموقف قريب مشابه لرجل كنسي يسمونه (البخانة) هو الخوري أيوب سميا . . .

في عدد أيلول ١٩٦٢ من مجلة (النعمة) البطريركية-الدمشقية ، وفي الحلقة التاسعة من مقالات هذا البخانة نقرأ ما يلي : (. . . فهوؤلاء المرعيون كانت منهم فئة في مكة ، وكانوا يعبدون الله بثالوث يفسرونه به تعالى وبالمسيح وبمريم ، ولما كانت الكعبة بيت آلهة لجميع العرب ، ولكل

قبيلة فيه معبودها ، وضع هؤلاء المريميون فيه صورتي المسيح ومريم . .
وذكرهما أصحاب السير النبوية كابن هشام وعلى بن برهان الدين الحلبي ،
وحكى الأزرقى أن محمدا عندما كسر أصنام كعبة مكة أبقى على صورتي
المسيح ومريم واحترمهما . . ولكنهما تلفتا عندما ضرب الحجاج الكعبة
بالمنجنيق . . ومن أولئك المريميين كان ورقة بن نوفل الأسدي . . وإياهم
عنى محمد بـ (الناس) فى الآية ١١٦ من سورة المائدة : (يا عيسى بن
مريم . . أنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين ! . .) وبقوله فى ١٧ من
المائدة أيضا : (لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم . . .)
فها هنا (تحقيقات) عدة ، نحب أن نقف على بعضها قليلا ، لتبين
ما فيه من قوة التحليل والتدقيق :

- ١ - إن حضرة (البحاثة) يقول بأن محمدا - عليه صلوات الله وسلامه -
قد أبقى على صورتي المسيح وأمه فى الكعبة . . . وأنهما قد لبثتا مكانهما
هناك سلیمتين مشهودتين عشرات السنين ، حتى أثلفهما الحجاج .
- ٢ - إن القرآن قد عنى بآيات المائدة أولئك الذين يسميهم (البحاثة)
مريميين ، وفيهم ورقة بن نوفل .
- ٣ - إن القرآن هو من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ! .

ونحن نقرأ فى كتب السيرة أن أصناما كانت على الكعبة حطما
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن صوراً للملائكة والنبيين كانت
فى حيطانها ، فأمر بمحوها جميعا ، ثم لم يكتف حتى عنى على بقيتها بيديه ،
إذ أمر أسامة بن زيد (رضى الله عنه) فجاءه بدلو ماء ، فجعل يمحوها ،
ومن ثم دعا بزعفران فلطخ موضع تلك الصور . . وهذه رواية الحلبي . .
وهى فى الوقت نفسه رواية أصحاب السير السابقين ، أو أصحها ، لما درج
عليه الحلبي من النقل عنهم ، والتوفيق بين رواياتهم . . وفيها الدلالة
القاطعة ، على أن الكعبة قد طهرت من كل أثر للأصنام والصور باطنا
وظاهرا ، منذ ذلك الحين .

ثم إن القول بإبقاء النبي صلى الله عليه وسلم على صورة ما ، إنما يتم عن جهل مطبق بجوهر رسالته ، التي تحرم تصوير الأحياء أيا كانوا — إلا لضرورة — ولا سيما ممن يتجه إليهم بعض الناس بالعبادة . . فضلا عن مجافاته الظاهرة لمضمون الآيات نفسها ، التي تقرر الأسماع تنديدا بموئلى المسيح وأمه ، منفردين ومجتمعين . . !

أما الزعم ببقاء هاتين الصورتين إلى عهد الحجاج فعبث أشد غرابة ، لأن مثل هذا الأمر ينبغي أن يكون من التواتر والشيوخ بمنزلة البديهيات ، إذ يكون مشهودا ومعلوما من الملايين . .

وأما قصد القرآن بالناس إلى المريميين خاصة ، وفيهم ورقة ، فلا دليل عليه ، لا من القرآن ولا من التاريخ ، لسببين أولهما : أن مفهوم التأليه في الإسلام يشمل كل دعاء لغير الله ، فدعاء النبيين والأولياء والقديسين وغيرهم لنفع أو ضرر — بعد موتهم طبعاً — إنما هو عبادة ، وكل عبادة لغير الله تأليه ، لأنه توجيه الخاص بالله إلى سواه . ومن هنا يتضح أن تقييد الناس بفتة ما ، ما دامت فتات أخرى تشاركها في هذا المفهوم ، تحكم لا مسوغ له من الفقه القرآني . .

على أن (الباحثة) المحترم قد نسي ، من الوجهة التاريخية ، أن ورقة قد لقي رسول الله في مكة ، أول ما واجه الوحي ، وقد استمر العهد المكى ثلاث عشرة سنة ، انتقل بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ، وبما أن سورة المائدة مدنية ، وهي آخر سور القرآن نزولا ، كان المدى الزمني بين لقاء ورقة ، وآيات المدينة قرابة ربع قرن ، وهذا كاف للفصل بين شخصية ورقة وجماعته ، وبين مناسبة الآي التي تتناول الحديث عن موئلى عيسى وأمه ، أيا كانوا ، دون تفريق ولا تخصيص . . يضاف إلى ذلك أن خبر ورقة قد انقطع عقيب مطالع الرسالة ، مما يرجح أن الأجل قد وافاه قريبا من ذلك^(١) .

(١) في رواية البخارى عن عائشة (رض) بعد أن أورد خبر بدء الوحي واجتماعه صلى الله عليه وسلم بورقة قال : « ثم لم ينشب ورقة أن توفى » .

وشئ آخر هو أن عقيدة ورقة . كما تبدو من أعماله وأقواله ، شديدة الشبه بالعقيدة الإسلامية . بل هي هي . . نفهم ذلك من موقفه مع رسول الله . صلى الله عليه وسلم ، ومن قوله له : أبشر ثم أبشر . . فإني أشهد أنك نبي مرسل . وأنت ستؤمر بالجهاد بعد يومك . ولئن أدركني ذلك لأجاهدن «ملك» . .

ففي هذا الكلام صراحة تحسم كل تردد ، في أن ورقة لم يكن قط مؤلفاً لأي بشر ، وأنه كان من الذين أخلصوا دينهم لله وحده ، ونحن وغيرنا مضطرون لقبول هذا الحكم على عقيدة ورقة ، لأنه الحكم الحاسم الذي تقدمه السيرة ، وهي المصدر الوحيد لأخبار الرجل . . (١)

بيد أن المؤسف حقاً هو أن هذه البديهيّات على قربها من متناول (البحاثّة) المحترم ، قد فاته النظر إليها . لأنه في الواقع لم يشأ أن يكون محققاً ، فاكتفى بالأخذ عن لويس شيخو ولا مانس وأمثالهما . دون أن يكلف نفسه النظر في المصادر التي يدعون الاستناد إليها ، وهي هي الخطة نفسها التي رأيناها عند صاحبنا القس مؤلف الأطروحة . . (٢)

ولا غرابة أن يحاول (البحاثّة المحترم) تنصير الإسلام ، بمثل هذه الأخبار العجيبة ، عن صورتى المسيح ومريم عليهما السلام ، فقد سبقه إلى ذلك بحاثون كثرون . . أبي أحدهم إلا أن يجعل من الكعبة مركز أسقفية في الجاهلية ، وكل حجته أنه قرأ في أحد النصوص التاريخية عبارة : (. . وكان على الكعبة أسقف . .) فاختطفها دون وعي ، ثم راح يشيد عليها ما استهواه من علال وقصور . . وهو غافل أنه إنما يصنع من الأسقف – بفتح الهمزة جمع سقف – أساقفة وأسقفيات لا وجود لها ، ولا لهم ، إلا في مركز تخيلاتهم ! . . .

بقي أن نقول لحضرة الخورى (البحاثّة) : تستطيع أن تقول في القرآن ما يمليه اعتقادك ، ولكتنا نذكرك فقط بأنك ، حتى في هذا لن تكون

(١) أجمع رواية السيرة على هذه المعاني مع اختلاف في اللفظ يسير

(٢) سيأتى الكلام عن هذا .

معبرا عن فطرتك التي لا يمكن أن تصدق أن كتابا كالقرآن شهد عمالقة الفكر العالمى ، بأنه فوق كل قدرات البشر ، يعقل أن يكون من كلام رجل أمى ، عاش قبل أربعة عشر قرنا ، فى بلد لم يحتو مدرسة ولا جامعة ، ولم يتجاوز فى معلوماته حدود الفطرة البدائية ! . .

وصدق الله العظيم الذى يقول فى وصف كتابه الحكيم : (قل آمنوا به ، أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم ، يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا . . إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يسكون . ويزيدهم خشوعا) ١٧-١٠٧-١٠٩ (١)

* * *

تحقيق تاريخي :

بعد نشر هذا التعقيب فى (حضارة الإسلام) رأينا أن نعيد النظر فى خبر الأزرق عن صورتى المسيح وأمه ، لتبين أى مدى يمكن التعويل

(١) بما يذكر بالخبر لجهة النعمة أن تعقبينا هذا لم يكده يظهر للقراء فى مجلة (حضارة الإسلام) حتى اختفى اسم (البعثة المحترمة) من صفحاتها الأولى . . فكان ذلك تقديرا جميلا من المجلة للحقائق التى أوردناها . ومن غريب الاتفاق أننا نراجع هذا البحث وبين يدينا رسالة وصلتنا من طالب لاذق يتلقى دراسته الجامعية فى مدريد بأسبانية ، وفيها من أخبار التعصب الكنى هناك ما يحدد موضوع الخورى أيوب سنيا . .

يقول الطالب : إن وزارة التربية والتعليم فى هذا البلد لا تتورع أن تقدم لطلبة العلم فى بلادها ألوانا من السموم بوصفها حقائق تاريخية وبشرية ! . . فى بعض كتبها يدرسون أن المحمدين - ويقصدون المسلمين - يعتبرون المرأة بلا روح ، وأنها لا تدخل الجنة ، وأنها خلقت للفرس الجنسى فقط ! . . هذا إلى الكثير من المناكير التى يخترعونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مصحوبة بالصورة التى يراد بها تثبيت ذلك الاختلاق ! . . وليست كتب الدولة هذه سوى أنموذج مصغر لمحتويات الكتب الأخرى المعروضة فى المكتبات العامة . . فهناك ترجمات لمعان القرآن لا تخلو من مثل هذه الأراجيف . . ومن أمثلتها قول المؤلف فى مقدمة إحداها : « أن القرآن نمت من أقاصيص ألف ليلة وليلة ! . . » وفى مقدمة غيرها يقول مترجم آخر : « إن محمدا بذكائه استطاع أن يأخذ من اليهودية والنصرانية ، ويضيف إليهما أشياء جديدة . . » .

والخطر فى هذه المفتريات أن الطلاب الأسبان يتلقفونها على أنها « حقائق علمية » . وقد يقضون أعمارهم دون أن يقرؤوا كلمة فى تفنيدها . . ذلك لأن الدبلوماسية الإسلامية فى بلادهم مشغولة بالدعاية للطواغيت . . وبالكلام عن فرص المتعة التى توفرها دولهم للسائحين فى حين أن أساتذة « سنيا » يعملون معاولهم فى تهديم الحقيقة ، محاولين إطفاء كل أثر للنور

عليه من الناحية التاريخية ، فتحصل لنا ما يلي ، استنادا على الطبعة المأجدية
بمكة المكرمة :

(ا) ورد خبر الصورتين في مواضع عدة من الكتاب بدأ من ص ١٠٠
بعضها عن عطاء بن أبي رباح ، وبعضها عن عمرو بن دينار ،
ومنها عن بعض الحجبة عن مسافر بن عثمان . .

(ب) بعض هذه الروايات يحمل الشبهة في ذاته إذ ينسب إلى النبي
صلى الله عليه وسلم أنه وضع يده على صورة عيسى وأمه ، وأمر
أن يمحي سائر الصور إلا ما تحت يده . . .

(ج) وبعضها يؤكد أن هاتين الصورتين قد شوهدتا في جوف الكعبة
حتى قيل هدمها من قبل الحجاج ، أو قيل الحريق في عصر ابن
الزبير . .

(د) وتختتم هذه الأخبار بالرواية الثابتة في كتب الحديث ، إذ يروى
المؤلف الأزرق عن جده عن . . . جابر بن عبد الله قوله :
(زجر النبي عن الصور ، وأمر عمر بن الخطاب زمن الفتح
أن يدخل البيت فيمحو ما فيه من صورة . ولم يدخله حتى محي)
ويكرر الخبر عن جده . . . عن الحسن (أنه - صلى الله عليه
وسلم - لم يدخل الكعبة حتى أمر عمر أن يطمس على كل صورة) .

(هـ) ولتعليق هذا التناقض بين كلا الخبرين ، خبر نحو جميع
الصور دون استثناء ، وخبر استثناء الصورتين ، لابد أولا من
التذكير بقيمة كتاب الأزرق (أخبار مكة) فهو (كان صغير
الحجم ثم زيد عليه علاوات كثيرة وضم إليه مواد عديدة أدت
إلى اتساعه) . . . ١ - انظر المقدمة - ولا يستغرب أن يكون
خبر استثناء الصورتين من هذه الإضافات . . ثم هناك احتمال
آخر أشار إليه الزرقاني على المواهب وهو أن هاتين الصورتين
لعلهما كانتا مرسومتين بضرب من الدهان يتعذر زواله فبقيت
منهما بقية . . وكلا الاحتمالين معقول ومقبول . .

على أن الخبر الذى يظل بآدى البطلان هو الزعم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استبقى الصورتين عمدا . . لأنه لا معنى لاستثنائهما ، بعد أن ثبت إتلافه صلى الله عليه وسلم - أو طمسه - لصورتى إبراهيم وإسماعيل ولما قررناه من منافاة هذا الإبقاء للمعلوم بداهة من شريعته صلوات الله وسلامه عليه . وهذا ما يذهب إليه الأزرقى نفسه حين يروى نبأ الطمس العام لجميع الصور ، وبخاصة حديث ابن أبى شيبة عن ابن عمر (رض) (أن المسلمين تجردوا فى الأزر وأخذوا الدلاء وانجروا على زمزم يغسلون الكعبة ظهرها وبطنها ، فلم يدعو أثرا من المشركين إلا محوه وغسلوه) . ص ١٠٥ - وهو الحق الذى تقرؤه فى صحيح البخارى عن ابن عباس (رض) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت . .) .

• • •

نبوة لا عبقرية :

وكنا ذات مرة - أنا وزميل من رجال الأكليروس - نتحدث فى موضوع الرهبنة ، فقص على أخبار كتبهم فى شأنها ، وكانت هذه الأخبار متفقة مع أنباء القرآن فقرأت لصديقى قوله تعالى : (وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة . . ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها . . - ٥٧ - ٢٧) . . فلم يتمالك الزميل أن أظهر دهشته من دقة هذه التفاصيل . . ثم قال : (حقا إن محمدا ذكى . .) ولم أتمالك بدورى أن أدهش من تعليله فأقول : (وما شأن ذكاء محمد فى الموضوع ؟ إنه الوحي يا صديقى . . إنه الذى علم محمدا ما لم يعلم) .

وفى يوم آخر كنت مع صديق مسيحي ، وقد أخذ يعرض على شهادته على القرآن . . فأوضحت له ما عنى عليه . . وكشفت له بعض كنوز هذا الفرقان . . فلم يستطع إلا أن يهتز لما يسمع من الحقائق ، التى لم يعرفها البشر كعلم إلا فى هذا العصر . ولكنه سرعان ما أجابنى : (حقا إن محمدا عبقرى) . قلت : ولكن هل يصح فى عقلك يا عزيزى أن تبلغ

العبقريّة الشخصية في إنسان عاش قبل أربعة عشر قرناً ، وفي أعماق الجاهلية ، بعيداً عن مصادر العلم والثقافة ، إلا أشعاراً لا تتجاوز معانيها وصف غزوة ، أو مدح خلة ، أو هجو زلة ، أو كشف خلجة ، أن يكشف من قوانين الحياة والطبيعة ما استغلقت دونه أفهام البشرية كلها ، فلم تلمحه إلا بعد أكثر من عشرة قرون . يا عزيزي . . إن من شأن الذكاء الشخصي في أمة موهوبة كالأمة العربية أن يخرج خطيباً كأكثم ، وحكماً كزهير ، وحائراً كطرفة ، ومتأملاً كأمية بن أبي الصلت ، وباحثاً عن الله كزيد بن نفيل . . أما أن يخرج رائداً عالمياً غير بما كان ويكون وسوف يكون وما يجب أن يكون حتى قيام الساعة . . فأمر لا يقول به الأذكاء المنصفون . قال : يمكن أن نسببه ما شئت . . إلا أن نقر له بالنبوة . .

قلت :

من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يفسع
لن يؤذى مقام محمد يا عزيزي أن تجحد نبوته ، ولكن الأذى إنما
يصيبك أنت بهذا الجحود ، لأنك تخالف ضميرك إلى أو هاتك . .
قال : ولكن السيد المسيح قد أخبرنا بمجيء أنبياء كذبة ، وحلرنا
من الانخداع بهم .

قلت حسناً . . ولكنه إنما حلرك من الكذبة ، ووصفهم لك حتى
لا تخدع بهم ، وأي تحديد لهؤلاء الكذبة أشد وضوحاً من قوله « من
ثمارهم تعرفونهم » فهل تسمى هذه الحقائق العلمية التي جاء بها محمد : .
وهذه النظم التي لا تزال في المحل الأصلي بالنسبة إلى كل ما اكتشفه البشر
من نظم . . هل تسمى هذا كله ثمار الكذب . . ؟

أجل يا عزيزي . . من ثمارهم تعرفونهم ، ومن ثمار محمد يؤمن العقل
بأنه نبي مرسل من عند الله . . أما النبوات الكاذبة فظاهرة للمبصرين ،
وهي بارزة في ثمارها التي خدعت الناس عن الحقيقة قروناً طويلة . وما أحراك
يا صديقي أن تنعم النظر بكلمة (توماس كارليل) في هذا المضمار ، إذ يرد
على الطاعنين بنبوة محمد قائلاً : (لقد أصبح من أكبر العار على متمدين

من أبناء هذا العصر أن يصنفى إلى الطاعنين بالإسلام . . وآن لنا أن نحارب
ما شاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . . كلا . . ما محمد إلا شهاب
من الله أضاء العالم) .

سؤال وجواب : وأسمع اثنين من زملائي مرة يتحدثان في موقف
الإسلام من زواج المسيحية بالمسلم والمسلمة بالمسيحي . .

يقول المسيحي : « لن نعرف طريقنا إلى الخير إلا حين نلغى هذه
الحواجز بين الطوائف فتزوجونا ونزوجكم » . ويقول المسلم : « أنا معك . .
ولا أرى أى مانع لذلك » . وكأنا انتبه إلى وجودى على مبعدة منه فاستدرك
يقول ، وهو يوجه الكلام إلى : هل فى القرآن ما يمنع هذا ؟ ! !

ولم أكن مضطرا إلى المساومة على دينى فقلت : بلى . . وفى إجماع
الامة منذ نزول القرآن حتى اليوم حجة قاطعة على هذه الحقيقة . . بيد
أنتى واثق من أن زميلى الكريم مؤيد الإسلام فى ذلك عندما يتعرف وجهة
نظره .

فقال زميلى المسيحي : وكيف ؟ ! !

قلت : لقد أذن الله لنا بتزوج الكتابية ، بعد أن قضى علينا بتركها
وعقيدتها ، فلا نكرها على الإسلام ، إذ فرض علينا حتى رقة اللهجة مع
الكتابى فقال : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين
ظلموا منهم ٢٩ - ٤٦) فهى كزوجة آمنة على عقيدتها ، لا تسمع من
بعها ما يؤذيها فى ذلك . . وإذا كان المسيح ، وهو مدار إيمانها ، يحتل
فى عقيدة المسلم منزلة النبي المكرم ، وهى أسنى مرتبة يصل إليها بشر ،
فان تسمع إذن من زوجها المسلم فى حقه إلا ما تسمعه فى حق محمد صلى
الله عليه وسلم . . وبهذا ضمن الإسلام للكتابية وسطها الزوجى السعيد ،
الذى يوفر لها كل أسباب الكرامة والهناء . .

وفى تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً ما يريك النماذج العملية لهذا الطراز
الكريم من المعاملة ، فأنت ترى كثيراً من الكتابيات فى بيوت مسلمين ،
لا يزلن على دينهن يلقين إكرام البعل ، ويتلقين إحسان الولد .

هذا شأن المسلم مع النصرانية . . أما شأن المسلمة مع النصراني فإليك
البيان . .

وعددت له أربع نساء يعرفهن ، ولا أدري كيف صرن أزواجاً لرجال
من النصاري ، ثم سألته : هل بقيت واحدة منهن على دينها ! . . وكان
الجواب طبعاً بالنفي ، فقلت : أما السبب في هذا فردة العقيدة يا عزيزي . .
إن المسلمة التي يفرض عليها دينها أن تؤثر محمداً على نفسها وأهلها وولدها
ومالها وكل شيء بعد الله ، لا تستطيع الحياة في وسط لا يتورع عن أن
يرميه بالكذب ! . . وبعد قليل استجد نفسها بين أمرين : الانسلاخ من
الإسلام ، وهذا ما حدث للنسوة الأربع ، أو التخلي عن عش الزوجية ،
الذي جعله اختلاف العقيدة في محمد جحياً لا يطاق . وهكذا ترى يا صديقي
أن الإسلام أحل زواج المسلم بالكتانية بعد أن أمن لها العيش السعيد ، وحرم
زواج المسلمة بالكتاني رحمة بكليهما ، ودفعاً لهذا الشقاء العتيد^(١) .

ولم يرض زميلي بكل ما سمع فقال : ومن زعم أننا نهم محمداً بالكذب !
قلت : لا تغضب . . فنحن في موقف صراحة لا يقبل التلاعب
بالألفاظ ، ولو فكرت قليلاً فيما أقول لذهبت إليه ، ولم نجد مسوغاً
للاعتراض عليه . .

قال : لقد فكرت فلم أجد مسوغاً لاتهامك إيانا بهذا ، وما أنذا كسيحي
أوكد لك أنني أقدر محمداً كبطل قومي ، وكرجل عبقرى . .
قلت : ولكن محمداً يا صديقي لم يدع البطولة ولا العبقرية ، وإنما
ادعى النبوة : فهل تقر له بهذا ! . فقال : أما هذه فلا . .

(١) أذاعت لندن في س ٦ صباح الأربعاء ٩-٩-١٩٧٠ (أن ١٢ إيرانيا حكوا
بالسجن في زنجبار بموجب القانون الذي يلزم أي فتاة قبول أي خاطب غير مصاب بالتدري
الرئوي . وطبيعي أن وراء ذلك تصفية القواعد الإسلامية التي لا تبيح زواج المسلمة بغير المسلم . . .
ومع ذلك فلا صوت يرتفع بالاحتجاج لأن صاحب القانون صديق البشاريين وقاتل آلاف
المسلمين) .

قلت : فأنت إذن تكذبه شئت أو أبيت . . على أنك تسميه مع ذلك
بطلا ! . حقاً إنه لضرب من التقدير العجيب !! .

معجزات : ويحسن بي في هذه المناسبة أن أشير إلى فكرة كثيراً
ما لمسناها في كتب المستشرقين ، ومن هذا حذوهم في بلاد العرب ، فقد وجد
هؤلاء أنفسهم من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أمام حقائق أكبر من
أن تطفىء الأفواه الكاذبة أنوارها الغالبة ، فراحوا يقولون بأن محمداً قد
أخذ هذه العلوم من ذوى المعرفة في عصره ، وسموا من هؤلاء (بحيرا)
الراهب وسلمان الفارسي . وكان الأجلد بالأعداء الجدد أن يتعظوا بإخفاق
أسلافهم ، وأن يستفيدوا من الانتصارات التاريخية التي وصل إليها العقل
الإنساني في ميدان المعرفة ، فجاءت كشاهد حاسم على حقائق هذه الرسالة
الحالدة ، تردد في مسامع الدنيا من جديد قول القرآن المجيد : (سريهم
آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . . أو لم يكف بربك
أنه على كل شيء شهيد ٤١ - ٥٣ ؟) .

وإلا لمن أين لذوى المعرفة من عصر محمد أن يدركوا ما لم تدرك الدنيا
كلها قبل العصر الحديث ، من هذه القوانين الكونية التي تعلم الإنسان أن
لا شيء من لا شيء : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ٥٢ - ٣٥)
وأن القمر منطوى يستمد نوره من الشمس : (ألم تروا كيف خلق الله سبع
سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ٧١ - ١٦) .
وأن الماء هو أصل جميع الأحياء : (وجعلنا من الماء كل شيء حي
٢١ - ٣٠) وأن كل ما تقع عليه حواسنا مؤلف من عناصر ذات نسب
موزونة (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ١٥ - ١٩) . .

وأن قانون الزوجية عام في الكائنات نباتها وحيوانها ومكروبها وكهربائها
(سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما
لا يعلمون ٣٦ - ٣٦) . وأن الذرة التي هي وحدة المادة ، والتي - إلى أمس
القريب - كاد يجمع علماء الأرض على كونها الجزء الذي لا يتجزأ ، هي
خاضعة للزيادة والنقصان ، حتى يكون ما هو أكبر منها وهو مجموع الذرات ؛

ثم يكون ما هو أصغر منها ، وما ذلك إلا جزء الذرة : (لا يعزب عنه مثقال
ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب
مبين ٣٤-٣) . وبذلك يضع القرآن لعقل الإنسان مبدأ تحطيم الوحدة الذرية
للحصول على أجزائها ، كطاقة جديدة في القوى الكونية . . إلى آخر ما هنالك
من عشرات القوانين الطبيعية التي تفتح للعقل طريقا للكشف لا نهاية لها ،
إلا يوم تزلزل الأرض وتزلزلها ، وتخرج أثقالها ، وتحدث بكل أخبارها .
فيكون ذلك نذيرا بنهاية الحياة . . ولن تأتي تلك النهاية حتى يستنفد الفكر
الإنساني كل قدراته ، ويكشف له العالم الطبيعي كل مخبئاته : (حتى إذا
أخذت الأرض زخرفها وأزمنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا
ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن - تسكن - بالأمس ١٠-٢٤)

وقد جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده
لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ، وحتى يكلم الرجل عذبة سوطه
وشراك نعله ، وتخبره فتحذه بما أحدث أهله بعده^(١) . وليس ذلك إلا
إشارة واضحة لما سيصنعه إنسان المستقبل من أجهزة التخاطب التي تبلغ
من الدقة أن تختفي في طرف العصا ، أو في رباط الحذاء . . وقد أذاعت
إحدى المحطات قبل أسبوعين نبأ اختراع ألماني للذخيرة لا تتجاوز حجمها
بلورة الكرز ، وفيها من الطاقة ما يدبر المذياع لمدة خمس سنوات . .
وقد بقي من نبأ الحديث كلام السباع وأخبار الفخذ ، ونحن لا نفهم المراد
منهما ، ولكن الزمن كفيف بإبرازه قريبا أو بعيدا . .

هذه الحقائق في القرآن والحديث كانت كافية - لدى المنصفين -
لقطع دابر اللغو والثروة التي تحاول تجفيف المحيط بالقمع . . وحجب
الأفلاك بإغماض العين ! . ولكنها ليست أبدا كافية لدى العميان من مجانين
التعصب القاتل ، فهم أبدا يبحثون عن مداخل الريب يشيرون غبارها
في طريق الله ، ليحولوا بين توره وعباده . وقد نسي هؤلاء المساكين أن

(١) أخرجه الترمذي عن أبي سعيد . . انظر تيسير الوصول إلى جامع الأصول ج ٤ . .

لعقل الإنسانى الذى بدأ السير فى خط الحرية لن يؤخذ بهذه الترهات إلى الأبد . . . وسيأتى اليوم الذى ينفض به عن عاتقه بقية أغلالهم ، لينطلق نشيطا إلى جنة القرآن .. وإن فى إخفاقهم بإطفاء نوره حتى الآن لدليلا مقنعا على أن للنور حافظا لن يقهر ، وناصرنا لن يكسر : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ٦١-٩) ..

. . .

شبهات :

قدم إلى قسيس من معارفى رسالة كان قد كتبها كأطروحة لنيل إجازة فى اللاهوت يريد منى أن أعطيه رأى فيها . . وكانت الرسالة بحثا فى تاريخ الكتاب المقدس ، قديمه وحديثه ، فلم أجد فيها سوى ترديد لما كتبه بعض رجال الكنيسة ، وبخاصة من المستشرقين ، محاولة لإعطاء هذه الأسفار صفة الثبوت ، عن طريق شهرتها فى العصور القديمة . وأنا هنا لا أحب الدخول فى جدال حول الغموض الذى يحيط بنسبة هذه الكتب : من كتبها . . ؟ ومتى كتبت . . ؟ وأين كتبت . . ؟ وما رأى المؤرخين فيها . . ؟ ولم كان عددها فى الأصل . . ؟ ولماذا أبعد بعضها وأدنى الآخر . . ؟ وما هنالك من الخلاف بين ما يتبناه النصارى منها وما يتبناه اليهود ، ثم اختلاف كل من الطوائف النصرانية والطوائف اليهودية فيما بينها بشأن هذه النسخ أو تلك . . ثم اختلاف الترجمات الرسمية ، وما تعرضت له من تغيير . . إلى آخر ما هنالك مما ألف فيه المجلدات أخذا وردا ١١ . . أجل لا أحب البحث فى شيء من هذا أو ذاك ، ولكن أريد الوقوف عند نقطة من هذه الرسالة شدة ما أضحكتنى . . ولا سيما أننى سمعتها تردد على أفواه بعض الشباب من معارفى النصارى ، وكثيرا ما قرأتها فى كتب مؤلفهم من المبشرين ، وبخاصة المستشرقين الذين يزعمون الإسلام فرعا من اليهودية^(١) .

هذه النقطة هى محاولتها إقناع القارئ بأن كل حقائق القرآن إنما هى

(١) انظر « الإسلام فى نظر الغرب » ص ١٨

من هذه الأسفار ! . . وإثبات ذلك يرد صاحب الرسالة آراء معلميه القائلين بأن مضامينها كانت مترجمة إلى العربية أيام البعثة النبوية . . وقد اتصل بها محمد صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة وتلقاها من أفواه الناطقين بها هنا وهناك ! . . ثم قس على ذلك كل ما يخطر على بالك من الصغائر والكبائر . . .

قلت : إننى سمعت هذه المزاعم من كثيرين من القوم ، وقرأتها في الكثير من مؤلفاتهم .. وكنت في كل مرة أضحك في مرارة أسفا على هذه العقول الراقية أن تسخر طبيعة لترديد أقوال ليس أيسر من تفنيدها وتبيين زيفها ، لو نظر إليها على ضوء النقد التزيه . .

وسأكتفى هنا بإيراد ما قلته في شأنها لأحد الأصدقاء من هؤلاء .

كان هذا الصديق يردد الادعاء بأخذ القرآن عن كتب العهد القديم ، فأفهمته أن الأخذ يقتضى التطابق ، وبكلمة موجزة أن أخذ القرآن عن هذه الكتب يقتضى ألا يخالفها فيما اتفقت عليه حتى أصبح عقيدة مشهورة لدى ملايين المؤمنين بها . . ولو قد اطلعت على تفصيل القرآن لهذه الأخبار لوجدت بونا شاسعا بينها في القرآن وبينها في تلك الكتب ، حتى لتقطع أن منهج القرآن في ذلك كان منهج نقد لمحتويات هذه الأسفار ، وتصحيح لما يراه مخالفا للواقع ، وكمثل على ذلك أذكر قصة سليمان عليه السلام . . ففى كتب العهد القديم أنه ، وهو النبي المختار ، قد أيد عبادة البعل ، وسعى لنشرها فارتد بذلك إلى الكفر . . والقرآن يبرئ سليمان من أمثال هذه الجريمة فيقول : (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ٢١-١٠٢) . . ثم أذكر قصة هارون أخى موسى ، ففى تلك الكتب أن هذا النبي المرسل ، باعتراف التوراة ، قد انتهز فرصة غياب موسى فصنع من العجل الذهبي وثنا لبني إسرائيل ، ثم أغراهم بعبادته ، ثم دعاهم للطواف به كاشفين عوراتهم^(١) . . والقرآن يبرئ هارون من هذه القرية ، إذ يبين أن صانع العجل ، والداعى إلى عبادته إنما هو السامرى ، ولم يكن دور هارون فى القضية سوى تحذير قومه من ذلك الضلال حتى عودة أخيه . .

(١) انظر سفر الخروج ص ٢٢ . . .

وكذلك جاء التباين شديدا بين قصتي لوط في القرآن وفي سفر التكوين ،
فبينما هو في القرآن من أئمة الإنسانية القائدين إلى النور ، المزودين بالعصمة
من كل منكر ، إذا هو في سفر التكوين ذلك السكير الذي تصرعه الحمرة
حتى لا يعي ما يعمل ، ثم تأتي ابنتاه بما لا يخطر على بال أحقر الساقطات ،
إذ تسكران أباهما ثم تضاجعانه بحجة الإبقاء على النسل الإنساني ! . . . كأن
الدنيا لم يبق فيها من الرجال سوى لوط ، ومن النساء إلا هاتان الساقطتان (١) .

وهكذا . . . ومن هذه الأمثلة القليلة يتضح لك أيها الصديق فساد الرأي
القائل بأخذ القرآن عن غير الله : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافا كثيرا ٤ - ٨٢)

وكان طبيعيا أن أسمع من هذا الصديق ساعتئذ قوله : « إذا كان هذا
موقف القرآن من هذه الأسفار فما بالكم تحاكمونها إليها ، وتحاجونها بها ؟ . . . »
قلت : ولكن في هذه الكتب بقية من آثار الأنبياء ، نعرف صحتها
من موافقتها للعقل والقرآن . . . ونحن نلفت نظركم إلى هذه الآثار بخاصة ،
ومن زاويتها ، ومن زاوية العلم والعقل معها ، ندعوكم أن تنظروا إلى القرآن
وإلى محمد صلى الله عليه وسلم . . .

قال : والإنجيل ١٢ . . . قلت : هذه الأناجيل تاريخ حياة السيد المسيح ،
فيها بعض أقواله ، وسائرهما من أقوال كاتبها في وصفه وأعماله . وأنا كفكر
خالى الدهن من سلطان الكنيسة لا يهمني سوى كلماته التي - بما تحمل
من آثار الروحانية العليا ، الموافقة لمقاييس الحق - تدلني على إمكان صدورها
منه . ونحن إذا احتجاجنا بالإنجيل فإنما نحاجكم بأقوال المسيح ، بغض النظر
عن كل قول آخر ، وإلا فكيف تطالبنا بالتسليم لهذه الكتب على علاقتها ،
وهي موضع الأخذ والرد لدى مفكريكم أنفسهم ! . . . وهذه دائرة المعارف
البريطانية تعطى حكمها القاطع بأن إنجيل يوحنا منحول ، بل تقول : إنه
(مزور أراد صاحبه إيجاد التعارض بين اثنين من الحوارين هما يوحنا ومتى) .

(١) سفر التكوين ١٩-٢١-٢٨ . . .

وهذا حكم لا نستطيع رده بسهولة خصوصا عندما نذكر أن خمسمائة من أكبر علماء المسيحية قد اشتركوا في تأليف هذه المعلمة ١ .

وسرعان ما رأيت صاحبي يضحك ملء فيه ثم يكرر قولة غيره : ومع ذلك فإنكم تخطئون جداً حتى عندما تناقشوننا بالأناجيل أو بأقوال المسيح . . فالمسيحية يا صاح إنما هي مجموع قوانين الكنيسة ، التي هي وحدها صاحبة الحق بالحكم في مثل هذه القضايا . . .

...

عقوبة خاصة :

« الكنيسة هي وحدها صاحبة الحق » هذه الكلمة التي ختم بها صديقي محاورته ، قد أعادتني مرة أخرى إلى صميم البحث ، فوجدتني مشدود النظر إلى هذه الحقيقة الرهيبة : حقيقة الفرق بين مقياس الإسلام كما أفهمه ، ومقياس المسيحية كما يفهمه صديقي .

لقد افترق المسلمون سبعين فرقة ونيفاً ، وكان لأصبايل الشعوب الغابرة أثرها الفعال في هذا التقسيم ، ثم مضت قافلة الزمن فسقط في الطريق من لم يستطع السير ، وخلص إلينا حتى اليوم بقية من هذه الجماعات ، على رأسها أهل السنة والشيعة . . ثم حفلات صغيرة اختطفها الأهواء والمحاكاة العمياء من أحضان القرآن ، فهي لا تنسب إلى الإسلام إلا بمقدار ما تقتضي مصلحتها العابرة ١ .

والسنة والشيعة متفقتان على أصول الإسلام الكبرى . . وقد يكون بينهما من الخلاف ما يكون . . ولكن المهم أنهما يلتقيان على القرآن والسنة ، حتى أن الشيعة في نظرتها السياسية إنما تحاول الاحتجاج بالقرآن والحديث . وقد أصبح معلوماً بالبداهة أن كل خلاف ، مهما تكن شقته بين هاتين الجماعتين ، يمكن حله بالرجوع إلى هذين الأصلين ، وذلك لسبب واحد هو أن المنحرفين من الهوى يدينون بأن لا عصمة لغيرهما من النصوص ، وأن كل قول لأي قائل مهما تكن منزلته ، خاضع لهذا المقياس محكوم به . .

ولقد تبلى تفكير الكثيرين من المسلمين منذ عصور الانحطاط . . وجمدوا على تقاليد يجثرونها مما أخذوه من فلان وفلان من الصوفيين

والمُتأخِرِينَ . . . ولكنهم مع ذلك مؤمنون في أعماق وجودهم أن الحكم الأول والأخير هو ما قاله الله ورسوله . . . ولا وزن لأي كلام غيره ، إلا بمقدار ما ينبثق عن هذا المنبع . . . ومما اتفق عليه أئمة المسلمين في كل عصر هذا المبدأ المشهور : (ليس لأحد أن يقلدنا ما لم يفهم من أين أخذنا . . .) (ومهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل . . . فيه عن رسول الله خلاف ما قلت ، فالقول ما قال رسول الله وهو قولي . . .)^(١) . . .

وهذا يعني في الإسلام أن مهمة الأئمة وكبار الفقهاء تيسير السبل أمام الأمة . . . للأخذ المباشر عن الكتاب والسنّة .

وكان طبعياً أن تكون هذه نفسها مهمة رجال الكنيسة : مساعدة أتباعهم على فهم أصول المسيحية الثابتة فيما صبح من كلام المسيح والأنبياء السابقين . . . أما أن يكونوا هم الأصل فذلك شيء لا أحسب منطقاً في الدنيا قادراً على هضمه ! . . .

لقد نسي هؤلاء المحترمون أن الإنسان هو الإنسان ، سواء كان قديساً أو رجل شارع . . . خاضع أبداً لمؤثرات الطبيعة والهوى والموروثات وعوامل الثقافة وما إلى ذلك . . . فهو — مهما يدع التجرد للحق — غير قادر على التثبت في الحق ، ما لم يكن في يده المقياس الكشاف الذي لا يفوته تسجيل أدق الانحرافات ، وبخاصة في الحقائق الدينية التي تفقد كل قداستها وعصمتها بمجرد الانقطاع عن أصولها الإلهية الثابتة .

هذه حقيقة كثيراً ما جربها هؤلاء المحترمون ، ولو هم قد التفتوا قليلاً إلى الوراء لأبصروا ركّام الأخطاء التي أثقل بها أسلافهم عاتق المسيحية خلال التاريخ . . . في حروبهم الصليبية ، وفي مذابحهم الدينية ، وفي محارقهم البشرية ، وفي محاولتهم صد تيار العلم والمدنية ، وفي أكدهم المراسم التي أصدروها لدعم سلطان الطواغيت ضد الشعوب والطبقات العاملة ،

(١) من كلام الإمام الشافعي . وبدافع هذا الأصل هب بقية الصالحين من علماء الإسلام لمناقشة شيخ الأئمة في رأيه الذي طلع به على المسلمين في موضوع الربا ، إذ رأوا في اجتهاده انحرافاً عن مدلول النصوص المقدسة . وهذا الباعث ناقشنا خلفه فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود في بعض ما ورد في كتابه (أبو ذر والاشتراكية) وناقشه غير واحد من العلماء في أكثر من كتاب له

وهم يحسبون أنما يفعلون ذلك كله خدمة للمسيحية . . . وانقاذاً للإيمان . . .
ثم لم يكتشفوا هذه الأخطاء إلا بعد تمزق المسيحية ، وارتفاع قبضتهم إلى
الأبد عن كثير من أممها ودولها ١١ .

* * *

بقايا الفتن :

ويا ليت أصحاب السيادة الوارثين لأولئك الآباء الغابرين ، قد اتعظوا
بأنخبار أسلافهم ، فعمدوا إلى تدارك ما فات ، ولو هم فعلوا لأنكروا
الكثير مما يوقده بعضهم حتى الساعة من نيران الأحقاد بين العباد ، ولكان
مستحيلاً أن ترى حتى اليوم مذابح إيرلندة الشمالية بين الكاثوليك والبروتستانت
ولاستحال علينا أن نشاهد في إحدى كبريات الكنائس الأمريكية مثلاً رسوماً
لموسى وعيسى وبوذا يضيئون طريق البشر بالنور . . . وعلى مقربة منهم
رسم رمزي لمحمد صلى الله عليه وسلم يعمل سيفه في رقاب الناس^(١) . . .

ولم نذهب بعيداً إلى إيرلندة وأمريكا ؟ . وفي كنيسة ما ببلبنان ما هو
أشد وأدهى ، فإن الزائر لهذا المعبد لا يفوته أن يرى على يمينه تلك اللوحة
التي تمثل وحشية الدروز وهم يعملون الحجارة والعصى والأدوات الفاتكة
برؤوس الشيوخ من الموارنة (الأبرياء) . . . لتكون ذكرى لا تمحى
للمذبحة الستين ، تلك الفتنة التي أصبح واضحاً جداً لدى جميع البشر أنها
مؤامرة الغرب ، الذي ضرب أبناء البلاد بعضهم ببعض كي يستثمر الفتنة
لأغراضه الاستعمارية . . .

وطبيعي أن الروح التي أوجت بعرض هاتين اللوحتين هنا وهناك لم تكن
يرمى إلى خير الإنسانية ، وإنما قصدت إلى تأريث الأحقاد إلى الأبد ،
في نفوس المرتادين لمذبح المعبدين . . . فاللوحة الأولى ضد محمد ومن ورائه العالم
الإسلامي ، الذي لا يمثل بنظر أصحابها سوى ضرب من الوحشية المتحجرة . . .
والثانية ضد الدروز الذين لا يستطيع المصلح في تلك الكنيسة أن ينسى ،

(١) من مقال لجيمس ميشيل في عدد شباط ١٩٥٥ من مجلة « المختار » . . .

وهو ينظر إليها ، أنهم هم الذين قتلوا جده ، وربما استأصلوا أصوله
في ذلك اليوم البعيد . . . !

وما أحسب إنسانا ذا حس نبيل يستطيع أن يمنع نفسه الاشمزاز أمام
هذه القلوب الخربة ، التي تدفع أصحابها ليحيلوا بيوت الله مواطن لإثارة
الضغائن والمؤامرات ضد سلام الإنسانية (١) ! ! . . .

ولعمرك ما كان لمايكل روهان أن يقدم على إحراق المسجد الأقصى
المبارك ، لولا الإيحاء الديني الذي ملأ صدره إيمانا بأن الله يأمره بهذه
الجريمة . ومن هنا نستطيع أن ندرك السر في إخفاق الكنيسة دون التخفيف
من فواصل الألوان في العالم الغربي ، حيث لا يزال مفهوما أن اعتناق
المسيحية من قبل الشعوب الملونة لا يعطيهم حق التطلع إلى مرتبة الإنسان
الأبيض . . . حتى ولا في حق التعليم . . . وإني لأكتب هذه السطور وفي
رأسي بقية من دوى المذيع الذي كان ينشر قبل لحظات أنباء الحرب اللونية
في أمريكا ، حيث لا يستطيع طفل ملون دخول المدرسة إلا في حماية
الجيش ! . . . وفي لندن حيث يهاجم الملونون - من رعايا الكومنولث -
على مشهد من رجال الأمن ، وتخضب الأرض بدمائهم ، لا للذنب سوى
ما أفرغه الله على جلودهم من أصباغ لا تروق عيون الجنس السيد . . . !

إنها لبقية الوثنيات الغربية التي قسمت العالم قبل المسيح إلى سادة وعبيد .
ثم جاءت المسيحية المظلومة تفرغ على هذا التقسيم - بلسان الكنيسة -
لونه الشرعي . . . الأمر الذي لم يعرف له التاريخ أثرأ في العالم الإسلامي ،
حيث اعتبرت الهوية الإسلامية منذ اليوم الأول سببا كافيا لأخوة كاملة ،
لا فضل فيها لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . . .

* * *

بطولة العقيدة :

ولقد رأينا مما أسلفنا الكارثة التي ألت بالمسيحية ، منذ اليوم الذي
امتزجت فيه بتمحلات أفلوطين ، فكان ذلك باعثا فعلا زين لمثلها
الرسميين أن يتبنوا الكثير من الأفكار الدخيلة ، وبخاصة تلك الجدليات

(١) ونزل تهديم المساجد وطمس معالم القرى الإسلامية أثناء الحرب الأهلية في لبنان إحدى
ثمرات هذه الآثار . . .

التي حملها إلى المسيحية شعوب الإمبراطورية الرومانية ، ثما لبثت أن جعلت من العقائد النبوية البسيطة الواضحة رموزا معقدة ، لا سبيل إلى حلها عن طريق العقل أو الفطرة ! . .

ولعمري . . لقد كاد هذا السبيل أن يكون مصير الإسلام نفسه منذ عصر المأمون ، لولا عناية الله التي تداركته يبطل العقيدة الإمام الصابر أحمد بن حنبل ، وإخوانه الثابتين على عهد الله .

إن الناس ليقروئون أنباء الصراع بين السنة والمعتزلة ، ويعجبون بقوة الاحتمال التي قابل بها ذلك الإمام سياط جلاديه من المعتزلة زمنا ليس باليسير . ولكن قليلون منهم الذين فقهوا أسرار ذلك الصراع ، فعلموا أنه كان صراعا بين الفلسفة والنبوة . . بين النبوة التي تريد أن تحفظ للإنسان فطرته سليمة من كل انحراف أو تشويه ، وبين الفلسفة التي تأتي إلا إفساد هذه الفطرة بذلك الترف العقلي ، الذي لا يتقبل الحقائق إلا ملفوفة في الأكفان ! . .

وبتضحية الإمام وعظمة احتماله ، وجرأته العجيبة على قذف كلمة الحق في وجوه الخلفاء المخدوعين ، والشيخ المضلّين ، تنبه العالم الإسلامي إلى ما يراد بدينه من قبل هذه الوثنية اليونانية الحبيثة ، التي تسالت إليه باسم الفلسفة ، لترد الإنسانية إلى جاهليتها الأولى . . وبذلك استقرت العقائد الإسلامية في مستواها النبوي الأعلى ، تاركة مجال العبث لأولئك الصبية الكبار من ضحايا السفسطائية الأعجمية ! . ولكم كانت المسيحية في حاجة إلى بطل صبور كأحمد ، يذل نفسه البريئة للعذاب إنقاذا لأمانة الله ، التي وضعها في عتق الأحرار من أولى العلم والعزم . .

ونحن حين نقول هذا لا ننكر تلك البطولات المحيية التي عرفها تاريخ المسيحية في توضحيات آريوس وأنصاره الأولين من دعاة التوحيد، المناضلين ضد تسلط الأفلوطينية على كنيسة المسيح . . ولا ننسى كذلك انتفاضة كلفن ولوثر وإخوانهما ضد طغيان الرئاسات الدينية وشذوذها عن طريق الإنجيل . . ولكن المسيحية المظلومة لا تنفك في أشد الحاجة

إلى بطولات أخر ، تكمل طريق آريوس^(١) وتولستوى^(٢) وسوسينوس^(٣) حتى تستعيد حقائقها التي سلبتها الفلسفات والانحرافات . .

* * *

حديث جمجمة :

« . . في صبيحة اليوم وقعت عيني على جمجمة بشرية فوق أحد الأرف من المدرسة ، وكثيرا ما لمحتها هناك من قبل ، ولكن لم أجد نفسي قط مشغولة بها كما هي اليوم ، وفجأة رأيتني أتساءل : لمن هذه الجمجمة ؟ . . »

(١) كان آريوس قسيسا من الإسكندرية أوائل القرن الرابع الميلادي .. وكان على رأى الجماعات القائلين بوحداية الله وأن عيسى عبد مخلوق بعثه الله برسالة التوحيد ، وقد انتشر هذا الرأى أيامذاك في أكثر الأوساط المسيحية ، كصر والشام وفلسطين ومقدونية والقسطنطينية . . ويمثل أتباعه الأكثرية الساحقة بين المسيحيين . . وقد عقد في أيامه أعظم المجمع المسيحية أورا وهو مجمع « نيقية » حيث تجاوز المهتمون الألفين من كبار رجال الدين ، وقد انقسموا شيئا كل واحدة لها رأيا في المسيح ، ولكن شيعة آريوس كانت هي الغالبة ، إذ تجمع حوله أكثر من سبعمائة من القسس يقولون : إن الأب وحده - ويريدون الإله المستحق للعبادة - هو الله . . والابن - يريدون الذي اختاره الله لرسالته - كائن مصنوع ، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن . . ولقد كان مأمولا أن ينتصر رأى آريوس لولا تدخل قسطنطين الإمبراطور ، الذي وجد رأى القائلين بالوهية المسيح على قلوبهم أقرب إلى أفكاره ، وبخاصة أنه لم يكن قد تنصر بعد . وهكذا عطل قسطنطين إذ ذاك اجتماع القوم ، واعتبر المؤتمر مؤلفا من مؤلفي المسيح ، الذين لم يكن عددهم يتجاوز ثلاثمائة وثمانية عشر . . وقد ترك هؤلاء أن يتخذوا القرارات التي فرضت فيما بعد على العالم المسيحي كله . أما هذه القلة فقد كان على رأسها بطريرك الإسكندرية الذي كان مشبعا بأفكار المدرسة الفلسفية ، وقد أبى أن يواجه خصمه آريوس بالمناقشة الحرة وجعل يحذر الناس منه . . ومن ذلك اليوم دخل أتباع آريوس في معركة مع النولة الرومانية ، وبجانها كل رجال الدين الذين تجردوا لمحاربة الموحدين والإجهاز على دعوتهم ، دون أن يتاح لهؤلاء مجال الدفاع عن أنفسهم بحرية . . حتى خفت صوتهم ولكنه لم ينقطع نهائيا حتى هذه الساعة .

(٢) هو الأديب الفيلسوف الروسي الكبير ، تناول بالبحث عقائد المسيحية كما هي اليوم فخرج بالقول أن حقيقة المسيحية قد حجبت بالتفسير والتشويش التي شوهت وجهها وأخفتها عن الأبصار . . ويتم بولس بأنه لم يفهم تعليم المسيح ، فزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، ويقول أيضا: إن القائلين بالوهية المسيح ليس لهم سند حقيق من أسفار موسى ، ولا من الزبور ولا من أسفار الرسل .

(٣) هو مؤسس الفرقة الصوفية الذين انشقوا على كنيسة رومة إبان القرن السادس عشر ، إذ أنكروا عقيدة التثليث وتأليه المسيح ، وفادوا بالتوحيد الحق ، فبطشت بهم الكنيسة ، وفر بقيتهم إلى سويسرة ، ثم لاذوا بشرق أوروبا حيث شرعوا في إذاعة عقيدتهم . . وتابعهم في ألمانيا طائفة الأناباست الذين محققهم الكنيسة أخيرا . . .

من صاحبها ؟ . . أذكر أم أنى ؟ . . أصالح أم فاسق ؟ . أطاغية من الظالمين أم صعلوك من المظلومين ؟

ولكن عبثا بحثت عن الجواب ، لأن الهوية الوحيدة التى تحملها هى أنها جمجمة بشرية مجهولة . . ولا شيء غير ذلك .

وفى ظهيرة هذا اليوم جاءنا نعى هذا الزميل ، فامتطينا السيارات لاستقبال تابوته . . وفى الطريق التقينا بمواكب من القرويين خرجت فى زينتها للاحتفال بعرس ، فلم أتمالك قشعريرة سرت فى كيانى . . ثم وجدتني مسوقا إلى هذا التساؤل الحائر : جمجمة بشرية مجهولة الهوية . . ومواكب تزحف إلى العرس . . ونحن إلى أين ؟ إلى استقبال جثمان زميل ! . . »

هذه لعمري قصة الحياة . . عرس يعقب ولادة . . ولحظة من الزمن كالحلم الخاطف يسمونها الحياة ، لا تلبث أن يطاردها الموت ، ثم ماذا . . ؟ ثم هذا المصير الرهيب الذى يتمثل فى جمجمة مجهولة .

ما أرخص هذه الحياة . . وما أوجع هذه المأساة ! . ولكن . . مهلا . . أهذه هى الحياة كلها حقاً . . ؟ لأن كان الأمر كذلك فما أجدر الناس بتعجل الانتحار تخالفا من هذه المهزلة . . التى تفتح فيها ضاحكة من غرور الأحياء جميعا .

وهنا خيل إلى أنى أسمع هاتفا من وراء الغيب يقول : « أجل . . هذه هى الحياة كلها . . عندما تقف بأبنائها عند حدود المادة . . عند حدود هذه الجيفة التى يتنازع عليها الأغنياء . . ولكن مستجدونها شيئا آخر يموج بالجمال ، حينما تنفخون فيها أيها البشر من ذات قلوبكم ، حينما تملثونها من معانى السماء ، فتستحيل بحبة الله وبمعرفته اشراقة من نور لا يعتورها انطفاء . . ويومئذ فقط تدركون أنكم تملكون الحياة التى تنبثق من الأزل لتصب فى الأبد ، الحياة التى لا يلم بها فناء ولا اضمحلال . . الحياة التى لا يكون فيها الموت إلا مرحلة انتقال من الوجود المحدود ، إلى الخلود الذى ليس له حدود » .

هذه العبارات تلخص كلمة ألقيتها ذات يوم تأيينا لزميل مسيحي ، وكان الجمع حاشدا يملأ المكان ، ويزدحم به الشارع المقابل .

ولقد شعرت يومئذ أن آذان هذه الآلاف جد مرهفة إلى كلمتي ،
تتلقفها في صمت وتتبع . ثم تبين لي فيما بعد أن كثيراً من الأذهان قد
احتفظت بأثرها ، وحتى اليوم لا أزال أجد من هؤلاء من يتحدث بهذه
الأفكار ، ويذكرني بها كلما تعرض لي به لقاء . . . وكان هذا وحده كافياً
لإقناعي بأنه لم يزل في قلوب الناس زوايا لا يملؤها سوى هذه المعاني
الروحية ، وأن في هذه الزوايا مفاتيح الأنجوة التي أودعها الله فطرة الناس ،
لتجمعها على الحق بين الحين والحين .

فيا شباب المسيحية :

بهذه المعاني أطرق اليوم أبواب قلوبكم ، وإني لسعيد إذ وجدت
استجابة من وراء هذه الأبواب .

أناشدكم الله أولاً أن تنزعوا عن عقولكم قيود التقليد لأي كان ،
وأن تذكروا أن لأحدنا أن يحب نفسه وأهله وأصدقائه ومن فوقه ومن
تحتة ، ولكن لن يكون العاقل الحر حتى يكون الحق أحب إليه من كل
هؤلاء . . . وأذكركم ثانياً بهذه الحقيقة التي كفر بها معظم البشر في هذه
الأيام ، وهي أن الإنسانية المتناحرة المتسابقة إلى التفتان والدمار ، والغارقة
في وحول العصبية العمياء ، لن تعرف طريقها إلى الاستقرار ما لم تعرف
نحن أتباع الأنبياء طريقنا إلى ضميرها . . . والطريق يا شباب هو تجديد إيماننا
بالله ، ثم تصحيح نظرتنا إلى الدين . . . ثم نشدان الحق في حرية ملتية لا تعرف
فتوراً ولا مهاودة ولا مجاملة . . . فإذا فعلنا ذلك استطعنا أن نحمل هذه البشرية
الجائرة الضائعة مصباح السماء من جديد ، فنردها إلى جنة الحب التي أخرجها
منها الشيطان ، منذ اليوم الأول الذي فقدت فيه معاني الإيمان الصحيح .

ولا شك أن هذا التحرر سيكلفنا الكثير . . . غضب الجامدين الذين
حولوا الدين الحي إلى رموز ميتة لا تتجاوز حركة الشفاه والأصابع . . .
ونقمة المحافظين الذين استحال الدين عندهم إلى عصبية حزبية ، لا يهتمهم
منها إلا استبقاء قوة الطائفة . . . ولو على أشلاء الإنسانية كلها . . . ولكن
ذلك يسير جداً بالنسبة إلى ما يفرضه الواجب ، وبالقياص إلى ما تحمله
قبلنا أبطال الحرية من أعباء التضحيات .

إن الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو نقطة الانطلاق في طريق الإنقاذ . . . وهو أمر لا يتطلب إلا شيئا واحدا هو أقل تكاليف الحرية والرجولة ، ذلك أن نطلق ضمائرنا من أغلال التعصب الموروث ، لننظر بأعين رؤوسنا إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . . وإلى سيرته . . . ويومئذ ستعلمون أن هذا العربي (الذي حطم الأصنام ، وأنشأ ديننا خالصا لله الواحد ، وحرر النساء من العبودية ، ودعا إلى العدالة الاجتماعية العامة) (١) والذي شهد للمسيح بالنبوة والبراءة من كل وصمة نبزه بها أعداء الحق ، والذي أحيا الشعور بوحدة الإنسانية إذ أحيا من جديد روح الإيمان بوحدة الرسالات النبوية جميعا ، حتى بات كل واحد من أتباعه يؤمن بأنه حلقة في سلسلة الإنسانية الكبرى ، وواحد من أتباع النبيين كافة ، لا يقبل الله منه إيمانا ولا عبادة حتى يؤمن بالمسيح وموسى وإبراهيم وإخوانهم ، كما يؤمن بمحمد تماما . أجل . . . يومئذ ستعلمون يقينا أن هذا العربي الممتاز هو أحق خلق الله بحبكم وتمجيدكم واستجابتكم . وكيف لا يكون كذلك وقد أرسل بالدين الذي يشتمل على جميع المثل العليا والمبادئ السامية التي لا نظير لها في أي دين آخر ، والتي هي كفيلة بمنح أتباعه الحق في قيادة الأمم وزعامة الشعوب عن جدارة واستحقاق (٢) .

وحسبكم أن تتذكروا أن الإيمان بمحمد بالنسبة إلى المسيحي الفاضل هو كإكمال المادة في امتحان الشهادة ، إذ يكون قد ربح بذلك معرفة نبي هو خاتم النبيين ، وانتفع برسالة هي خلاصة رسالات السماء ، صانها الله من كل تبديل وتغيير ، كما شهد بذلك أولو العلم في الشرق والغرب ، إذ أعلنوا على اختلاف أزمنتهم وأمكنهم أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي انتهى إلينا سليما كما أنزله الله على رسوله ، تحقيقا لوعده الكريم (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ١٥ - ٩) .

(١) من مقال لجيمس ميشر في المختار عدد أيار ١٩٥٥ . . .

(٢) من كلام العلامة الألماني « فارنو » في كتابه « يقظة العالم الإسلامي » الصادر عام

١٩٥٤ ، وقد نشرت مجلة الأزهر عنه دراسة وافية بقلم الدكتور محمد غلاب عدد شوال ١٣٨٠ هـ .

إلى كلمة سواء :

يا شباب . . إن لكم من شواهد العلم المؤيد لحقائق القرآن ، ما يزيل كل ريب في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما يجعلكم مسئولين أمام الله عن كل تردد في التصديق برسالته . . وقد ذهب الزمن الذي كان يستسيغ تكذيب هذه الحقائق ، وأصبح المعقول عند أولى العقول أن لا يفر من هذا الإيمان إلا جامد على تقاليد ميتة ، أو مائع منحل قد أعلن سقوطه في امتحان الرجولة . . وإني لشديد الثقة بأنكم يوم تفتحون قلوبكم لهذه الحقيقة ستكونون الدم الجديد في وريد البشرية المحطمة ، واللسان البليغ المبين في الدعوة إلى وحدة الإنسانية المهشمة .

وحسبكم يومئذ شرفا وسعادة أن تكونوا حملة اللواء في موكب الإنسانية . . تتقدمون وملء صدوركم اليقين بأنكم في الطريق الأمين إلى سعادة الدارين .

اسمعوا إلى أخ لكم من أتباع عيسى يحدثكم عن أثر محمد (صلى الله عليه وسلم) في قلبه : « لقد كان يسير ذات مرة في شارع - كاتر فاج - على مقربة من جامع باريس ، بعيد الخاطر عن أرضه اللبنانية ، وإذا بتكبرة تنطلق من المئذنة ، وتتعالى على الجليلة الباريسية ، فكانت بغتة حلوة ملأت فؤاده . . فلم يتمالك أن حول طريقه وغشى باحة المسجد ، حيث قضى بعض الساعة بين تلك القناطر والقبب ، وكأنه في سربه في لبنان ، ينظر إلى منازلهم ، ويصغى إلى أحاديثهم . . على أن بينه وبينهم سماوات ومفازات ٢٢ » (١).

ان هذا والله لقبس من المشعل الذي أضاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) طريق العرب ، أزال وحشة الغربة ، وحطم حدود الزمان ، فأشعر هذا الماروني ، وهو في عاصمة فرنسا المسيحية ، إنه أقرب ما يكون إلى ذلك المؤذن الذي يعيش معه بقلبه ولغته . . أبعد ما يكون عن ذلك البلد الذي يعيش فيه بجسده وحده .

(١) من مقال للشاعر اللبناني أمين نخلة . . .

أجل . . إنها العروبة التي حفظها الله بالتى العربى صلى الله عليه وسلم ،
فحفظ بها تلك القربى التي ترد الأنس المفقود إلى ذلك المنيحي الغريب ،
في البلد المنيحي البعيد .

ثم اسمعوا إلى عبقرى الشام العلامة فارس الخورى ، يؤكد لكم وللعالم
كله : « أن محمدا أعظم عظماء العالم ، لم يجد التاريخ بمثله ، والدين الذى
جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها . . يحتوى على أربعة آلاف مسألة
علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف
بفضل الشريعة التي دعا الناس إليها باسم الله لأنها متفقة مع العلم ، ومطابقة
لأرقى النظم والحقائق العلمية . . »

ولا تنسوا وأتم تقرؤون هذا الكلام أن قائله كان ألمع رجال القانون
في سورية ، والرجل الذى أدهش العالم بحججه الحقوقية ، أثناء نضاله عن
فلسطين في مجلس الأمن وهيئة الأمم ، ورئيس اللجنة القانونية الممثلة لجميع
دول العالم المتمدن . .

على أننى مرة أخرى أقول لكم : إنكم لن تستطيعوا الانتفاع بشيء
من هذا حتى تتحرروا من كل عبودية لغير الله . . وحتى يكون الحق أحب
إليكم من كل شيء سواه .

أيها الشباب :

إننى أخص نداءى هذا بكم وحدكم ، لأن الشباب وحده القادر على
التكيف مع الواجب حين يؤمن به ، مهما خالف طريق السابقين من الآباء
أو الأقرباء ، ولأن الشيوخ قد لصقوا بالماضى حتى صاروا امتدادا له ،
فليس من سبيل إلى إيقاف عقولهم لمناقشته ، ولا سبيل إلى ضياعهم لأنها
حجبت تحت ركाम الاستسلام الضريع فلا طاقة لهم بالشك فيما ورثوه ،
ولا يخطر على بالهم الانسلاخ مما ألفوه . . إن الشباب الحى هو وحده
موضع الأمل بإعادة النظر في هذه التقاليد التي فرضت عليه في غياب إرادته ،
دون أن تسندها دعامة من تاريخ أو رواية سليمة ، وإنما هي اندفاعات
آنية أرسلتها السنة لم تقم وزنا للتبعة الإنسانية ، ولم تفكر قط بحقوق الأجيال .

لقد رأيتم مثلاً من ذلك في القرار الذي أعلنه حضرة البابا على مئات الألوف من زوار الفاتيكان قبيل سنوات قليلة ، والذي يفرض على أتباع الكاثوليكية أن يؤمنوا بارتفاع العذراء إلى السماء ، دون أى سند من شهادات التاريخ الذي لم يسمع قبل هذا القرار بشيء من ذلك قط .

وها أنتم أولاء تشهدون اليوم قرار خلفه الجديد عن تبرئة اليهود من دم المسيح . . وهو بدعة ردت كل ما ذهب إليه رجال الكنيسة خلال التاريخ في هذا الشأن .

لقد قررت كتبهم المقدسة ، وتفسيراتهم المستمرة أن دم المسيح في عتق كل يهودى منذ يهوذا الاسخريوطى حتى نهاية البشرية ، وهو تقرير قد يكون ظالماً ، وقابلاً للاعتراض ، ولكن قرار اليوم على كل حال خرق فاضح لأفكار المؤسسين لهذا الدين . . يفاجئ الناس بهذه الحقيقة وهى أن القوم لا يرون أى بأس في أن يتقضوا اليوم ما شادوه بالأمس ، سواء كان ذلك حقاً أو باطلاً . . وهذا كاف لتفريغ مقرراتهم من أى حق بثقة العقلاء .

* * *

شياطين السياسة :

وطبعي أن المؤتمر المسكوني الذي أقدم على إعلان هذا النقض الجريء لم يفعل ذلك بدافع التقدير للحقيقة والإنصاف للأبرياء . . وإنما دفع إلى ذلك دفعا بأيدي شياطين السياسة الذين يريدون تجميع العالم المسيحي في كتل صليبي جديد ، وراء الخلب الذي يسمونه إسرائيل . . و فرق بعيد بين تأييد ينهض به الساسة في البيت الأبيض والدوننج ستريت والكرملين ، وآخر توازره أمم الصليبية باسم الدفاع عن أبناء عموماتهم الذين يشاركونهم في قرابة المسيح ! .

إن المسلمين يا شباب ، لن يضيرهم أن يصب العالم المسيحي لعنته على فئة من اليهود بعينها ، أو على اليهود بأجمعهم ، بالنسبة إلى موضوع المسيح ، لأنهم مرتاحو الضمير من هذه العقد المفتعلة ، فهم مطمئنون إلى

أن المسيح لم تمتد إليه يد المجرمين من الرومان أو اليهود بل رفعه الله إليه ،
بعد أن ألقى شبهة على عدوه الذي أراد به كيدا فجعله من الأخسرين ،
ولكن الذي يؤلم المسلمين أن تتحرك الفتنة الصليبية مرة أخرى باسم
المسيح ، وبنفس الأيدي التي أوقدتها من قبل ، ثم لا تجد هذه الأيدي
من استنكار أحراركم سوى أصوات ضئيلة لا تتجاوز أصابع اليد .

يا شباب المسيحية . . لقد كانت الشعوب التي استجابت لبطرس
الناسك ، رائد الحروب الصليبية الأولى ، معذورة بجهلها ، وبعدها من
المعرفة والإدراك ، فما عذركم وأتم أبناء المعرفة والثقافة ، بإزاء هذه الجريمة
الجديدة ، التي يقودها اليوم من يسمون أنفسهم بالمؤتمر المسكوني ، ولا غرض
لهم من ورائها سوى تعبتكم وإخوانكم لتكونوا كآبائكم السابقين ، وقود
النار الجديدة التي يعدها هؤلاء المحترمون لإبادة المسلمين ، وإطفاء نور
الله الذي فتح أعينكم على الحقيقة المطموسة ، ونصب لعقولكم الموازين التي
بها تفرقون بين الحق الأبلج ، والباطل الأعرج .

قولوا هؤلاء المحترمين أن قراركم الأخير إنما يبرئ اليهود من جريمة
وهمية ، شهد الله قبلكم ببراءتهم منها في كتابه المعصوم من كل تحريف ،
وشهد بشهادته ستمائة مليون من المؤمنين بهذا الكتاب العظيم ، فلا قيمة إذن
من هذه الناحية لاعترافكم الذي جاء متأخرا . . . ولكننا نقول لكم : إن
جريمة اليهود الواقعية المشهودة في اعترافاتهم اليومية ، والمسجلة في كتبهم
التوجيهية ، إنما هي اتهام العذراء بالزنى ، ووصف المسيح رسول الله بأنه
وليد زانية . . . فهل تجروئون على تبرئتهم من هذه الجناية الكبرى ! . . . لقد
برأتم يهود اليوم من جريمة مزعومة حصرتموها في حفنة من أجدادهم ذهبوا
قبل ألقى سنة ، فما موقفكم من جريمة حقيقية يقترفها كل يهودي صباح
مساء حين يوجه إلى المسيح وأمه مثل هذه الشنائع ! . . . وبديهي أن قلنا
كهذا إنما يصور واقعا نفسيا يغلى بالأحقاد ، التي لا تتورع أن تدفع بصاحبها
إلى ارتكاب أخط الجرائم ضد المسيحية وأهلها . . . فهل سألتكم أنفسكم عن
ذلك كله حين تبرعتم بتوقيع قرار البراءة المزعوم ! . إنكم بقراركم الساذج

لم تصنعوا شيئاً سوى تأكيد ما زعمه اليهود أنفسهم من أن (يهوه) لم يخلق
المسيحيين إلا ليكونوا مطية للجنس اليهودي المختار ، ومع ذلك فستكون أولى
نتائج هذه الاستجابة أن تسوقوا شعوبكم المخدوعة إلى مؤازرة العدو الحقيقي
- اليهود - ضد المسلمين الذين هم وحدهم شهود البراءة للمسيح وأمه ،
لأن دينهم يوجب عليهم أن يرفعوها إلى أسمي ذرى الفضيلة . . فبالله عليكم
أليس منتهى الخطل بل الجنون أن تكتلوا أئمتكم لدعم الطاعنين بالمسيح
والعذراء بوجه المزهين لهما ، المؤمنين بطهرهما ! (١) .

يا شباب المسيحية (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . . ألا نعبد إلا
الله ، ولا نشرك به شيء ، ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله . . فإن
تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون) ٣ - ٦٤ .

(ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من
المسلمين) ... (وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)
٤١ - ٣٣ و ٣٥

وأخيراً اصغوا معي في تأمل عميق إلى هذه الانتفاضة الفطرية ، تطلقها
امرأة مسيحية ضاقت ذرعاً بما كانت عليه تحت كابوس العبودية لغير الله ،
فلاذت أخيراً بكنيسة التوحيد التي ترفض أن تتهم المسيح بما هو منه براء ،
وتأبى له إلا ما وصف به نفسه يوم ناجى ربه بقوله الكريم : (وما الحياة
الأبدية إلا أن يعلموا أنك أنت الإله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح
الذي أرسلته . .) . .

(١) جاء في التلمود - كتاب اليهود الاقدس - « من يقتل مسيحياً يكافأ بالخلود في
الفردوس . . » ولذلك حصل الخاخام يهوذا من الامبراطور الروماني على أمر بقتل كل المسيحيين
في رومة عام ١٥٥ م ومن أحكام التلمود قولهم « ان المسيح كان مجنوناً وكافراً لا يعرف الله . . »
ومن أجل هذا يقول الخاخام « رشي » (اقتل الصالح من المسيحيين . .) ويقول « ميانوذ »
(يجب على الإنسان - اليهودي - أن يقتل بيده الكفرة مثل يسوع الناصري واتباعه ويلقيهم
في هاوية الهلاك . .)

انظر ص ٨٦ و ٨٨ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١ من (الكنز المرصود في قواعد التلمود)
واقراء في آخره اخبار الجريمة العالمية عن قتل اليهود الأب توما . .

اصغروا معى إلى قولها :

ليس عيسى فى نظرى إلا رجلا عاش حياة علوية ..
وأرى فى ولادته مجرد ولادة بشرية تماما ..
ولكن الحب العميق فى سيداء قلبي هو الحب العظيم ..
الذى أكنه لأخى المسيح ..
أنا أعلم أننى ارتكبت خطايا باستحلال منكر وإنكار معروف ..
ولكن لا يستطيع أحد غيرى أن يكفر عن خطيئتي ..
وأنا أعلم بالحب الذى فى قلبي كيف أصلح حالى مع الله ..
أنا أعلم أن أجلى قصير وأن الموت آت ..
وأنا أرسل دعاء الحب والثقة مع كل نفس ألقظه ..
ورغم أنى خارجة عن الكنيسة وعن حظيرة العقائد ..
فإننى أكن فى قلبي حبا لله والناس ، وذلك كل ما يحتاجه المرء^(١) .
فيا شباب المسيحية ...
اصغروا وفكروا ... ثم احكموا ...

(١) من قصيدة معربة عن مجلة - اسلاميك ريفيو - عدد شباط ١٩٥٣ ، وهى من شعر امرأة تنسب إلى « كنيسة الموحدين » كنيسة جديدة خرج أتباعها عن عقيدة التثليث إلى الإيمان بوحداية الله ، وبأن المسيح رسول من الأنبياء المكرمين .
وقد نقلناها بدورنا عن مجلة التمدن الإسلامى بنفش عدد شباط ١٩٥٧ ...

قل أنظروا ماذا في السموات والأرض

تقدم في صدر هذا الفصل ملخص حوار دار بيننا وبين أحد الزملاء المسيحيين ، عرضنا فيه لموضوع الأرض وكرويتها وبعض شئون الكواكب .. وقد رأينا أن الحديث في هذا الشأن سيظل ناقصا بنظر القارئ ما لم نعرض فيه ذكر الحدث الأخير الذي تمثل في ارتياد القمر وانه لحدث غير يسير أطلق مئات الأسئلة ونشر عشرات الاستفهامات : ما حكم القرآن في هذا الأمر ؟ وما موقف السنة النبوية منه ؟ وهل نصدق خبر النزول على سطحه أو نرفضه ؟!

ولقد سمعت أحد الاخوان يحاضر في هذا الموضوع فيكون من أمر هذه الرحلة ، ويحاول التركيز على أنها ليست أكثر من دعاية إعلامية غربية يراد بها إرهاب المسلمين من قوة القوم ، وتضخيم مركزهم العلمي والمادى في أوهامنا ، ليستمر إعجابنا بهم وإكبارنا لشأنهم ، فنظل سادرين في تقليدهم ، ويظلوا موغلين في استغلالنا !

ومع أن المحاضرة كانت موضوعية في معظم جوابها ، أبرزت سعة علم المحاضر في المباحث الفلكية ، إلا أنها لم تستطع الإجابة على الكثير من تلك الاستفهامات . . . بل ربما أضافت إليها عدداً آخر من الاشكالات التي تتطلب الحلول . . .

والشيء الذي أريد قوله هنا هو أن موضوع ارتياد القمر ليس من التوافه التي يحسن بالعقل المسلم أن يمر بها دون اهتمام . . . ذلك لأنها نتيجة تقدم هائل في فهم القوانين الكونية ، وفي القدرة على الانتفاع بها وإنكارنا لهذه الحقيقة يكاد يشبه إنكار أحدهم لحلاوة العنب الذي عجز عن بلوغه . . . وفي اعتقادي أنه لو تحققت هذه الرحلة على يد علماء ورواد

مسلمين لكان جديرا بنا أن نزهي على الدنيا ، ونملأ الآذان والقلوب تنويرها
بعقريتنا . . .

والآن نعود إلى السؤال الأول : ما حكم القرآن وأخبار المعصوم صلى
الله عليه وسلم في هذا الأمر ؟ . . .

ولقد كان الجواب سهلاً ميسوراً لو ترك الأمر لمصادر الوحي وللدلالة
اللغة العربية ، إذ يرجع المفكر في هذه الحال إلى الآيات والأخبار التي
أشارت إلى الموضوع ، ثم إلى فهم السلف لها ، ولكن الذي عقد الأمر
وأبعد الشقة هو أقاويل المتأخرين المتكاثرة والمتضاربة ، والتي امتزجت
في الأحيان الكثيرة بتصورات أهل الهيئة من غير المسلمين ، فوضعتنا تلقاء
مسارب مسدودة لا نعلم كيف ننفذ منها . . .

وفي رأي أن المشكلة كلها مقصورة على تحديد مكان الأجرام بالنسبة
إلى الأرض : أم في الفراغ الكوني بين السماء والأرض ، أم هي داخلية
في السماء نفسها ، أم ملصقة بها ؟ . . .

وجواب هذا كله قائم في تحديد معنى السماء كما وردت في مصادر
الوحي وفي ضوء المدلول اللغوي :

وقد شاء الله أن يكفيها مئونة استقصاء النصوص المبينة لذلك بما ديجته
براعة العلامة المذقق الشيخ عبد العزيز بن باز في هذا الصدد ، ولعل من
أماثر التوفيق الرباني أن أقع على مقالته تلك على غير ميعاد ، في الوقت
الذي كنت أتهيأ لهذا العمل . وسأكتفي من بحثه الجميل هذا بالفقرات
الأكبر اتصالاً بالموضوع .

قال أحسن الله إليه :

(. . . قد تأملنا ما ورد في الكتاب العزيز من الآيات المشتبهة على
ذكر الشمس والقمر والكواكب فلم نجد فيها ما يدل دلالة صريحة على
عدم إمكان الوصول إلى القمر أو غيره من الكواكب . وهكذا السنة
المطهرة . . . وبخلاصة ما يتعلق به من أنكر ذلك أو كفر من قاله ما ذكره

الله في كتابه الكريم في سورة الحجر حيث قال سبحانه : (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . . .) وفي سورة الفرقان : (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) . وفي سورة الصافات : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب .) وفي سورة الملك : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .) وفي سورة نوح : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . .) .

وقد ظن هؤلاء أن ما ذكره الله في هذه الآيات الكريمات ، وما جاء في معناها على أن الكواكب في داخل السماء أو ملصقة بها ، فكيف يمكن الوصول إلى سطحها ! . . وتعلقوا أيضا بما قاله بعض علماء الفلك من أن القمر في السماء الدنيا ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة .. وقد نقل ذلك كثير من المفسرين وسكتوا . والجواب أن يقال : ليس في الآيات المذكورات ما يدل على أن الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب في داخل السماء ولا أنها ملصقة بها ، وإنما تدل على أن هذه الكواكب في السماء وأنها زينة لها ، ولفظ السماء يطلق في العربية على كل ما علا وارتفع . .

ثم ذكر فضيلته من الشواهد على ذلك قوله تعالى : (وأنزل من السماء ماء . .) وأن المراد بالسماء هنا السحاب . . سمي بذلك لعلوه وارتفاعه ، وأن المراد بالسماء في قوله تعالى : (فليمدد بسبب إلى السماء . .) السقف لعلوه بالنسبة إلى من تحته . وكذلك في قوله سبحانه (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) أي في العلو . والأدلة في هذا الباب من كلام الله سبحانه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام المفسرين وأئمة اللغة على إطلاق لفظ السماء على الشيء المرتفع كثيرة . . ثم قال فضيلته :

« إذا عرف هذا فيحتمل أن يكون معنى الآيات أن الله سبحانه جعل هذه الكواكب في مدار بين السماء الدنيا والأرض ، وسماها سماء لعلوه ، وليس فيما علمنا من الأدلة ما يمنع ذلك . . . واستدل بقوله عز وجل عن حركة الشمس والقمر والليل والنهار (وكل في فلك يسبحون . .) على أن الشمس والقمر دون السماء الدنيا (ولو كانا ملصقين بالسماء لم يوصفا بالسبح لأن السبح هو الجرى في الماء ونحوه . . . » .

ونقل رواية ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . . . أن البروج المذكورة في سورة الفرقان إنما هي بين السماء والأرض . . . ثم ينتهي من ذلك كله إلى القول بأنه لا إشكال في أن الوصول إلى سطح القمر أو غيره من الكواكب لا يخالف الأدلة السمعية .

ويقف عند قوله تعالى في سورة نوح : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً . .) فيقول : ليس في الأدلة ما يدل على أن معناه أن الشمس والقمر في داخل السموات ، وإنما معناه عند الأكثرين أن نورهما في السموات لا أجرامهما . . . (١) فأجرامهما خارج السموات ونورهما في السموات والأرض . . .) .

وقد رأينا من المنكرين لإمكان الصعود إلى بعض الكواكب من محتج بما رواه ابن جرير (رح) عن عبد الله بن عمرو ، من طريق ابن ثور عن معمر عن قتادة (أن الشمس والقمر وجوههما قبل السموات وأقفيتهما قبل الأرض . . .)

(١) يبدو لي من الآية الكريمة - والله أعلم - أن ليس المراد كون نورهما في كل من السموات السبع ، بل كونهما كائنين ضمن إطارهن ، وذليل ذلك ما ثبت من إجماع العلماء - كما نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن إياس بن معاوية - أن السماء على الأرض مثل القبة - الفتاوى ج ٢٥ ص ١٩٥ - وبما أن السماوات طبقات بعضها فوق بعض فكل منها كالقبة فوق الأخرى . . . وإذا فهم هذا اتضح تبعاً لذلك أن الشمس والقمر ضمن محيط السموات السبع إذ هما محاطان بإطار السماء الدنيا ومن ورائها بقية السموات . . . وعلى هذا فهما في السموات السبع حقاً لأنهن محيطات بهما . فثلثهما في ذلك كمثل مصباح أضيء في الدور الأول من بناية ذات طبقات فلك أن تقول أن المصباح في البناية ، وإن لم يحتل سوى جزء منها . . . ومثل هذا في كلام العرب كثير ، ومنه قوله تعالى : « فاسألوا القرية » وإنما يسألون بعضها لا جميعها ، وكقولك إني أسكن المدينة ومسكنك في جزء منها لا كلها .

فيقول الشيخ معقبا على هذا الخبر : (وفي سنده انقطاع لأن قتادة لم يدرك عبد الله بن عمرو ، ولعل هذا إن صح عنه مما تلقاه عن بني إسرائيل^(١)) وليس هناك حجة يعتمد عليها فيما نعلم تدل على أن القمر في السماء الدنيا والشمس في الرابعة . . . وأما قول من قال ذلك من علماء الفلك فليس بحجة لأن أقوالهم غالبا مبنية على التخمين والظن ، لا على قواعد شرعية وأسس قطعية ، فيجب التنبيه لذلك . .) ونقل عن الحافظ بن كثير (رح) اختلاف علماء الفلك في هذا الأمر ثم قال : (ولو فرضنا أنهم اتفقوا على ما ذكر فاتفقهم ليس بحجة . . .)

إلى أن قال : وظاهر الأدلة السابقة ، وكلام كثير من أهل العلم أو الأكثر كما حكاه النسفي والألوسي ، أن جميع الكواكب ومنها الشمس والقمر تحت السموات ، وليس في داخل شيء منها . . . وبذلك يعلم أنه لا مانع من أن يكون هناك فضاء بين الكواكب والسماء الدنيا يمكن أن تسير فيه المركبات الفضائية ، ويمكن أن تنزل على سطح القمر أو غيره من الكواكب . . . ولا يجوز أن يقال بامتناع ذلك إلا بدليل شرعي صريح يجب المصير إليه . . .)

. وما أحكم قول الشيخ بعد ذلك : (ومما يدل على إمكان الصعود إلى الكواكب قول الله سبحانه في سورة الجن : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) . فإذا كان الجن قد أمكنهم الصعود إلى السماء حتى لمسوها ، وقعدوا منها مقاعد ، فكيف يستحيل ذلك على الإنس في هذا العصر الذي تطور فيه العلم والاختراع حتى وصل إلى حد لا يخطر ببال أحد من الناس حتى يخترعه قبل أن يخترعه . .)^(٢) .

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رح) : أن « عبد الله بن عمر أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما . . . ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد . (مقدمة في أصول التفسير) ط لاهور ص ٣٢ .

(٢) هذا مع التذكير بأن الإنسان بطبيعة تكوينه أحق بالكشف والعلم من الجن إذ هو المخلوق الوحيد الذي ميز بخاصية المعرفة « وعلم آدم الأسماء كلها » و « علم الإنسان ما لم يعلم » .

ثم ختم ذلك بالكلام عن السماء ذات الأبواب فقال : « أما السماء المبنية
فهى محفوظة بأبوابها وحرسها فلن يدخلها شياطين الإنس والجن لقوله
تعالى : (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وقوله :
(وحفظناها من كل شيطان رجيم . .) وثبت فى الأحاديث الصحيحة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج به لم يدخل السماء الدنيا وما بعدها
إلا بإذن ، فغيره من الخلق أولى »

وبعد فهذا كلام محقق قد أنار الله بصيرته بروح الحق ، فهو لا يقبل
الأمر ولا يرفضه إلا بالدليل الشرعى والعقلى ، ولا جرم أن أحكامه
فى بحثه هذا نابعة من ذلك .. وهى صريحة فى كونه لا يرى فى الكتاب الحكيم
ولا الخبر النبوى مانعا يحول دون إمكان نجاح الرحلة إلى القمر أو سواه
من الكواكب . . وحجته الحاسمة فى ذلك أن السماء فى هذين المصدرين
المعصومين لم تحمل معنى واحدا بل معنيين مختلفين بحسب المقام والقرينة . .
أما أحدهما فالسقف المرفوع ذو الأبواب والحرس الشديد ، فالوصول
إليه فوق مرامى الأوهام البشرية . وأما الثانى فهو ما علانا من السقف والسحب
والفراغ الكونى الذى بين السماء والأرض ، وهذا هو المقصود بمغامرات
الرواد وأعمال المراقدين . . وهذا هو الحق المبين الذى لا تتجاوزه علوم
أهل الهيئة قديما وحديثا . . فما نعلم أحدا منهم زعم إمكان الوصول إلى السماء
المبنية التى عرج إليها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لسبب بسيط هو
إدراكهم عن طريق الوسائل الرياضية العليا أن أجهزة الإنسان بالغة ما بلغت
من الدقة والقوة عاجزة عن أن تحلم بالوصول إلى المجرة فضلا عما فوقها . .
وحسب المرء أن يعلم أن المركبة الأمريكية التى أطلقت فى اتجاه المريخ
قد استمرت فى اندفاعها أكثر من ستة أشهر ، قطعت خلالها قرابة مائتى
مليون ميل ، فأى رائد يغامر بنفسه فيودعها مثل هذه المركبة كل هذا الزمن !
فكيف بما وراء المريخ مما يستهلك بدل الأشهر الأعوام بل عشرات الأعوام ،
ولا يصل ضوءه إلى الأرض إلا بعد انطلاقه بعشرات الملايين من السنين
— فيما يزعمون —

كيف يشوهون الحقائق :

وهذا مما يسترعى الانتباه في كلام العلامة بن باز هذا أنه توكيد لما سبق أن أفضى به في مختلف المناسبات العلمية ، وقبل الذي نقلته الإذاعات العالمية عن نجاح الرحلة القمرية بأكثر من عام . . وقد سمعناه يقول ذلك في دار الحديث بالمدينة المنورة ، ثم في المعهد العلمي من المدينة أيضا ، وذلك في تعقيبه على بعض المحاضرات . ولولا ذلك لأمكن لمتقول أن يزعم أن الشيخ قد جنح إلى هذا القول بعد حصول المفاجأة التي لا مجال لإنكارها ، كما سبق أن فعلت إذاعة صوت العرب عندما أخذت ترجف بأن (نائب رئيس الجامعة الإسلامية في السعودية نشر مقالا في جميع الصحف أهدر دم كل من يقول أن الأرض كروية ، وأن الأرض تدور حول الشمس ! . .) .

وطبيعي أن مخترع هذه المفتريات ، وهو الشيوعي المعروف أحمد بهاء الدين ، لم يقدم على تأليفها إلا لينفذ من ذلك إلى التشهير بالملكة - البلد الوحيد الذي يحكم شريعة الله ، ويحمل راية التضامن الإسلامي ، في هذا الجو الأحمر المخضب بجرائم الاشتراكية - لذلك أعقب ذلك الإفك بقوله : (وإذا كان يبدو غريبا أن يذاع هذا الرأي عام ١٩٦٦ وفي عصر القضاء ، فصاحب هذا الرأي منطقي مع ما تردده المملكة السعودية هذه الأيام من أفكار وآراء . . فحكام السعودية لا يتحدثون الآن إلا عن الأفكار والنظريات المستوردة ، ولا يدعون إلى (الحلف الإسلامي) إلا بدعوى دفع خطر الأفكار المستوردة عن المسلمين ، وهم يقصدون الاشتراكية بالطبع ، يكتفون برفضها بناء على أنها مستوردة ، وبهذا المعنى أليس القول بأن الأرض كروية أيضا نظرية مستوردة !! . . (١)

ومن هذه المفتريات تدفقت مادة غزيرة لتسويد عشرات الصحف الحمراء يومئذ ، ولتزويد الإذاعات التي تتربص بالفكر الإسلامي الدوائر ، في شرق وغرب ، بما تتوق إليه من وسائل الطعن والدس . على حين أن

(١) من تعليق صوت العرب حول مقال نشر في مجلة المصور ، ليلة الجمعة الأخيرة من

مقالة الشيخ لم تعد يومئذ حدود البحث الواعى الذى يحاول صاحبه التوقف عند حدود النصوص الإلهية بكل ما أوتى من قدرة على الفهم والاستنباط . ولو عدنا إلى كل ما كتبه الشيخ يومئذ مبتدئا ومعقبا لم نجد فيه أى نقي لكروية الأرض ، بل على الضد من ذلك قد أورد من كلام ابن القيم ما يؤكدها . وإنما كان أساس البحث إنكاره على من يقول بسكون الشمس بوجه خاص ، وإليك كلامه بالحرف .

(. . . وهكذا علماء الإسلام المعروفون المعتمد عليهم فى هذا الباب وغيره قد صرحوا بما دل عليه القرآن الكريم من كون الشمس والقمر جارين فى فلكهما على التنظيم الذى نظمه الله ، وأن الأرض قارة ساكنة قد أرساها الله بالجبال وجعلها أوتادا لها ، فمن زعم خلاف ذلك وقال : إن الشمس ثابتة لا جارية فقد كذب الله وكذب كتابه الكريم . . . وأما من قال أن الأرض تدور والشمس جارية فقله أسهل من قول من قال بثبوت الشمس ، ولكنه فى نفس الأمر خطأ ظاهر . . . لأن القائلين بدوران الأرض قد أوردوا شبهات توجب التوقف فى كفر من قال بذلك . .) .

وأكد الشيخ هذا المعنى فى جوابه للأستاذ الصواف إذ قال : (. . . ولم أكفر من قال بدوران الأرض ، ولا من قال : إن الشمس تجري حول نفسها ، وإنما صرحت بتكفير من قال : إن الشمس ثابتة لا جارية . . .) . فأن تهويشات (صوت العرب) ومن أخذ بمزاعمها من صحف الغرب والشرق ، من هذه الحقائق التى لا تتجاوز نطاق البحث الموضوعى ! . . . وأبى مأخذ يحمده المنصفون فى كلام الشيخ إذا كان يعلن حكم الله فى ارتداد من كذب كلام الله عن جريان الشمس ، واتباع ما تتلوه الشياطين على دعاة الباطل القائلين بسكونها - إذا كان ثمة من يقول بسكونها - . . .

وإنه لعجب أن يؤخذ عالم إسلامى إذا صرح بحكم الشريعة فيمن كذب كتاب الله ، فى حين لا يجدون أى حرج فى أعمال ما يسمونه محاكم الشعب ، حين تصدر أحكام الموت بالجملة على من يرفضون الخضوع لأنظمة

الطواغيت ، أو يحاولون التعرض لها بأي نقد علمي ! . . . ولكنه عجب لا محل له إلا عند المنصفين ! . . .

ولعمر الحق أن كلام الشيخ ألصق - عند أهل الحجى - بالحق والعلم سوى من الانسياق وراء كل ناعق ، وكان أجدر باحترام أولئك المرجفين وتوقيرهم لو كانوا ممن يهمهم أمر الحق والعلم . ولكنهم في الواقع ليسوا سوى ناقين من الإسلام ، فهم يتلمسون لعلمائه السقطة ، فاذا لم يظفروا بها احتالوا لاختراعها ، ثم لنشرها بكل ما تحت أيديهم من وسائل الدعاية والإعلام ! .

ومما يحسن ذكره هنا أن تصريح العلامة بن باز في موضوع الصعود إلى القمر في دار الحديث إنما كان باعته كلام العلامة القرآني الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في الموضوع نفسه ، إذ كان الشيخ الأمين يستنتج من ظواهر الآي عدم الإمكان ، ثم ختم استنتاجه الشخصي بهذا الاستدراك العالي إذ قال : هذا ما نفهمه من آيات الكتاب العزيز ، فاذا تحقق ما يتوقعه الآخرون من الوصول إلى سطح القمر كان ذلك دليلاً على أننا كنا مخطئين في فهم إشارات الكتاب الحكيم . . ولا عجب فكلام الله هو الحق الذي لا يعثره خطأ ، وإنما يتأتى النقص والخطأ من قصر فهمنا وقصور إدراكنا...» وهنا جاء تعقيب العلامة بن باز حيث ناقش الموضوع بدقة وعمق ، وانتهى من ذلك إلى ما أسلفناه من توكيده على إمكان الوصول إلى الكواكب . وهكذا جاء كلام كل من العالمين الفاضلين صورة من العقل الإسلامي الناضج ، الذي لا هدف له سوى تعرف وجه الحق والوقوف عند حدوده دون دوى ولا ضجيج ، ودون محاولات مفتعلة لقسر الآيات على موافقة كل ما يقوله مفكرو الغرب ، حتى ولو أدى ذلك إلى مخالفة روح القرآن ومنهج السلف ، كما تورط بعض المجددين في العصر الحديث .

* * *

السلف لا الغرب :

لقد رأينا الشيخ محمد عبده وسيد أحمد خان يسلكان هذا المعبر

المخوف ، فيصرفان الكثير من أنباء القرآن العظيم عن الوجهة التي فهمها السلف . . . وكان الحافظ لهما على ذلك محاولة التوفيق بين الإسلام والاتجاهات الجديدة التي تسربت من الغرب ، وفي ظنهما أنهما بذلك يتداركان بقية الإيمان في نفوس الجيل المفتون بمفاهيمه ليحفظا له صلته بدين الله ! . ولكن سرعان ما اتسع الخرق على الراقع ، فاذا المأخوذون بهذا المسلك غير السلفي يوغلون فيه إلى غير نهاية ، حتى شمل اجتهدهم كل جانب ، من المعجزات إلى السياسة إلى الاقتصاد إلى المرأة إلى ما لا يحصى من الشئون .. وإذا نحن من ذلك أمام أسلوب من التفكير لا يمت إلى منهج خير القرون بأى سبب ، لأنه منهج غريب دخيل ، لا أساس له ولا أصل من التصور الإسلامى الأصيل .

وكثل من ذلك نقتصر على موقف تلاميذ هذه المدرسة من موضوع السماء لما نحن بصدد من حديث . وفى مجلة (الوعى الإسلامى) صور من ذلك تتجلى فى حلقات من البحوث الفلكية ، كتب بعضها الدكتور أحمد محمد الغمراوى - الكاتب المعروف ببحوثه الإسلاميه الرائعة وغيرته المتأججة على الحق - وفيها ينسج على منوال سلفه الشيخ محمد عبده فى تفسير السماء المبنية على أنها هى هذه الكواكب ولا شئ غيرها ...^(١) وعلى

(١) الوعى الإسلامى عدد ربيع الأول ٨٨ . . وفيه يقول الدكتور حول قوله تعالى من سورة النازعات « السماء بناها . . . » « أن البنية فى الأرض متلاحمة الأجزاء لبنة إلى لبنة ، أما السماء فلبنتها الكواكب والنجوم وما إليها . . . » ويكرر فى المقال نفسه : « أن كلمة بناء بالنسبة للسماء من أعجب الاستعارات ، لأنها وإن خالفت البنيان الأرضى للتباعد العظيم بين الأجزاء فقد تحقق فيها أهم مميزات البنيان من ترابط الأجزاء بالجاذبية . . . » ص ١١ و ١٣ . وهو لا يكتم تأثير مدرسة محمد عبده فى تقريره هذا إذ يقول : « واللطيف البديع أن كبير المفسرين المحدثين الإمام محمد عبده فسر بناء السماء طبق قانون الجاذبية ، فكان فتحا فى التفسير ، وفتوى عملية تبين تفسير الآيات الكونية فى القرآن طبق ما ثبت أو يثبت على أيدي علماء الفطرة - يريد علماء الطبيعة - » .

ثم يورد بعض كلام الشيخ محمد عبده فى تفسير البناء فإذا هو تكرار يكاد يكون لفظيا لما ذكره من اعتبار الكواكب لبنات مترابطة بالجاذبية وقد سلك حيله فى التفسير « العقلانى » الدكتور جمال الدين الفندى فى بحوثه الفلكية التى انطوت على علم جم . انظر الوعى الإسلامى عدد ذى الحجة سنة ١٣٨٨ ص ٩ . . .

الرغم من قدرته البلاغية الموضوعية ، وبذله أقصى الجهود في توكيد هذا المفهوم ، أخطأه التسوفيق ، إذ بدا وكأنه يحاول تحميل الكلام الإلهي غير مراده الأصيل ، ولا غرو ، فالدلالة القرآنية بالغة الدقة والصراحة على أن السماء التي فتحت لمحمد صلى الله عليه وسلم هي غير هذه الكواكب ، قد حصنت بالأبواب ، وحفظت بالرجوم والشهب ، وأقيم عليها الحرس من الملائكة ، فلا يفتحونها إلا لمن أذن له الله ورضي دخوله . . . وهي أبعد عن أحلام العلوم المادية من أن تتصور بلوغها ذات يوم ، وأنى ذلك وهي على بعد خمسمائة سنة من كرة الأرض ، وبينها وبين السماء التي تعلوها مثل ذلك الزمن ، ثم مثل تلك المئين من السنين بين كل سماء وأخرى حتى السابعة ، كما ورد في الخبر النبوي^(١).

وكما تأيد ذلك بشهادة أولى العلم الذين يقولون بأن البعد بين أرضنا والشعري مثلاً يقارب خمسين بليون ميل ، وأن بعض التوائم من النجوم ، وهي التي تراءى كنجم واحد ، بين التوائم والآخر منها ما يقارب ألفي مليون ميل^(٢) . . .

ويقول مؤلف (الكوكب الشرقى) في الرد على منكرى وجود السماء إذ يؤولونها بنظام الأفلاك : « . . . إن علماء الفلك أنكروا وجود السماء لأنهم لم يصيروها بنظاراتهم التي كشفت لهم من الكواكب ما يضيع الفكر في ضبط بعده ، حتى ذكر بعضهم أنه لو فرضنا طائراً طار من الأرض إلى الشمس بسرعة مائة ميل في الساعة ، واستمر سائراً نهاراً وليلاً صيفاً وشتاءً من غير انقطاع فإنه لا يصل إلى الشمس في أقل من مائة سنة وست سنوات ونحو سبعة أشهر ، ولو قصد هذا الطائر زحل بهذه السرعة لما بلغه في أقل من ألف وإحدى عشرة سنة ، أو نبتون لاقتضى له ثلاثة آلاف ومائة وست وثمانون سنة !! »^(٣)

(١) مضمون حديث شريف أخرجه أبو داود عن العباس (رضى) ويقويه ما روى عن ابن مسعود في المعنى نفسه : انظر فتح المجيد « بعلماء بين كل سماء وأتى تليها . . . » ص ٤٧٠ ..

(٢) كلام الدكتور الفمراوى في « الوعى الإسلامى » عددى ربيع الأول وشعبان عام ١٣٨٨

(٣) أنظر « الكوكب الشرقى » ص ٤٥ . .

وإذا صح تشنير المناظير والرياضيات الفلكية كان ذلك دليلا على أن
السنين الوارد ذكرها في الحديث الشريف حول أبعاد السموات إنما هي
سنون ضوئية أو أنواع أخرى من المقاييس الزمنية التي لم يصل إليها علم
الإنسان بعد .

وقد اطلع على رأينا هذا أحد فضلاء العلماء فكان من رأيه حمل
السنين على مفهوم العرب لأن القرآن إنما خاطبهم بما يعلمون . وإذا كانوا
لا علم لديهم بالأزمة الضوئية ونحوها كان صرف السنين في الحديث والقرآن
إلى غير المتعارف بينهم غير سديد .

والذي نراه أن المراد من السنين إنما هو تنبيه السامعين إلى عظم المسافة ،
وهو هنا أمر محقق ، لأن مجرد ذكر ذلك البعد الهائل كاف لجعل المخاطب
به مهيا للذهن لتصور البون السحيق الذي يفصل بين هذه الأجسام العلوية ،
دون أن يضطر إلى تعيين ذلك بالساعات والدقائق .

ونحن اليوم لو سألنا راكب بعير عن الزمن الذي سيستغرقه أثناء رحلته
من طيبة إلى دمشق مثلا لقال : شهرا ، ولو سألنا سائق السيارة عن ذلك
لأجاب : ثلاثة أيام ، في حين لو سألنا راكب الطائرة النفاثة لقال : ساعة
أو قريبا من ذلك . . . فالمدى المكاني واحد ولكن المدد اختلفت باختلاف
وسائل السفر .

وكل ذلك على فرض التسليم بصحة الأخبار المتعلقة بموضوع المسافات
إذ فيها كلام لغير واحد من رجال الحديث .
وعلى أي حال ففي ما قدمناه ما يكفي للدلالة على أن كل محاولة للوصول
إلى السقف المحفوظ في حكم المستحيل . . هذا إذا حذفنا من حسابنا مخاطر
الرحلة من الرجوم والشهب والحراسة التي علمناها بطريق الوحي ، والتي
هدى إليها أولو العلم بقوانين الفضاء . .

ثم مهما يكن وراء ذلك الاتجاه العقلائي من حسن النية وسلامة الطوية
والرغبة الأكيدة في خدمة الكلمة القرآنية ، فلا بد من القول بأن تحيرا

للإسلام أن نسلك إلى استجلاء ما تريد سبيل السلف دون أى اهتمام بما
يوثره المنهج الغربى أو ينكره . . . ونحن على أتم الثقة بأن كل تباين بين
المدلول القرآنى والمنطق البشرى - إذا حدث - فسينتهى آخر المطاف
بانتصار الأول وتقويم نظرة الثانى ، كما تم ذلك فى الكثير من الشئون
التي اختلف فيها الباحثون مع خبر الوحى سواء فى القديم أو الحديث .

* * *

حقائق قرآنية :

ثم إن ثمة حقائق قرآنية كان للكشوف الفلكية الأخيرة أثر كبير
فى استجلائها ، حتى كأنما قد أجريت لخدمتها فقط .

أما أولى هذه الحقائق ففى مثل قوله تعالى : (وهو الذى مد
الأرض ١٣-٣) و (الذى جعل لكم الأرض مهذا وملك لكم فيها سبلا .
٢٠-٥٣) و (أم من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل
لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ٢٧-٦١) و (والأرض فرشناها
فنعم الماهدون ٥١-٤٨) و (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا
فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ٦٧-١٥) و (والأرض بعد
ذلك دحاها ٧٩-٣٠) إلى آيات غير قليلة فى موضوع الأرض ، وما
تحمله من دلائل رعاية الله وحكمته فى تكوينها على ما هى عليه ، مما
لا يمكن تصور تأنيه فى معزل عن كمال العناية والحكمة . .

فى هذه الآى بيان للرحمة الإلهية فى فرش الأرض ومهدا ودحوها
وتذليلها للسالكين ، وإعدادها للإنبات ، وإمدادها بما يقتضيه ذلك من
الأنهار والجبال والحواجر الحائلة بين أنواع المياه ، حتى لا يختلط بعضها
ببعض .

وقد جاءت الرحلة القمرية بالعجائب من المؤكدات لهذه الحقائق ، إذ
تبين للرواد أن ليس فى القمر أية صلاحية للحياة ، فلا ماء ، ولا مولد
الحموضة ، وبالتالي فلا نبات ولا حشرات ، ولا أثر للحياة البتة . . يضاف
إلى ذلك انعدام الصلاحية فى سطح القمر نفسه . إذ هو مؤلف - كما يقولون -

من مواد زلقة ، وأكثره فجوات وشناخيب وفوهات براكين لا يمكن معها
أى مطمع بالاستقرار . . . ومن هنا يتضاعف إدراكنا لعظم فضل الله
تبارك وتعالى فى تنظيم سطح الأرض على هذه الشاكلة التى لو اختلف أى
وضع فيها لكان وجود الأحياء ، ونشوء الحضارة على غاية من الاستحالة . .

وما أحسبني آتيا بغريب إذا قلت : إننى على كثرة ما قرأت وما كررت
قراءة هذه الآيات لم أفطن قط لأهمية ما تضمنته من ذكر القرش والمهد
وما إليهما إلا بعد اطلاعى على نتائج هذه الرحلة ! . . ولا غرابة فكم من
عظيمة فى القرآن لم ينتبه إليها العقل البشرى إلا بعد أن كشفتها له التجارب
وحققها له الموازين الرياضية !

ثم حقيقة ثابتة نقرأها فى هذه الكلمات من الذكر الحكيم : (قال :
فيها يحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ٧ - ٢٥) . فإله سبحانه
يصدر هنا حكمه الحاسم فى شأن الإنسان والأرض ، فيربط بينهما بشكل
نهائى لا يقبل تبديلا ولا تعديلا . . لقد قضى أن يجعل من الأرض مجال
حياتنا فلا حياة فى سواها من الأجرام الفلكية ، وأن يجعلها موضع موتنا
فلا مثوى لنا فى سواها ، وأن يجعل مبعثنا منها وحدها . وهو حكم جازم
حاسم بأن الإنسان لن يعيش ولن يموت ولن يخرج إلا فى هذه الأرض
ومنها . . . وفى هذا الحكم تحد للجنس البشرى كله يؤكد له أنه عاجز
عن إحداث أى تعديل فى هذا المصير الذى قضى به عليه . . فهو قد يصل
إلى القمر ، وقد ينزل فى بعض الكواكب الأخرى ، ولكنه لن يجد
مستقرا للحياة ولا محلا للموت خارج هذه الكرة الأرضية . . فسبحان من
جعلها مرتعا ومعتقلا لا نستطيع له فراقا ، ولا منه فكاكا ! . . .

أما ثالث هذه الحقائق فى قوله تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله
سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فىهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ٧١ -
١٥ و ١٦) وقوله سبحانه : (وجعلنا سراجا وهاجا ٧٨ - ١٣ . . .)
فقد أعلمنا وهو الحكيم العليم ، أنه جعل القمر نورا ، والنور بطبيعة تكوينه
لين لطيف ناعم ، ويؤدى وظيفته من الإضاءة دون أذى للبصر ولا إرهاق ،

فى حىن جعل الشمس بمثابة السراج الذى فى الضوء والحرارة المتوهجة
جميعا . . ودون أن يفصل العلاقة بين القمر والشمس أرانى أستنتج منه
بدلالة التلازم أن الشمس تفيض ضوءها عليه ، فينقله إلى الأرض على
صفته تلك خاليا من الحرارة التى تلازم أشعتها ، كشأن السراج حىن ينعكس
ضوءه على جسم صالح لنقله ، فهو ينير دون أن يؤذى . . وقد تجلت
هذه الحقيقة بالصورة البصرية ، إذ شاهد الرواد مواد السطح القمرى
كنفاضات البراكين المنطفئة ، فهى تستقبل أشعة الشمس ، فتعكسها بدورها
إلى الأرض على الصورة التى نعهدها . . .

وفى وصف الله سبحانه السراج بكونه وهاجا - فى سورة النبأ -
إشارة كبيرة إلى كون الشمس كوكبا مشتعلا محرقا ، بخلاف القمر الذى
اكتفى بإعطائه صفة النور .

وهذه الحقيقة القرآنية القائمة على الأخذ والعطاء بين القمر والشمس
قد فقهها السابقون من علماء الإسلام دون أى خلاف فيما نعلم . . وهذه
عبارة الحافظ ابن كثير (رحمه الله) فى تفسير لقوله تعالى فى سورة (ياسين)
(والقمر قدرناه منازل . . .) تقرر هذا الأمر بجلاء لا غموض معه ،
إذ يقول : (أما القمر فقدره منازل . . . ثم كلما ارتفع ازداد ضياء ،
وإن كان مقتبسا من الشمس حتى يتكامل نوره . . .)^(١) وفى إيراد عبارة
(وإن كان مقتبسا من الشمس) على هذا الوجه العفوى دلالة على أن
القضية تكاد تكون من المسلمات عند علماء الإسلام . ومرة أخرى نقول
هنا : إن هذه الكشوف الفلكية الأخيرة لكأنما قد قصد بها استجلاء حقائق
القرآن الحكيم ، وخدمة معانيه الجليلة . ولا جرم ، فليس من علم عرفه
الإنسان إلا وهو صالح لتوكيد معجزة القرآن . وصدق الله القائل فى محكم
كتابه ومستقبل جلاله : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى
يتبين لهم أنه الحق ... أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ٤١ - ٥٣) ...

(١) ابن كثير ج ٣ ص ٥٧٢ . . .

وأخيرا . . . ذلك هو الإسلام دين الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك هو مصدره المعجز الذى لم يختلف مع العلم الحق فى أمر قط ، فلا سبيل إلى توهم أى فصل بين أخباره وبين أى حقيقة علمية ، فاذا زعم كريسبي موريسون أن الدين للقلب والعلم للعقل ، فلا علاقة لزعمه هذا بالإسلام ، الذى لا يعرف تجزئة الإنسان . والذى يعتبر أهل العلم أنصاره ودعاته فى كل زمان ومكان (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ٣-١٨) و (قل : آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا . . إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان ليكون ويزيدهم خشوعا ١٧-١٠٧) .

* * *

أندور أم لا تدور ؟

بقى أن نقف قليلا على مشكلة الدوران . . لئرى : هل ثمة ما يسوغ تلك الضجة المشبوهة التى أثارها (صوت العرب) وأصدائه هناك وهناك؟؟ . . .

لقد رأى فضيلة العلامة بن باز فى ظواهر الآيات القرآنية - كما أسلفنا - ما يرجع جانب السكون فى وضع الأرض ، وذلك فى مثل قوله تعالى : (وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم ١٦-١٥) و (ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . . ٧٨ - ٦ و ٧) وقد تكرر هذا التعبير عن الجبال بالرواسى ، وعن وظيفتها بقوله سبحانه (أن تُميد) وأنها بمثابة الأوتاد للثيمة . . فذهب ذلك بتفكير بعض العلماء إلى سكون الأرض وانعدام حركتها ، وبذلك قالوا . . وإليه ذهب أيضا الكثير من أهل الهيئة قديما وحديثا ، ومن هؤلاء بطليموس عام ١٤٠ ق . م ومن جاء بعده من أهل الهيئة وفلاسفة المسلمين كابن سينا والفارابى وغيرهما . حتى جاء كوبرنيكس الإيطالى فى القرن الخامس عشر الميلادى فجدد نظرية فيثاغورس التى قال بها منذ القرن الخامس ق . م وهى مرتكزة على اعتبار الأرض

دائرة حول الشمس ، ولا تزال حتى الآن هي المشهورة لدى المشتغلين بعلم الهيئة التي يسمونها الجديدة ، وهي السابقة في اعتبار الزمن^(١) .

وقد وجد بين علماء الإسلام المحدثين من مال إلى تقرير فيشاغورس وكوبرنيكس ولم ير في هذه الآيات الكريمة ما ينافي ذلك . . . وخلاصة ما ذهبوا إليه من تفسير للفظ الميدان والأوتاد هي أن من وظيفة الجبال ضبط حركة الأرض في توازن يحفظها من الشطط والانحراف إلى خارج النطاق المرسوم لها ، كما تضبط حركة السفينة بما يوضع فيها من أثقال ، فتقوى بذلك على الثبات بوجه العواصف والتيارات التي كانت جديرة بتحطيمها أو إدخال الاضطراب على مسيرتها . . . وكشأن الخيمة إذ تشدها الأوتاد إلى الأرض فتمنع العواصف من انتزاعها من مكانها ، ولكنها لا تمنعها من الحركة أو الاهتزاز . واجتماع الحركة مع القرار أمر مشاهد في الكثير من المراتب كالمروحة مثلا ، فهي تدور بحركة سريعة دون أن تفارق مكانها ، أو تضطرب - أي تميد - قاعدتها ، وكالثغاة التي تنهب الفضاء دون أن يحس راكبها بأي اضطراب . . .

بل إن بعض هؤلاء العلماء قد جاوز هذا التفسير المغفول إلى مدى غريب ، فقال : (إن الآية - وهي قوله تعالى : (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ٢١-٣١) - إنما تدل على أن الله تعالى من على عباده بنعمة عظمى هي جعله في الأرض رواسي لأجل أن تميد بهم . وتميد لغة أما بمعنى تتحرك أو تعطى . . . فهو يفهم من الميدان غير ما فهمه جمهوره المفسرين الذين رأوا أن ثمة تقدير مضاف إلى المصدر المؤول . يعني أنه تعالى جعل الرواسي كراهة أن تميد بهم ، في حين يرى أن المحذوف لام الجر فقط ، فيكون الميدان على رأيه مقصودا لجعل الرواسي تميد بهم ، إذ هي بهذا

(١) « توفيق الرحمن » ص ٤٧ لفتى الديار المصرية السابق الشيخ محمد نجيت ، وبديهي أن تخريجه هذا مخالف لكل ما ورد عن السلف وأئمة اللغة . وقد روى الترمذي في تفسير الميد حديثا يقول : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فمال بها عليها فاستقرت . . . » ولكنه عقب عليه بأنه حديث غريب ، وأعله الذهبي بسليمان بن أبي سليمان قائلا : « لا يكاد يعرف » ولكنه على ضعفه يستأنس به من الناحية اللغوية على الأقل . . .

الميدان قد أهلت للأنبات واعطاء المنافع ، ويستشهد لهذا التخريج بسياق الآيات في قوله تعالى : (. . . والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم . . .) فيقرر أن قوله تعالى : (متاعا لكم ولأنعامكم) وهو مفعول لأجله ، وقع غاية للدحو ، فكأنه قال : أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها لأجل متاعكم ومتاع أنعامكم . ولذلك يتعجب من ذهاب المفسرين إلى غير هذا الوجه ، لأنه الأظهر والألصق بالواقع في نظره . . .

هذا وقد وجد القائلون بدوران الأرض سنداً لمذهبهم في مثل قوله تعالى من سورة ياسين : (سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ٣٦ - ٤٠) فيفهمون من التنوين فى (كل) إشارة إلى الأرض فى السياق ، ويتأكد ذلك لديهم بضمير الجمع الذى ختمت به الآية فى (يسبحون) ويقولون : يجب أن يحمل الضمير فى قوله تعالى : (وكل فى فلك يسبحون) والذى ناب عنه التنوين فى كل على ضمير الجمع حقيقة ، ليوافق الضمير المسند إليه الفعل بعده ، ويعود الضميران إلى الأجرام الثلاثة المتقدمة عليها ، التى هى الأرض فى قوله تعالى : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها . . .) والشمس والقمر فى قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها) و (والقمر قدرناه منازل . . .) ولم يتقدم قبل الضميرين ما يصح أن يرجعا إليه إلا هذه الأجرام الثلاثة . . . (١)

وتحرير عبارة المؤلف أن المنوى فى تنوين كل والضمير فى يسبحون كلاهما عائد إلى جمع حقيقى هو الأرض والشمس والقمر الثلاثة المذكورات فى الآيات المتتابعة .

(١) توفيق الرحمن ص ٤٢ . . .

ويؤكد المؤلف استدلاله هذا بآية الجبال المتحركة في قوله تعالى من سورة النمل : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب . . صنع الله الذي أتقن كل شيء ٢٧-٨٨) فيقول : وليست هذه الآية في بيان أحوال يوم القيامة كما قاله بعض المفسرين ، لأن ذلك لا يلائمه ختام الآية في دلالة ذلك على صنع الله المعجز . . . لأن التعبير بمثل هذه العبارة يدل على أن الغرض هو التفكير في هذا الصنع المتقن ، ليدل على وجود الصانع وحكمته وتمام قدرته وإحاطة علمه ، وعلى أنه قادر على بعث من في القبور . . . ولا معنى لأن يخاطبنا الحق سبحانه في ذلك اليوم بأن ننظر ونتفكر في هذا الصنع المتقن . . . وقد أصبحت الجبال كثيبا مهيبا كالعهن المنفوش . . . بخلاف سيرها الآن فإنه مع كونه غاية في السرعة لا يشعر به من عليها ولا يختل به شيء من نظام العالم . . .

ثم يقول : وحينئذ تكون الآية ظاهرة في أن الأرض متحركة بحركة سريعة جدا ، لأن الجبال جزء من الأرض فلو كانت متحركة وحدها لاقتضت حركتها انفصالها عن الأرض واختل النظام . . . وطبعاً تكون حركتها على الاستدارة لأنها لو كانت على الاستقامة - أفقياً - لاختل نظام العالم ، لأن الحركة المستقيمة تقتضي اختلاف وضع المتحرك وانتقاله . . . (١) ومراد المؤلف أن لو سكنت الأرض لاستمر الليل على أحد قسميها ، والنهار على القسم الآخر ، فتستحيل بذلك الحياة التي نعرفها على الأرض ، ولانعدم بذلك كل أثر لكل ما هو حي من إنسان أو نبات أو حيوان ، وإلى هذه الأهمية أهمية الليل والنهار يشير الله تبارك وتعالى بقوله في سورة القصص : (قل رأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة . . من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل رأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ! ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ٧١ و ٧٢ و ٧٣) فبدوران الأرض اذن حدث الليل والنهار ، وبهما توافرت وسائل الحياة ، فكأنهما

(١) توفيق الرحمن . .

من الأرض كل شيء ، وبذلك استحقا الذكر لتوجيه الأنظار وإثارة الاعتبار . . . وفي هذا الصدد يقول الأستاذ العقاد : « ما الذى يمنع أن يكون دوران الأرض حول الشمس أدل على الحكمة الإلهية ، لأنها فى موضعها من المنظومة الشمسية قد أصبحت أصحح للحياة من جميع السيارات . . . » ثم يقول : « وما الذى يمنع أن تكون النواميس فى الطبيعة أدل على الحكمة الإلهية من الفوضى والاختلال ! » (١) .

* * *

لتأمل قليلا :

وقد رأيت أن أعقب هنا على كلام العلامة بنيت بما تبين لى فى موضوع هذه الآية الكريمة . وأبدأ ذلك بما ساقه الشهيد سيد قطب (رح) فى مقدمة تفسيره لسورة النمل إذ قال ما ملخصه : « موضوع السورة الرئيسى هو العقيدة : الإيمان بالله وعبادته واليوم الآخر وما فيه من أحداث ، والإيمان بالوحي والغيب والتسليم لله . . . ثم تأتى القصص لتثبيت هذه المعانى وتصوير عاقبة المكذبين والمؤمنين . . . فإذا انتهى القصص . . . أخذ يطوف بهم فى مشاهد الكون وأغوار النفس يريهم آثار صنعة الله وحكمته . . . ثم يعرض عليهم بعض أشراط الساعة ومشاهد القيامة وما ينتظر المكذبين بذلك . . . والتركيز فى هذه السورة على العلم ، علم الله المطلق بالظاهر والباطن ، وعلمه بالغيب خاصة ، وآياته الكونية . . . »

وهكذا تبرز صفة العلم فى جو السورة تظللها بشتى الظلال فى سياقها كله من المطلع إلى الختام . . . - ج ١٩ ص ١٢٥) . . .
وفى ضوء هذا التلخيص المكثف لمجاور السورة أوجه نظر القارئ إلى ما يحيط بالآية المقصودة من هذه المعانى ، وذلك منذ الآية الثالثة والثمانين

(١) القرن العشرون . . . للعقاد ص ١٣٤ ولا بد هنا من التقيب على كلمته الأخيرة ، فالعقاد رحمه الله يضع الفوضى والاختلال مقابل نظام الدوران ، وليس الأمر كذلك ، إذ القائلون بسكون الأرض يقولون بدوران الشمس حولها ، فالنظام كائن فى الحالى . . . فلا فوضى إذن ولا اختلال . . .

إلى التسعين ، ففي الآيات الثلاث ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ عرض لمشهد المكذبين محشورين للحساب بين يدي ربهم حيث يستمعون إلى تقريره الرهيب وهم مهوتون لا يستطيعون ردا : (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاؤا قال ؛ أكذبت بآياتي ولم تحيطوا بها علما ! . أم ماذا كنتم تعملون ؟؟ . . . ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون .) .

ويتغير المشهد فإذا نحن أمام مشهد آخر من مظاهر حكمة الله ورعايته في إطار الدنيا ، إذ يشد نظرنا إلى تنظيمه لليل والنهار ، وأهمية كل منهما في توفير وسائل الحياة ، ودلالة ذلك على وجوده وحكمته ورحمته سبحانه ، فهو لم يقدفنا إلى هذه الأرض عبثا ، ولم ينشرنا عليها محرومين من أسباب الرعاية ، بل أعدها لنا في نظام محكم يوفر لنا كل ما تتطلبه معيشتنا واستعدادنا وهو بذلك يقيم الحجة على هؤلاء المكذبين فلا يتوهمون أنهم مظلومون ، ويحذرنا من مثل مصيرهم في الوقت نفسه ، فلا نعطل فطرتنا التي توجهنا نحو خالقنا ورازقنا ، لئلا نسقط في هاويهم . . . (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا . . . إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

فإذا انتقلنا إلى الآية التالية وجدنا أنفسنا مرة أخرى أمام جانب من مشاهد اليوم الآخر ، حيث ينطلق دون الصور فيملأ الذعر كل قلب في السماوات والأرض . . . ويزحف الخلق إلى ربهم في ذلة اليائس من كل مهرب ، ليؤدوا حسابهم على ما قدمت أيديهم . . . (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله . . . وكل أتوه داخرين . . .) . ومن هنا تصرف أبصارنا إلى منظر الجبال تترى تلك الأعجوبة الإلهية : (وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهي تمر مر السحاب . . . صنع الله الذي أتقن كل شيء . إنه خبير بما تفعلون .) . . .

ويلزاء ذلك لا تتألك أن تتساءلي : ما شأن الجبال في ذلك الموقف الذي سيق فيه البشر إلى ساحة الحساب صاغرين . . . بعد أن علمنا من آيات

الكتاب الحكيم أن هذه الجبال كانت فيانت ، إذ أتاها أمر الله فنسفت
وسيرت فكانت كالسراب . . وقد بات الناس في موقف الحساب هذا
مشغولين ببلأثمهم وذعرهم عن التأمل في أسرار المصنوعات الكونية . فليس
في نفوسهم مكان للتفكير بشيء خارج نطاق الهول الهائل الذي يشهدون ،
والمصير الرهيب الذي يجهلون ! . . .

ثم سرعان ما نطل عقيب ذلك على نتائج الحساب ، حيث نرى كل
نفس بما كسبت رهينة ف (من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع
يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . . هل تجزون
إلا ما كنتم تعملون ! . .) .

وبعد هذا يعود السياق إلى أمور الدعوة ، إذ نرى رسول الله صلى الله
عليه وسلم يواصل طريقه في زحمة الأحداث يعظ ويذكر ويقم حجة الله
على عباده . . .

فلنرجع بصرنا الآن في نظم الآي . وأول ما يخطر على البال هو هذا
السؤال : لقد رأينا الله تبارك وتعالى يعرض مشهد الليل والنهار وحكمته
في تنظيمهما خلال مشاهد الحشر والمحاسبة ودوى الصور . . وكذلك
وعلى الطريقة نفسها جاء بذكر الجبال وما في جمود ظاهرها وحركة واقعها
من دلائل القدرة والإتيان الإلهي ، محاطا بصور القيامة وأحكام العدالة
الإلهية التي سينتهي إليها كل مشول . . .

فأى فرق بين موقع آية الليل والنهار ، وآية الجبال ؟ . . .

ليس بين المفسرين من يقول بأن انتفاع المخلوقات بحركة الليل والنهار
في الآية الكريمة خاص بما يصيران إليه يوم الحساب . بل كلهم فيما أعلم
يذهبون إلى أن المراد بذكرهما توجيه العقل إلى التأمل الواعي في ذلك التنظيم
العجيب ، ليهتدى صاحبه بذلك إلى حقيقة التوحيد ، فيستجيب إلى دعوة
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيتجنب مصير المكذابين . . .

فلماذا لا تكون الحكمة من ذكر الجبال بتلك الصورة على أساس المنطلق
نفسه : توجيه العقل للتفكير في هذا الأمر العظيم ، الذي يعطى أقوى الأدلة

على أن الذى رتب الجبال على هذه الحال لا يعجزه سوق الإنسان إلى ذلك
المسأل ! . . .

ثم لا تنس أن من أسلوب القرآن الحكيم المزج بين أحداث الدنيا والآخرة ، فكثيرا ما يذكرنا بدقيق صنع الله ، وجليل حكمته فى مظاهر الكون ، ثم لا يلبث أن يزج بنا فى مشاهد الهول الأكبر ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . . . فيكون من نتائج ذلك فى القلوب الحية تعهد يقظتها بالتأمل العميق كى لا تصرفها اللحظات العابرة عن الاستعداد للآخرة ، وحتى يصل بها الوعي إلى أن يذكرها كل شيء بمصيرها الأخير فلا تكون فى زمرة الغافلين . .

ثم أليس فى تنظيم النفس البشرية وعلاقتها بالكون والحياة والمخلوقات عن طريق الوحي الإلهي ، صورة من التنظيم القائم بين أجزاء الكون ؟
« هذا الليل والنهار . . لو انفرد أحدهما بالوجود دون الآخر لانعدمت الحياة . . بل لو كان النهار أو الليل أطول منهما الآن عشر مرات فقط لأحرقت الشمس فى النهار كل نبات ، أو لتجمد فى الليل كل نبات ،
وعندئذ تستحيل الحياة ، ففيهما إذن على حالتهما الموافقة للحياة آيات لقوم يؤمنون . . . » . .

وهذه الجبال التى اقتضت حكمة الله أن يجعلها متحركة الذرات وفق القوانين التى أقام عليها المادة . لولا قدرة الله تمسكها لأزالتها سرعة الحركة أو لفتنتها ، ولفقدت الأرض بذلك القوة المرسية ، ولتعرضت للمبدد الذى لا تستقيم معه الحياة . . فهو يحركها ويثبتها ويوازن بها حركة الأرض ، على الوجه العجيب الذى تراه .

والليل والنهار والجبال فى تنظيمها شأنها كشأن النفس البشرية حين تلتقى مع نور الوحي فتستقيم مسيرتها ، وتربط بين دنياها وآخرتها ، فيتأمن لها ذلك الانسجام الكامل السعيد مع قانون الوجود . . والويل لهذه النفس حين تعرض عن هذا النور لتتخبط فى الظلمات ! . إنها يومئذ

ستتجمع شقاء الدنيا إلى شقاء الآخرة ، فهنا ظلمات الطريق ، وهناك عذاب
الحريق . . . عياذا بالله ! . . .

وإلى هذا نتذكر حقيقة أخرى كبيرة مثيرة ، وهي أن كل جزىء من
هذه المتحركات مشمول بعلم الله بحيث لا يفلت منه ذرة ولا نواة ولا
نيوترون ، وبقدرته المطلقة فلا يزيغ منها شيء عن مهمته التي منحها لها
. . كشأن النفس البشرية ، محكومة بهذا العلم المحيط وهذه القدرة المبدعة ،
فهى خاضعة للقوانين الكونية ، بحيث لا تملك الفرار من المسئولية عين
أى عمل تأتبه ، ولا تستطيع إخفاء شيء عن صاحب الخبرة التي لا يغرب
عنها شيء مما تفعله أو تهم به . . .

وهكذا تنسجم مقدمات السورة مع خواتيمها ، إذ قضىء ساحة
الأحداث بأنوار العلم الذى دونه كل علم ، والحكمة التي دونها كل حكمة .
وأخيرا . . هذه ملاحظات من حق كل مفكر من المؤمنين أن يسمح
لها بالخطور في بابه ، وبخاصة عندما يعلم أن ليس في الموضوع تفسير
حاسم عن المعصوم صلى الله عليه وسلم أو عن صحابته أو التابعين لهم بإحسان . .
إنما كل ما قيل في آية الجبال حتى الآن اجتهاد شخصى توارده عليه الآخذون
من مختلف القرون ! . . .

وأنا شخصا قد قدمت فيما أسلفت أننى بوساطة الجهاز الإلكتروني
قد استمعت إلى حركة الجزئيات في قطعة الأورانيوم ، فلتستغرب بعد
ذلك أن تكون الجبال ، وهى أكثر تخلصا من الأورانيوم ، متحركة بمثل
مر السحاب ! .

فسبحان الصانع الوهاب الذى أتقن كل شيء ، وإليه المآب . . .
على أن حركة الجبال شيء ودوران الأرض بمن عليها وما عليها شيء
آخر ، والذى يندو لى أن ليس للقائلين بالدوران حجة في هذه الحركة .
ذلك لأنها ضرب من الحركة العامة التي تنصف بها المادة جميعا ، إذ يقرر
علماء الكونيات أن كل جسم مؤلف من ذرات - هى أساس المادة -

وكل ذرة مؤلفة من نواة يدور حولها عدد معين من الجزيئات . . . فالجسم المادى جامد فى الحس ولكنه متحرك فى الواقع . . وهذا بالطبع غير دوران الأرض .

* * *

بين النفي والإثبات :

ونعود إلى أصل البحث فنقول : إن فى فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله دقائق رائعة من مثل هذه الشئون ، فهو يثبت استدارة الأجسام الفلكية بالاستناد إلى قوله تعالى : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ٦٧-٣) . فيقول : « وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع وغيرهما ، فانه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه . والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي ليس بعضه مخالفا لبعض » .

وينقل عن بعض أصحاب الإمام أحمد رحمه الله قوله : (فى إثبات الدوران) : « لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة ، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين . . . » .

ثم قال فى شأن الأرض : وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة^(١) والظاهر من عبارته عن الأرض أنه لا يثنى دورانها إذا لم يصرح بثبوته ، فقد أثبت لها حركة بل حركات ، ووصفها بالشكل الكروى ، وهو الشكل الذى يتحدث عن دورانه فى العبارة القرية .

وفى بحث الدكتور الغمراوى الذى قدمنا منه أمثلة ، يقول فى موضوع الدوران : . . ويحتمل أن تكون أداة التعريف فى (الشمس والقمر) للعهد أو للجنس ، فإذا كان مرد الضمير - فى يسبحون - إليهما وحدهما تحتم أن تكون (أل) للجنس ، وإلا لجاء الضمير على التثنية ، وإذن فالنص الكريم يدل على أن فى السماء شمساً وأقماراً . . . كما أثبت علم الفلك الحديث ..

(١) الفتاوى ج ٢٥ ص ١٩٤ و ١٩٥ . .

أما إذا كانت (أل) للعهد فيتحتم أن يرجع ضمير الجمع لا إلى الشمس والقمر فقط ، ولكن إليهما وإلى الليل والنهار معهما . ويكون الليل والنهار إذن حركة في الفلك . والليل والنهار يتعاقبان على جز الأرض : ففلكهما إذن هو جز الأرض وغلافها الهوائي وتعاقبهما هو حركة فعلية يدل على كيفية قوله تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل . .) . .

. . وقد جاء الزمخشري في التكويد بأوجه ليس منها الحركة ، مع أنها أساس اللف واللى . . ولكن العلم أثبت حرفية معنى التكويد حين أثبت للأرض لفا ودورا حول محورها أمام الشمس ينشأ عنهما الليل والنهار . . . (١)

وإعادة الواو في (يسبحون) إلى مجموع الشمس والقمر والليل والنهار هو رأي السلف من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين ، فهذا شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله يقول : « يقول الله سبحانه : وكل ما ذكرنا من الشمس والقمر والليل والنهار في فلك يحرون . . . » . . .

وهذا الحافظ ابن كثير يقول في الآية نفسها : « يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أي يدورون في فلك السماء » ويروي ذلك عن ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني .

ولكن بعض المحدثين من الباحثين الإسلاميين زادوا على ذلك أن فسروا الليل والنهار بالأرض كما رأينا فيما قدمنا ، إذ فهموا أن ليس ليل والنهار وجود مستقل ، وإنما هما ناتجان عن جسم متحرك هو الأرض ، لأنهما ليل الأرض ونهارها دون غيرها من الأجرام ، فهما إذن خاصتان بها ولا زمان لها ، فوصفهما بالسبح إنما هو - على رأيهم - من قبيل إقامة اللازم مقام الملزوم ، وتخصيصهما بالذكر في هذا السياق لبيان أهميتهما في وجود البشر .

(١) « الوعي الإسلامي » عدد ربيع الأول ١٣٨٨ باختصار . وهو يذكر ذلك عن الأرض بعد قوله في حركة الشمس : « أما الشمس فقد أثبت العلم لها حركة في فضاء الكون سرعتها نحو ١٢ ميلا في الثانية في اتجاه النسر الواقع . . . »

وقد ذهب الشهيد سيد قطب المذهب نفسه في تفسيره لسورة ياسين
وعند الكلام على قوله تعالى: (وَأَيُّ لَهِمَّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مَظْلُومُونَ .)
إذ يقول : « فالأرض الكروية في دورانها حول نفسها في مواجهة الشمس
تمر كل نقطة منها بالشمس فإذا هذه النقطة نهار ، حتى إذا دارت الأرض
وانزوت تلك النقطة عن الشمس انسلخ منها النهار ولفها الظلام... »^(١)

وقصارى القول . في موضوع الدوران أنه لا يزال دائرا بين النفي
والإثبات عند علماء الإسلام القدامى منهم والمحدثين ، ولا يرى أحد الفريقين
في رأى الآخر ما يستدعى الخصومة واللدد فضلا عن التفكير وإهدار
الدماء ، مادام كل منهما يستمد رأيه من اجتهاد خالص في فهم نصوص
الكتاب العزيز ، دون تعصب ولا انسياق مع الهوى

ومرد ذلك كله هو أن مصادر الوحي لم تقرر حكما نهائيا في الموضوع ،
ولم يرد عن السلف قول قاطع ملزم ، فبقى بذلك المجال فسيحا أمام الاجتهاد
العلمي ، وبانتظار الكشف الصحيحة التي سيكون لها وحدها تعيين المدلول
الحاسم لمراد الإشارات القرآنية في موضوع الأرض

وأخيراً . . . على أن من حقنا ونحن بصدد النظر في أقوال النافين
والمثبتين لحركة الأرض أن لا نختتم البحث قبل أن نذكر القارئ بهذه
الحقيقة ، وهي أن الخلاف حول هذه النقطة بالذات لا يؤثر على جوهر
الموضوع ، وهو أن ثمة حركات دائرية تتشكل بها الفصول والأيام . .
سواء كانت من الأرض حول الشمس أو من الشمس حول الأرض^(٢).

(١) « في ظلال القرآن » ج ٧ ص ٢٤

(٢) لا خلاف عند علماء الهيئة في كون الشمس متحركة ، بل انهم لا يقبلون القول
بسكون أى جرم فلكي ، وقد ثبت بعد انفلاق الذرة أن الجسم المادى - أيا كان - مؤلف
من دقائق متحركة بسرعة تحول دون الإحساس بها . . . وقد اتفق على أن وضعت على أذن مضخمة
الكثرونية متصلة بقطعة من الأورانيوم ، فإذا أنا أسمع حسيها الصادر عن حركة ذراتها . .
وفي وسع أى كان أن يجرب ذلك عن طريق مثل هذا الجهاز ، وإنما المراد هنا بحركة الشمس
أو الأرض نوع خاص من الحركة الدائرية التي بها تتشكل الفصول والأيام

وقد فصل الكلام في هذه الناحية صديقنا العلامة اللبناني الشيخ عبد المجيد المغربي رحمه الله ، في كتابه (الكوكب الشرقى) الذى يناقش به نظرية لابلاس فى موضوع النظام الشمسى . . . وها نحن أولاء نقل بعض ما حرره فى ذلك قال غفر الله له : « . . . وقولهم فى الشمس بحركتها الظاهرية يعنون به أن الحركة فى الحقيقة للأرض الدائرة حول الشمس . . . وهذه المسألة منازع فيها كما يعلم مما ذكره العلامة العنجدى فى كتاب المواقف ، ويظهر ميلانه إلى القول بحركة الأرض ، وعليه إجماع علماء الهيئة اليوم ، وقد استدلووا بأمور نذكر أهمها وأقواها :

قالوا أولا : لا يصح دوران الجسم الأكبر حول الأصغر ، فالعكس هو الطبيعى . .

قلنا : إن ما لا يصح هو ما يلزم على تقدير حصوله فساد أو محال عقلى أو مخالفة لنواميس الطبيعة ، وما هنا ليس كذلك ، ولو فرضنا بطبيعة كبيرة أخذت تدور فى فضاء بعوضة صغيرة حولها لا نرى من محذور فى العقليات والطبيعات يمنع ذلك إلا فى الاستحسانات الفكرية . . .

قالوا ثانيا : كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الأرض .

وقلنا : هذا قياس تمثيلى لا يثبت حكما كما هو معروف فى المنطق ، على أن فى القول بأن الأرض كوكب نظرا . .

قالوا ثالثا : تغير ظل الأرض وقت الخسوف على سطح القمر بهيئته يدل على أنها دائرة وظلها تبع لها .

قلنا : قد يجوز أن ذاك التغير من تأثيرات حركة القمر نفسه إذ ذاك ، لأن المقابل يحدث بحركته تنقلا فيما يتلقاه من مقابله . . .

قالوا رابعا : ذبذبة البندول ، فقد وضعوه وضعاً لا يتأثر بموثر خارجى عليه فرسم خطوطا تتقاطع وتكون رؤوسها أقواسا تطول كلما قرب البندول من القطبين ، وتقصر كلما قرب من خط الاستواء ، وفيه يكون على خط مستقيم دائما . . .

قلنا : هذه الذبذبة بعينها تحصل إذا كانت الشمس هي المتحركة حول الأرض لأن المدار على وضعية الأرض من الشمس ، فوالخطوط المذكورة إنما هي من تأثيرات الحركة وتبدل الوضعية بينهما قطعاً ، سواء كان المتجزئ هو الأرض أو الشمس ، ففي الوجهين تبدل الوضعية فترسم تلك الخطوط المتقاطعة ، وهذا أقوى ما جاء في استدلالهم على حركة الأرض بحول الشمس .

ونحن إنما نقصد فيما أوردناه بيان أن المسألة أضعف من أن نعتبرها ظنية فضلاً عن أن تكون قطعية كما يتوهم من يتلقفون مثل هذه العلوم في المدارس العصرية من أبنائنا وغيرهم ، تلقفاً بدون ارتكاز على المنطق ، وإنما هي الثقة بالأساتذة والمعلمين تقنع ضمائرهم بها فيتلقونها كعقيدة أقطع عندهم ممن ببعض عقائدهم الإيمانية ، والمسألة بالنظر الإسلامي لا تضير فيها شيئاً ، وفيه ينافيها ، وعلمنا وجهلنا هل الأرض هي التي تدور أم الشمس سيان ، وإنما من الواجب أن يكون علمنا مبنيًا على أساسات متينة منطقية (١) .

وهذا التفصيل لنقاط الخلاف في موضوع دوران الأرض يأخذ به أكابر جهابذة الفلك من الأوروبيين أنفسهم ، فهذا (بو انكاريه) الذي يعتبر أكبر الرياضيين الفلكيين في أوروبا يقول في كتابه (العلم والفروض العلمية) يقولون : « إن الأرض تدور ... وأنا أيضاً لا أرى مانعاً من دورانها ، فإن فرض دورانها سهل القبول ، ويمكن به فهم كيفية تكوين نمو (الدنياوات) » (٢) ...

وما ذلك إلا لأن نتائج الحركة الدورية لا تختلف ، سواء كانت الأرض ساكنة والحركة من غيرها ، أو كانت متحركة حول غيرها ، كما علمنا مثلها بقى ذلك مثل الدرج المكهرب ، فنحن نقف عليه فيدرج بتنا إلى الدور المراد ، ولو سكن وتحركنا نحن عليه لانتهينا إلى النتيجة نفسها .

* * *

(١) الكوكب الشرق ص ٩٢ و ٩٣ . . .

(٢) دائرة معارف محمد فريد وجدي مادة « أرض » ص ٤٦ . . .

ومرة أخيرة نذكر القارئ الكريم أن الحديث لا يزال في سياق الكلام عن (الإسلام والمسيحية في ضوء العلم) ، وقد تبين من خلاله أن التصادم بين الفكر الإسلامي والحقائق العلمية الثابتة أمر يكاد لا يعرفه تاريخ الإسلام ، وإذا حدث شيء منه فمردده إلى الاجتهاد المحض ، وقصور العقل البشري عن الإحاطة الكاملة بالمعاني الإلهية . . فليس في الإسلام قرارات كنسية أو تلمودية فتفرض نفسها على عقول الأتباع دون سند من كتاب الله أو السنة الصحيحة . ولا يستغرب ذلك من دين يقول الله جل وعلا في كتابه الخالد :
(إنما يخشى الله من عباده العلماء . .)

لذلك لا يعرف الناس في تاريخ الإسلام محاكم تفتيش تقضى بإحراق أهل العلم لمخالفتهم آراء رجال الدين ، ولا أحكام حاخامين تستبيح استنزاف دماء غير اليهود لتعجن بها فطائر الأعياد ، ولا تعاليم كهنة يدفعون الجماهير العمياء إلى ذبح ألوف الأبرياء ، دونما ذنب سوى أنهم كفروا بعبادة البقر واستحلوا لحمه . . .

* * *

خطاب من باريس :

عقيب الفراغ من تسطير هذا البحث حول السماء والأرض والخلاف بين القائلين بدورانها وثباتها اطلعت على خطاب وارد من باريس إلى فضيلة العلامة ابن باز حول ما سبق أن كتبه في هذا الموضوع وما أثير حول آرائه من ردود فعل شغلت صحف الشرق والغرب . . وقد انطوى الخطاب على إشارات هامة تؤكد أن القول بثبات الأرض ودوران الفلك حولها لا يزال من الآراء الحية المدعومة بأقوى البراهين العلمية . . وفي ما يلي ترجمة هذا الخطاب - بعد الاستئذان من فضيلة المرسل إليه :-

(. . تشييو مورييس

٨٦ شارع الاكويديومس - ٧٥ باريس ١٠

فرنسا

باريس ٣ أغسطس ١٩٦٦

فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة .

لقد طالعت بطريق الصدفة في صحيفة (فرانس سوار) بتاريخ ١٠ - ٦٦-٦ بحثاً لأحد علماء الفلك يعد ثورة على جميع النظريات الفلكية المعروفة إلى وقتنا هذا .

ذلك أن الباحث يبرهن بطريقة علمية على أن الأرض لا يمكن أن تدور حول الشمس . . غير أن المجموعة الشمسية كلها يمكن أن تدور مجتمعة^(١).

وقد استدلل الباحث على هذه النتيجة بما يلي :

١ - المدارات العظمى للذرات : منشؤها . تعيينها . ثباتها الدائم في مجموعتنا الشمسية . . .

٢ - إن دائرة (فان ألن) ليست هي مركز القطب الشمالي ، كما كان متصوراً . وتناول ذلك بالشرح .

٣ - تكوينات الرياح وجذبوث المد والجزر بغير التأثير القمري باعتباره كوكبا من الكواكب .

٤ - التحديد الدقيق لكوكب (قولكين) وإمكان رؤيته وهذه العوامل تناولها بالبحث العلامة (كيل فلاماريون) في كتابه . (الفلك للعوام) بحث فيه جميع التفاصيل للحقائق المعروفة والمجهولة والمشتبه فيها . فشرح الحقائق المعروفة وكشف عن المجهول وأوضح المشتبه فيه ومن ذلك أن مجموعتنا الشمسية تشتمل على قوتين متساويتين ومتضادتين في حركتهما تتبادلان مركزهما باستمرار . وينتج من تضادهما قوة ثالثة وهذه القوة تعمل على ضبط التوازن بين الفعل ورد الفعل ، ثم بين رد الفعل وحركة جديدة

(١) هذا الوضع الفلكي المغاير للنظرية الرائجة اليوم يمكن تبينه بوضوح في ما نقلناه قبل قليل من كلام العلامة أبي الحسن بن المنادى برواية شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، إذ يقرر أن العلماء مجمعون على أن السماء - يريد الفلك - على مثال الكرة . . . تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب ، ثم يعرض للأرض فيقول أنها كرة مثبتة في وسط تلك الكرة كالنقطة من الدائرة . . . - انظر الفتاوى ج ٢٥ ص ١٩٥ . . .

أخرى ، وهذا هو الذى يسرى بين الكواكب وليس له موضع ثابت .
وبذلك يمكن التدليل على أن الأرض لا تدور حول الشمس . ثم بعد ذلك
يمكن البرهنة بطريقة أخرى مادية وملموسة : الأجواء الثلاثة لكوكب
جوبيتر (المشترى) حلقات كوكب ساتيرن (زحل) وتوابعه . وظائف
الأجزاء المختلفة للشمس مع التزامها بالقوة المحركة المركزية الشاذة فى عملها
(لا تقبل القياس) . البعد بين كل كوكب وبين الشمس ، وبين كل منها
من ناحية أخرى ووضعه لأسفل أو لأعلى . المسارات العظمى الهوائية وتكوين
الجاذبيات المختلفة لكل منها . واتجاهها ووظيفة كل منها . ثبات ميل الأرض
وكذلك باقى الكواكب . وغيره وغيره . وكل هذه الأفكار التى سردها
بالكامل فى هذا المجال يمكن تطويرها لسكى يستفاد بها فى تأييد وجهة نظركم
فى أن الأرض لا تدور حول الشمس . ويسرنى أن أجيب على أى استفسار
تبعثون به . وتفضلوا بقبول فائق التحية . .

التوقيع

تشنيو موريس

• • •

مَنَاهِجُنَا بَيْنَ التَّمْتَلِيدِ وَالْإِبْدَاعِ

أمس واليوم :

التعليم هو إحدى قضايا الحياة الكبرى ، رافق الإنسان منذ دُب على هذه الأرض ، وقد اتخذ في عهده البدائي صورة التوجيه الأسرى ، يتلقاه الطفل على يد الأبوين ومن حولهما ، ثم ما لبث أن تشعب مع تشعب الحياة ، ثم تعقد مع تعقدها ، حتى انتهى الأمر إلى أن يحل المجتمع محل البيت ، فتقلص سلطته على الإبن إلى مثل خيوط العنكبوت . .

هذا شأن التعليم بالنسبة إلى العالم ، على أنه بالنسبة إلينا نحن في هذا الشرق الإسلامي ، يحمل صورة أخرى من التطور جعلته مشكلة لم نهتد حتى الساعة إلى وضع حلولها السليمة . . فنحن خرجنا من محنة قرون خسرنا فيها قياد أنفسنا بعد قياد العالم . كان لنا حضارة ذات طابع رباني ، استمدت أصولها من كتاب سماوى ألف بين صفوف العرب ، ثم ألقى على عاتقهم مسئولية إنقاذ البشرية المحطمة من أخطار لا عداد لها ، بعضها من الأنظمة الطبقية التي كانت تمزق الجماعة الواحدة شذر مذر ، وبعضها من المفاسد الخلقية التي جعلت الحياة ظلمات مطبقة لا منفذ فيها لنور . . وبعضها من العبودية لآلهة متنازعة ، ذهبت بالبقية الباقية من كرامة الإنسان !

وخرج هؤلاء العرب من جزيرتهم إلى الدنيا ينشرون فيها الضياء ، ويدكرونها بما نسيت من معاني السماء ، فكانوا أساة كلوم ، ومناثر علوم ، يثيرون أشواق النفس الإنسانية إلى المعرفة ، بعد أن حرروا هذه المعرفة من سلطان الكهنة ، واحتكار الطغاة وبراءن الخرافات . وهكذا استطاعوا في برهة وجيزة من عمر التاريخ أن يذيعوا في الأرض مفاهيم الحرية والأخوة ، ثم لم يتخلوا عن هذه المهمة إلا بعد أن وضعوا من هذه المبادئ بذورا ، ما لبثت أن آتت أكلها ثمرات شبيهة لا تزال البشرية تنعم بالكثير منها حتى اليوم . .

كذلك كنا بالأمس أطباء الدنيا وأسائذتها الهداة المحررين . ولكن هؤلاء الأسائذة ما لبثوا أن شغلوا بملذاتهم عن رسالتهم ، ثم فتحوا السبيل

أمام سموم الأمم المنحلة تتدفق على مجتمعهم مجنوناً وزندقة وسفسطة ، فكان طبيعياً أن يسقطوا فريسة لهذه الأدوية ، ثم ينتهوا إلى المضير نفسه الذى لقيته هاتيك الأمم .

وفتحنا أعيننا فإذا نحن أمام غزو كاسح ، تنصب به علينا قوى لا طاقة لنا بها ، قد زودت بكل الأسلحة القاهرة . . وما هى إلا لحظة الطرف حتى تهاوت بقايا معاقلنا تحت سنابك هؤلاء الغزاة ، ثم تبعها أعرافنا وأخلاقنا ، إذ شرعت تنهار تباعاً تاركة مكانها لتقاليد ومشخصات لا عهد لنا بها فى جاهلية ولا إسلام ! . . وهكذا تناول الانقلاب كل شيء ولم يبق على شيء . . ثم كَانَ مِنْ نَتَائِجِ ذَلِكَ أَنْ دَاخَلْنَا الشُّكَّ فِي كُلِّ إمْكَانَاتِنَا الْمَاضِيَةِ ، حَتَّى مَقُومَاتِنَا الرُّوحِيَّةَ وَرِسَالَتِنَا السَّمَاوِيَّةَ ! .

على أنقاض هذا الصبرخ الضخم من تراثنا الفكرى والروحى أقبلنا نرفع بناء التعليم والتربية من جديد ، وليكن سرعان ما وجدنا أنفسنا تلقاء مناهج هى صورة ممسوخة عن برامج هذا الغزى ، فيها كل شيء من الحشويات الخلبية ، وليس فيها إلا القليل من الحقائق العنلية . فكأن هناك تضمناً قد وضع عمداً ، لنسف البقية الباقية من مقوماتنا الأصيلة ، فجعل في هذه المناهج الغاما راحت تنفجر فتزلزل الضمائر ، وتطمس البصائر ! .

لقد وضعت هذه البرامج كل مقوماتنا موضع الريب ، وبأيام الحرية الفكرية عمدت إلى عرضها فى إطار من الألوان القبيحة المنفرة ، فما لبثت أن عملت فى رؤوس هذا الجيل من أبنائنا ، فإذا هم يضربون عرض الحائط بكل تراثنا المقدس ، وإذا هم أخيراً يتاصفون آباءهم وإخوانهم العداء ، لا لشيء غير ما يرونه من اهتمامهم بهذه القيم ! . ومن هنا جاء هذا التهدم الرهيب للكيان الأسرى بين أظهرنا ، إذ أصبحنا نرى البيت الواحد بمجموعة من النقائض لا تنتظهما وحدة ! .

لقد عزل النظر القرآنى تماماً عن مخططات التاريخ والأخلاق والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس ، فأصبح الطالب يقرأ فى هذه المواد كل رأى إلا رأى الإسلام ! . . . وليس هذا فحسب بل إنه ليقرأ كل رأى مخالف

للإسلام ، دون أن يفسح للإسلام مجال الدفاع عن نفسه ! . . . ولعل من أغرب المضحكات المبكيات أن ترى علم الاجتماع مبنيا معظمه على أسس النظريات المادية ، التي لم ينته فيها العلم بعد إلى القول الأخير . دون أن يتعرض لما يقابلها من الحقائق الدينية ، التي تتحدث في تفصيل أساسي عن المراحل البدائية للإنسان والطبيعة ! .

* * *

هذه السموم :

لقد أصبح من المسلمات لدى هؤلاء (المثقفين) أن الإنسان خلق مجردا من كل اتجاه ديني ، ثم جاءت الحاجة تخلق له الآلهة ، في مظاهر القوة والخصب والنفع ، ثم جاء التقدم الفكري ليختصر هذه المعبودات ، ويحذف منها حتى صارت أخيرا إلى التوحيد !..

وطبيعي جداً أن تنتهي هذه الأفكار (العلمية !) إلى الاعتقاد الجازم بأن الأديان ليست - بناء على هذا التسلسل - إلا ضربا من (التقنين) لهذا التطور ، تناقلته الأجيال أولا بطريق المشافهة ، ثم عمدت إلى تسجيله في كتب مقدسة ! . . . والنتيجة اللازمة أن يعتقد الطالب والدارس أن الأنبياء ليسوا سوى أفراد موهوبين ، عرفوا كيف يستغلون ضعف أتباعهم وتطلعهم إلى المجهول ، فنسقوا لهم هذه المفاهيم الوهمية على هذه الصورة المترققة من التفكير الديني ! . . .

هذا اللغو الذي يسمونه (حقائق علمية) هو الذي ينهض على أساسه أشد نواحي هذه المناهج حساسية وتأثيرا في عقول ضحاياها من أبنائنا ، وبخاضة في المناطق التي اخترعت لنفسها مسمى (التقديمية) . . . وما هي في الواقع إلا تكذيب وقع لقيمنا الروحية ، يجعل من الكتب الإلهية وجميع الآثار الدينية أساطير لا سند لها من الحقيقة ! . . .

كنا نتناول طعام الغداء ظهر أحد الأيام ، فلاحظت ابنة لي صغيرة مشغولة عن الطعام بشيء في رأسها ، فنهبتها وذكرتها بقرب وقت المدرسة ،

ثم سألتها عما يشغلها من الفكر . فشرعت تقص على ما سمعته صباح ذلك اليوم من إحدى المدرسات ، إذ كانت تقرر درسا في مبادئ التاريخ ، وكان طبيعيا أن تعرض لقصة الدين ، على الطريقة المثبتة في الكتاب .

وتقف ابنتي لتقول للمدرسة :

« ولكن هذا يخالف لما ندرسه في كتب الدين . . حيث نرى أن آدم هو أول إنسان وأول نبي دعا إلى التوحيد ، فإذا صح هذا كان التوحيد هو الأصل ، وكان الشرك هو الدخيل ، وقد بعث الله الأنبياء لتصحيح العقيدة ، وتقويم الأعوجاج الطارئ على هذا الطريق . »

وكانت المدرسة على رأي ابنتي ، ولكنها مضطرة لتقرير ما بين يديها مما فرض عليها ، لذلك قالت للصغيرة : أنا معك . ولكن . . هكذا الكتاب يا بنيتي !

* * *

بني كتابين :

وإذا كان في هذا التناقض ما يضحك القارئ ، فلا بأس أن نزيده من ذلك ، فنقدم إليه مثلين لا يقلان غرابة عما سبق :

في كتاب (التريية الإسلامية) . لصف الشهادة الثانوية بسورية بحث في (نظام الأسرة) جاء فيه بالحرف : « . . . وكان من أمره سبحانه ألا تبدى النساء زينتهن ، ولا مواطن الزينة كالعنق والصدر . . . فإذا تقيد الرجال بأمر الله المنزل ووضحا في كتابه المين ، وتقيد النساء بهذا الأمر الذي فيه صيانة أعراضهن من عبث الماجنين . . . صلح أمر الرجال والنساء ، ولم يعد المجال متسعا للحديث عن السفور والحجاب . لأن التقيد بأحكام الشريعة يقطع جدلا يثيره بعض الكتاب والمتكلمين ، وإذا تتبعنا الآيات الكريمة في كل ما يتعلق بالمرأة وصياتها ، رأيت الإسلام يحجب المرأة عن مخالطة الرجال تجنبنا للفتنة وعواقبها . . . والذي اجتمع عليه رأي الفقهاء أن المرأة كلها عورة ، إلا الوجه والكفين ، وإبداء العورة يخالف

نصوص الشريعة ، وظاهر الآيات الكريمة ، ومخالفة أمر الله عمدا معصية
وفسوق . . . »

والكلام هنا واضح الدلالة على أن الإسلام يدفع الفتنة بمنع الاختلاط ،
وأنه يفرض ستر المرأة ، ما عدا الوجه والكفين بغير زينة . . ومعنى ذلك
أن كل دعوة إلى أى طريقة مخالفة لهذه الأحكام ، إنما هى دعوة إلى الاستهانة
بشريعة الله ، وتجرئة على مجافاتها ، وتشكيك بعلاقتها للحياة . .

والآن ننقل النظر إلى مؤلف آخر . . . هو كتاب (الأدب العربى)
للصف نفسه ، فى الصفحة ٩٠ نقرأ - فى تقديم لنص من كلام قاسم
أمين - ما يلى : « . . وكان أن قطع الرجل شوطا فى مضمار التقدم ، وخلف
المرأة فى عقر البيت مقيدة بالأغلال الجائرة . . . فظلت مسجينة فى حجابها
الأسود . . ولكن شمس العصر . . أضرمت فى العقول المتطورة الواعية ،
ثورة عاصفة على رواسب الماضى . . . »

ويعود الكتاب إلى الموضوع نفسه فى مقدمة أخرى لبائية الرصافى
عن المرأة . . . إذ يقول : « . . . وكان الحجاب يربنا رهيا حكم عليها
الجهل والتعصب أن تقضى حياتها فى ظلمته ، فعاشت محرومة من حقوقها
الإنسانية . . . »

ونحن لا نخالف المؤلفين فى الثورة بما كانت عليه المرأة - وغيرها -
من تخلف أثناء عصور الجمود . . . ولكننا نريد مناقشة حكمهم بشأن
الحجاب ، وبكلمة أصرح بشأن سلامة المجتمع الإسلامى من الاختلاط ،
على أنه السجن الرهيب ، الذى تمثلت فيه رواسب المفاصد جميعا ! . . .
هذا مع العلم بأن ثمة منفرجا واسعا بين اتجاه النصين ، اللذين ينصبان على
نواح أخرى لا يكاد يذكر معها الحجاب ، بل لم يذكر بالفعل ، إلا لما ،
وفى ثانى النصين بوجه خاص . . مما يجعل المقدمتين لونا من التشهير بمبدأ
الحجاب ، أكثر منهما تمهيدا لمضمون النصين ! . .

وهنا أذكر أن واحدا من طلابى فى هذا الصف قد جاءنى ، أثناء دراسة

بائية الرصافي ، بصفحة منزعة من مجلة لبنانية ، وهو يشير إلى جانب منها كتب في أعلاه : (هكذا تصورنا مجلة المسانية) ويلى ذلك كلام مترجم عن مجلة (كويك) الصادرة في ميونيخ ، كتبت أصله امرأة إيطالية تحت عنوان (الجنس المشلول) وقد جاء فيه : (المرأة المسلمة تعيش وراء ملءة سميكة أكثر ما تشبه شرشف النوم ومن خلال شق ضيق جداً في أعلى هذه الملءة تتصل بالعالم الخارجى ترى السماء والناس ، وكأنها وراء القضبان الحديدية في السجن وفي البلاد العربية تموت النساء بلا حساب ، حيث يمنع من زيارة الطبيب للمعالجة إذا مرضن لأنهن حيات دون أية فائدة ، فلا يسجلن في السجلات الرسمية وليس لهن اسم في الغالب ولا هوية ! . . .)

وبدهى أن الطالب إنما أراد لفت انتباهى إلى دقة التشابه بين كلام هذه المرأة الأجنبية الأفاكة ، وحكم الكتاب الذى بين يديه ولم تكن ملاحظة ذلك بالأمر العسير ، لأن مثل رأى الزملاء في تينك المقدمتين لم يكن في واقعه سوى ترجمة - أو أصل - لهاتيك المزاعم الظالمة إن (أدريانا فالارش) - وهو اسم الكاتبة - تصور الحجاب سجنًا رهيبًا يقطع المسلمة عن الدنيا ، ويجعلها محرومة من كل شيء حتى العلاج والاسم والهوية ! فجاء الزملاء الكرام يصورون ذلك في إطار (الأغلال الجائرة ورواسب الفساد والسجن الرهيب . . .) ثم يلخصون هذا كله في كلمة جامعة مانعة هي : أن الحجاب قد سلب المرأة المسلمة حقوقها الإنسانية . . . !

والقارئ العربى حين يطلع على مقتريات تلك الكاتبة الأجنبية ، لا يعجزه أن يهتدى إلى البواعث الصهيونية التى أملتها ، لإعطاء صورة مشوهة عن واقع الإسلام ولكن لا يعلم كيف يفسر عمل أساتذة من إخوانه يرمون أمهاتهم وأخواتهم بأشنع من هذه الفظائع ، وهم يرونهن بأعينهم لا يختلفن عن نساء البشر فى شيء ، اللهم إلا بما يميزهن من الفضيلة والعفة والحياء ، التى أسبغتها عليهن تعاليم دينهن الحنيف ، تحت ذلك الحجاب المظلوم ! .

على أن الذي يهمننا من هذا وذلك هو التنبيه إلى مدى التعارض القائم بين دعوة مؤلفي الأدب ، والقرار الذي انتهى إلى استنباطه مؤلفو التربية الإسلامية ، في مشكلة واحدة ، وفي كتابين لفصل واحد ، يحمل كل منهما اسم وزارة التربية والتعليم ! . . . إنه لتعارض من شأنه أن يحرم الطالب الغض كل أثر للاطمئنان العقلي ، فضلا عما يزرعه في أذهان الناشئة من ضرورة التفريق بين الدين كشيء وهمي لا صلة له بالفكر الواعي ، وبين الحضارة كنتاج علمي لا مكان فيه للأوامر الغيبية . . . وهي النتيجة التي صار إليها مفهوم الدين في ظل الحضارة الغربية ، على الرغم مما فيها من جهل مطبق بحقيقة الإسلام ، الذي لم يعرف قط في تاريخه مثل هذا الفصل بين منطق الوحي ومنطق الحياة . .

أما مسألة السفور والحجاب ، على كثرة من كتب وما كتب فيها ، فن المؤسف أن يترك أمرها لمثل هذه الفوضى ، يقول فيها كل بما يشاء . . . وعندنا أنها جزء من القضية الكبرى ، قضية مقفنا من الإسلام شعوبا ودولا . . . أنخضع حياتنا لأحكامه ، فنستشير في كل ما نأخذ وما ندع ، أم نسلخ منه فنسلم قيادنا إلى أهواء لن تراعى في هذه الأمة إلا ولا ذمة ! . .

* * *

أخلاقيهم الفلسفية :

أما الأخلاق فهي ذروة المهزلة . . . إنها في المنهاج كمادة الآثار القديمة . تدرس لمعرفة تركيبها وتاريخها وطريقة صنعها . . . لذلك تبقى بعيدة عن مجال النفس ، لا أثر لها في سلوك الطالب ولا المدرس . .

والإنسان الذي تعلمه أن الأخلاق إنما هي حصيلة التواطؤ الاجتماعي للحد من عنصر العدوان على حقوق الآخرين ، لا يحق لك أن تطالبه باحترام هذه الحقوق عندما يتاح له انتهاكها لمنفعته ، وهو بمنجاة من سلطان القانون ! . ولا شك أن مؤلفي ومدرسي هذا النوع من الأخلاق الفلسفية ، قد فاتهم أن أخلاقيهم هذه أعجز من أن تقوم اعوجاجا أو تصحح فكرة ، لأنها ولدت ميتة منذ تجريدتها عن قداسة العقيدة . . . وباليتم تذكروا أن عظماء

التاريخ من أبطال الأخلاق ، لم يتح لهم قط أن يقرؤوا حرفا مما قالوه أو قيل لهم عن الأخلاق ، ومع ذلك كانوا مثل الأخلاق الأعلى في أنحاء العالم جميعا ! .

في جريدة محلية سورية. قرأت خبرا مؤداه : أن تاجرا حلييا قد فقد حزامه الذى فيه ثروته ، وكان آخر عهده به إذ غشى دورة المياه التابعة لأحد المساجد ، وعاد فلم يجد له أثرا . وأرسل مناديا يصيح بأعلى صوته فى شوارع اللاذقية : (كمر فيه خمسمائة ريال مذهب . . من أعاده إلى صاحبه فله عشر ليرات ذهبية . .) .

. . واعترضه فقير ممن يخدمون فى بغض المساجد ، يطلب إليه أن يجمعه بصاحب الخزام . . . ولم يطل الوقت حتى كان الفقير والتاجر فى غرفة حقيرة مظلمة من فناء المسجد . . وهناك ومن تحت فراش بال محشو بالقش أخرج الخادم الخزام . .

ولم يتالك التاجر . . فإذا هو يكب على حزامه معانقا . . وأبى الخادم الفقير إلا أن يحصى التاجر محتوياته ليتحقق من سلامتها . واضطر هذا إلى أن ينفض حزامه على الفراش ثم يعدها خمسمائة كاملة . . ومد التاجر يده بعشرة من هذه (الريالات المذهبة) إلى الخادم ، ولكن هذا سحب يديه كأنما يقصيهما عن نار ! . . وألع التاجر ، ولكن الفقير كان أصلي إرادة من الصخر . . .

ولما رأى التاجر هذا التصميم على الرفض لم يفهم منه إلا أن الفقير قد استقل المبلغ ، فاضطر أن يقول له : أنها خمسمائة ذهبية . . وأنها لخمسون ليرة عثمانية من أصل ألفين وخمسمائة ! . . وقلب الصعلوك المؤمن شفيعه وهو يقول : دعها فى حزامك . . إتنى غنى عنها برحمة الله . . ونشرت الجريدة الخبر لتسجل دهشة الناس من هذه العجيبة الأخلاقية ! .

وطبعي أن هذا الصعلوك لم يدرس فلسفة الأخلاق على أيدي هؤلاء المدرسين ، ولا على أيدي أساتذتهم الغربيين ، ومع ذلك فإننا نتحدثهم جميعا أن يأتونا بأنموذج واحد من خريجي هذه الفلسفات ، يمكن أن يعف

عن الدرهم الواحد من السحت ، إذا وجد سيلا لا يتلعه . . ولا نكلفهم المعجزات برد مثل هذه الثروة من الليرات ! . .

ويحضرني في هذا المقام ذكر قصة من قلم طاغور اسمها على الغالب (البلب) وخلاصتها أن ملكا أعجب بتفريد بلبل ، فحشد الرجال لاصطياده . . وجعله في قفص رائع من الذهب ، ثم طلب إلى موسيقيي القصر أن يلحنوه لغتهم ، ليكون تغريده فنيا . وأخذ هؤلاء يحشون فم البلب بأوراق النوطة حتى نحمد نفسه وقضى نحبه ! . . .

هكذا تماما نحن ورثة التراث الإلهي مع هؤلاء المستشرقين والمترجمين والمدرسين . نريد أن نفتح قلوبنا لروحانية هذا التراث ، كما فعل أسلافنا من أساتذة الدنيا ، ولكن هؤلاء يأبون إلا أن يصرفونا عن طبيعتنا إلى نوطاتهم ! . . والمصير معروف . إنه مصير البلب . . . إنه الاختناق بهذه الغازات السامة ! . . .

ومثل هذا يقال في فلسفة النفس ، إذ تأخذ مناهجنا نظريات الغربيين أخذ حاطب الليل دون مناقشة ، وربما بطلت إحدى هذه النظريات في الغرب نفسه ، وهي باقية في كتبنا لا يحسبها تبديل أو تعديل ! . . .

وقد علم أولو العلم أن في تراثنا الثقافي ، وبخاصة في الأخلاق والرياضة الروحية ، نظريات للنفس كثيرا ما انتفع بها علماء الغرب أنفسهم ، حتى تركت طابعها المميز في كثير من هذه المترجمات . . ولكن مؤلفي الكتب المدرسية عندنا لم يبلغ سمعهم شيء من ذلك ، لأنهم استراحوا إلى الترجمة ، بعد أن أيقنوا بأن العلم كل العلم ما جاء عن الغرب ، أما ما عندنا فهو الخرافة التي لا تستساغ ! . وإنه ليوسفني ويخجلني حقاً أن أقول : إن أستاذا من الأنخصائيين في علم النفس ، ومن ذوى الشهرة البالغة في (فلسفة القومية العربية) كان يراقب مع زميل له إحدى قاعات الامتحان ، ولما وزعت على الطلاب أسئلة الدين نظر فيها متعجبا ، ثم سأل زميله مستغربا : « وما شأن القرآن في مثل هذه المباحث ؟ ! » ثم لم يستكف عن الاعتراف بأنه لأول مرة يعلم أن القرآن يتعرض لمثل هذه الموضوعات (العالية) ! . . .

كذب على التاريخ :

ولنلق نظرة إلى مادة التاريخ نر العجب الأعجب . . . ذلك لأن تاريخ العرب والإسلام في مدارسنا وجامعاتنا إنما يدرس من زاوية النظر الغربي البحت . . كل حادث يجب استقصاء أسبابه في طوايا المشاكل الاقتصادية وما إليها ، حتى الفتوح الأولى لا يجوز أن تعدو هذه العوامل ، فهي على الغالب نتيجة الفقر والجذب في الجزيرة العربية ! . أما ما عدا ذلك من الحوافز الدينية فهو عنصر ثانوى لا يستحق النظر ا . . .

ولقد هالنى أن وجدت بين مدرسى التاريخ غير واحد من خريجي الجامعة السورية ، ينظرون إلى عمر بن عبد العزيز نظرتهم إلى حاكم من الدرجة الدنيا ، حتى بالنسبة إلى خلفاء الأمويين ! . وكل ذنبه عندهم أنه عنى برد المظالم ، وفتح لمن شاء من أهل الكتاب طريق الإسلام ، ثم جمد حركة التوسع العسكرى تطهيراً للجهاد من أرجاس الشهوات ، فشحت بذلك موارد بيت المال ! . . . إلى آخر ما هنالك من عدوان على الحقيقة والتاريخ ا . . .

وقد نسوا أن وجود عمر بن عبد العزيز في تاريخ الدولة الأموية إنما كان استثناء لتاريخ النبوة ، الذى تمثل في خطة الرسول والخلفاء الراشدين من قبله . . . فجاء يتبع آثارها ، ويحيى ما اندرس من معالمها ، بسبب الانحرافات التى طرأت على سير الدولة الأموية . وهو الأمر الذى يمكن تبينه جليا في جوابه على رسالة أحد عماله الذى كتب إليه يقول : إن أهل الذمة يتهافتون على اعتناق الإسلام وفي ذلك خسارة ضخمة لبيت المال ، بما يفقده من موارد الجزية . . .

فرد عليه قائلا : « إن الله بعث محمدا هاديا . . ولم يبعثه جائيا . . » (١)

وبديهى (٢) أن المنطق الغربى الذى لا يفهم إلا المادة ، عاجز عن أن

(١) كتاب الحراج لأبى يوسف ص ٧٥ . .

(٢) البديهى : نسبة سماعية إلى البدية وهى قصيدة كسليقة وطبيعة . . .

يهضم حقائق تاريخنا الأصيل . وما انطوى وراء أحداثه من التيارات الروحية التي ولدت المعجزات . . . وإلا فن أبن للفكر اللاصق بالتراب أن يفهم مثلا كيف تستطيع بضعة آلاف من مساكن المسلمين ، أن تقهر مئات الألوف من أعظم جيوش الدنيا عتادا وتدريرا في العراق والشام ! . . وأن الإسلام الذي خسر معركة (حنين) عندما كان جنوده اثني عشر ألف مقاتل ، عاد فربح المعركة عندما تخلص من هذه الكثرة ، واقتصر على بضع مئات من صفوة المؤمنين ! . .

وأن المسلمين الذين كانوا يتسابقون إلى النجاة في إحدى المواقع ، حتى ليدوس بعضهم بعضا فرارا من ضغط العدو الزاخر . . . سرعان ما يعودون إلى المعركة ، ثم ينتزعون النصر بهذه الكلمة يسمعونها عن لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم : (إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف) (١)

وأن جيش المسلمين أيام عمر بن عبد العزيز قد اقتحم (سمرقند) حتى ركز أعلامه فوق نجادها ووهادها ، ثم ما لبث أن تخلى عن انتصاره لينسحب من البلاد ، نزولا على حكم الشريعة ، التي قضت أن الفاتحين خالفوا قوانين الإسلام ، فلم يندروا عدوهم ليأخذ حذرهم ! . . . وأن رجلا من عامة المسلمين يظفر بتاج كسرى ، وهو ثروة لا يحلم بمثلها عربي في الجزيرة ، فيحمله حتى يطرحه في غنائم المسلمين ، ثم يعود دون أن يعلن عن نفسه ! . . .

وكيف يتاح لهذه العقلية الحجرية أن تتذوق رحمة صلاح الدين ، وهو يترك ساحة المعركة دافع العينين ، ليبحث عن طفل صليبي فقدته أمه ، ثم لا يهتدأ له بال حتى يعيده إليها ويبلغها مأمنها ! . وتسقط القدس في يديه ، وينزل أعداؤه على حكمه ، فيكتفي منهم بتعويض يسير يعني منه كل ضعيف وفقير ، ثم يسمح لهم بالنزوح حاملين أموالهم وكل ما أهمهم ، متناسيا أن هؤلاء أنفسهم هم الذين ذبحوا بالأمس القريب سبعين ألفا من إخوانه في ساحة المسجد الأقصى ، حتى غرقت قوائم خيولهم بدماء هؤلاء

(١) رواه مسلم عن أبي موسى وفي المشكاة برقم - ٣٨٥٢ - . . .

اللائذين بهذا القناء من الأطفال والشيوخ والنساء !!! وأن عسرة تثناب
المجاهدين في أحد المآزق ، ويستبطنون النصر حتى يلوذ واحد منهم نربه ،
فيقسم عليه : لينصرون المسلمين وليكتبن له الشهادة في سبيله . . « فاذا النصر
يتنزل ، وإذا الرجل يكرمه الله بالشهادة ، فيكون ذلك واحدة من معجزات
الرسول الذي أنبأ عن مثل هذا بقوله : رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم
على الله لأبره (١)

وأن خالد بن الوليد قد تحدى كل قوانين الطبيعة يوم فتح العراق ،
حين أخذ السم فاستفه على اسم الله ، فبرهن للرجل المؤمن بالسم ، أن
عزم المسلمين موصول بالقوة التي لا يقهرها شيء من قوى الكون .

. . وأن رجلاً من عامة المسلمين في جيش مسلمة بن عبد الملك قد
حقق لإخوانه فتح الحصن الذي استعصى عليهم . . . فلما جاء وقت المكافأة
اختفى الفاتح ، ثم لم يظهر نفسه للقائد إلا بعد أن أخذ عليه العهد ألا يكتب
اسمه في صحيفة ، ولا يأمر له بشيء ولا يسأله من هو ! .

فكان مسلمة لا يقوم بعدها في صلاة إلا قال : (اللهم اجعلني مع
صاحب النقب . .) ! . وأخيراً . . هل في مقاييس المادية والديالكتيكية
أن يحدث ما حدث في بورسعيد يوم العدوان الثلاثي . . إذ نسف العدو
أقنية المياه ، فقطع الحياة عن البلد المجاهد ، ثم أطلق القذائف المحرقة تلتهم
الأخضر واليابس ، في حين كانت الطوائر تمطر الأرض بسحاب من
المتفجرات المدمرة والناسفة . . حتى سدت كل منافذ الحياة . . فلا ماء للشرب
فضلا عن الإطفاء ، ولا سبيل للوقوف بوجه النار الزاحفة ، ولا سبيل إلى
الفرار منها . . . وتطلعت القلوب إلى علام الغيوب ضارعة إليه مخلصه له
الدين . .

وسرعان ما أقبل جواب السماء ، ففتحت أبوابها بماء منهمر ، خمد
به البلاء . . ورويت منه الأحشاء الظماء . . . !

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة . . .

أكبر الظن أن الذين سيؤرخون لمركة بور سعيد ، من هؤلاء الغربيين أو المستعربين ، سيحذفون هذه العجبية أو سيقولون : (وكان من غرائب الصدقة أن تهطل الأمطار على غير انتظار . فتطوى النار ، وتسلم بقية الديار ! . . .) والصدقة عند هؤلاء هي كل حقيقة لا يعرفون لها وصفا ، في حين أنها عندنا صورة من القانون الإلهي الذي يعجز التحليل المادي عن أن يجد له التعليل الوياضي .

* * *

عقليتان :

إن ما هنا ضربين من العقليات والمفاهيم . لا أحسب عاقلا يقول بإمكان التوفيق بينهما ، ضرب لا يؤمن بما يخرج عن حدود بصره وبطنه ، وضرب يصل بالنظرة الواحدة بين الأرض والسماء ، فلا يرى لشيء أن يحدث إلا بأمر من الله . . . لذلك تراه يعلل كل شيء وفق مقياس إلهي ثابت ، يوقن بأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل . ولا ريب أن نظرتين بينهما هذا التضاد لا تيسر لإحدهما الحياة إلا على أنقاض الأخرى ، وهذا يعني أننا بين أمرين : إما أن نوثر مذهبنا في دراسة الحياة وتربية الأجيال ، فنحتفظ بخصائصنا ومقومات وجودنا ، بوصفنا أمة الرسالة الخالدة ، وإما أن نسلك مذهب الغربيين أو الشرقيين - وكلاهما سواء - فتتخلى إلى الأبد عن وجودنا الإسلامي ، ونقطع كل صلة بين أبنائنا وبين رسالة آبائنا : . . . ولا وسط بين المذهبين ، ولن ينفعنا ما نوهم به أنفسنا من هذا الترقيع ، الذي لا يؤخر الكارثة فضلا عن أن يدفعها . . .

* * *

الحقائق والتطور :

شكا إلى ذات يوم مدير إحدى المدارس الخاصة ما يحسه من تفشي الإلحاد بين عدد من تلاميذه . وفاتحنى في طرد بعضهم خشية أن تسرى هدواهم إلى غيرهم ! . . . واستغربت شكوى المدير ، وعجبت كيف يستغرب مثل هذه الأمور ، وهو نفسه يتولى إثارتها في نفوسهم من حيث

لا يدري . . . وذلك عن طريق علم الاجتماع الذى يبسط لهم نظرياته المسادية ،
فيملأ صدورهم شكوكا بما يسمعون له لدى سواه من التعاليم الدينية ! . . .
ولا أذكر إذا كنت قد قلت له : إن هذا الطرد إذن سيكون نصيب معظم
الطلاب يوما بعد يوم . . . ما دمت لا تجد علاجاً لذلك البداء إلا بهذا الدواء ! .

ورب قائل : هذه سبيل الإنسانية كلها اليوم فى كل مدارس الأرض ،
فلا مندوحة عنها ، وإلا انقطع بنا الطريق . وحسب الإسلام أن تركنا له
ساعتين من الدروس الأسبوعية ، ثم جعلناه واحداً من موضوعات الامتحانات
العامة . . . وهذا وحده كاف لتصحيح مفاسد المناهج — إذا كان ثمة
من مفاسد ! — .

وهى كلمة فيها الكثير من ظواهر الإنصاف ولكنها خلو من حقيقة
الإنصاف ، وذلك لأن الدعوة إلى تصحيح المناهج ، وفق مقاييسنا الإسلامية ،
ليست دعوة إلى إلغاء الحقائق العالمية المشتركة . . . فروح الإسلام نفسه تقضى
أن (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها) وعلى هذا فكل حقيقة علمية
ثابتة هى فى طبيعتها قرآنية ربانية ، لأنها قائمة على أساس السنن الإلهية ،
التي يدفعنا الله دفعا إلى اكتشافها والانتفاع بها ، ويحذرنا أن نصرف عنها
وجوهنا فنكون كمن (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون
بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . . .) (٧ - ١٧٩)

وكل ما ندعو إليه هو أن نعى أنفسنا ونفهم رسالتنا أولا ، حتى إذا
فعلنا ذلك اتضحت لنا أهدافنا ، فعلما أننا لم نخلق لنكون عبيدا نسوق
ركاب القوم ، بل طلائع الركب نعود الإنسانية إلى الجماعة .

ثم إن العالم المتخبط من حوزنا فى وسول الشهوات وأضاليل النظريات ،
أحوج ما يكون إلى من يحمل إليه النور ، فإذا استطعنا أن نفعل ذلك استعدنا
مكاننا الأعلى فى منازل الحياة ، وكان لنا كأمننا الغابر دور المنقذ ، الذى
يهب للعالم ما لم يهتد إليه حتى الآن من الحلول لمشكلاته التى لا حزداد إلا تعقيدا

واستعصاء . . وهذا لمن يكون تجاوزا للوظيفة الطبيعية التي ألقاها القدر على عاتق المسلمين حين اصطفاهم لحمل رسالة السماء ، فجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

أما إذا اكتفينا من التربية والتعليم باتباع هؤلاء وأولئك على العمياء . فلن نزيد العالم إلا حفنة من الوقود تضاعف من قابليته للاشتعال ، ولن نوفر لأنفسنا يومئذ شيئا من الشعور بالسعادة ، التي يحسها من أبقن أنه قدم إلى إخوانه في الإنسانية أى خير أو عزاء ! .

على أن من أعجب المضحكات التي تواجهك ، من أولئك المسحورين بهارج الغرب ، ادعاءهم أن مقاييس الأمم ، أيا كانت ، عاجزة عن الوقوف أمام حركة التطور العالمى ! . . فهم لا يستطيعون أن يعقلوا — مثلا — كيف يتعرض كل شيء للتبدل ، حتى أوضاع الشعر ، وأحذية النساء ، وأدوات الطبخ . . . ثم تبقى معايير الأخلاق جامدة في معزل عن تلك الحركة ! . . .

ولو هم قد أنعموا الفكر ، لعلموا أن هذا التغير الذى يدهشهم إنما يتناول فى الواقع سطوح الأشياء دون أعماقها ، إذ لو صح ما يذهبون إليه من إخضاع كل شيء له ، لاستحال إطار المدنية ، ولزلزلت موازين العلوم الطبيعية ! . . لأن القوانين الكونية نفسها تكون إذ ذاك محكومة بهذا التحول المستمر ، وهو شطط لا يقول به عاقل . . ومتى أدركوا هذا سهل عليهم أن يتحققوا أن للأخلاق الأساسية كذلك قوانينها الخالدة الراسية كقوانين المادة تماما ، وهى بالنسبة إلى المجتمعات البشرية نقاط انطلاق ، ينبغى أن تنبثق منها كل التطورات الاجتماعية ، كما تنبثق أشعة الدائرة من جوانب المركز ، فهى تمتد هنا وتمتد هناك ، وتمتد من كل جانب ، ثم تنفرج كلما أمعنت فى الامتداد ، حتى تبدو فى نهاياتها كأنها متعددة المصادر ، مع كونها فى الحقيقة موحدة المنبع ، لا تتحرك إلا وفق القانون الذى يربطها بالمركز . . .

ولكن هذه حقائق تتطلب العقل الذى لم يفسده التقليد الأعمى ،
وهيات أن يدركها من حرم معرفة نفسه ، ومضى على آثار غيره ، دون
أى تفكير أو تقدير ! . . .

هذه سيلنا :

ونحن - العرب - أمة صغيرة بالنسبة إلى من حولنا من كبريات الأمم ،
إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية الأعداد . وإذا نظرنا من زاوية الفكر العالمى
انحدرنا إلى أدنى في سلم القوة . . . فأين نحن من الصين والهند والاتحاد
السوفياتى والولايات المتحدة ! . . . وأين رسالتنا الفكرية - على وضعنا
الراهن - من الديمقراطية التى تستوعب ثلث العالم ، ومن الماركسية التى
تشمل نصف العالم ، ومن الوثنية التى تستغرق بقية العالم ! . . .

على أننا - نحن العرب - نستطيع أن نكون إحدى القوى الكبرى
حين ندخل الدنيا من باب الرسائل العالمية ، فنقدم للإنسانية الحاضرة
نظام الحياة الكامل ، الذى ما فتئت تفتش عنه منذ قرون وقرون . . .

بهذه الرسالة يمكن أن نكون شيئا ثقيلا في ميزان العالم ، إذ ندخله
كالطيب العظيم ، حين يقبل على بلد منكوب بالطاعون ، أو كالمصباح
القوى عندما يرسل شعاعه في ليلة ملهمة الظلام . . وما لم نرفع لواء هذه
الرسالة من جديد فنحن صائرون لا محالة إلى الدوبان في إحدى الكتل
البشرية ، مهما أبدعنا في اختراع الشعارات المزوقة ! . .

. . . هذه عناصر رئيسية في الفكر التربوي الذى نريد ، فإذا أيقنا
بحقيقتها سهل علينا الفهم أن مادة الدين لا يتفعها أن تعطى حصتين أو ثلاثا
أو عشرة في الأسبوع ، إذا كانت المواد الأخرى قائمة على أساس مناف
لحقائق الدين . . والطالب الذى يتعرض لهذا التناقض لن يكون إلا فريسة
للسك أو النفاق ! . وفي هذا أكبر البلاء على الأمة . .

وعلى ضوء هذا الوعى سنجد يومئذ الطريق إلى المنهاج السليم ، الذى
يضمن لنا تكوين الجيل الصالح أبناء الحياة . . ذلك المنهاج الذى تتعاونون

فيه أجزاء المواد جميعاً لتؤلف الكل التام . وفي ظل هذا التنظيم لن يوجد المدرس الذى يستخدم مادته لإفساد القلوب ، ولن يوجد الكتاب الذى يسئ الأضاليل حقائق ، ولن يوجد معلم الدين الذى يهرب التلاميذ من النوافذ لينعم بالراحة ، وهو يسجل فى صحيفة الصف الدرس الذى لم يقرره ! . بل سيكون كل مدرس يومئذ ، وكل مادة ، دعوة حية إلى الخير والحق ، وبرهاناً قوياً على أن غاية التربية والتعليم تفجير منابع القوة الخيرة فى قلب الطالب ، حتى يكون العضو الصالح لأمة وإنسانيته . . ونحن حين ندعو إلى هذا المنهاج ، إنما ندعو إلى النهج الذى يعد عنصراً أصيلاً من حياتنا العلمية المبشرة ، يوم لقنا الدنيا : أن العلم هو أفضل ما وهب الخالق لعباده من النعم ، التى يحررون بها أنفسهم من كل عبودية لغيره .

ومرة أخرى نقول : إن تصحيح المنهاج لا يقتضى محو جميع خطوطه ، حتى التى تتناقض مع مبادئنا الأساسية الثابتة لا ندعو إلى إلغائها ، إذا كانت لا تزال مما يهتم به لدى الأمم الأخرى . وكل ما ندعو إليه هو أن يكون فى هذا المنهاج متسع لنظرات الإسلام فى كل ما يعالجه من شئون . . حتى يتاح لذهن الطالب أن يتعرف بصورة دائمة رأى الإسلام فى كل منها . .

ولقد كان هناك من يعتذر بأن البحوث الإسلامية لن تيسر الحصول على نظريات كاملة فى هذه المواطن الحساسة . . لأنها بطبيعتها جديدة لم تعرف قبل عصر النهضة ، فلم يتح بحثها لعلماء الإسلام ومفكره أيام حضارة الإسلام ! .

ومثل هذا الزعم أصبح واضح العوار لسببين : الأول أن فى القرآن والسنة أسس هذه القوانين ، وهى لا تزال بانتظار العيون الحاذقة التى تستكشفها ، وهذا أمر بات أكثر سهولة مما سبق ، بما اكتشفه العقل الحديث من آفاق العلوم التى قرر القرآن أصولها الكبرى . . وأما السبب الثانى فهو ما أخرجه جهابذة الإسلام المعاصرون من مؤلفات قيمة فى هذه الموضوعات قدموا بها للعالم مقررات كاملة فى السياسة والاقتصاد والأخلاق والنفس والحرب والسلام والقانون . . وما إلى ذلك مما يقن نظرة الإسلام فى هذه

المبادئ العالمية . . . وبذلك أضحي كل إغفال لهذه الحقيقة جهلاً فاضحاً
مبادئنا ، أو تخطيطاً متعمداً يسلخنا من هذه المبادئ ! . . .

* * *

تكذيب التاريخ :

على أن الكتاب المدرسي ، مهما يحقق من التكامل . سيظل محدود
الأثر ، إن لم يظفر بالمدرس الذي ينسجم معه عند نقل محتوياته إلى صدور
طلابه . . . والويل لهؤلاء الأبرياء حين يكون مدرستهم من الضرب الذي
فسدت طويته ، فلا يجد شفاءه إلا في الإفساد والتشويه ! .

لقد عرضنا فيما تقدم صوراً من الكذب على التاريخ ، فلننظر الآن
إلى صور مقابلة من تكذيب التاريخ .. ذلك التكذيب الذي تحوكه أنامل
الضغينة المشبوهة ، لتزلزل ثقة الأمة بمثلها ورجالها . . ثم نتساءل : إلى
أين تدفع الأجيال حين يتولى قيادها الفكرى هذا الطراز العجيب
من المدرسين .

قرأت في إحدى الصحف خبراً عن مدرس لم يرقه أن يحمل الكتاب
المدرسي أى إطراء لصلاح الدين الأيوبي ، فراح يعمل به طعناً وتجريحاً ،
ويقذفه من التهم بما لم يسمع به شرقى ولا غربى ممن أرخوا لهذا البطل . .
وكنيت أعرف حادثتين من هذا النوع : . أما إحداها فبطلها مدرس من
الطراز نفسه ، وقف ذات يوم فى ملائ من طلابه القانونيين . . يعلن بكل
(رجولة) أن صلاح الدين لم يقم له التاريخ وزناً ، إلا بعد أن جاء الجنرال
غورو فركل قبره بقدمه ! . وهى كلمة لا أستبعد أن تكون أحد العوامل
التي دفعت به مؤخرًا إلى كرهى الوزارة فى إحدى الحكومات التقدمية (!) . . .

وأما الثانية فقد شهدتها إحدى مدارس الساحل السوري ، حيث وقف
أحد المدرسين من الاتجاه ذاته ، يورد قريبا من شتائم زميله ، ويجرد قاهر
الصلبيين وأعوانهم من كل فضيلة ، ومن كل أثر فى تحرير هذه الديار
من أغلال الاستعمار ! . . .

هذه وقائع ثلاث تعددت أمكنتها وأزمته ، واتحدت في ملابساتها ودلالاتها ، فهي تستهدف تشويه شخصية صلاح الدين في أذهان الجيل الجديد ، وفي سبيل ذلك لا تستنكف أن تكذب على التاريخ ، وتتنكر لحقائقه ، التي أصبحت من التواتر بحيث لا يفكر بمهاجمتها إلا من أراد تحطيم قرنيه (١) . . .

بقي أن نتساءل عن الحوافز الخفية التي تدفع هؤلاء السادة إلى مثل هذه المحاولات البائسة . . . ! وهنا نجد أنفسنا تلقاء المشكلة عينها . . . مشكلة الإسلام الذي لا يستطيع سلخ صلاح الدين عن رسالته وعن فعالتيه ، فكل إطار لهذا البطل إنما هو في الواقع تمجيد للإسلام الذي صنع شخصيته ، وكون عبقريته ، وجعل منه واحدا من عمالقة الدنيا . . . باعتراف خصومه المنصفين من الصليبيين ! . .

لقد نبت صلاح الدين في ظل أستاذه العظيم الشهيد محمود نور الدين زنكي ، ثم مضى على سننه بحجي سنن الإسلام ، فيقيم دعائمه ، ويحصن معاقله ، ويظهر صفوفه من الهدامين ، الذين مزقوا من قبل شمله حتى أطمعوا به من لا يدفع عن نفسه ، وبذلك أعاد لدولة الإسلام هيبتها ، ورد إلتها وحدتها التي طال بها العهد ، حتى أصبحت من أحلام الماضي ، ومن ثم صدم الصليبية الباغية بالقوة القاضية ، التي خلصت من عناصر الهزيمة ، فلم يكن إلى قهرها أو دحرها من سبيل . . .

وطبيعي أن خطة صلاح الدين تلك لم ترض عنه جميع الناس ، وبخاصة أولئك الموتورين ، الذين تنفجر صدورهم حقدا على الإسلام . . . وقد حدثنا التاريخ بردود الفعل الآثمة التي قصدت اغتياله وهو في أخطر مواقف الدفاع عن الوجود الإسلامي في هذه الأرض ، لا مرة بل مرات ومرات ، فلم تكن ليزيده إلا تصميما على خطته ، إذ ملأته يقينا بأن القدر لا يحفظه من

(١) في أحد المراكز الثقافية في بلد « تدمر » ، وفي إحدى المناسبات المتصلة بقضية فلسطين ، تحدث أحد المتكلمين عن حطين وبطلها العظيم . . . ولم يكن ذلك بما يتفق مع أهداف الحزب الحاكم فأخذ هتافوه يصرخون : تسقط حطين التي جاءت بصلاح الدين !

من هذه المؤامرات ، إلا ليحقق به مهمة الإنقاذ لهذه الأمة من أعدائها
المسعورين ، المتعاونين في الداخل والخارج على اختلاف أسمائهم وألوانهم
ونحن اليوم إذ نشهد هذا التشويه المتعمد لعظمة هذا العملاق ،
لا نستطيع إلا أن نلتبس بواعثه البعيدة في مسارب الحقد التاريخي ، الذي
تهدر من هناك ... من أعماق الماضي ... أجل إنه امتداد لتلك المحاولات
الرهيبية ، التي طالما عملت للقضاء على أهداف صلاح الدين باغتيال شخصه ،
تتحرك اليوم لاستكمال هذه المحاولات باغتيال ذكره ! .

ولكن خاب قال القوم . . لقد جهلوا أن الذي صان حياة البطل ،
حتى أتم رسالته ، هو نفسه الذي يتولى اليوم رعاية ذكره ، في مواكب
الخلود . . حتى تكون القدوة العملية للجيل المؤمن ، في عملية الإنقاذ القريبة ...
ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الموتورون والمضللون والملحدون
ومن ورائهم الباطنيون . . .

* * *

التعليم الديني :

يحسن بي أن أتساءل أولاً : هل على أن أفرد موضوع الدرس الديني
بطرف خاص من البحث ؟ لا جرم أن مادة الديانة تؤلف وحدة أساسية
من المنهج التعليمي في كل بلد إسلامي ، فهي إذن جديرة بأن يعيرها المفكر
ما تستحقه من العناية . .

ونظرة إلى تفاصيل هذه المادة ، في برامج الدولة ، تعطى الباحث
صورة مركزة عن أهميتها في المجال الثقافي ، فهي ليست مجموعة من الرموز
والطقوس والأحكام الخاصة بالجنتابة والاستبراء ، وما إلى ذلك مما يحسن
تركه لحكمة المدرس وتوجيه البيت ، بل هي في الواقع - وبخاصة في صفوف
الشهادتين - موضوعات قيمة ، تبحث أهم مشاكل الفرد والجماعة
في نطاق الكيان الإنساني ، على ضوء الكتاب والسنة وتحقيقات الأئمة . ومن
هنا كانت مادة الديانة في وضعها الراهن مادة ثقافية ، ذات أثر فعال
في تكوين « الفكر الإسلامي » .

وأراني مضطرا إلى الإلحاح على تحديد هذا الأثر ضمن حدود الفكر وحده ، ذلك لأن الدين هو الشيء الوحيد الذي لا تغنى فيه المعرفة النظرية عن التطبيق العملي . . فنحن قد نمد الطالب منه بما يمكنه من البحث والدرس والتغلب على مصاعب الامتحان ، ولكننا لا نستطيع أن نشق به الطريق إلى قلبه ، لنجعله عنصرا من تركيبه الطبيعي ، على الوجه الذي يحقق انفعاله به وتذوقه لمعانيه . . ما دمنا واقفين به عند حدود العمل الذهني الصرف .

ولعل قصور الكثيرين عن الإحاطة بهذه الحقيقة هو الذي يقيم الحاجز بين علمهم بالدين ، كموضوع ثقافي ، وبين إحساسهم به ، كطاقة تملأ الكيان كله بإشعاع يضيء ظلمات المجهول .

وبهذا التمييز بين الدين كعلم مفهوم ، والدين كسلوك منظور ، روى عن بعض الصحابة قولهم : « كنا نتعلم الآية من كتاب الله فلا نتجاوزها إلى سواها حتى نتعلم العمل بها » . .

وبمثل هذا الإدراك الواعي ، كان (نيومان) يحدد الإيمان الحقيقي بأنه الذي يصدر من الكيان كله لا من العقل وحده^(١) .

وكان برنارد شو يعرفه بأنه « إحساس يتصف بالسمو والحيوية ويسيطر على الشهوات الدنيئة . . التي لا يجد الإنسان التافه أية حاجة للسيطرة عليها ، إلا بمقدار ما يتعلق الأمر بمراعاة الأعراف السائدة في مجتمعه » .

وإنما كان ذلك لأن الإيمان هو القوة الخفية التي تنفذ الإنسان من تفاهة الهدف الذي ينتهي ، إذ يطل به على الهدف الذي لا ينتهي ، ولو عاش ملايين السنين ، وذلك بما يمنح بصيرته من سعة الآفاق .

وبديهي أن في هذه الحقيقة ما يجعلنا نؤمن أن (التربية الدينية) ليست تعليما يستهدف حشو الآذان بطائفة من المفاهيم الفلسفية ، ولكنها ، قبل ذلك ومع ذلك ، تدريب روحي على تحقيق هذه المفاهيم ، يجعل الطالب قادرا

(١) انظر ص ٢٨٥ و ٢٨٧ و ٢٤٦ من كتاب « سقوط الحضارة » ترجمة أنيس

زكي حسن . . .

على ترجمتها إلى سلوك منظور . . وإلا كان كالمريض الذى يدرس وصفة طبيه حتى يستظهر حروفها ، ولكنه لا يفكر بتنفيذها عمليا فى معالجة دائه ١ - على تعبير العلامة المودودى - . . .

ولعمري ليس فى منهاج التربية الدينية ما يشكوه المفكرون ، أكثر من هذا الفراغ الخيف بين المفهوم والمنظور . . فالطالب إذا أصاح إلى درس الدين فإنما يصنع هذا مدفوعا برغبة النجاح ، ولولا ذلك لما أعاره أى اهتمام ، يضاف إلى هذا أنه قلما يجد من آثار هذه التعاليم فى سلوك معلمه ما يحببها إلى نفسه . . . ١

لقد كلفت إعطاء بعض الدروس الدينية لصنى الكفاءة والثانوية فى مدرسة خاصة .. فكان من أوائل توجيهاتى هناك أن وجهت نظر الطلاب إلى قيمة الدين فى حياة الإنسان ، وفى نظرتة إلى الوجود ، ثم قلت : أنا لا يهمنى نجاحكم فى الشهادة بمقدار ما يهمنى تكوين العزائم التى تستطيع ، بما تفيده من هذه الدروس ، أن تهض بعبء إحيائه فى صميم المجتمع . . إنكم بحاجة إلى معرفة حقائق الإسلام ، ولكن الإسلام بحاجة كذلك إلى من يترجم حقائقه إلى أعمال ، فى البيت والمدرسة والمصنع والدولة . . « وكان متعذرا على الطلاب أول الأمر أن ينظروا إلى الدين على ضوء هذا التوجيه ، لأن فكرتهم عنه لم تكن مما يرتفع إلى هذا المستوى ، ولذلك قوبلت كلماتى بكثير من الدهشة ، بل إن بعضهم لم يطق كتمان حيرته فراح يتساءل : وما شأن الدين فى هذه الجوانب من الحياة ؟!

والطلاب معذورون فى موقفهم ذلك ، فهم لا يكادون يعرفون شيئا عن الدين بنعامة والإسلام بخاصة ، وأنى لهم ذلك بعد أن تنى الإسلام من البيت والشارع والمدرسة ، وعزلوا هم فى هذه المدارس الخاصة عن كل صلة به ، حتى فوجئوا بدروسه على غير استعداد !

ولا أحدثك عن أسطورة إذا قلت : إن طالبا فى صف ثانوى ، وأبوه مفتش فى التربية والتعليم ، قد كتب لى فى مسابقة أدبية : أن خطيب الجمعة يلقي خطبته عقيب الصلاة . . ولما سأله : فى أى مسجد رأى ذلك ؟

أجابني في إصرار : لم أدخل مسجداً ، ولكن حدثني بذلك من دخل
المسجد . . !

فهل تبيع لنفسك لوم هذا الفتى ، وهو الذى لم يسمع فى بيته كلمة
عن الدين . . ثم انتهى إلى الحلقة الثانوية دون أن يجد أية حاجة لدرس
الدين ؟ . . !

وفى إحدى مدارس الراهبات أنثرت بإنهاء مهمتى ، بعد ثلاث سنوات
من التدريس ، وذلك لسبب بسيط هو أنتى أريد من تلميذاتى ، فى صف
الشهادة الثانوية ، أن يحافظن على مظاهر الحشمة حين يحين موعد درسى
على الأقل ، وهو أمر لا تطيقه المدرسة ، التى لا ترى من مصلحتها أن
يبقى للإسلام أى أثر فى حياتهن . . ! فهل تبيع لأنفسنا لوم هؤلاء الطالبات ،
وقد تخلى أهلوهن عنهن ، فلم يزودوهن بشيء من خصائص الإسلام . .
ثم التهمهن المخضن التبشيري ، فلم يدع لهن ميلاً للاتصال بهذا « البعج »
الرهيب !

والآن نعود إلى ما بدأنا به هذا القسم . . .

الحق أننا حين نتحدث فى موضوع التعليم الدينى كمادة مستقلة إنما
نفعل هذا مجازاة للواقع الذى لا سبيل إلى تجاهله . . وهو واقع مباين
لمبادئنا التى لا تسمح بعزل الدين عن أى من جوانب الحياة . ذلك لأن
امتيازنا كأمة إنما ينهض على أساس من هذه الحقيقة ، التى جعلت أسلافنا ،
من حملة التراث الإلهى ، يربطون كل أعمالهم بسبب من الاتجاه إلى الله ،
فلن تقرأ لهم بحثاً فى الفقه أو التاريخ أو الفلك أو الطبيعة أو النفس ، إلا
وجدته يرف بنور الإيمان . . .

وهنا أتذكر مناسبة جمعت ثلة كبيرة من رجال التعليم ليستمعوا إلى
محاضرة ألقاها علينا أحد الكبار من موظفى هذا الملاك فى سورية . كانت
تلك المحاضرة قيمة إلى حد أنها لم ترض سوى القليلين من المجتمعين . .
وكنت واحداً من هؤلاء ، فكتبت إليه فى اليوم التالى تعليقا مطولاً اجتزئ
منه هنا بالسطور التالية ، لما لها من صلة بما نحن الآن بصددده . .

تقدير وتذكير :

« . . . إن وقفتك القصيرة القوية على موضوع الدين في (التعليم الموجه) كانت مثيرة وناجحة ، إذ عرضت للأمر بقوة الناقد الحبير لا المتعصب الفارغ . فأذكرت السامعين من المعلمين : أن موضوع الدين من الأهمية في إنشاء الجيل الطالع بحيث يكون من الحياة إهماله أو إفساده . لأن حاجتنا إلى القلوب العامرة بالإيمان ليست دون حاجتنا إلى الرؤوس المشحونة بالمعلومات . وأستطيع أن أضيف إلى ذلك العنصر — عنصر الدين — فكرة (الرائد) أو (مرشد الصف) ثم فكرة تحويل المدرسة إلى (مركز إشعاع) بالنسبة إلى البيئة الاجتماعية . . . »

هذه نقاط ، وإن تعددت في الحساب ، يمكن اعتبارها أجزاء لفكرة أصيلة واحدة هي فكرة « التوجيه الراشد » الذي لا سبيل إليه إلا العناية بالتكوين الروحي ، الذي لا سبيل إليه أيضا إلا بتكوين الضمير الرفيع في صدر المعلم ، حتى يستيقن أنه لا يعدد أياما ليتقبض راتبا ، وأنه ليس موظفا لمصلحة قوم بعينهم ، ولا هو رسول فكرة أجنبية ، كل همه من التعليم هو أن يهتبل القرص لدسها في أدمغة طلابه ! . . . ومن هنا يتبين أننا أمام وحدة موضوعية لا مندوحة عن فهمها أولا ، ثم استكمال وسائلها التطبيقية ثانيا ، وأختصر لأوجز رأي في هذا الأمر :

لقد تبين من حديثك أن البلاد مشرفة على مرحلة من التربية الجديدة تقوم أول ما تقوم على سلامة الفطرة ، ثم على أساس من الإيمان الصحيح ، الذي به وحده تنفجر الطاقات البناء الواعية ، وهذا أمر طالما تلهف إليه المؤمنون .

على أن الذي كنا نشكوه ليس هو فقدان (المنهاج) الذي يؤمن بهذا الاتجاه ، بل فقدان المعلم الذي يصلح لهذا المنهاج . . . وليس بعازب عن بالك أن الدين — بخاصة — هو الشيء الوحيد الذي لا ينفع فيه الكلام ، إذا لم تتوافر له القدوة الصالحة التي تترجم (التعريفات الدينية) إلى سلوك

حتى . . . وطبيعى أننا مضطرون للاعتراف بفقرنا التام من هذه القدوة
فى السلوكية فى أوساط المعلمين إلا من رحم الله ، وقليل ما هم . وهل أنا
فى حاجة لأن أحدثك ببعض النماذج من هؤلاء المعلمين الذين يعلمون
تلاميذهم حكمة الصيام وهم يدخلون فى رمضان ! . .

وهل أذكر لك أن بين المتدينين لتعليم الإسلام فى بعض الثانويات
الرسمية ، من بلغ بهم الاستهتار بالإسلام إلى أن يهربوا طلابهم من النوافذ ،
ليستريحوا من العمل ، وليسجلوا لأنفسهم - فى صحيفة الصف - أجر
العاملين ! . .

الحق أن علينا قبل أن نتكلم عن الدين وأهميته فى حياة الأمة أن نكون
المعلم ، الذى فى وسعه أن يعطى الصورة المحيية لهذا الدين . . . وبديهي
أن مثل هذا لا يتم بمجرد قرار وزارى أو محاضرة قيمة . . .

إن أفضل دعوة للدين فى أوساط الطلاب هى صورة المعلم المتدين ،
يرشدهم بسلوكه إلى سمو المفاهيم الدينية ، فإذا عمد إلى تعليمهم الصلاة نقلهم
مع درسه إلى المسجد ، وقام فيهم إماما ، وإذا أمرهم بالخير أعطاهم صورة
صادقة حية عن جماله فى حياته هو ، وإلا فالأمر كما قال البوصيرى :
أمرتك لكن ما أتمرت به ولا استقمت .. فما قولى لك : استقم !!

ولا جرم أن مثل هذا التناقض بين حياة مدرس الدين ، وبين تعليمه
الدين ، إنما هو مصدر الخطر الكبير على خلق الطالب ، لأنه يمرنه على
التناق . . وهذا ما تلمس نتائجه فى سلوك أطفالنا ، إذ يهربون من الصلاة
بكل الوسائل حتى الكذب . . وما ذلك إلا حصيلة ما يرونه بأعينهم من
ذلك التناقض بين أقوال معلمهم وأعمالهم ! . .

أجل . . إن المعلم لا يصلح لأن يكون رائدا أو مرشدا إلا إذا صلح
أن يكون قدوة حسنة . وبالتالي يستحيل على المدرسة - أيا كانت - أن
تؤدى أية وظيفة اجتماعية فى وسطها . . إذا لم يتوافر لها المعلمون الذين
يستطيعون صنع العظام فى الميدان الخلقى . . .

بقى أمر صغير . . هو : كيف تستطيع الوزارة أن تؤمن التوجيه الديني الصحيح وراء جدران المعاهد الخاصة وبخاصة غير الإسلامية ؟ . .
أعرف مدرسة خاصة للبنات تفرض على طالباتها اللبنيات أن يفطرن في رمضان كله . . وقد شكت إلى إحداهن هذا الضغط إذ كنت مدرسا فيها . .
ثم هي تضطر تلميذاتها المسلمات في الروضة أن يتمرنن بكل الشعائر غير الإسلامية ، من صلوات ومناجيات واستغاثات ! . . حتى لقد سمعت أمس طفلتين من هؤلاء في الشارع تتحاوران ، فإذا إحداهما تحلف بالعذراء . .
فوقفت أسألهما عن اسمها ، فإذا هي مسلمة ! . وهناك أمثلة أخرى لا تحصى تؤكد لنا أن من أهداف المدارس الخاصة انتزاع التلميذ المسلم من جوهه تماما ليشب غريبا عن دينه ، فلا يبقى له به صلة خارج نطاق الهوية . . وقد علمتم أن الطالب المسلم في هذه المعاهد لا يعرف شيئا بل لا يسمع شيئا عن دينه . . . لأنه لا يقرأ فيه أى درس ، وهو بطبيعة الحال لا يحس أثرا لهذا الإسلام في بيته . . فأى جيل تنتظر من وراء هذه « التركيبة » ! . . وماذا يبقى لنا من الطاقات الروحية في جيل كهذا ينشأ على هذا الفراغ الرهيب !

لقد أطلت أكثر مما كنت أريد . . ولكنها ملاحظات لا سبيل إلى تقليصها بأشد من هذا الإيجاز . . وأنا لا أطرحها بين يديكم في صيغة اقتراح ، بل هي حقائق ملموسة ، تجعل المفكرين المخلصين يحسون أنهم أمام (مشكلة) لا مندوحة عن التعاون على حلها في حزم ، إذا أردنا حقاً تحقيق (المنهاج) الذى عرضتم خطوطه الكبرى في حديثكم الطيب . .

وقد اكتفيت بأن أعرضها في وضوح لأترك لكم البحث عن طريقة
« الحل » الصحيح . .

وغير خفى أن مثلى إذا كان يملك التفكير بهذه الحقائق ، ويملك شعور التصادم بها في طريقه التعليمي ، فهو عاجز أن يفعل بإزائها شيئا ، إلا أن يلفت نظر مثلكم إليها . . ولقد قدحتم بحديثكم الحى عن مخطط الوزارة

رباد الأمل في نفوس المؤمنين بمستقبل سعيد مجيد . . ليس من شأنه أن يضرب بمثل هذه الحقائق عرض الحائط . . وهذا ما يجعلني مطمئن القلب إلى أنكم ناظرون إلى هذه السطور بعين غير العيون التي ألفناها من قبل مديريات « المعارف » .

وأخيراً . . إن وراء حديثي هذا لرغبة عميقة صادقة في أن تنتهي هذه الأمة من عهود المتاجرة بالمعلم ؛ لتطل على عهد جديد يكون فيه المعلم مربياً من رأسه إلى أخمص قدمه ، يستشعر من لذة الواجب ما ينسبه أو يسمو به فوق مستوى الضرورات التافهة . . ومثل هذه الغاية القصية الرفيعة ليس أجدر بتحقيقها ممن في يده أزمة الأمر ووسائل التنفيذ^(١) .

ثم توالى الأيام على تلك المناسبة ، وكأنما كانت حلماً جميلاً ، لم يترك أثراً خارج نطاق الذكرى . ولا عجب في ذلك ما دام المسئولون في وزارات التربية والتعليم لا يصدرون في أعمالهم عن مخطط ثابت ، ولا يعملون لهدف معلوم ، وإنما هي نزوات تمليها المناسبات ، فتطلق الألسن بمثل تلك الكلمات . . ثم تنتهي المناسبة لنعود إلى الدوامة التي لا تنتهي^(٢) .

• • •

هذه الازدواجية :

في بعض ديار الإسلام ازدواجية تسيطر على مناهج التعليم ، وتمثل في التعليم الديني بجانب ، والتعليم العام ، أو ما يسميه بعضهم بالتعليم المدني ، في الجانب المقابل . . وقد خلت أحاديثي المتلاحقة من الإشارة إليها حتى

(١) لابد من الإشارة إلى ظروف المحاضرة ، فقد أقيمت أيام الوحدة ، وفي ظل الخلاف الذي نشب بين « ج . ع . م » وموسكو حين رأى أولو الأمر أن يعلنوا رفضهم للشيوعية على أساس أنها ملحدة ، وأنهم يحكون أمة مؤمنة ولا حاجة للتذكير بتغير تلك الظروف . . .

(٢) في المملكة العربية السعودية حركة جادة لتركيز المناهج التعليمية على أساس حقائق الإسلام . . وحسبي أن أشير من ذلك إلى مقدمات المنهج الإعدادي الجديد ، التي ربطت المواد كلها بروح الإسلام ، بما لا نعلم له مثيلاً في أي منهج تعليمي عربي ، فصاعف الآمال باطراد هذه الخطوات في سائر الأقسام التعليمية ، حتى تكون الأنموذج الأمثل لكل بلد إسلامي يتطلع إلى السبيل الأقوم . . وقد بقى الرجاء أن يأتي تطبيقها العمل على المستوى المتناسب مع تخطيطها النظري إن شاء الله .

الآن . ، ذلك لأننا في سورية نكاد ننسى هذه الازدواجية – على خطرهما – بسبب طغيان التعليم العام على جميع المناهج ، حتى يوشك أن يستقل وحده بالميدان . . لولا قيام كلية الشريعة بدمشق ، وتشبث بعض المدارس الشرعية بالبقاء ، على الرغم من كل العواصف التي تهددها بالاقتلاع بين يوم وآخر . . وإنما دفعني إلى أن أخص بها الحديث وجودي في المملكة العزيزة ، ولا غرو ، فالمفكر الإسلامي هنا يشعر أنه يواجه المشكلة من بدايتها لا من نهايتها ، فإذا كان ممن سبق له مراقبة تطوراتها في بلاده وجد فيها ما يسترعى انتباهه ، ويدفعه إلى التساؤل عن المصير الذي ستؤول إليه في خطواتها التالية . .

هذه المشكلة لم تكن من حظ سورية وحدها ، بل مشكلة العالم الإسلامي كله من أقصاه إلى أقصاه ، ولدت منذ بدء الاحتكاك بين بقايا الحضارة الإسلامية وطلائع الحضارة الغربية ، ثم جاء الاستعمار الغربي بأدواته الجبارة ، ففرض التغيير على كل شيء في عالم المسلمين ، الذي كان أشبه ببقايا جيش مهزوم ، لم يتح له أن يعيد تنظيم نفسه ، فاضطر كل قل منه أن يتدارك أمره بالوسائل الممكنة . . .

وطبيعي أن يكون التعليم في مقدمة الوسائل التي يستعين بها الاستعمار لتحقيق أغراضه ، ولكنه بدلا من أن يقضى على مناهجه السابقة دفعة واحدة ، عمد إلى التحوير الملزم ، فإذا هو يقيم مؤسسات تعليمية على طريقته الغربية عن مألوف المسلمين ، ثم يقصر أبواب الحياة على خريجها وحدهم ، فلا يقبل في الوظائف والمناصب والجيش إلا هؤلاء . . وما هي الا جولة وأخرى حتى كان طلاب العلوم الشرعية في مؤخرة الصفوف ، لا يكادون يجدون القوت إلا مغموسا بالدم ، فهم محصورون في نطاق الخدمات الدينية ، كالإمامة والخطابة وتدريس المساجد ، وما إلى ذلك مما أخذ يفقد أهميته شيئا فشيئا ، بانصراف الأجيال الجديدة عن سبيل الدين ، الذي أصبح خدمته – في بعض بلاد المسلمين – مضرب المثل في الفقر والإهمال ، وما يستتبعها من عوامل الانحراف والتدهور !

وكان هذا كافيا لتقليل المقبلين على التعليم الدينى . . حتى البيوتات الدينية التى توارثت خدمة العلم الإسلامى ، وضربت بسهم وافر فى نطاق الفقه والحديث خلال التاريخ ، قد آثرت لأبنائها غير طريقها ، فإذا ابن الفقيه مهندس أو طبيب أو مدرس علوم .. أو أى شىء إلا أن يكون فقيها أو إماما أو خطيبا ! . . وقد حدثتلك فى حلقة سابقة أن قاضيا شرعيا من بيت علم قديم ، قد تخرج له فى إحدى السنين ولدان فى الثانوية العامة ، فزرتهم مهنتا مع بعض الإخوان ، وهناك حاولنا إقناعه بتوجيه أحدهما إلى كلية الشريعة حفاظا على موارث البيت ، وصونا لتلك المكتبة الشرعية الضخمة التى تملأ قاعة كبيرة فى داره . . ولكنه أبى فى إصرار ، وكان جوابه بالحرف : أنه لا يريد أن يجعل من ابنه شحاذا ! . . وعبثا حاولنا تغيير فكره ونذكيره بقيمة الاجازة الشرعية ، ومساواتها لأية اجازة جامعية أخرى ، فما ازداد إلا عنادا واستكبارا ! . . هذا على الرغم من ميل احد ولديه إلى كلية الشريعة ، حتى لقد أُنذر أهليه بالانتحار إذا لم يسمحوا له بالانتساب إليها ! . . غير أن تصميم أبيه كان أكبر من إصراره فالتحق مكرها بكلية العلوم . . حتى إذا قدر له التخرج فيها كان قد تجرد نهائيا من صبغته الإسلامية ، وبات مصدر عناء لا يحتمل لأهله ! ٥

ولا حاجة إلى القول بأن حجة هذا القاضى هى حجة كل واحد من الشيوخ أمثاله ، عندما يختارون لأبنائهم الابتعاد عن طريق الدراسة الشرعية ، ليؤمنوا لهم - بزعمهم - الحظ الأوفر من نعم هذه الدنيا ! . .

ونحن هنا لسنابصد النقاش لهذه الأفكار ، وبيان ما فيها من خطأ أو ضعف ، وإنما نريد فقط الإشارة إلى الحوافز التى أدت إلى سلوك هذا الطريق .

لقد أقام الفكر الاستعماري مصالح الناس على أساس التعليم العام وحده ، فلم يجدوا مناصا من الانسياق فى طريقه سعيا وراء هذه المصالح ، ولولا بقية من الإرادة الجبارة فى صدور بعض المؤمنين مكنتهم من مقاومة ذلك الإغراء ، فظلوا محافظين على المسلك الشرعى فى التعليم ، لأقنر العالم

الإسلامي من الفقهاء والمحدثين والعاملين لاستعادة الوجود الإسلامي في أرض الإسلام ! .. ولعل هذه الحقيقة أشد ما تكون بروزا في القارة الهندية ، حيث تغلق أبواب الوظائف والمناصب بوجه العلماء الشرعيين ، ومع ذلك لا يزال الإقبال على الدراسة الشرعية مستمرا ! . ولا ينفك الفقه في نماء مطرد ، حتى أن الباكستان والهند تحتفظان اليوم بطائفة من أكبر علماء الإسلام ، وبخاصة في نطاق الحديث الشريف ، والدراسات الإسلامية العصرية !

* * *

بين عقليتين :

هذا عرض سريع لمصادر هذه الازدواجية ، وخوافرها وبعض آثارها في التوجيه الاجتماعي ، فلنتنقل خطوة أخرى لتبيين نتائجها في تكوين الأجيال الحديثة من العلماء والشباب المسلمين . .

في ما يتعلق بالعلماء نجد أنفسنا أمام فريقين متباينين إلى حد عجيب . . لقد أنتجت طلائع الاحتكاك بين العقليتين فريقا من الشيوخ ، يرى أكبر واجباته التوكيد على أن الإسلام لا يتناقض مع التفكير الغربي البتة . . فهو لاء حين يفسرون القرآن العظيم مثلا يجعلون نصب أعينهم التوفيق بين معانيه ومعطيات الثقافة الدخيلة ، حتى إذا وجدوا أنفسهم تلقاء أمر معجز للتفسيرات الغربية ، عمدوا إلى التحوير والتأويل حتى ينتهوا إلى ما يظنونه مصالحة بينهما ، ولو اضطروا في سبيل ذلك إلى تخطي الإجماع الذي عرف عن الأئمة ، وعلماء السلف في هذا الشأن ! . . فكأن كل مهمتهم هو إقناع غير المسلمين بأن الإسلام مستعد لتقبل أفكارهم - أيا كانت - بكل سرور ، مقابل أن يفسحوا له مجالا للبقاء مع أفكارهم ! . . .

وهذا اللون من التفكير نلاحظه جليا في بعض التفاسير التي ولدت في ظل النهضة الثقافية ، التي أنتجها التفاعل مع طلائع الحضارة الغربية ، خلال الربعين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، والأول من القرن العشرين ، وبخاصة في تركيا ومصر والهند . . . ولكن هذا الأثر قد جعل يتضاءل بعد

ذلك ، إذ بدأت الشخصية الإسلامية تسترد مقوماتها وتستعيد ثقتها بنفسها ، فتعى ما يراد بها وبدينها ، ويتكشف لأعينها ما في تلك الافكار الدخيلة من حقائق ومخارق ، فترجع إلى الأصل تنفض عنه الغبار ، وتعرضه في الإطار السليم الذي يليق به . . .

ثم يقابل ذلك الفريق (المستغرب) قسم آخر من شيوخ المسلمين ، أدرك بفطرته السليمة ومقاييسه القديمة فساد المنظار الذي يستعمله أولئك . . في التطلع إلى حقائق الوحي ، فأعلنوها عليهم حربا شعواء أعملت في أقاويلهم ومحاولاتهم معاول الفضح والتجريح . . ولكنهم مع ذلك عجزوا عن أن يحسنوا عرض هذه الحقائق بالأسلوب الذي يفهمه الجيل الجديد ، فظلوا خارج ميدان المعركة ، لا يعرف الناس عنهم إلا أنهم ثائرون بكل العلوم التجريبية التي اكتشفها العقل الحديث ! . فكان مهمتهم الكبرى هي أن يجبسوا المسلمين في نطاق أسفارهم الموروثة ، دون أن يسمحوا لهم بإلقاء نظرة إلى خارجها ! . . وقد نسوا التوجيه النبوي الحكيم الذي يتجلى في قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » (١)

ولو هم رجعوا إلى عمل الأئمة والمصلحين من كبار علماء الإسلام ، كابن تيمية وابن القيم والعشرات من إخوانهما ، لرأوا إلى أي مدى بلغ تجديد الإسلام على أيدي هؤلاء الأعلام ، الذين ألموا بكل علوم عصرهم ، وأحاطوا بعقلية جيلهم ، فأقاموا حجة الله على عباده ، بما قربوا إلى أذهانهم من حقائق الكتاب والسنة ، وبذلك جددوا أسلوب العرض للدين الذي شرفهم الله بوظيفة إبلاغه للناس .

ولقد كان لجمود هذا الفريق من الشيوخ أثر كبير في نفرة الشباب الجديد من الإسلام ، إذ اعتبروهم صورة من الدين الذي يدعون إليه ، فهو إذن دين بائس ضيق الصدر بحرية الفكر والبحث ، يتنكر لكل تقدم

(١) رواه أبو داود والحاكم في المستدرک وصححه رواقه الألبانی - المشكاة - ورمز له الجامع بالصحة .

عقلى أحرزه الإنسان في ظل الحضارة الحديثة ، ولو كان ذلك التقدم قائما على المعادلات الرياضية التي لا تقبل الجدل ! . . .

ثم جاءت النتائج الخطرة التي تولدت من هذا الفصل الجديد بين الجيلين ، إذ انصرف أحدهما عن الحياة بما فيها ، ليردد أقوال السابقين ، ويحذر من حوله من (أباطيل) اللاحقين . . على حين انقطع الآخر عن سبيله ، بل عن الدين كله ، ليتولى شئون الدنيا كلها ، فيديرها على أساس لا يمت إلى الإسلام بأي سبب .

ولسنا في حاجة إلى التبسط في بيان المخاطر التي جرها هذا الفصل بين العقليتين والطريقتين على المجتمع الإسلامي ، الذي إلى هذه العلة يعود كل ما يعانیه في واقعه الحاضر من أرزاء وأدواء في طول الوطن الإسلامي وعرضه

. . .

طلائع المعركة :

وأعود الآن لأصور انطباعاتي عن جوانب هذه المشكلة كما واجهت مطالعها في هذا البلد الحبيب .

إن هنا زاوية منفرجة يمضي ضلعاها في خطين متباعدين . . وكما يبدأ الضلعان من نقطة مشتركة ثم يفتحان باطراد ، هكذا تنطلق محاولة التعليم من مكن الرغبة الصادقة في توعية الشعب وتأهيله للحياة المثلى . . ولكنها لا تلبث أن تنقسم على نفسها ، فيذهب بعضها من هنا ، ويمضي الآخر من هناك ! . ومرد ذلك اجتهاد مخلص يخيل لكل من الاتجاهين أنه هو الأصلح دون ريب ! .

هنا مدارس وكرليات تقوم على برامج هدفها تكوين الجيل البصير بدينه ، الصالح لحياطته تجاه التيارات الغريبة . . ولكنها تكاد تخلو من كل المواد التي تجعل الفرد على علم بما يدور حوله من مشكلات المدنية ، والتي تؤهله في النهاية للإسهام في إدارة شئون البلد ، إلا في حدود صيقة لا تتجاوز نطاق التعليم الديني والقضاء إلا قليلا . . .

وهناك مدارس وكليات وجامعات أخرى لها مناهجها الخاصة أيضا ،
ولكنها لا تتلاقى مع تلك إلا في المراحل الأولى ثم تفرقان .

وكما نخلت تلك من الاهتمام بمشكلات الحياة الدنيا ، نخلت هذه من
الاهتمام بموضوع الحياة الأخرى ، ولكنها عنت بكل ما من شأنه تأهيل
الفرد للإسهام في شئون الدولة . .

ولن يحتاج المرء إلى كبير ذكاء حتى يدرك مدى الفجوة بين الجيلين
. . وحسبه أن يلاحظ سلوك هؤلاء وسلوك أولئك ، ويسمع رأى كل من
الطرفين بصاحبه ، حتى يحيط بالواقع المؤسف بل المخيف ! . .

إن أول ما يللمسه الباحث في هذا المجال فقدان الثقة . . فكل من الجانبين
يسخر من الآخر ، ويراه خطرا على الحياة والمجتمع ، ولا يصدق بأنه
يصلح لشيء ! . .

وليس ذلك كله سوى طبيعة لم يبلغ ضررها بعد حد الخطر ، ولكنها
طبيعة لمعركة جربناها في سورية ، وفي مصر وفي المغرب الكبير ،
وفي الهند ، وفي تركيا .. معركة هائلة لها غبارها ، ولها أسلحتها ، ولها
ضحاياها ، ولها عواقبها التي ذهبت بوحدة الأمة ، وفتحت في حصونها
الثغرات لأشتات الآفات والنكبات ! . .

وانطلاقا مع طبيعة الأشياء لم يكن بد للجيل (المحدث) من استكمال
دراسته في المواطن التي يستمد منها ثقافته الحديثة . . ومن هنا جاءت
ضرورة البعثات الدراسية إلى الخارج كأمریکة وانبجلترة وغيرهما من موارد
الحضارة الجديدة .

وإذا كان من العسير بل المتعذر تحصين هؤلاء المبتعثين من أوبئة
الغرب ، لذلك كان طبيعيا أن يعودوا محملين بجراثيمها سواء شاءوا
أو أبوا ! . . .

وبهذا وذاك تزداد شقة الخلاف اتساعا بين الجيلين ، لا من حيث
الثقافة فقط ، بل من حيث أساليب الحياة أيضا . . وهكذا نجد أنفسنا وجها
لوجه أمام المصير نفسه ، الذي انتهت إليه المجتمعات الإسلامية التي سبقت

في هذا المضمار . . . وهي نتيجة لا مندوحة من مواجهتها عاجلا أو آجلا . . . بل لا سبيل إلى التهرب منها لأنها وليدة الضرورة التي لا قبل لأحد بردها ! . . .

* * *

فرص لا تعوض :

ومثل هذا التطور السريع لا يستطيع المفكر بشئون المسلمين أن يمر به دون اهتمام . . . وهو الذي لاحظ عواقبه في مختلف أقطار المسلمين ، حيث انتهى التباين بالمجتمع إلى كوارث لا نهاية لها . . .

أضف إلى ذلك أن القضية بنظر المفكر المسلم ليست قضية ناس وأوطان فقط ، ولكنها مع هذا وقبل هذا قضية الإسلام الذي لا بد للمسلمين من تحديد موقفهم منه ، فلما استمساكا به ، واصطبغا بلونه ، واستظللا برايته . . . وإما انسياقا وراء شياطين الشرق والغرب ، ثم انحدارا مع أولئك الذين قطعوا أنفسهم من حبال السماء ، فهم يخبطون في الظلمات ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ! . . .

ونحن عندما ننظر إلى الموضوع من هذه الزاوية ، وهي النظرة الطبيعية الأضيلة ، فسرى أن التبعة أكبر مما سبق ، لأن المعركة ستقوم هذه المرة — إن لم تكن قد قامت بالفعل — في البلد الذي عليه يتوقف مصير الإسلام في العالم كله . . . !

أجل . . . إنه البلد الذي منه أشرقت بواكير الوحي ، ومنه انطلقت جحافل النور إلى أنحاء الدنيا ، ففتحت أعين العمى ، وحطمت أغلال المعذبين ، وزلزلت عروش الطاغين ، وردت الإنسانية الضالة إلى ربها . . . وإنه البلد الذي انبعثت منه صيحة التوحيد من جديد ، قدوت في أرجاء العالم الإسلامي ، توقظ النيام ، وتجدد الأفهام ، وتبديد الأوهام ، فتوقد في هشيم الخرافات والبدع نارا ، لم تزل حتى الساعة تلتهم كل ما أضافه الزائفون إلى دين الله من قشور ، وما نسجه المضللون على وجه الحنيئية السمعة من ستور . . .

هذا كله يريد اتخلصون لإسلامهم أن يبني هذا البلد الخيب بوه
الإسلامى الوضىء ، وأن يكن استبقاء هذا اللون هو الهدف الأعلى لكل
مستول عن توجيه مصيره

وطبيعى أن ذلك لا يعنى انتصار الجمود على التجديد . فذلك أمر
مناف لسنة الله فى الوجود ، ولا الإقبال على كل محدث من الأمور .
إقبال حاطب الليل لا يفرق بين العصا والثعبان ، فذلك أقرب السبل إلى
التدمير المبيد . . وإنما يعنى تجديد الفكر الدينى ، حتى يعلم صاحبه أن دين
الله هو ضابط الحياة البشرية ، ونظامها الأمثل . فلا يجوز قصره على جانب
منها دون جانب ، ولا يجوز حرمان أهله من الإمام بكل ما جد حولهم
من علم له أثر فى توجيه المجتمع الملى أو الإنسانى !

وإنما يعنى كذلك تعميم الثقافة الإسلامية الحققة ، حتى لا تنفصل مادة
دراسية ، أيا كان لونها ومكانها ، عن الارتباط بالمعنى الإلهى ، الذى
جعل من دراسة الكون والنفس والحياة أروع مجال لمعرفة الله ، ولشحن
القلب بمحبته وخشيته سبحانه

وبتجديد الفكر الدينى ، وتعميم الثقافة الإسلامية النقية ، تغلب على
الكثير من العقبات التى ينثرها التناقض فى طريق التقدم الاجتماعى السليم . .
وبهما تتجنب هذه البلاد الغالية الكثير الخطير من الأرزاء ، التى تعرض
لها المجتمع الإسلامى فى بقية الأنحاء

ولكن تحقيق هذا الأمل يقتضى الاقتناع أولا بوجود المشكلة وخطورها
المتوقع ، ثم يتطلب التعاون على معالجتها بأفضل الوسائل التى تضمن لها
أحسن الحلول . . . ولا جرم أن كل تأخير لهذه المقتضيات وكل تهاون
فى هذه المتطلبات ، مؤد إلى إضاعة الفرص التى لا تعوض . . .

* * *

الأدب الذى نريده :

يوم أمس سجلت على الصفحة الأخيرة من مفكرتى اليومية هذه الكلمات :
أنهيت ثلاثمائة صفحة من ديوان أبى تمام . . فإذا وجدت ! . . غزل
ونسيب ووصف طلل ، ثم مدح وهجاء وتعريض ورتاء . . ثم انكباب

على الدنيا يخلق من الحبة قبة ، ويفرغ على الممدوح ما ليس من حقه ،
ليثير أريجته فيضعف جاذبته !! ..

حقاً أن في هذا النظم لجهداً جباراً يبدو في نحت الأفكار البعيدة ،
واصطناع الإشارات الجديدة ، إلى تفنن في الصور والتعابير هو نسيج
وحده بين الأساليب . . ولكن الإنسان بعد هذا كله جدير بأن يسأل
نفسه : ما حصيلتنا من كل ذلك . وما القيم العليا التي دعا إليها الشاعر ،
أو انتزعها من صميم هذه الأمة ، ليعرفنا خصائصها الروحية وملاحظها
الإنسانية ! . .

الحق أن شيئاً من ذلك لم يكن من أغراض الشاعر الرئيسية . . وإذا
عرض له قبلمحة لا تعدو أن تكون رقعة لفكرة ، أو وسيلة لتزوير حقيقة ! .
وأكاد أقول : إن الشاعر ، في معظم هذه القصائد ، لم يفعل أكثر مما يعمل
أى حاو يستخدم الرقى والدقوف لاستخراج ثعبان من الجحر ! . . إنه
ليدهشنا بهذه البراعة ولكنه أبدا لا يستحق احترامنا . .

• • •

ومن خلال هذا التعليق أراني أقدم للقارئ خلاصة مركزة لرأى
الشخصي في الأدب وبخاصة الشعر . . إنه في نظري أكبر من الغزل والوصف
والمدح والهجاء وما إلى ذلك . . إنه يجعل الحياة الفكرية والروحية للأمة ،
منه يتبين الدارس الخطوط الكبرى لنفسيتها وقيمها ومثلها . . وخصائصها
الحية الفاعلة . فإذا قرأنا شعر شاعر وجب أن نقع منه على كل هذه المقومات ،
فتعرف كل مميزات الأمة بالنسبة إلى أية أمة أخرى . . ما تشارك فيه سواها
وما تنفرد به دون الشعوب ! .

على أن هذا أمر تسبقه أمور . . أهمها فردى يتجلى في قدرة الشاعر
على تمثيل روح أمته تمثلاً يمتزج بكيانه ، حتى إذا صدق في تصوير ذاته ،
كان في الوقت نفسه صادقاً في تصوير ذات الأمة . ثم اجتماعي يتمثل
في قوة الشخصية الذاتية للأمة ، بصورة تمكنها من فرض إحساسها وتفكيرها
وتصورها على إنتاج الفرد . . وهذا متوقف إلى مدى بعيد على شخصية
القيم نفسها ، التي تمثل اتجاهاتها الروحية . .

هذه حقيقة نستطيع تبيينها في إنتاج أى واحد من شعراء الأمم ذوات الشخصية : من هوميروس إلى شكسبير وكيبلنغ ودانتى والمعري وطاغور وإقبال وشوقي والرصافي وحافظ . . ومن سبقهم من شعراء الجاهلية العربية ، الذين كان شعرهم في معظمه صورة للشخصية المزدوجة ، شخصية الفرد في ذات الجماعة . .

ولا أنكر أن للفرد ضمن هذه الروح العامة ملامحه الخاصة ، تتجلى في إنتاج ذاتي يمثل فرديته في حالات من الانطلاق الشخصي ، يضعف فيها سلطان الجماعة على ذاته ، فيأتينا بما يخالف أى إنسان يمكن أن يعيش قريباً من ذلك الجو . . .

وهذا (الجو الخاص) يتخلص ويتمدد تبعاً لهوه الصابط الاجتماعي . . فقد يتسع حتى يستغرق معظم حياة الشاعر ، كما نرى في شعر ابن أبى ربيعة ومجان بيته ، وكما نرى بعد ذلك في الكثير من شعر بشار ، والأكثر من شعر أبى نواس ثم البحتري والمتنبي ، وبعض ضحايا الأنانية الفردية من شعرائنا المعاصرين . وقد يضيق حتى لا تكاد تلمحه في إنتاج الشاعر إلا في الندرة ، كعمرو بن كلثوم وأشباهه من كبار شعراء العربية الاجتماعيين . . وهم جد قليلين .

* * *

استهتار :

ونحن ، قراء ومدرسين ، من الخير أن نتعرف مختلف الآثار الأدبية فردية أو اجتماعية ، عالية أو دنية ، نواسية أو معرية ، بشرط واحد هو أن يكون لدى القارئ من المناعة الفكرية والحلقية ما يحميه شرور هذا الإقبال المطلق . . فيكون حينئذ أشبه بخير العقاقير يأخذ منها ما هو بحاجة إليه . . بيد أننا كطلاب لا ينبغي أن نوزع طاقاتنا بين ما ينفع وما لا ينفع . . وما أظن أجداً من أهل القول يزعم : أن من الخير للطلاب العربي أن يعيش أكثر عمره المدرسي بين نصوص الغزل والمديح والهجاء ، ثم يغادر صفوف الشهادة الثانوية ، وكل حصيلة من أدب أمته هو هذا اللغو الذى لا زوده بأية فضيلة خلقية . . إذا لم نقل أنه يسلبه كل فضيلة خلقية ! .

ماذا يفيد الطالب المسكين من دراسته لأكثر أماديح المتنبي وأبي تمام والبحترى ومن إليهم . . ممن وقفوا حياتهم كلها على نشدان اللذة الجسدية أو المجد الشخصي ، يشترونهما بماء الوجوه ، وبفنون الأكاذيب التي تجعل من طاغية مصر هدف الخلق ، لم يوجد البشر إلا من أجل لقائه^(١) ومن الخربين الذين هدموا مجد العروبة والإسلام جند الله لا عمل لهم إلا نصرة دينه^(٢) . ومن الصحابي المكافح لإنقاذ الإسلام ملحدا يقود الملحدين فلا يستحق — بعد مقتله — إلا الشماته الحقيرة^(٣) . . في حين تجعل من قاتله الطاغية وليا كبيرا كني الله نوح ، يدعو فيستجاب له ، ويحارب فتزل الملائكة لنصرته^(٤) . . .

ثم ماذا يفيد الطالب المسكين — وهو في أتون المراهقة — من قراءته لقصص العاهر الأكبر ابن أبي ربيعة ، وحلفائه بشار والبحترى وأضرابهما . اللهم إلا أن تحكم عليه حصار الشهوة ، وتعلمه أيسر السبل للاستهتار بالأخلاق والدين والقيم العليا . . إذ تؤكد له أن (عسر النساء إلى مياسرة والصعب سهل بعدما جمحا) !

يضاف إلى ذلك ما يراه من أن هذا الطراز من الدعارة موضع تقدير الأدباء والمدرسين والمؤلفين محميا برعاية الدولة ، التي تبذل الأموال الطائلة جوائز لمؤلفيه وأجورا لناشريه . . .

* * *

هواة الأضاليل :

من آراء الأدباء القدامى أن الشعر مدح وهجاء ، وما عدا ذلك فهو متفرع عن هذا أو ذاك . وقد مثلوا لرأيهم بأن الغزل والعتاب والاعتذار

(١) يقول المتنبي في كافور :

فما سرينا في ظهور جدودنا إلى عصره إلا لرجى التلاقي

(٢) ويقول البحترى في هؤلاء :

أما الموالى فجنده الله حملهم أن ينصروك فقد قاموا بما احتملوا

(٣) ويقول جرير موجه خطابا إلى عبد الله بن الزبير الصحابي الشهيد :

دعوت الملحدين أبسا خيب جماحا . . هل شفيت من الجراح !

(٤) ويقول في مدح الحجاج :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح فسمع ذا الممارج فاستجابا

والرثاء والفخر ، إنما هي صور من المديح . لأنها جميعها منبثقة عن منطقة الحب والإعجاب والرضى . . . وكذلك الشأن بالنسبة إلى الهجاء ، فإنه يرجع كل فن ذى صلة بعاطفة البغض أو الاحتقار أو الاشمئزاز . . أما الوصف فهو لحمه النسيج الأدبي في كل من القسمين ، فإذا كان وصفاً محبوب كان شعبة من المدح ، وإذا كان وصفاً لمكروه فهو ألصق بالهجاء . .

ولا شك أن لهذا القول صلة وثيقة بظروف البيئة ، التي راج فيها هذا الضرب من البضاعة ، حتى تحول شعراؤها آلات كاتبة تسجل ما أوحى إليها ، دون أن يكون لها أى حق في الاختيار . . وأسوأ ما ينتهى إليه الأدب في أمة أن يصبح كسلعة السوق لا يعنى منها إلا بما يروج لدى (الزبائن) . . . ولكن العجيب أن يظل هذا الرأي هو المسيطر على عقليتنا الأدبية ، وبخاصة في أوساط التعليم حتى هذه الساعة . . فنحن قلما نعرف الشاعر إلا من خلال هذا المنظار . . حتى أسئلة الامتحان قلما تتجاوز هذه الدائرة : أبو تمام مداح نواحة . . والمتنبى مدح فأبدع ، وهجا فأوجع ، وزهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه^(١) . . . وقديما قيل :

ذهب الفرزدق بالفخار ، وإنما حلل الكلام وهره لجرير
ولقد هجا فأمض أخطل تغلب وحوى اللهى بمدح المشهور

وهي نظرة خطيرة من شأنها أن تصور لنا الشاعر (تاجر سوودد يبيع ثمينات المكارم والحمد) ثم تجعله منفصلاً تماماً عن روح أمته ، يعيش لطبقة من هواة الأكاذيب ، تفصل العطاء على مقدار الهراء . . . ولا تسمح للشاعر بالتعبير عن ذات نفسه إلا ضمن نطاق هذا المقياس . . . وإلا كان نصيبه كنصيب أبي النجم العجلي من هشام ، عندما استحسن أن يشبه الكسوف بالحوول ، فإذا هشام ينسى كل ما دبحه الشاعر في جلالته من أفضال المدح ، ليذكر عينه الحولاء وحدها ، فيأمر بجره إلى الخارج مهاناً ذليلاً . . . وهكذا كان ذلك باعثاً على إيجاد الثروة الضخمة من

(١) من الانصاف أن نسجل لمصلحة الامتحانات نزوعها إلى التطور المذكور في موضوع

الأسئلة بعد نشر هذا الفصل . . .

الأكاذيب ، التي تجعل من الممدوح شيئا فوق الناس^(١) . وفوق الأنبياء^(٢) ؛
حتى لا ترى له صفة تليق به أقل من الألوهية^(٣) . . . ولشد ما ضاق صدر
أبي العلاء بهذا الالتواء حتى راح يصب على أصحابه هذه الحمم المحرقة :

بنى الآداب غررتكم قديما زخارف مثل زمزمة اللباب
وما شعراؤكم إلا ذئباب تلصص في المديح أو السباب
أذهب فيكم أيام شيبى كما أذهبت أيام الشباب !

وما أحسن ما صنع حين انتزع نفسه من وسط هذه الثلة ، المتاجرة
بالتفاق ، والداعية إلى النفاق . . والممهدة لكل ما تقاسيه أجيالنا الراحنة
من عقابيل النفاق . . . !

* * *

تخطيط جديد :

ولا يحسن القارئ أننى أدعو إلى الإعراض عن دراسة الشعراء المداحين
المهجائين أو حذفهم من المنهاج البتة ، كلا . . . ولكننى أدعو إلى أن نحسن
التخير في ما ننتقيه للدراسة من آثارهم ، فلا ننظر إلى إنتاجهم كله من
خلال هذه العقلية السوقية ، ناسين أن القوم قد خلفوا لنا تراثا غنيا من
الشعر الرفيع ، الذى يزود الطالب العربى بكل ما يعوزه من الإدراك لروح
أمتة وخصائصها ، فى المواهب والقيم السامية . .

نريد أن نتجه بدراستنا المنهجية فى الأدب إلى العمل البناء ، الذى يمكن
لهذه المادة الرئيسية من أداء مهمتها فى تفتيق مواهب النشء العربى إلى
الخير . . وتزويده بالمقومات الروحية ، التى تجعله مدركا لدور أمتة

(١) المتن

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حيثك من الإسلام

(٢) المتن :

لو كان صادف رأس عازر سيفه فى يوم معركة لأعيب عيسى

(٣) ابن هاني :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار

في قيادة الإنسانية .. وهذا يقتضى طبعاً أن نصله في عمق بالنصوص الممثلة لهذه الحقائق ، وهي غير قليلة في أدبنا والله الحمد ، إذا جهدنا أنفسنا قليلاً في التنقيب عنها ، واستخراجها من تحت هذا الركام المركوم ، من الأدب الفردي أو الطبقي المضلل . . .

نريد أن ندرس من الشعر الجاهلي نماذج كاملة التمثيل لحياة الجاهلية ، تفصل في وضوح الوضع الاجتماعي الذي كان يسود الجزيرة العربية قبل الإسلام ، سواء من الناحية القبلية أو الخلقية أو الفكرية . . لكي يتعرف الطالب مدى التفاعل ، الذي كانت النفس العربية تتمخض به آنذاك ، فمثلاً خصائص البادية العليا ، من الإيثار والحرية والأنفة والوفاء ، وما إلى ذلك من الطباع العربية الأصيلة ، ثم في تلك النزعات الفكرية متجلية في شعر طرفة وزهير ، انعكاساً للقلق الذي كان يساور الجزيرة ، ضد مساوئ النظام الجاهلي في تلك الحقبة الهابطة . . إلى جانب نفحات من التطلعات الوجدانية لما وراء الطبيعة ، مطلة من كلمات أكرم وقس وبعض الكهان ..

.. ونريد بعد ذلك أن ندرس من الأدب الإسلامي ، شعره ونثره ، تلك النصوص التي تصور لنا تطور هذه النفسية العربية بتأثير المد الإسلامي ، وما استقرت عليه من اتجاهات عالمية واسعة ، تبين في وضوح كبير مفهوم القيم الجديدة في نظرتها إلى الكون والإنسان والحضارة . . ثم ما اعتري هذه النفس من عوامل النكسة التي تسربت إليها من أمراض الأمم ، فأدخلت على مفاهيمها الأصيلة بعض الخلل ، الذي ما لبث أن أثر في اتجاهها الفكري نفسه ، فجعله من الإبداع إلى الجمود ، ومن الحصب إلى ما يشبه العقم ! .

وطبعاً أن مثل ذلك العمل يتطلب تخطيطاً جديداً في منهاج الدراسة الأدبية ، يجعل لهذا المنهج هدفاً تربوياً ، هو تكوين الجيل الصالح لحمل أمانة العروبة المؤمنة . . تخطيطاً يمحى بالطالب في طريق ضاعد ، يبدأ بنصوص مختارة ، لا يرى من خلالها سوى الفضائل التي نهضت بماضي هذه الأمة ، حتى كانت معجزة الإنسانية ، وينتهي بنصوص مختلفة تبين

عوامل الاضطراب الذى اعتور سيرها فيما بعد ، فأهوى بها إلى خاتمة
المأساة . . .

وأعود إلى التنبية بأن هذا لا يعنى أن نتخلى عن أدباء المنهاج ، ولكن
يعنى أن نلمس آثارهم وفق ذلك المخطط . . .

* * *

الفاساد وسبوم :

هل أتيح لك أن تكون مدرسا أو طالبا فى القسم الثانوى الأول ؟ . .
إذن فلا بد أنك قرأت ذلك النص الذى يحمل اسم (الخطبة الشقشقية)
منسوبا إلى صهر رسول الله ورابع الخلفاء الراشدين على (رضى) ولا بد
أنك قد وقفت منه مليا أمام هذه الكلمات : (أما والله لقد تقمصها ابن
أبى قحافة . . . فصبرت وفى العين قذى ، وفى الحلق شجا . . أرى تراثى
نهباً . . . حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده . . لشد
ما تشطر أضرعها ! . فبنى الناس بنحط وشماس ، وتلون واعتراض . .
حتى إذا مضى لسبيله جعلها فى جماعة زعم أنى أحدهم . . فيا لله ! . .
متى . . صرت أقرن إلى هذه النظائر ! . . فصفا رجل منهم لفخته ،
ومال الآخر لصهره ، مع من ومن .

. . إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين ثيله ومعتلفه ، وقام معه
بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع . . إلى أن انتكس قتله ،
وأجهز عليه عمله ، وكبت به بطنته ! . .) .

إنها لكلمات ، بل مسبات ، لا يسع قارئاً ذا عقل أن يمر بها دون أن
يتساءل : كيف يتفق لمثل على أن يتقياً مثل هذا السفه الذى أول ما يطعن
قائله ، إذ يعرضه فى وضع المخلوق الذى أفقده الحسد والحقد والانهيار
العصبى كل أثر للأدب والوعى والإنصاف ، فراح يقذف بالسباب على
غير هدى ، حتى لا يتورع أن يكذب على التاريخ ، فيزور حقيقة الرجال
الذين تعيش الإنسانية حتى الساعة حالة على مآثرهم فى العدالة والنزاهة
والتسامى ! . .

فأبو بكر غاصب للخلافة . . . ومتواطئ مع عمر على استئثار منافعها . . .
وعثمان كالحیوان لا هم له إلا بطنه ! . . . وكل من هؤلاء متآمر على حقه
في خلافة هي تراثه وحده ! .. وقد نسي هذا السبب أن البشرية قد أجمعت
على العلم بأن أبا بكر لم ينل من منافع الخلافة إلا قوته الضرورية ، حتى
لم يكن له سوى ثوب واحد ، لا يستطيع مغادرة بيته إذا غسل بانتظار
جفاهه ! . وهو الذي وهب لله كل ماله الذي كان ثروة ضخمة في قريش . . .
وأن عمر لم يشبع قط ولا أهل بيته أثناء خلافته ، حتى ليصوم عن الأدام
طوال عام الرمادة ، موثراً ألا يأكله وفي الناس محروم منه ! . وأن عثمان
قد جهز بماله الجيوش ، وأنفق في سبيل أمته من الأموال ما يرفعه فوق
كل شبهة . . . فلا يعقل أن يتخلى أخيراً عن كل هذه المآثر ، ليخضم
مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع ! . . . وهو الذي أخبرنا رسول الله أن
الملائكة تستحي منه . . . وطبعي أن رجلاً يبلغ بشهادة الرسول هذا المقام
لا يمكن أن تتصور البطنة في حقه ! . . .

ثم نسي كذلك أن البشرية كلها قد أصفقت على أن خلافة أبي بكر
كانت مرحلة لا بد منها لتثبيت كيان الدولة الجديدة . . . التي ما أن غاب عنها
رسول الله حتى أحاط بها المرتدون من كل صوب ، يريدون محوها من
الأرض ، فلم يصمد لهم سوى أبي بكر ، الذي أهاب بالصحابة جميعاً :
« والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم . . . »

وأن خلافة عمر كانت بركة السماء على هذه الأمة ، بما وسعه لها من
آفاق الفتح ، التي نقلت رسالتها إلى أنحاء الدنيا . . .

وأن خلافة عثمان كانت هي الدعامة الكبرى في صرح الإسلام ، إذ
أطفا جذوة الفتنة التي أثارها الشيطان بالاختلاف على ضبط القرآن ،
فكان عمله في جمع صحفه وجمع الناس على هذه الصحف لا يقل خطراً
عن عمل أبي بكر في القضاء على حركة الردة ، وعلى أثر عمر في انسياح
العرب برسالتهم وراء تخوم الجزيرة . . . وذلك علاوة على جهوده الجبارة
في استئناف حركة الفتح ، وفي تنظيم أعمال الدولة .

وهذه كلها حقائق كان على أعلم الناس بها ، وأخلصهم في تقديرها
 لإخوانه الراشدين . . فضلا عن أنه كان أدري الناس بأن هذه الخلافة
 إنما هي حق الأمة السياسي في هذه الدولة ، التي أقامها لهم محمد صلى الله عليه
 وسلم فلا إرث فيها لأحد أبدا . . ولا وصية بها لأى مخلوق . . إلا أن يسمح
 غي لنفسه أن يتهم رسول الله بأنه طالب أمته بأجرته مقابل هدايته ، فكانت
 الأجرة هي هذه الخلافة ! . .

أجل إنه لنص مزور ، قد دسسته على يد مزور ، لا يزيد بهذه
 الأمة خيرا ، وإنما حاول أن يوقع في أخلاق الجهلة والمغفلين أن صحابة
 محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا سوى عصابة من المتآمرين المتهاككين
 على المنافع ! . . وقد فاته أن علينا نفسه قد فضحه وأشباهه بمبايعته الضريحة
 لكل من إخوانه الثلاثة ، ووقوفه معهم لا يرض عنهم بمشورة ولا معونة
 ولا تأييد حتى آخر لحظة من حياتهم المباركة ! . .

وما هو ذا « نهج البلاغة » نفسه يحمل شهادة على باخيه ابى بحر حيث
 يقول : (والله بلاء أبى بكر) . . لقد قوم الأوث : وذاوى العلل . . وأقام
 السنة . . وذهب نقي الثوب) . . وهذا كتابه إلى معاوية يقول فيه عن أبى
 بكر وعمر : (لعمرى أن كان مكانهما في الإسلام لعظيما ، وأن المصائب
 بهما لجرخ في الإسلام شديدا . . فرحمهما الله وجزاهما أحسن ما عملا) (١) . .
 أما دفاعه عن عثمان يوم الفتنة الكبرى ، وإقامة ابنته الحسن والحسين
 على حراسته ضد الثأرين . . فليس بمجهول أو منكور إلا عند ذوى الأحقاد ،
 الذين أعماهم الهوى عن رؤية الحق ، فأخذوا بالتسليم المطلق ليكل ما ورد
 من مثل هذه النصوص المكذوبة (٢) .

(١) جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ٤٢٩ -
 (٢) من هذه النصوص ذلك الكتاب الموضوع على لسان عثمان موجها إلى علي ،
 وفي خاتمه . .

فإن كنت بأكول فيكن خيرا أكول . . وإلا فأدركني وثلبا أمزقا . .
 فكان الموضوع بينهما موضوع أكول وماكول . . لا يجوز . . كيان نبوي ينتهك حرمة
 السفهاء بدسائس اليهودى ابن السوداء . . وغير ما قيل في هذا النص المنحول كلبه ابن العربى
 في « المواسم من القواصم » فلتراجع هناك .

ولقد علم أولو العلم أن ليس ثمة من عظيم - بعد رسول الله - قد نسب إليه من الكلام المكذوب مثل الذي نسب إلى علي . . حتى أصبح مفهوما أن بين نصوص (نهج البلاغة) ما لم يروه أحد قط عن علي قبل جامعه . (١) ومع هذا كله فإن شيئا من ذلك لم ينته بعد إلى أذهان مؤلفي (الأدب العربي ونصوصه) للصف الأول الثانوي بسورية ، لذلك رأيتهم يتحفون الطلاب بهذه الشكشقية كأنها تنزيل من العزيز الحكيم لا ريب في نسبها . . ولا شك في حقيقتها ! . . .

وقد يكون من حق هؤلاء أن يسألوا المؤلفين المخلصين ، عن السر الذي وقف بهم على هذا النص دون سواه من موضوعات (نهج البلاغة) ، وفيه الكثير من كنوز العلوم ومغذيات الفهوم ! . . ونحن إذ نعرض لهذا النص المسموم المفلوم ، لا نريد أن نناقش المؤلفين بأفكارهم الشخصية ،

(١) . لا يتسع المقام هنا للبحث في قيمة « نهج » ولكن لا بد من التذكير بأنه لا يبدو كونه مجموعة من الوثائق التاريخية لا يمكن القطع بثبوتها إلا على أساس الرواية الموثقة ، مهما تكن منزلة قائلها في عالم الأدب والدين . وقد تناول النقاد قديما وحديثا ، وفيهم علماء الجرح والتعديل ، نهج وصاحبه ، فكان فيهما مجال للكلام طويل . . ومن شاء التوسع في ذلك فليراجع إلى ميزان الاعتدال للذهبي ففيه من ذلك ما يكشف الأستار عن محجوب الأسرار : . . عل أن من الخير أن يذكر القارئ بعضها في أوثق المصادر فيقرأ وليتدبر : . . روى مسلم في مقدمة الصحيح عن . . ابن أبي مليكة قال : (كتبت إلى ابن عباس أسأله : قال : فدعا بقضاء على فجعل يكتب منه أشياء ويمر به الشيء فيقول : والله ما قضى بهذا على إلا أن يكون ضل) . وعن حنبل عن طاووس قال : (أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء على فحماه الإقنر - وأشار بفيان بن عبيدة بذراعه - يريد الإقنر ذراع . .) وعن الأعمش عن أبي إسحق قال : (لما أحدثوا تلك الأشياء بعد علي قال رجل من أصحاب علي : قاتلهم الله . . أي علم أفلسوا !) وعن . . ابن عباس قال : سمعت المغيرة يقول : (لم يكن يصدق علي في الحديث عنه إلا من أصحاب عبد الله بن مسعود) في هذه الإشارات الصحيحة تأكيد لأمر خطير هو أن الكذب على علي (رضي) سبق عهد الرضى بزمان . . ولا غرابة أن يكذب على وهو الذي أثر فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يهلك فيه اثنان : . . محب غالي ، ومبغض قال ! .

وهذه المناسبة نسجل البيهقيين في معارف مصر وسورية حسن تقديرهم للحقيقة ، واستجابتهم للملاحظاتنا عن ذلك الكتاب المفلوم ، إذ ألغوه كله أيا ما وبذلك انتهى أمر الشكشقية وما وراءها من الشقاق . . .

ولا بمعلوماتهم الأدبية ، وإنما نقصد إلى توكيد ما ذهبنا إليه ، من أن
في طريقة اختيار النصوص الأدبية اضطراباً ، لا يمكن أن يتوافر معه الانسجام
السليم ، مع منهاج يستهدف تكوين الجيل السليم .

حقائق على الهامش :

ولكى يتصور القارئ مدى الاضطراب في حشد النصوص الأدبية
لهذا الفصل نفسه . . . نذكر أن ثمة خطبا عدة عرضت في نفس الكتاب
وعقيب « الشقشقية » . . . تتضارب نتيجتها إلى حد بعيد مع روح هذا
النص . فهناك خطبة لأبي حمزة الخارجي ، وأخرى لعمر بن الخطاب ،
وثالثة لعبد الله بن الزبير . . . وكلها تنبع من المصدر نفسه الذى تنبثق منه
القيم العليا المميزة لشخصية هذه الأمة .

اقرأ معى هذه الكلمات :

(. . . يا أيها الناس . . . انى داع فأمنوا : اللهم إنى غليظ فلينى لأهل
طاعتك بموافقة الحق . . . وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك . . . من غير
ظلم منى لهم . . . اللهم إنى شحيح فسحقى فى نوائب المعروف ، قصداً من
غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة . . . واجعلنى أبتغى بذلك وجهك
والدار الآخرة . . . اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين) .
هذه نفحات بسيرة من خطبة لا يفوت قارئاً أن يحس من خلالها
الروح العمرى ، والجديد فيها بالنسبة للأدب العربى فى جاهلية وإسلام ،
أنها تصور نفس حاكم يحاسب يده على ما كسبت ، وقلبه على ما نوى ،
فيتعاطف تقديره لتلاميذ محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين جعلوا سياسة البشرية
ضرباً من العبادة ، لا يبتغون من وراءه إلا وجه الله والدار الآخرة . ثم
هى كلمات على قلبها تضع أمام القارئ مخططاً واضحاً لفلسفة الحكم فى
نظرتنا المثالية الأصيلة . . . فالخلافة فى ضوء هذا المقياس ليست ميراثاً
شخصياً ، ولا حظاً دنيوياً ، ولا منصباً فخرياً يتنافس عليه طالبوا الجاه
والأبهة العابرة . وإنما هو جهاد فى سبيل الخير العام ، توزع فيه العدالة

بميزان الحق ، فتكون شدة وغلظة على الظالمين ، ولينا وخفضا للجناح أمام الصالحين ! .

ولا جرم أن مثل هذه النفس التي ارتفعت فوق ضرورات المادة ، حتى صارت أتمودجا يمثل أسمى خصائص الإسلام . . لا توصف عند منصف بأن الناس قد منوا بها بنحيط وشماس . . . !

ونحن لا نريد من مؤلف مدرسي سوى أن يقف عند أشباه هذه النصوص في فترة الدراسة الثانوية جميعا ، اعتقادا منا أنها خير وسيلة لتركيز مفاهيمنا الأصيلة في تلك القلوب الغضة ، وأفضل سلاح نزود به الطالب في معركة التيارات الفكرية التي تهاجمه من كل حذب وصوب . وقد جربت بنفسى أثر كل من النصين المعروضين في عقلية طلابي . . فرأيت الانسجام والاعتزاز ببعض ثمرات هذه النفحات العمرية ، ورأيت النفور والاشمئزاز والاضطراب واندفاعات التعصب الأحقق بعض ردود الفعل لتلك الشتائم الحاقدة المنسوبة كذبا وظلما إلى أبي الحسن عليه السلام . هذا ولا بأس أن يعلم القارئ بعد ذلك أن مؤلفي النصوص - المجهولين - قد أعطوا من جهدهم المشبوه عشر صفحات شرحا وتحليلا للشكشكية . . . في حين عرضوا خطبة عمر هذه بين نماذج أخرى للدراسة غفلا من أى تعليق !!! .

ومرة أخرى نوكد أننا لا نتهم ولا نرتاب . . ولكن نتساءل : أى الطريقين أسلم عاقبة ، وأهدى سبيلا ، وأقرب إلى الصواب ! .

* * *

أباطيل وحقائق :

والآن تعال معي نتساءل عن الخير الذي يتاح للطالب أن يجنيه من دراسته لمثل هذا الشعر (١)

هو البحر . . من أى النواحي أتيت فليجته المعروف ، والجود ساحله

(١) من قصيدة معروفة لأبي تمام في مدح المعتصم . . .

تعود بسط الكف حتى لونه ثناها لقبض لم تطعمه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها ، فليثق الله سائله
فصارى ما تفيده من هذا الكلام هو أننا تلقاء رجل لا وجود له إلا
في خيال الشاعر .. وكل ما هنالك عبث لفظي ، يجهد به نفسه ليؤلف منه
الصور العجيبة المدهشة ! . فالمدوح كف مرت على الانبساط زمنا طويلا
حتى باتت غير طبيعية ، فهني كأذرع فقراء الهند ، مدت عشرات السنين
حتى تعطلت قدرتها على الحركة ، وهو طراز جديد من المجانين ، لأنه
مستعد دائما أن يقدم روحه - ينتحر - لكل طالب ، إذا لم يكن في يده
ما يعطيه ! ! ! .

ولكنه على كل حال لغو جميل ، يبرهن على قوة بهلوانية لدى الشاعر ..
غير أنه لغو لا فائدة منه ، إلا إذا كان من أغراضنا التربوية إعداد جيل
يحسن مثل هذا التدجيل ! . . .

وإلى جانب هذا النموذج نطل على ضرب آخر من المديح ، يوجهه
الشاعر نفسه إلى المعتصم يوم عمورية ، فإذا نحن تلقاء معان جديدة ، تسجل
للأجيال صورة خالدة من روح هذه الأمة المجاهدة ، مجلوة في أهداف
مثالية ، تستخف بكل حطام الدنيا في سبيل الحرية والكرامة وإعلاء
كلمة الله . . .

إنك لترى في هذه الملحمة طائفة رائعة من مفاهيم الجهاد والإعداد ،
والعزة والفناء في الحق ، في صور لم يهمل فيها الشاعر التناظر بين أهدافنا
وأهداف أعدائنا ، ونظرتهم إلى الدنيا ونظرتنا . . . ولا ريب أن مبعث
السمو في هذه القصيدة الضخمة عائد بالدرجة الأولى إلى انفعال الشاعر
بروح الجماعة ، التي تنهت مشاعرها أمام الخطر الرومي بسقوط (زبطرة) .
فلما زحف المعتصم في حملة الثار ، زحف مزودا من وراء الجيوش
بالقلوب ، التي ما كانت لترى في هذا الزحف إلا عين ماصوره أبو تمام . . .

وأحب أن تتأمل معي في هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها جبيب
قريبه أبا سعيد محمد بن يوسف لمناسبة ظفرك بأصحاب (يابك) :

لله أيامك اللأى أغرت بها ضفرا الهدى ، ولقد يمان كان قد مرجا (١)
كانت على الدين كالساعات من قصر وعددا بابك من طولها حججا (٢)
... عادت كتابه لما قصدت لها ضحاضحا ، ولقد كانت ترى لججا
لما أبوا حجج القرآن واضحة كانت سيفك في هاماتهم حججا (٣)

فالشاعر يصور لك بطولة رجل أنقذ الأمة من فتنه حطمت العديد من
الحمالات ، وأودت بالعديد من كبار الأبطال ، ونشرت الذعر في ربوع
الدولة . . . فتنه كفر أصحابها بمبادئ هذه الأمة وجمعوا الأشرار على تعاليم
نجوسية مزدكية لا مسوغ لها سوى النعمة من الإسلام . . . فكان من حق
هذا المنتقد أن يسمع مثل هذا الإطراء ، الذى لم يكن فى حقيقته سوى تمجيد
للروح التى تختلج فى أعماق الجميع فهى حرب لم يرد بها المدحوب سوى
وجه الله ، لذلك رد بانتصاره إلى الدين هيبته التى كانت قد تضعضت ،
فيا لفرح الدين وأهله إذن ! . . . ويا لشقاء بابك وأعوانه بهذه الملحمة ! . . .
لقد كان هؤلاء الأعداء سيلا مخيفا لا يدفع فى وهم الناس ، فإذا المدحوب
يحظم هذه الأسطورة ، فيكشفهم على حقيقتهم كشىء تافه ضحضاح ..
وهو لم يظلم هؤلاء بما لقوا على يديه ، إذ دعاهم للاختكام إلى القرآن ،
فأبوا إلا أن يركبوا رؤوسهم ، فكان لا بد من استئصال هذه الرؤوس ! .
ألا ترى معي إلى هذا الطراز من الجمال المتفرق فى هذه الأبيات ! .
لقد تعاون جمال التعبير مع جمال الإيمان ، مع جمال المناقب ، على
تأليف هذا السجى ، ففعل فى نفسى ونفسك ما كان جديرا أن يفعله ، قول
يحمل إلى قلينا هذه النفجات المنعشة من حقيقتنا . . . من نظرتنا المقدسة
إلى هذه المعاني . . .

وهكذا القول فى معظم ملاحم المتنبى التى يصف فيها معارك سيف
الدولة مع الروم ، فهناك نفحات تهب عليك من لب الوقائع ، فتشعر من

(١) أغار الغيل : شد قتله . . . والضر : الشدة والإحكام . . .

(٢) جمع حجة - بالكسر - الستة . . .

(٣) جمع حجة - بالضم - البرهان . . .

خلالها بروح أمتك تتمثل في روح الأمير ، الذي يمثل بحروبه المستمرة
أهداف هذه الأمة نفسها ، من دفع للطغيان وحفاظ على الحرية ، وحراسة
لا تعرف الغفلة لحدود هذا الوطن المهدد ! . وأى ضمير موثمن لا يهتز طربا
لصورة هذا البطل في عراكه ، الذي لا يتقطع مع أعداء هذه الأمة
في الخارج وأعدائها في الداخل :

أنت طول الحياة للروم غاز فنتى الوعد أن يكون القفول !
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أى جانبك تميل ! . . .

وهل أروع من موقف هذا العملاق ، وقد أخذ على عاتقه حماية
الوطن ، الذي لولا حزمه وعزمه لتدفقت عليه سيول الروم فأغرقت مصر
والعراق ، دون أن نجد يومئذ قوة تصدها ، لأن أمراء البلاد قد شغلهم
عن بناء الأبحار (شرب المدامة والأوتار والتغم) :

لو تحرفت عن طريق الأعادي ربط السدر خيلهم والنخيل
. . . ما الذى عنده تدار المنايا كالذى عنده تدار الشمول
. . . هذه قطع حية من تاريخ الجهاد الإسلامى ، تتلاقى فيها إلى حد
بعيد أكرم شيم العروبة الأصيلة ، مع روائع الخلق الربانى فى آفاقه
الرحبية . . .

وأنا لا أفهم كيف نعدل عن هذه الطريقة النقية فى تدريس أدبنا ، إلى
مثل هاتيك الطريقة الحشوية الأخرى التى لا تفيد أحداً سوى مؤلفى الكتب ،
إذ يتخذونها وسيلة لاستكثار الأجور بإكثار السطور ، فيحشدون لها
ما هب ودب من النصوص ، دون هدف سوى ما يسمونه (تاريخ الأدب) ..
كأن من حق هذا التاريخ علينا أن لا يكون لنا أى غرض من وراء المناهج ،
حتى تكون أشبه بهذه الصحف التجارية تجمع بين بحث قيم فى الصحة إلى
جانبه إعلان مغز بالحمور . . . عدوة كل صحة . . . !

* * *

اطرحوا هذا الفجور :

لقد شحنا رووس أبنائنا بأهاجى الفرزدق وجريرو وغيرهما ، فإذا
جنينا من ذلك إلا أن نعلمهم كيف يؤلفون بطريقة فنية أنواعا من السفه

والفجور يسمعونها كل يوم في أزقتهم . . ولكن بطرائق غير فنية ! . .

وما أدري لماذا لا نكتفى من شعر جرير مثلا بدراسة مراثيه الروحية ، ومقدماته الغزلية ، التي تهيج الأشواق النظيفة في قلب العربي ، إذ تذكره بتراث أمته ، الذي يعتبر العفة والتسامي عناصر طبيعية في كيانها الأصيل ! .

ولكن وا أسفاه ! . . إننا لنصف جريرا للطلاب بأنه ذو السلوك الشخصي النقي ، وأنه الشاعر المطبوع بصبغة الإسلام ، ثم نقدم إليهم من هجائه المشبع بالفجور والاختلاق ما يجعل مفهوم الإسلام لديهم شيئا مضحكا ! .

بلى . . ان الجديد الذي نريد إدخاله على مناهجنا الأدبي هو أن يستبعد منه تلك السموم المخطئة للأخلاق وللخصائص العربية ، والتي لا تعطى مردودا سوى زيادة المنحليين والمهرجين والمنافقين في صفوف هذه الأمة المجاهدة .

وليغضب دعاة القوضى ما شاء لهم الهوى ، وليسخطوا ما طاب لهم ، على هذا التحرر من تعاليمهم المستهزئة المستخفة بكل هدف كريم . . فنحن لا نطلب لمناهجنا ولأبنائنا أكثر مما يطلبه العقلاء من حكوماتهم ، حين يسألونها أن تحميهم من السفهاء والمحتكرين والمتاجرين بالأعراض والأخلاق .

كل الناس متفقون أن على الدولة واجب مطاردة المهربين للمخدرات ، وإخضاع تجارة المتفجرات للمراقبة الصارمة ، حتى لا تتسرب إلى أيدي الجاهلة والمجرمة . . ونحن لا نريد من حكوماتنا ما يتجاوز هذا الواجب : واجب المراقبة الدقيقة لمواد الدراسة والمدرسيها ، حتى لا يتسرب إلى القلوب الغضة ما يفسد فطرتها ويستأصل أمنها ، ويدفعها إلى مخالب الإباحية والقوضى دفعا . . . وقد علم أولو العلم أن من الكلام سموما دونها السموم ، ومنها المتفجرات التي لا تنسف الصخور والمنازل ، ولكن تحطم الأخلاق والفضائل .. وهنات أن تنفعنا صحة الأجسام إذا فقدنا صحة الأرواح ! . . والويل لنا حين يستحوذ علينا المستهترون ، فنجعل مناهجنا التربوية كبرامج (ما يطلبه المستمعون) . . أو كحقول الصحف التي فسدت ذمم أصحابها ،

فأقاموا من أنفسهم متقلدين لخطط الأعداء في تهديم رجولة الشباب ، وبث سموم الرذيلة بغير حساب .

صحف تنفث السموم ، فما تحمل إلا النفاق والتدجيل
عبثت بالعقول حتى غدا المنطق لغوا في شرعها وفضولا

فاذا الحق باطل ، والأباطيل حقوق ، والإفك أقوم قبيلا

ونحن هنا لا نجادل هؤلاء السفهاء الذين خربت ضمائرهم ، فلا يهمهم
تسوى المال الحرام ، يتصيدونه من أى سبيل . . . ولكننا نخطب الرجال
الذين وضع القدر في أيمانهم مستقبل هذه الأمة ، والذين أعلنوا أنهم يستهدفون
من التربية والتعليم تكوين الجيل الجدير بحمل الأمانة ، التي عرضت على
السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأرجن عن الإنسان . . . وقد علموا
أنها مهمة ضخمة ، لا تصلح للنهوض بها النفوس الفاجرة ، ولا السواعد
الريخوة الخائرة . . .

من هنا الطريق :

أنا أعلم أن كثيرين من زملائي ملتزمي الغربة لن يؤيدوا اتجاهي الغريب
هذا . . . وسيجدون فيه تهجما على طرائقهم التي آمنوا بها ، فلا يحبون
أن يتحولوا عنها إلى سواها . . . وهؤلاء لا ألومهم ، فلهم دينهم الذي تلقوه
من دعاة (الاستغراب) . . . الذين يرون أن لا خير إلا في مناهج الغرب
أدب الغرب وورطانة الغرب . . . ولنا ديننا الذي عملونا شعورا بالمسئولية
نحو أممتنا وإنسانيتنا . . . ومن هنا نفترق ، فغربيون وشرقيون ، ويرغمون أن
(الفن للفن) . . . ونحزم أن الفن للخير وللحق

هؤلاء يقولون : إنك تدعو لتجديد الأدب ، إذ تريده خطبا وحكما
كمواعظ المعابد ، وقد نسيت أنه صورة الحياة التي فيها الخير والشر والفضيلة
الرذيلة !

ونحن نقول : نريد تجديد الأدب على الموعظة والإرشاد
ولا نريده مقطوعا عن الحياة . . . كتسايع سبكان الصوامع . . . ولبكتنا

نختلف وإياكم على مفهوم الحياة ، فأنتم تطلبون من الأديب أن يأخذ الحياة كما هي على طريقة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غوت وإن ترشد غزية أرشد
أما نحن فنريد من الأديب أن يكشف الحياة ، فيكون رائد قومه إلى
الحير ، يهيب بالتائهين : أن الطريق من هنا لا من هناك . . وأن في الحياة
مناطق مشرقة بالضياء . . غير التي فيها يتخبطون . !

إنكم تريدون أدبا غوغائيا يقول كل ما يوحى به الهوى ، كالحمار
لا يجد حرجا أن ينهق حيث يشاء . . ونريده أدبا مهذبا يسمو بالنوع الإنساني
إلى المكان الذي رشحته إليه حكمة الله . . . لذلك نقول لأصحاب الأقلام :
مهلا . . ضعوا أيديكم على ضمائركم . . تذكروا فداحة التبعة الملقاة على
أعناقكم . . . ثم اكتبوا . . . وانظموا . .

ثم قد نجد بين هؤلاء الزملاء طرازا آخر ، لا نخالفنا في أن للأديب
امتيازاً يرفعه عن الانسياق الأعمى في تيار المجتمع . . وأن له رسالة لا يكون
أديبا إلا بها ، ولو سمته المؤتمرات المشبوهة أديبا كبيرا . . غير أنه سرعان
ما يفارقنا في مدلول هذه الرسالة . . إذ هو يراها جاهلية المنزع ، تشحن
الرووس بدوى لا مفهوم له ، سوى أنه كلام عن عروبة عجيبة تعيش بغير
قلب ولا ذاكرة . . تنطلق إلى الأمام كالقاطرة العمياء ، لا تدري من أين
ولا إلى أين ! . . وشتان بين عروبة كهذه صنعها الهوى تمثالا لا حياة فيه ،
وعروبة أنشأها خلقا سويا ، فهي حية واعية مؤمنة ، تعرف ماذا أراد لها
خالقها ، وماذا ينبغي أن تريد ! . . والاختلاف في مفهوم كل من العروبتين
إنما هو في الواقع اختلاف جذري له أثره البعيد في كل جوانب الحياة . .

* * *

تطور ناقص :

على أن بعض التعديل قد طرأ على منهاج الأدب في فصل الشهادة
الثانوية ، إذ أصبح — كما هو في سورية — مقصورا على دراسة الأدب
الحديث ، لا يتناول خارج حدوده إلا قليلا من عصور الدول المتابعة ،
كقائمة لرصد التطور الأدبي .

وقد لوحظ تدمير واسع يتن مدرسى هذه السنة بإزاء الخطوة الجديدة ،
إذ نقلتهم طفرة من منهج يدرس فيه الطالب مجموعة من العصور الأدبية ،
إلى آخر يقف بهم عند عصرهم الحديث وحده . . بل يكاد يجتزئ من ألوان
هذا العصر بواحد هو الأدب التحريرى . . الذى يمثل حركة النضال
فى بناء النهضة الحديثة .. وربما كنت أنا بين القليلين من المدرسين الذين هلّوا
لهذه النقلة وكبروا ، ذلك أننى وجدت فيها ضرباً من التعبئة المدرسية ،
يجعل للمناهج الأدبية هدفاً عقلياً واجتماعياً لم يكن للمناهج السابقة عهد بمثله
قط . بل من خطأ رأى أن يقارن بينه وبينها . . . وهى التى لم تكن أكثر
من عرض مرتجل لنصوص لا تستهدف أى غرض سوى ما يسمونه بالثقافة
العامة ، أشبه شئء بكشكول الشحاذين امتزج فيه الحلو بالحامض بالحريف ،
على شكل يمجّه كل ذوق سليم ! . .

ولقد رددت تدمير المتذمرين يومئذ إلى أسباب . . منها تعرض المناهج
للهازات المتتابعة فى كل عام . . ثم إثارة للراحة التى توفرها لهم تحضيراتهم
السابقة للمناهج القديمة ، على القيام بتحضيرات جديدة يتطلبها استيفاء البحوث
فى أدباء ونصوص لا يغنى فيها المؤلف المدرسى عن الرجوع إلى أمهات
المصادر . . الأمر الذى يقتضيه مجهودا كانوا فى غنى عنه لو ظلوا حيث
هم ، أو لو جاء الكتاب الجديد وافياً بغرضه ، مجزئاً عن العودة إلى عشرات
المراجع ! .

على أن هذا التطور الصاعد فى موضوع المناهج لا يمنع القول بأنه
لا يزال ينقصه الكثير . . وأول ما نلاحظه من ذلك حاجته إلى مضاعفة
التركيز فى ناحية المثل . . فنحن ندرس هناك طائفة من أكبر أدباء العصر
فى الوطن والمهجر ، ونعرض من آثارهم لنماذج رفيعة . . ولكن الذى
نفقده فى هذه النماذج مركزية القيم ، والقدرة على تجديد فلسفتنا الجماعية
— لا الفردية — فى نظرتها إلى الكون والإنسان والمجتمع والأخلاق والحرية . .

ولنضرب لذلك مثلاً عملياً : فى نماذج أبى ماضى ما يعطى صورة
مقبولة عن تأملاته الشخصية فى كثير من مشاكل الحياة ، وصلة الإنسان

بالكون ، ولكن على طريقته الخاصة التي كانت في بعضها انطبعا بروح
(البراغماتيزم) الأمريكية . . وفي بعضها الآخر كرد فعل ضد هذه المادية
الأمريكية نفسها . .

وفي نماذج جبران الكثير من الصور الوجدانية التي تمثل نقده الاجتماعي
وانطلاقاته الإنسانية . .

وفي نماذج الكواكبي والأفغاني ومحمد عبده وبقية أدباء المنهاج شواهد
متفاوتة ، تصور مهمة الأدب الفعالة في حياة العصر ومشاكله جميعا من
ناحيته السلبية والإيجابية . . ولكن هذا وذاك وأولئك كلها لا تعطى الجواب
الشافي لمثل هذا السؤال : ما مدى تصوير هذه النزعات والتأملات والفلسفات
لروحنا الأصيل ، الذي يجب أن يكون المحور الذي تدور حوله كل دراساتنا
المنهجية لمختلف العصور ! !

لقد حددت هذه النصوص موضوع الـ (أنا) تحديدا شبه تام . .
ولكن بقي أن نتساءل : أين هي النصوص التي تستطيع تجديد موضوع
الـ (نحن) في كل هذا المنهاج . . !

دفاع عن شوقي

حدث ذلك قبل سنوات . . وكنا مجموعة من مدرسي العربية جيء
بنا لتدقيق امتحان الشهادة الثانوية في مادة الأدب . وقد تحلقنا للبحث حول
سلم الوزارة في توزيع أجزاء السؤال ودرجاته . وكان أمير الشعراء هو
موضوع السؤال . فقال قائل : إن سلم الوزارة يفترض وجود خطوط
ثابتة في شعر شوقي ، وهو الشاعر القارغ من كل ميزة إلا التقليد ! . .
فعلى أي أساس نحاسب الطالب فيما كتب عنه ! . .

وانطلق زميل آخر يقول : إنه الشاعر الذي لا رسالة له ! . .

وساد الصمت قليلا . . وتحركت بعض الرؤوس بإشارة الموافقة . .
وكنت في غمرة من الدهشة ، أرقب وجوه الأساتذة لأرى عدد المخالفين
لما يقال . . وما أذكر أني لمحت أثرا لذلك ، فلم أتمالك أن قلت : « إن

عناصر البحث في سلم الوزارة منبثقة من دراسة صحيحة دقيقة لشوقي ،
فلا يعقل أن يخلو شعره منها . . ثم مضيت في تبيان وجهة نظري عن الموضوع ،
وأخيرا انتهينا إلى الأسس الواجب علاجها من قبل الطالب . ولكن ظل
كل شيء على شأنه بالنسبة إلى أولئك الزملاء . . فشوقي مقلد لا شخصية
له ، ولا أثر من عبقرية ، وشعره خال من كل أثر للأهداف العليا . . !
وهنا ذكرت قول شوقي رحمه الله :

ومن النقد والجidal كلام يشبه البغي والخناس والفضولا

وسمع ذلك مني زميل قريب فقال : رائع . . ولمن هذا ؟

قلت : للشاعر الذي لا عبقرية له ولا رسالة ! .

واشتركنا في تدقيق بعض الأوراق لتقريب المقاييس . . وكان هناك
مدرسة لا تكاد تسمع عبارة فاسدة حتى تشبهها بشعر شوقي ! . .

ولم يفتني السر في هذه الحملة على شوقي . . أنها دوافع العصبية
التي حددت أهداف الأدب بما يختلف عن فهم الشاعر ، فهي لذلك تنكر
عليه الفهم والفكر والشخصية ، ولو استطاعت لأنكرت وجوده كله ! .
ولولا هاتيك الاعتبارات الخاصة لما تعذر على أولئك الأساتذة أن يستخلصوا
أهدافه الكبرى من خلال الكثير من إنتاجه الأدبي . . وبخاصة شعره
الإسلامي ومسرحياته التي تضعه في طليعة المفكرين الاجتماعيين في أدبنا
الحديث .

لقد عرف كل قارئ لمسرحيات شوقي أنها دروس مستمدة من خصائص
أمته وحاجاتها ، في السياسة والوطنية والأخلاق ، فهناك الإباء الوطني
الذي يجعل الموت أيسر قبولا من الهوان . . كما في (كليوباترة) . . وهناك
الإثارة الملهبة لروح الكفاح ضد المحتل ، ممثلة في (قبيز) . . ثم هناك
عزة القروسية ، وسمو الحب يمثلان أنبل الخصائص العربية في عنبرة
ومجنون ليلى .

ومثل هذا يقال في سائر مآسيه التي لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولكنه التصميم البناء الحكيم ، الذي لا غرض له سوى تكوين الغرائم الصالحة لتخطيط المستقبل . .

قد يكون شوقي في هذا الفن مقلدا لكورناري . . ولا عيب في ذلك إذ كان الشعر التمثيلي في العربية طفلا يحبو حتى نهض على يدي شوقي . . فهو إنما يقلد الوسيلة دون الغاية . . ولو وقع ذلك لمن هو دون شوقي إحساسا بتاريخ أمته وروحها لآثر غير هذه الموضوعات ، كما نرى لأكثر المعاصرين . .

أما شعره الإسلامي فسجل « مهيب » لمرحلة من النضال الجماعي لا سبيل إلى حذفها من التاريخ ، ولا خير في تجاهلها في نطاق الأدب ، لأنها هي التي مهدت للتيارات الحديثة . . وقد رأينا شوقيا - وبخاصة بعد المنفى - يفتح ساحة النضال الاجتماعي في تصميم مركز ، يرمى من ورائه إلى نغمز الإباء في صدور العرب حتى (. . تلظت أنوف الأسد واضطرم المدق . .)

وضج من الشكيمة كل حر أبي . . . من أمية فيه عتق

وهكذا وسع شوقي مساحات كفاحه ، فكانت متعددة الساحات ، متحدة الهدف ، تريك إياه في جواء التاريخ الفرعوني حيناً ، والإسلامي حيناً آخر ، يثير المشاعر ويوقظ الضمائر ، لاسترداد المجد السليب . . ومرة في أوساط العمال يذكرهم مكانتهم في ميزان الحياة ، ويحضهم على تحقيق مثل أمتهم من الإلتقان في العمل والدأب عليه . . وحيناً في مدارس الأطفال يمدحهم بالأناشيد التعليمية ، التي تعدهم لأعباء المستقبل رجالاً لا تصرفهم البهارج عن المعارج . وآنا على منابر الجهاد خطيباً ينفخ بوطنياته روح التمرد ضد الغاصبين ، يحذرا المجاهدين من ألعيب المستعمرين ، مصورا جلال الحرية في القمة التي لا يبلغها غير الأفذاذ من المناضلين . . وطورا في غمرات الروح يعرج على أجنحة الإيمان إلى مسابح النور . فيخص صاحب الرسالة الأعظم ، وأخاه السيد المسيح ، بمدائح تمثل أصالة الروح العربي ، الذي لا يجد قرارا إلا في ظل الملائ الأعلى . . غاسلا بأشواقه أوضار الماضي الذي

طالما شغله عن هذه الحقائق . وما أدري بعد هذا كله كيف يسأل سائل :
أين عبقرية شوقي وأين رسالته ! ! . فكأن عارا على شاعر أن يكون له
بعض التقليد . . وقد علم كل ذى فهم أن الشاعر يبدأ مقلدا مقررزا ، حتى
تتكون له القوى التي تميزه عن سواه . . شأن فحول العربية كلهم دون
استثناء .

أما أن يكون لشوقي مبادله كأى شاعر . . فتلك بدوات الفردية التي
لا يسلم منها إلا من رحم الله . وليس من عار على شوقي أن يسجل بها خواطره
الخاصة ، ولكن الخطأ أن تتخذ من هذه الفلتات أساسا لدراسة الشاعر ،
فتنسى بذلك المبدأ السليم الذى يجعل الغرض من دراسة الأدب تقصى الروح
العامة ، فى مسالك الشاعر دون الوقوف على الهفوات التي لا شأن بها
للمجتمع ! .

وفى اعتقادي أن مثل قول أبي نواس :

يا كبير الذنب . . عفو الله من ذنبك أكبر !

أو قوله الآخر :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا

ولقيت ما يلقي امروء بزمانه فإذا عصارة كل ذاك أنام !

هو فى ميزان التحليل أرجح دلالة على حقيقة هذا الفاسق من كل
فلتاته الإباحية ، ذلك لأنه صوت الفطرة المحبوس ، ينطلق من أعماق النفس
المؤمنة . . ليسجل احتجاجها على ذلك الانحراف المريض ! .

ومهما يكن من أمر فإن تعديل رأى أولئك الزملاء فى شوقي يقتضى
أولا تصحيح الاتجاه الفكرى فى رؤوسهم ، ليتاح لهم أن يروا شوقيا على
حقيقته . . ويومئذ سيعلمون أن اتساع الأفق الفكرى فى نظره لا يخرج
من قيمته . . ما دام فى الأمة العربية من يؤمن مثله أن للعروبة ميدانا هو
أوسع من بلاد العرب . . هو الشرق الإسلامى ، الذى جعلها القدر منه
فى مرتبة القيادة .

وحسب شوقى خلودا أنه ترك للعرب ثروة من المعاني الحية ، لا نمتأ
نرددها فى مختلف المناسبات القومية . . وما أحسب شاعرا استطاع أن يرسم
للحرية صورة أجمل مما فى قوله :

وللحرية الحمراء بساب بكل يسدمضرجة يدق

ولا صورة للمستعمر أنجح من قوله :

وللمستعمرين ، وإن الآنوا قلوب كالحجارة لا ترق

ولا رسما لطبيعة الطغيان أشد هولا من قوله :

ودعوى القوى كدعوى السباع من الظفر والناب برهانها

وما أعرف شاعرا استطاع أن يصف الحياة بأروع وأصدق من قوله :

فإن الحياة تقل الحديد إذا لبسته وتفى الحجر

أو يحدد أهمية القدوة فى ميدان التربية والتعليم بأدق من قوله :

وإذا المعلم ساء لخط بصيرة جاءت على يده البصائر حولا

وأخيرا لم يعرف العصر الحديث شاعرا وصف مأساة العرب فى نهاية

أولى الحربين الكبيرين بأحكم وأفجع من قوله :

قد رجونا من الغنيمة حظا ووردنا الوغى فكنا الغنائم

فليرحم الله شوقيا . . . وليرع بالتخليد ذكره .

أدبنا المعاصر :

لا تزال معقولة تلك الكلمة التى تقول : (وراء كل تطور اجتماعى
كبير حركة أدبية كبيرة) وذلك لأن من طبيعة المجتمعات البشرية أنها
تنسجم مع أوضاعها المألوفة صاعدة أو هابطة ، فلا تكاد تحس ما بها من
شدوذ ، حتى يتاح لها المفكر الذى يلم بهذا الواقع ، ويستشعر ما فيه من
انحراف ، فإذا هو تائب به ، متمرد عليه ، ثم لا تستقر نفسه حتى يرى
لثورته أثرها المباشر فى تفتيح العيون . . وإيقاظ الغافلين . . ومن هنا تبدأ
المعركة بين الواقع الذى يتشبث بالبقاء ، والتطور الذى يريد أن يزحزحه .

تلك المعركة الإنسانية الخالدة التي قادها الأنبياء ، وتعهدوا الحكماء ، ولا يزال وراءها المفكرون والأدباء . .

ولست الأمة العربية بمعزل عن ذلك القانون الطبيعي ، بل إنها في واقع الأمر أكبر مثل على صحته ، وهذه اندفاعاتها الكبرى ، منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، سلسلة متصلة الحلقات من الحركات الفكرية ، تتوهج حتى يلف لها القسم ، وتتضاءل حتى يحسبها الناظر قد شارفت الانطفاء . .

وقد أتى على هذه الأمة حين من الدهر تأخرت فيه عن ركب الإنسانية ، فسادها ركود فكري خيل لناظريه أنه النهاية ، ثم تحركت الأيام فإذا هي تنتفض فيزول القبر والكفن ، وتعود من جديدة إلى معركة الصراع الأولى معبأة القوى ، مرهفة العزيمة ، ترداد كل صباح إيماناً بنفسها ومستقبلها وإمكاناتها ، على كثرة المثبطات وتتابع الصدمات . ولقد يكون وراء هذا الانتفاض عوامل لا تكاد تحصى من (ديناميكية) الزمن وجبرية التاريخ ، ولكن مما لا خلاف فيه أن الأدب واحد من أهم هذه العوامل ، إن لم يكن أهمها . . .

إن مؤرخ النهضة العربية الحديثة في مختلف خطوطها العامة ، دينية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، ليس بوسعها أن يتجاهل أفكار الأفغانى ومدرسته التي أشعلت فتيل المواهب ، وأطلقت كمين الطاقات ، فأحدثت في الشرق الإسلامى كله مثل الزلزال الذى أكره الناس على إعادة النظر في أوضاعهم المألوفة ، ومفاهيمهم المقلوبة .. وقد بلغت ثورة هذه المدرسة من النضج والقوة أنها — منذ خطواتها الأولى — قد عنيت بإصلاح كل فاسد من واقع هذا المجتمع ، لا تفرق في عملها بين الدين والدنيا ، بل تفسح لكل مهم جانباً من مخططاتها العام ، فكما تدعو إلى تطهير الدين من زيف البدع ، وتكشف عن مقاتل الحكم الاستبدادى ، وتمكن في الضمائر لمفاهيم الشورى ، هكذا كانت عنايتها في الأدب واللغة ، حتى أنك لترى محمد عبده ، وهو أشهر تلاميذ هذه المدرسة ، يجعل فهم الدين على طريقة

السلف^(١) ، ثم تحرير الفكر من قيود التقليد ، وإتقاذ الأساليب الأدبية من أغلال التكلف ، أهم الأركان في رسالته الإصلاحية . ونحن حين نتذكر واقع أمتنا في أواخر القرن الغابر ، وما كانت عليه أيامذاك من جمود وتقهر وانقلاب في المفاهيم ، ثم تقارن ذلك بما انتهينا إليه اليوم من نهضة شاملة ، وتقدم فكري مطرد ، حين نفعل ذلك لا يسعنا إلا أن نقدر لأولئك المصلحين فضلهم في ما وصلنا إليه من خير ، ونستلهم مبادئهم في مواصلة الإصلاح لما يواجهنا من انحرافات عن طريقهم السوي . وما أحسب في الأمة العربية مثقفاً يجهل أثر الإنتاج الأدبي الضخم ، الذي حققه محمد عبده وشكيب أرسلان ورشيد رضا ومصطفى كامل ، والبارودي وشوقي وحافظ والرصافي . . . وعشرات الأدباء المتأثرين بمدرسة الأفغاني ، في هذا التفتح العام الذي سجلته - حتى اليوم - حركة البناء في جميع الميادين دون استثناء . :

والأدب في نظري ذو مظهرين أحدهما يعرض واقع الأمة من خلال ذات الأديب ، فيرينا فضائلها وورذائلها ، ومواطن ضعفها وقوتها ، فتفاعل به ونعيش معه ، فيوقظ بنا عن هذا الطريق غير المباشر نزعة النقد والتأهب للتطور . . أما الثاني فذو مهمة تثقيفية يناقش ذلك الواقع بطريقة موضوعية ، ويحمل إلينا ثمرات الفكر العالمي والنهضات البشرية ، وبذلك وهذا نندفع في طريق التقدم على بصيرة وخبرة .

وإن أدبنا المعاصر ليحمل هذا الطابع الثنائي في قوة ، إذا لم تكن كاملة فقرية من الكمال ، وفي وسعنا أن نشير إلى شعراء وكتاب وخطباء وصحفيين كان لهم أكبر الأثر في إثارتنا والإطلال بنا على واقعنا ، في إنتاج ذاتي ألهب المشاعر ، وجلى البصائر ، فلا كارثة إلا ولها على ألسنتهم دوى ، ولا حادثة إلا ولها في جوانحهم هزة ، وبأقلامهم صدى . . إلى أدباء آخرين أمدوا الملايين من القراء بمادة البحث الموضوعي ، وأشرفوا بهم

(١) هذا على الرغم من بعض الشذوذ الذي يؤخذ عليه والذي نرجو أن يكون قد عاد عنه أخيراً .

على تيارات الفكر العالمى ، من خلال إنتاج وفير تناول جوانب النهضة الفكرية فى العالم أجمع ، فلا علم إلا ولهم فيه جولات ، ولا فن إلا نقلوا منه أطيب الثمرات . وكل ذلك فى أدب أصيل تحرر من كل عائق مصنوع ، وانطلق فخلقا فى جواء سامية من التعبير الفحل المطبوع ، الذى عرفته العربية فى أزهر عهودها الذهبية . ولعمري إنه لدور ضخم يؤديه هؤلاء الأدباء فى معركتنا الراهنة ، التى كان عليها أن تبدأ أولا فى أوساط الكبار من رجال الفكر وحملة الأقلام ، قبل أن تنتهى إلى سواد الشعب . .

وطبىعى أن الاعتراف بدور أدبنا فى البناء العام لا يراد به وصفه بالكمال ، ولا الرضى عن كل ما تزخر به السوق من إنتاج الأقلام ، فالأدب الذى نتحدث عنه إنما هو أدب العالقة الذين مثلوا عبقرية هذه الأمة فى الوطن والمهجر . فلا شأن بحديثنا إذن لأولئك الأقزام الذين يسمون أنفسهم أو تسميهم بعض الهيئات المشبوهة أدباء . وكذلك لا ننكر أن فى أدبنا ، على جلاله ، قصورا ملموسا إذا قيس ببعض آثار الأمم المعاصرة . ولكن علينا أن نتذكر حقيقة مهمة وهى أن الأدب صورة من الحياة العامة ، وحسبه فضلا أن ينى بحاجتها وفق سنة التطور ، وإذا كان ضروريا أن يسبق خطواتها أحيانا فإلى القصد الذى يصور تطلع الضمير الجماعى إلى المدى البعيد من الكمال المنشود ، دون أن يقطع صلته بواقعها الراهن . . .

وعلى ضوء هذا القياس نسجل لأدبنا المعاصر وفاءه بحاجة النهضة ضمن حدودها الواقعة ، وأبعد إلى المدى الطبيعى المعقول . . .

على أن ثمة جانبا من النقص لا مندوحة عن التذكير به هنا ، لأنه يسجل مدى التباعد بين أدبنا المعاصر والكثرة الكاثرة من سواد الأمة . .

فالأدب إنما يحقق رسالته كاملة بمقدار ما يحقق من التجاوب بينه وبين السواد الأعظم .

وقد عرف أدبنا العربى عصورا كان التجاوب فيها على أشده بين الأدب والجماعات ، ثم ضربت الأحداث ضربتها فإذا هناك هوة سحيقة بينهما ، وإذا الأديب منقطع بواقع لغته وتفكيره إلى طبقة خاصة لا تمثل

مجموع الأمة ، وإذا السواد الغالب مشغول عنه كذلك بواقعه ، الذى لم يلبث أن وفر لنفسه لغته وتفكيره الملائم . . ثم يستيقظ الأدب الحديث على جمهور حرم ضياء المعرفة ، إلى جانب حرمانه مفاهيم اللغة ، فأصبح متعذرا أن يصل صوت الأدب إلى أسماع هؤلاء إلا من وراء ألف حجاب ! .

وهكذا وجد الأديب نفسه معزولا عن سواد أمته ، مقصور التفكير على الطبقة المتعلمة وحدها ، تلك التى تعمل بوسائلها الخاصة لنقل أفكار الأديب إلى من يلها من المجموع . .

وهذا واقع مزعج من شأنه أن يضعف قدرة الأديب على استكمال رسالته فى البناء الجماعى . وفى اعتقادى أن هذا النقص سيظل مرافقا عملنا الأدبى ، حتى نوفق للقضاء على آخر معقل للأمية فى هذه الأمة ، وحتى نرفع من سوية سوادنا الثقافية إلى الحد الذى يمكنه من تذوق صحيح البيان ، والاعتزاز بلغة القرآن .

* * *

من أجل الفصحى :

وإذا كانت اللغة هى رباط الأمة ، وسبيل التفاهم العقلى والوجدانى بين أجزائها ، فجدير بالمفكرين أن يستنفدوا وسعهم فى التنقيب عن خير الوسائل لتأمين حق الأفراد والجماعات فى فهم الفصحى ، والتمرس بها إلى أبعد حدود الإمكان . .

ومن أجل ذلك سأتناول بطرف من القول هذه اللغة ، وما تواجهه من العثرات فى أوساطنا التعليمية بوجه خاص ، لأنتى أعتقد أن المدرسة هى المنطلق الذى فى جوه يجب أن تبدأ كل محاولة إصلاحية ، تستهدف فرض سلطان الفصحى على سائر الأوساط .

. . . سئل كونفوشيوس عن أفضل الوسائل إلى تصحيح الأفكار فأجاب : « تصحيح الألفاظ . » وفى اعتقادى أن فى هاتين الكلمتين جواب كل سؤال عن كل إصلاح ، فما لم يتمكن الإنسان من استعمال اللغة

في مدلولاتها الصحيحة لم يتمكن من تحديد أفكاره ، وبالتالي سلوكه ، ومن ثم تعذر عليه أن يفهم أو يفهم ، وكفى بذلك اضطراباً وبلبلة !

هذه كلمة عجلي أحيت أن أركز فيها الكثير مما في نفسي عن العربية ، ثم عن حاجتنا نحن العرب مدرسين وطلاباً ، وعلماء وأدباء ، إلى الاهتمام جدياً بهذه اللغة .

كل شيء من حولنا يتحرك بسرعة ذرية ، حتى عقولنا ومفاهيمنا تعيش في دوامة لا تعرف قراراً ، وطبيعي أن مثل هذا الوضع المتقلقل من شأنه أن يجمد إلى حد بعيد مقاييسنا الجمالية ، فلا نهب لها سوى الجزء اليسير جداً من عنايتنا . . . وهكذا وجدنا أنفسنا فجأة وبالنسبة إلى لغتنا أمام مأساة . . . ليست فقط في المدرسة بل في كل مكان ، وفي كل شيء ، على أن حظ المدرسة من هذه الأشياء كان أكبر من سواه .

أجل . . . إن في حياتنا المدرسية مشكلة ، لم نتفق بعد على طريقة حلها ، وهي ليست محلية تخص إقليماً دون آخر من ديار العرب ، بل إنك لتسمع المشتغلين بأمر هذه اللغة يجأرون بشكواهم في كل قطر عربي . . . وكثيراً ما تقرأ المقالات الطوال في بحث هذه المشكلة ، وكثيراً ما تعقد المؤتمرات لمعالجتها . . . ولكن شيئاً من هذا أو ذاك لم يدلنا على الحل الناجع في تدارك ما نشكوه ، ذلك لأن الموضوع لم ينل بعد دراسة جذرية كاملة ، لذلك كانت الحلول المعروضة بشأنه تشكو بدورها الارتجال !

أنا لا أقول أن لغتنا في تأخر ، ولا أزعم أن إقبالنا عليها فائر ، بل العكس هو الصحيح ، ذلك لأننا خرجنا بهذه اللغة من ظلمات عصور الانحطاط ، فرددنا إليها الكثير من بهائها المفقود ، وكشفنا الكثير من جمالها المطموس ، وقد أسعفتنا وسائل عديدة لتقريبها من أذهان الجماهير ، كالصحافة والإذاعة والمؤسسات الثقافية ، فلم تعد غريبة عن أسماعهم ، كما كانت إلى عهد غير بعيد ، ولكن لا يسعنا مع ذلك إلا أن نجهر بأن الوسط المدرسي بخاصة لا يبرح يستشعر جفاء غير يسير نحو هذه اللغة ، إذ نرى الطالب يهب من جهده لكل مادة أكثر مما يهب لهذه اللغة ، فلا

يتمالك مدرس العربية أن يغص بالألم حين يرى إلى جهوده تبخر بين الحين والحين ، حتى لا يبقى من أثرها في حياة طلابه سوى النزر القليل ! . .

ويتساءل المدرسون ، ويتساءل المفكرون : ما السبب في كل ذلك ! .

. هناك ظن كاذب يستحوذ على أوهام الطلاب ، فيوحي إليهم أن في هذه اللغة صعوبة لا تدلل ، وأن في الاهتمام بها جهدا مهدورا لا مردود له ! . . وأنا لا أعلم من أين دخل الشيطان على نفوس الطلاب بهذه الأكذوبة.. ولكنها عقدة واقعية رهيبة لا سبيل إلى تجاهلها ، وما لم نتغلب عليها فتمحها من صدور طلابنا فلن يكون لدينا أى أمل بالنجاح .

بقى أن نتساءل عن الوسيلة الفضلى لتحقيق هذه الغاية ، غاية تصحيح مفهوم الطالب عن هذه اللغة . . وعندى أن الوسيلة - على بعدها - غير مجهولة ، وغير متعددة . إنها في تكوين الجو الصالح ، الملائم لشيوع الفصحى في مجموع الوسط المدرسى .

ولإيضاح الفكرة أقول : إن علينا إذا شئنا حقاً توثيق الثقة بجمال هذه اللغة ويسرها في الوسط التعليمي ، أن نوثق صلة الطالب بهذا الوسط ، فنزيل من نفسه الاعتقاد المألوف ، الذى يريه صلته بالمدرسة شيئاً مؤقتاً ، لا يتجاوز حدود الدوام . . وهذا يعنى أن نجعل من المدرسة مجال نشاط عام ، يستهوى الطالب في معظم أوقاته ، إذ يجد من المدرسة جوا حيا ، فيه إلى جانب الدروس كل وسائل التثقيف النفسى والمتعة الملهية . .

هذا أولا . . أما بعد ذلك فعلى أن نكون تعاوناً تاماً في جهاز التدريس ، يستهدف اعتبار الفصحى هى القدر المشترك في مجموع مواد المنهاج دون تفريق . . فلا يسمح مدرس لنفسه أن يتكلم ، أو يقبل كلاماً بغيرها - ما دام ذلك ممكناً - ^(١) وفى هذه الحال نوفر للطالب الغذاء اليومى الذى

(١) يؤسفنا أن نشير ولو من بعيد إلى قصور الكثيرين من المدرسين في هذا الواجب ، ولا سيما في المراحل السابقة للجامعة ، حتى رأينا غير قليل منهم أصبحوا موضع التندر في أوساط طلابهم بسبب استعمالهم لهجاتهم المحلية ، أو بسبب كتابتهم على السبورة العبارات الملحونة . . . وإلى القارئ هذا النموذج العجيب بقلم زميل له يعتذر عن غياب ولده :

لابد منه لتكوين ملكة البيان الصحيح في نفسه ، وبهذا وذاك فقط نزيل
عن هذه اللغة وحشة الغربة ، التي تجعل الطالب يراها شيئا لا علاقة له
بنفسه إلا في درسها الخاص . .

ولا شك أن تحقيق مثل هذه المطالب أمر عسير ، ولكنه واجب لامندوحة
عنه ، إذا كنا حقاً راغبين في تصحيح أوضاعنا الثقافية ، وتكوين الجيل
المؤمن بجمال هذا التراث العظيم .

وهنا أذكر فقرات صغيرة كتبتها ذات يوم في إحدى نشراتنا المدرسية ،
أرى من الخير أن أنهى بها هذا البحث السريع :

« . . من الخطأ الشائع في أوساط الطلاب أنهم ينظرون إلى اللغة العربية
كمادة تقاس بالدرجات ، فهم لا يعطونها من عنايتهم إلا بمقدار ما يؤمن
لهم استكمال (المعدل) .! وهي نظرة خطيرة ، سببها اتجاه الطالب إلى اعتبار
دراسته جميعها معبرا إلى الشهادة ، دون التفات إلى صلة هذه الدراسة بوجوده
كإنسان وكواطن ! . ولذلك رأينا الكثيرين ممن نجحوا في امتحانات الشهادات
سرعان ما يسقطون في امتحان الحياة ! . .

ومن أجل تصحيح نظرنا إلى لغتنا يجب أن نؤمن بما يلي :

١ - أن هذه اللغة هي الصلة الوثقى التي تربطنا بماضي أمتنا وتراثنا
الإسلامي . .

المكرم الأستاذ فلان . . .

بعد صباح الخميس . . .

أخي الأستاذ الذي نعرفكم أن لابن ربيع لم حضر في يوم الخميس وكان معذور مريض ،
ولم استطاع المجيء إلى المدرسة فترجو السماح عنه وإنشاء الله ربنا يوفقكم لما فيه الخير .
أخيكم

الأستاذ

ولولا ضيق المقام ملأته عشرات النماذج الأخرى من هذا الطراز الخنكشي الذي يفصحك
ويبكي . . .

٢ - أتها الأداة الوحيدة للتعبير عن إحساسنا بالحياة ، وفهمنا لحقائقها ...

٣ - أن كل كلمة نتعلمها من هذه اللغة ، وكل تعبير سليم نقبسه من روائعها ، يضيف إلى شخصيتنا جزءا من الثروة العقلية التي تميز الإنسان .

وأخيرا علينا أن نتذكر دائماً أن في كل كلمة فكرة ، فبمقدار ما نملك من الكلمات نملك من الأفكار

هذا وبالله التوفيق

الفهرس

صفحة	صفحة
٦٤ نعم ولا !	٥ الاهداء
٦٩ غير وشر	٧ تقديم الطبعة الثانية...
٧٢ الخطبة الأولى	٩ مقدمة الطبعة الأولى
٧٤ الكسب والخلق	١٢ كفر وإيمان
٧٨ فتنة وبلاء	١٤ حايها حرامها
٧٩ الصبر والنصر	١٦ انطباعات
٨٠ الهداية	١٨ تعصب
٨٢ والضلالة	١٩ الكتب المقدسة
٨٦ حقيقة التوكل	٢٢ امتحان الرجولة
٨٨ حجاج آدم وموسى (ع)	٢٥ تحرير أم تقرير
٩٠ النور والظلمة	٢٥ يستمع إلى هذه المحاوراة المألوفة
٩١ الرؤيا الصادقة	٢٧ حق وباطل
٩٤ العدالة العليا	٢٩ ضجة في حصة البلاغة
٩٥ إشارات من السماء	٣٠ الإنسان والطبيعة
٩٩ المسرحية الكبيرة	٣٢ الواحد هو الأصل
١٠٥ المؤسسة الأولى	٣٣ العلم طريق الإيمان
١٠٨ جامعات شعبية	٣٤ روادنا الروحانيون
١١٠ نماذج وألوان	٣٧ معنى النبوة
١١٣ ليس هؤلاء جهلاء	٣٩ حريتان...
١١٦ قوة وأمانة	٤١ الوحي والعقل
١١٧ مسور وعبر	٤٢ وحدة الوحي
١١٩ أشياء لا تصدق	٤٥ هداية وقيادة...
١٢٤ سفينة وحائوت	٤٧ الشخصية الثابتة
١٢٥ هدم وبناء	٥٥ البدع والخرافات
١٢٨ حد وقد ونبوة	٥٧ سلطان العقيدة
١٣٠ سلطان الفوغاء	٥٨ نسم
١٣٢ لباب وقشور	٦٠ لا

صفحة	صفحة
١٢٦	بطالة ورقص
١٢٧	أمسجد أم متحف ؟
١٢٨	هجوم ريب
١٤٠	رجال ورجال
١٤٢	المسجد والمقهى
١٤٤	الأمل الوحيد
١٤٨	إلى المسجد
١٥٠	طرائف من الغرب
١٥٢	المفتريات والملحقون الثقافيون
١٥٩	لغة ودين
١٦١	المسيحية في الغرب
١٦٤	الإسلام والعلم
١٦٧	الدين والكنيسة
١٧١	معركة لا بد منها
١٧٢	بواعث العلمانية
١٧٥	عصمة الكنيسة
١٧٩	المسيح ومحمد (ص)
١٨٢	شاهد من إيطاليا
١٨٣	وشاهد من التاريخ
١٨٤	ظلمات وأشعة
١٨٦	الحسق محرركم
١٨٨	بين التقليد والتحقيق
١٩٢	تحقيق تاريخي
١٩٤	نبوة لا عبقرية
٢٠٠	شبهات
٢٠٣	عقلية خاصة
٢٠٥	بقايسا الفن
٢٠٦	بطولة العقيدة
٢٠٨	حديث جمجمة
٢١٢	إلى كلمة سواء
٢١٤	شياطين السياسة
٢١٨	قل انظروا ماذا في السموات والأرض
٢٢٤	كيف يشوهون الحقائق
٢٢٦	أشرف لا انغرب
٢٣٠	حقائق قرآنية
٢٣٣	أتدور أم لا تدور ؟
٢٣٧	لتأمل قليلا
٢٤٢	بين النقي والاثبات
٢٤٧	خطاب من باريس
٢٥٣	أمس واليوم
٢٥٥	هذه السموم
٢٥٦	بين كتابين
٢٥٩	أخلاقيهم الفلسفية
٢٦٢	كذب على التاريخ
٢٦٥	عقليتان - الحقائق والتطور
٢٦٨	هذه سبيلنا
٢٧٠	تكذيب التاريخ
٢٧٢	التعليم الديني
٢٧٦	تقدير وتذكير
٢٧٩	هذه الأزواجية
٢٨٢	بين عقليتين
٢٨٤	طلائع المعركة
٢٨٦	فرص لا تعوض
٢٨٧	الأدب الذي نريده
٢٨٩	استهتار !
٢٩٠	هواة الأضاليل
٢٩٢	تخطيط جديد
٢٩٤	الأنعام وسموم
٢٩٨	حقائق على الهامش
٢٩٩	أباطيل وحقائق
٣٠٢	اطرحوا هذا الفجور
٣٠٤	من هنا الطريق
٣٠٥	تطور ناقص
٣٠٧	دفاع عن شوقي
٣١١	أدبنا المعاصر
٣١٥	من أجل الفصحى

كتب للمؤلف

المطبوع

- ١ - فضائح المبشرين
- ٢ - البويل الذهبي
- ٣ - المرشد في الادب العربي
- ٤ - نار ونور
- ٥ - من تراث الآبوة
- ٦ - قصص من الصميم
- ٧ - صور من حياتنا
- ٨ - فارس غرناطة وقصص أخرى
- ٩ - (الادب العربي) للسنة الأولى
- ١٠ - الادب العربي للسنة الثانية
- ١١ - دروس من الوحي
- ١٢ - قصص وعبر
- ١٣ - مشكلات الجيل في ضوء الإسلام
- ١٤ - تأملات في المرأة والمجتمع
- ١٥ - مشاهد من حياة الصديق
- ١٦ - همسات قاب
- ١٧ - قصص من سورية
- ١٨ - مدينة التماثيل
- ١٩ - قاهر الصحراء
- ٢٠ - ثورة الحرية
- ٢١ - الكواكب الأحد عشر
- ٢٢ - قصتان من الماضي
- رد على شبهات
- دراسة عن المجتمع النصيري
- بالاشتراك مع بعض المدرسين
- مجموعة شعرية
- مسرحة تاريخية
- مجموعة قصصية
- مجموعة قصصية
- مجموعة قصصية
- بالاشتراك مع أحد الأساتذة
- (من مطبوعات الدار السعودية للنشر)
- (من مطبوعات الدار السعودية للنشر)
- مختارات من شعر المؤلف
- طبعة ثانية
- طبعة ثانية صدرت في مجلد واحد
- طبعة ثانية
- طبعة ثانية

- ٢٣ - من أجل الإسلام وحواريات أخرى
- ٢٤ - الآيات الثلاث
- ٢٥ - كلمات من القلب
- ٢٦ - بطل من الصعيد وقصص أخرى
- ٢٧ - دماء وأشلاء
- ٢٨ - قصص لا تنسى
- ٢٩ - أفكار إسلامية

يحيى نوري

- ١ - خواطر ومشاعر
- ٢ - كلمات مضيئة
- ٣ - أضواء على حقائق
- ٤ - علماء ومفكرون عرفتهم
- ٥ - قصص لا تنسى من مجتمعنا
- ٦ - الألغام المتفجرة وقصص أخرى
- ٧ - أحاديث في الأدب
- ٨ - صرخة الدم (رواية)
- ٩ - الحان وأشجان - الديوان الثالث

رقم الإيداع ٧٨/٣٣٨٥
الترقيم الدولي ٣ - ١٠ - ٧٣٠١

دار الاعتصام

القاهرة - ٨ شارع حسين حجازى تليفون ٣١٧٤٨

دار الاعتصام

3661

١٢٥٠ ق

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
0303089